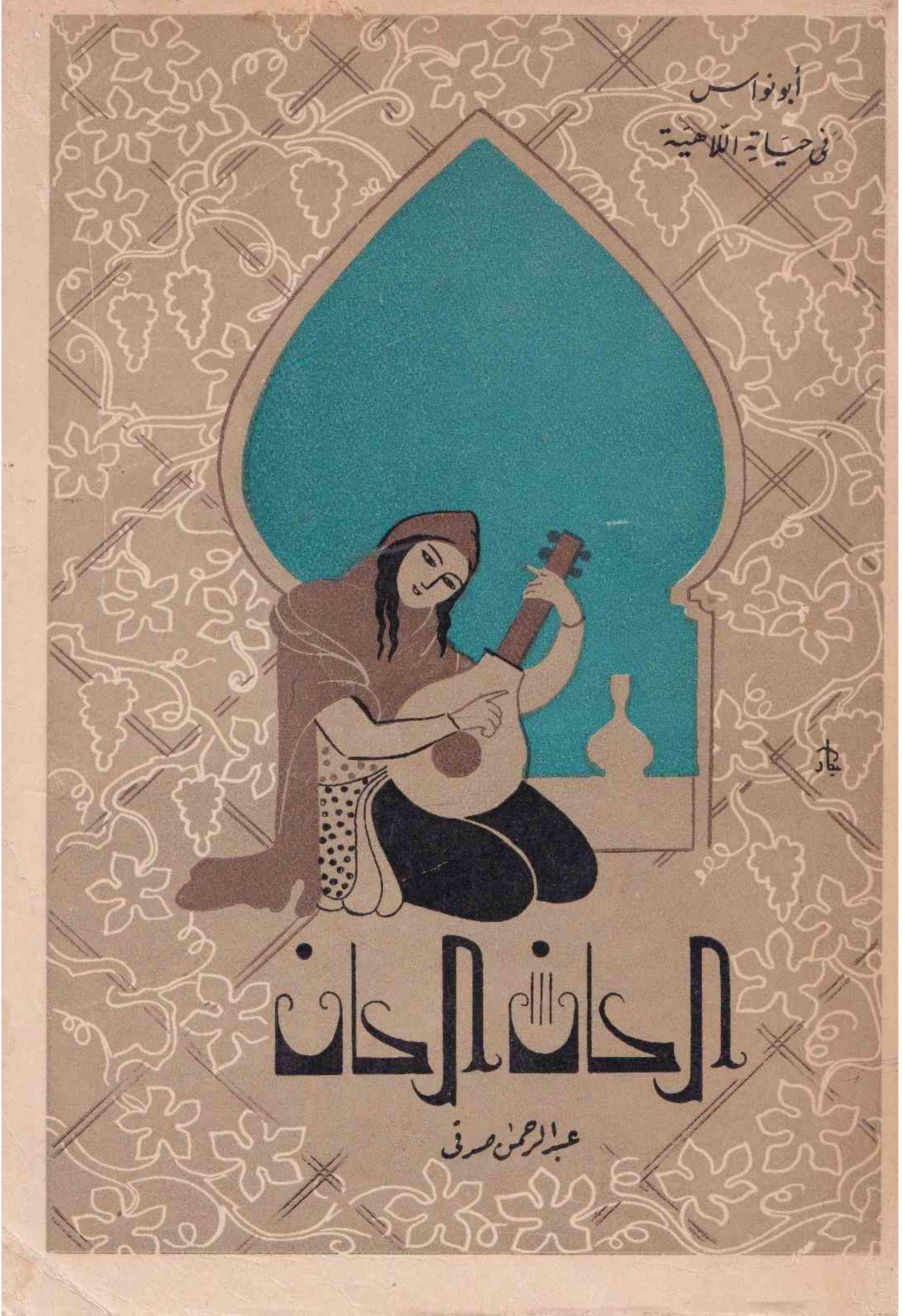

أبو نواس
فى حياته اللاهية
ألحان الحان
عبد الرحمن صدقي
بيكار

اشتريته من معرض بغداد الدولي للكتاب
مكتبة دار الكرم - مصر
يوم الأحد ١٢ / ربيع الأول / ١٤٤٦هـ
١٥ / ٩ / ٢٠٢٤ م

م. سرمد حاتم شكر

عبدالرحمن صدقي

ألحان الحان



هذه صورة شاعر من أكبر شعراء العربية فى ساعات لهوه ، وما كانت لتعنينا لولا ما أوحت إليه من روائع فنه . فإذا نحن قصرنا القول هنا على مجالس شرابه ، ومن حوله غلمانه وقيانه ، فذلك أن الخمر كانت عروس شعره ، بل هى شيطانه .

شخصية الشاعر

ولم يكن أبو نواس بدعاً فى شربه للخمر ، ولا فى تغنّيه بها فقد شربها قبله و بعده الناس فى كل أمة ، وتغنى بها قبله و بعده الناس فى كل لغة . ولكنه مع عدم استئثاره بشربها ، وعدم اختصاصه بالتغنى بها ، ينزل فى الأوهام عامة منزلةَ مَن ليس مثله شارب بين أصحاب الشراب المدمنين ، ومنزلة من لا يتقدم عليه شاعر ممن نعتوا الخمر فى الأولين والآخرين .

فما عسى أن يكون السر ؟

أما نحن فلا نرى السر كله فى إجادته لصناعة الشعر ؛ فما نرى له فى ذلك الفضل الذى لا يطاول ولا يانى نظيره ، على سائر من عداه من المجيدين الأقدمين والمحدثين . والذى نراه أن هـذا السر فى شخصية أبى نواس نفسه . فالرجل لطيف الروح ، خفيف الظل ، ثم هو مشبوب الحيوية ، متيقظ الشعور بما يَرِد على حسه ، شديد الأنس بمن حوله ، فى نفسه سخاء ، وفى طبعه مجاوبة ، مع التفات إلى مواضع الفكاهة وقصد إلى الدعابة . وهـذا المزاج فى الشاعر يطالعنا فى شعره الغنائى الذى يجرى فيه مع طبعه و يصدقنا فيه الخبرَ عن نفسه .

وليس شيء عند صاحبنا أجرى مع طبعه وأصدق خبراً عن نفسه من حديث الخمر وما يتصل ببابها وينتظم فى سلكها. وهذه الخمريات « ألحان الحان » دون سائر أبواب الديوان، هى التى أحبها الناس من خلفاء وأمراء، وسادة وصعاليك، وفقهاء وخلعاء. وقد كان الناس وما زالوا لا يروى أحدهم شيئاً من أشعاره، إلا روى معها طرفاً من نوادره وأخباره. فالناس أجمعون يحبون فى شعر أبى نواس — من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون — صورة أبى نواس نفسه. وهى صورة حية ما فى ذلك ريب، وإنها عندهم لموضع موافقة وعطف من طلاب اللذة المسامحين. كما أنها مُستراد ترويح من وطأة الكَبْت عند المتزمتين والمتحرّجين.

وهذه هى صورة الشاعر فى غدوات لهوه وروحاته، كما تتمثل لنا من مطالعة خمرياته

عصبة المجان

كان أبو نواس يجتمع بمن لفّ لفه من إخوانه الذين يسميهم مباهياً « عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم » مدفوعين بعضهم إلى بعض بتوافق أمزجتهم، ومشاكلة طبائعهم، واتحاد وجهة تفكيرهم، ومطابقة نظرتهم جميعاً للحياة.

وإنه ليحسن بالقارئ فى هذا المقام أن يذكر ما أستتبعه انفساح رقعة البلاد الإسلامية من أختلاط الأجناس، وامتزاج الحضارات، ومداخلة الثقافات من فارسية وهندية، ويونانية رومانية، تحت رواق الإسلام وفى ظله الممدود، وما استبحر فيه المتكلمون المسلمون من البحث فى العقائد الإيمانية بالأدلة المنطقية والبراهين العقلية، واقتباسهم فى المنطق والإلهيات من الفلسفة اليونانية فى مقالاتهم ومناظراتهم الدينية. ثم ما أدى إليه هذا جميعه بين الباحثين المحققين من أرباب الاجتهاد وأصحاب المذاهب من أختلاف مطارح النظر، وتشعب وجوه

الرأى ، حتى إذا كان العصر الذى عاش فيه شاعرنا لم يبق ثمة شىء من أمور الدنيا والدين لم يكن القوم فيه على آراء متضاربة وأهواء متعارضة

ولقد كان لهذا الشقاق المستحكم واللجاج المستمر فى الفرق الإسلامية والأحزاب السياسية ، وذهاب الخُلْف بينها كل مذهب ، وتفرق الطرق بها فى كل مفرق ، ما لا بدَّ أن يكون من الأثر فى توليد نزعة الشك فى عقول الكثيرين من أهل ذلك الزمان . فما كان يصح عندهم نقل ، بغير سند من العقل . فإذا طلبوا السند للمنقول ، حيرهم تكافؤ الأدلة المتعارضة فى المعقول . فتراهم يقفون من كل قضية موقف من لا ينفون ولا يثبتون . ونجد منهم من لا يقطعون فى شىء بيقين إلّا ما وقعت به التجربة المادية ، وشهدت له المشاهدة الحسية . ومن هؤلاء وهؤلاء من كان يدركهم اليأس أو الملال فينتهون إلى حال من خلو البال وقلة الاحتفال بالشواغل العامة كونية كانت أو محلية ، وشدة الإقبال وصدق الاشتغال بطلب اللذة الشخصية ، على حد قول بعضهم [1] :

قليلُ هُمومِ القلب إلّا لِلذّةٍ ... يُنعِّمُ نفساً آذَنَتْ بالتنقلِ
فإن تَطَّلِبْهُ تَقْتَنِصْهُ بحانةٍ ... وإلاَّ ببستانٍ وَكَرْمٍ مُظلل
ولستَ تراه سائلاً عن خليفةٍ ... ولا قائلاً مَن يَعزلون ومَنْ يلى
ولا صائحاً كالعَيْر فى يومِ لذةٍ ... يُناظر فى تفضيلِ عثمانَ أو علِى
ولكنه فيما عناه وسرّه ، ... وعن غير ما يَعنيه فهو بمعزِل

ومن هذا الفريق كان رفاق شاعرنا أبى نواس ، من كل ماجن ظريف ، وفاتك خليع ، مجاهر بالخلاعة والمجون ، سيىء المذهب متهم بالزندقة . وحسبنا فى نعتهم أن نقول إنهم كانوا وشاعرنا على غرار أستاذه وصاحب الفضل فى إفساده والبة بن الحباب الأسدى ، وجماعته حماد عجرد ومطيع بن إياس وعبادة

(١) ابن المعتز .

وقاسم بن زنقطة . ويلاحظ أن أبا نواس كان لا يذكر أساتذته هؤلاء إلّا تمثلهم مترفعين عن الأشباه والأشكال ، كأنهم صور الكمال فى عالم المثال . فلا يناظرهم مناظر ولا يتسوّى بهم أحد إلّا أنكر ذلك عليه:

يريدُ أن يَتَسوّى بالعُصبة المُجّانِ
بعَجْرَدٍ وَعُبادٍ والوالبيِّ الهجانِ
وقاسمٍ ومطيعٍ رَيْحانة النَّدْمانِ

والثابت من أخبار هؤلاء المجّان أنهم كانوا أشد ما يكون الناس تعلقاً بعضهم ببعض ، يجتمعون على الشراب يتنادمون ، ولا يكادون يفترقون . ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بما احتوت يداه من مال أو غيره ، وإنما كان كل ما عندهم شركة بينهم ، حتى الجوارى والغلمان ، فى بعض الأحيان .

وكان عيشهم فوضى لا ضابط له من فرط الإباحة والاستهتار ، لا يهتمون لشىء ، ولا يبالون ما يقولون وما يصنعون ، هازئين بأوضاع الجماعة لا يرقبون الناس فى أمر من الأمور ، همهم طلب اللذة ، لا يعرفون شأناً فى الحياة لغيرها ، ويرون الحكمة فى انتهاب الفرصة بمبادرتها.

ولقد التقى هوى أبى نواس وهوى إخوانه فى طلبهم اللذة فى الخمر . والخمر عنده اللذة العظمى التى ليس كمثلها لذة ؛ فهى فى ذاتها أمتع الشهوات ، وبها تستفتح سائر اللذات :

إشربْ نديمى على العينين والراسِ كذاك ، واستفتح اللذاتِ بالكاسِ

بل إنه — فى حبه لها — ليستغنى بها عن سائر اللذات التى يرغب فيها الناس وتشره إليها نفوسهم :

إعزمْ على سلوةٍ إلاّ عن الكاسِ وَدَعْ سواها من اللذات للناس
فالعيش فى مجلس حُفّت جوانبه بالنّرجسِ الغضِّ والنسْرين والآس
لا سيما إن أدارَتْها مُقرْطَقة أو مُرْهفٌ كقضيب البان ميّاس

طروق الحانات

والقارئ لديوان الشاعر يراه وإخوانه — وهم «فتية كنجوم الليل أوجُههم» — وقد خرجوا جميعهم عصبة يطلبون بيوت الخمر ، فيؤثرون منها تلك الدساكر العامرة بالقصف واللهو والريبة ، وهى المبثوثة فى سواد بغداد وأرباضها بعيداً عن رقابة الشرطة . وإنهم ليرتادونها فى صدر النهار ، ويرتادونها فى غبش المساء ، ولكنهم فى الغالب الأعم يطرقونها وقد مضى من الليل أكثره ، حتى لينزعج صاحب الحانوت وتضطرب حواسه وينخلع قلبه من قرع الباب عليه فى مثل هذه الساعة التى لا يركب الليل فيها إلا الأشقياء من القتلة واللصوص ومخيفى السبل . فإذا عرّفوه من يكونون ، وأنهم يطلبون فى هذه الساعة خمراً ولا يجدون عنها صبراً ، سُرِّىَ عنه وارفضّت مخاوفه وزايله رعبه ، ولم يملك أن يستضحك من نفسه ومنهم ، حتى لتبدو نواجذه وتعلو قهقهته ، ثم يسرع إلى خدمتهم يستخفه الفرح وفى يده مسرجته :

وفتيةٍ كنجوم الليل أوجهُهمْ ... من كلِّ أغيدَ ، للغمَّاء فرَّاجِ
أنضاء كأسٍ ، إذا ما الليلُ جَنَّهُمُ ... ساقتهُمُ نحوها سَوْقاً بإزعاجِ (١)
طرَقتُ صاحِبَ حانوتٍ بهم سَحَراً ... والليلُ مُنْسَدِلُ الظَّلْماء كالسَّاجِ (٢)
لمّا قرعتُ عليــه الباب أوجَلَهُ ... وقال بين مُسِرٍّ الخوف والراجى : (٣)
« مَنْ ذا ؟ » فقلتُ « فتًى نادتهُ لذتهُ ... فليس عنهـا إلى شىء بمُنْعَاجِ (٤)
افتحْ ! » فقهقَهَ من قولى ، وقال « لقدْ ... هيَّجْتَ خوْفى لأمرٍ فيــه إبهاجى »
ومرَّ ذا فرَحٍ ، يســعى بمِسْرَجةٍ ... فاستلَّ عذراء لم تَبرُزْ لأزواجِ (٥)

---

(١) النضو : المهزول ، وأنضاء كأس أى مدمنون للخمر قد فعل فيهم كثرة شربهم لها . جنهم الليل : سترهم . (٢) الساج : جمع ساجة الطيلسان الواسع المدور .
(٣) أوجله : أخافه . مسر : مضمر . (٤) منعاج : منعطف .
(٥) عذراء : كناية عن الخمر المحجوبة فى الدنان .

مَصُونةً حَجَّبوها فى مُخَــدَّرِها ... عن العيون لِـكِسْرَى صاحبِ التاج
يُدِيرها خَنِث فى لَهوهِ ، دَمِثٌ ... مِنْ نَسْلِ آذِينَ ،ذو قُرْطٍ ودُوّاجِ [١]
يُزْهَى علينا بأن الليلَ طُرّتُهُ ... والشَــمسَ غُرّتُه ، واللون للعاج
والدهرُ ليس بلاقٍ شَعْبَ مُنتظِمٍ ... إلاَّ رَماهُ بتفريق وإزعاج

ولقد تكون الليلة من ليالى الدُّجْن ، حالـكة لم يطلع لها نجم ، قارسة شديدة البرد ، ترتعد لها الفرائص ويقشعر منها الجلد ، يلتحف فيها النائم بالصوف ويلزم جوف الفراش ، ولـكن عصابة أبى نواس لا تفتر مع ذلك كله عن الإدلاج بالليل ، يجوسون الدساكر يمتحنونها ، ويتحســون موضع الحانة فلا يتحققونها فى هذه الظلمة المدلهمة ، وأخيراً بعد لأيٍ وطول التباس يقعون عليها . فإذا تطرّقوا إلى حماها ، لم تهرّ عليهم كلاب الحان المرصدة ولم تنكرهم ، بل إنهـا لتتنحى عن سنن الطريق لهم ، بعد أن تشممت ريحهم وعرفت ثيابهم . فإذا طرقوا على الخمار بابه فهبّ من فراشه متزملاً يفتح لهم ، تعرّفوا الشيخ فى سواد الليل الحالك ببياض صلعته وشيب لمته :

يا رُبَّ صاحبِ حانةٍ قد رُعتُهُ ... فبعثتُه من نومه المتَزَمِّلِ [٢]
عَرَفَتْ ثيابَ الطارقينَ كلابُه ... فلبِثْنَ عن سَنَن الطريق بمَعْزِلِ
ما زلتُ أمتحنُ الدساكرَ دونَه ... حتى نزلتُ على خفيٍّ المنزِلِ
فعرفتُهُ والليل مُلتبِسٌ بنـا ... برفيفِ صَلعتِهِ وشيبِ المِسحَلِ [٣]

وهذه صورة أخرى لطروقهم الحانات ، فى أمثال هذه الليالى المدلهمات . والخمار فيها — مثله فى سابقتها — متوجس فزع قد أفزعه أن يُقرع عليه الباب بعد هجمة من الليل وفى الهزيع الأخير منه ، فأوجس فى نفسه خيفة أن يكون قد سُعى

---

(١) ابن آذين : خمار حانة قطربل . الدواج : ضرب من الثياب .
(٢) المتزمل : المتلفف بثوبه . وصف النوم بالمتزمل يريد به صفة النائم .
(٣) الرفيف : اللمعان . المسحل : جانب اللحية أو أسفل العذارين إلى مقدم اللحية .

به ورفع خبره إلى صاحب الشرطة . وإنه لأعرف بنفسه وبما يجرى فى حانوته من أن يطمئن باله ويهدأ ضميره من هذه الناحية . فهو — على تكرار القرع وشدته — متلبد تحت ملحفه ، متناوم فى فرشه لا يبدى حراكاً ، يكاد يجمد دمه وتزهق روحه من الفزع ، وقلبه ينزو فى صدره ولا يزال يقوم ويقعد حتى ليكاد ينخلع من نياطه وتنشقُّ عنه أضالعه . ويظل صاحب الحانوت على هذه الحال من الفزع ، يسمع الدقات على بابه ، فتجاوبها الدقات الواجفة من فؤاده ، وتكاد تغلبها على سمعه ، ولقد يغلو به وهمه فيحسبها تجاوز الباب إلى أسماع الطارقين . . فإذا الطارقون دعوه باسمه دعوتهم المألوفة ، طار عنه ذعره وسكن روعه وهدأت ضلوعه، وعرفهم حُرَفاء من معامليه. فانقلبت مخاوفه أمناً، واستبدل بها التهلل والابتهاج بالأجواد الزائرين ، والطرب والاستبشار بما تدرّه مثل هذه الزورات من الكسب العظيم .

وليلةِ دَجْنٍ قد سَرَيتُ بفتيةٍ ... تُنازِعُها نَحْوَ المُدامِ قلوبُ [1]
إلى بيت خَمَّارٍ ، ودونَ محلِّه ... قصورٌ مُنيفاتُ الذُّرى ودروب
فَفَزَّعَ من إدلاجِنا بعد هَجْعةٍ ... وليس سوى ذى الكبرياء رقيب [2]
تناوَم خوفاً أن تكون سعايةٌ ... وعاوده بعد الرُّقاد وَجيب [3]
فلما دعونا باسمه طار ذعرُهُ ... وأيقن أنَّ الرَّحل منه خصيب [4]
وبادر نحو الباب سعياً ، مُلبّياً ... له طَرَبٌ بالزائرين عَجيب
فأطلقَ عن نابيه،وانكبَّ ساجداً ... لنا ، وَهْو فيما قد يظن مصيب [5]
وقال : «ادخلوا حُيِّيتمُ من عصابةٍ ... فمنزلكم سهلٌ لدىَّ رحيب »

---

(١) الدجن : الغيم المطبق المظلم .
(٢) الإدلاج : السير فى الليل . ذو الكبرياء : الله عز وجل . (٣) الوجيب : الخفقان .
(٤) طار ذعره : ذهب خوفه . أيقن أن الرحل منه خصيب ، أى أيقن بالكسب .
(٥) أطلق عن نابيه : ابتسم مكشراً عن أنيابه .

وجاء بمصـــــباح له فأنارهُ   وكلُّ الذى يبغى لديه قريب
فقلنا: «أرِحنا، هات إن كنت بائعاً   فإنّ الدجى عن مُلـكه سيغيب»
فأبدى لنـا صهباء تمّ شـبابها   لهـا مرحٌ فى كاسها ووثوب

ولقد كانت تغلب شهوة الشرب على صاحبنا فى بعض الأحيان، فيعتسف الليل وحده ليملأ الزق من الحان. وقد ترك لنا فيما ترك صورته، يمتار من الخمر ميرته. ولم يبرأ أبو نواس فى هذه الخمرية من إظهار نزعة العصبية والمفاخرة بالقبيلة، وهى النزعة التى ما برحت الغالبة على القوم المستولية على أذهانهم المتمكنة من نفوسهم، لا فى زمان ومكان، بل فى كل زمان ومكان، حتى فى أوان طلب اللذات فى الحانات. وهذه العصبية القَبَلية التى كان للشعراء اليد الطولى فى تأريث نارها وتهييجها بما يعرضون له فى المديح والهجاء والفخر، بل فى شعر الخمر كذلك، هى التى قضت على الإمبراطورية العربية فى المشرق والمغرب:

وخمّـارٍ طرقْتُ بلا دليـلٍ   سوى ريح العتيق الخُسْرَوانى (١)
فقـام إلىّ مذعوراً يلبّى   وجونُ الليلِ مثلُ الطَّيلَسَان (٢)
فلما أنْ رأى زِقّى أمامى   تكلّمَ غيرَ مذعور الجَنان (٣)
وقال: «أمِنْ تميم؟» قلتُ: «كلاّ   ولـكنى من الحىِّ اليمـانى» (٤)
فقـام بمِـبْزَلٍ فأجافَ دنّاً   كمثلِ سماوَةِ الجمـل الهِجان (٥)
فسـيَّلَ بالبِزَال لهـا شهاباً   أضاء له الفُراتُ إلى عُمَان

(١) العتيق الخسروانى: الخمر المنسوبة إلى أكاسرة الفرس.   (٢) الجون: الشديد السواد. الطيلسان من لباس العجم يلبس على الكتف ويحيط بالبدن خال عن التفصيل والخياطة.
(٣) الزق: القربة من جلد يجز ولا ينتف ويستعمل لحمل الشراب وغيره.
(٤) تميم، من القبائل النزارية، وأبو نواس من موالى الحكميين وهم من اليمنية: وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بينهما. ولأبى نواس هجاء للنزارية حبسه الرشيد من أجله حيناً فى المطبق.
(٥) بزل: ثقب. والمبزل كالمثقب آلة يثقب بها، ومثله البزال. أجافه: طعنه طعنة بلغ بها جوفه. سماوة الجمل: ظهره وسنامه. الهجان: الكريم من الإبل.

وإذا كان صاحبنا هنا يستدلّ فى جوف الليل البهيم على حانوت الخمار بما يتضوع حولها من « ريح العتيق الخسرواني » ، فإنه ليهتدى عليها كذلك من « ضوء العقار » يشعّ من خلل تلك الدار :

وخَمَّارٍ حَطَطْتُ إليه لَيلاً قلائِصَ قد وَنينَ من السِّفارِ (١)
فجمجَمَ والكَرَى فى مُقلتَيْهِ كمخمُورٍ شكا ألمَ الخُمار : (٢)
« أبِنْ لى، كيفَ صِرْتَ إلى حَريمى ونجْمُ الليل مكتحِلٌ بقار ؟ » (٣)
فقلتُ له : « ترَفَّقْ بى ، فإنى رأيتُ الصُّبحَ من خَلل الديار »
فكان جوابُهُ أن قال : « صبحٌ ! ولا صبحٌ سوى ضوء العُقار »
وقام إلى العُقار فسَدَّ فاها فعاد اللّيــلُ مُسْوَدَّ الإزار

وهذا المعنى والذى قبله مجموعان فى قوله :

نمَّتْ على نَدْمانها بنَسيمِها وضيائِها فى اللَّيلةِ الظلْماء

وظاهر من شعر النواسى أنه كان لا يحصل فى يده قدر جليل من المال مما يصله به الممدحون ، إلا بادر إلى الخمار من ساعته ، ودفعه إليه بجملته ، ثمناً مقدماً للمقام والسكر شهراً بأكمله . وكأنما يخشى لو بقى المال فى حوزته ، أن يتسرّب منه درهم على غير سكره ولذته . وظاهر أن سخاء شاعرنا ، وقلة حرصه على المال وهوانه عليه فى جانب المتعة ، وتخرّقه فى النفقة ، وخطل يديه بالنوال ، وسعة عطائه للخمارين ، كانت تشفع له فى ترويعهم فى جوف الليل وإزعاجهم من مضاجعهم بعد طول السهر . ففى كل مرة نرى الخمار المروع لا يكاد يشمل المسرجة ويتبين على ضوء النار صاحبنا حتى يستبدل بالروع ارتياحاً ، ويبدى نواجذه بشراً ومراحاً ،

(١) القلائص : جمع قلوص وهى الشابة من الإبل والباقية على السير ، ونين : تعبن . السفار : السفر . (٢) جمجم الكلام : لم يبينه . الخمار : صداع الخمر . (٣) القار : الزفت .

وينكبّ له ساجداً ، يحيّي مقدمه على السهل والرحب ، ويقوم بين يديه بالخدمة قيام الوامق المحب :

وأشمطَ رَبِّ حانوتٍ تَراهُ　　لنفخِ الزِّقّ مسْوَدَّ السِّبالِ (١)
دَعَوْتُ وقد تخوّنَهُ نُعــاسٌ　　فوسَّدَهُ براحتِــــه الشمال
فقـام لدعوتى فَزِعاً مَرُوعاً　　وأسرَعَ نحو إشعالِ الذُّبالِ (٢)
فلمَّا بَيَّنتنى النـــارُ حَيَّى　　تحيةَ وامقٍ لَطِفِ السؤالِ (٣)
وأفرخَ رَوعُه ، وأفادَ بِشراً　　وهَرْهرَ ضاحكاً ، جَذلانَ بالِ (٤)
عددْتُ بكفِّه أَلفاً لشهرٍ　　بلا شرطِ المُقيلِ ولا المُقَالِ (٥)
فظَلْتُ لدَى دساكرِهِ عرُوساً　　لِعَذراوَيْنِ من خَمْرٍ وآلِ (٦)
كذلكَ لا أزالُ ولم أزَلْهُ　　ذَريعَ الفِعلِ فى دِينى ومالى (٧)

ويستوقفنا بعد ما طالعناه من قصائده فى طروق الحانات ما يتكرر فى كل قصيدة من وصف فزع الخمار واضطراب حواسه فى كل مرة ، وكيف كان يدق قلبه وترتعد فرائصه لكل طرقة . ولا شك فى أن بعض الخمارين كان خوفه من الشرطة ، ولكن الذى نرجحه مع ذلك أن معظم الخوف كان من قاطعى الطرق وأهل البطالة ممن يرتزقون بالتحرش بأصحاب الأموال والتعرض لهم بالأذى والنهب ، ويعرفون بالصعاليك والعيّارين . وكانوا كثيرين قد تألفت منهم فى المدن ، ولا سيما بغداد ، عصابات . وكانوا لا يستخزون مما يأتون ، بل يجاهرون بحق الفقراء فى الأخذ من الأغنياء عنوة وغصباً . وقد بلغ من اشتهار

---

(١) السبال : مفرده السبلة ، ما على الشارب من الشعر ومقدم اللحية . (٢) الذبال : مفرده ذبالة ، وهى فتيلة المسرجة . (٣) الوامق : المحب . (٤) أفرخ روعه : ذهب خوفه . هرهر ضحك فى الباطل . (٥) المقيل والمقال : من أقال البيع فسخه .

(٦) الدساكر : بيوت يكون فيها الشراب والملاهى . عروس يقال للرجل وللمرأة ، وهنا للرجل كالعريس عند المولدين . عذراوين مثنى عذراء ، والمراد أنه بين خمر طال حجابها فى الدن وفتاة فى مقتبل العمر . (٧) ذريع الفعل : فظيعه وسريعه .

أمرهم ووفرة رزقهم وصلاح حالهم حين قدم أبو نواس بغداد أن كان أمله المنشود واحدة من اثنتين : إما نديم خليفة أو مخيف سبيل ، كأنما كانا وقتئذ أحظى وأثرى رجلين :

سأبغي الغنى إمّا نديمَ خليفةٍ يقوم سواء ، أو مخيفَ سبيل (١)
بكل فتًى لا يُستطارُ جَنانُه إذا نَوّه الزّحفانِ باسم قتيل (٢)
لنخمِس مالَ الله من كلّ فاجرٍ أخي بطنةٍ للطيبات أكول (٣)
ألم ترَ أنّ المالَ عونٌ على التُّقى وليس جَوادٌ مُعدِمٌ كبخيل

ولم يكن الخارون سواء فى الفزع من الطُّرّاق يطرقونهم مَوْهِناً فى الساعات الأخيرة من الليل . فقد كان من الخارين المستضعفون الشيوخ ، كذلك الشيخ الأشيب اللحية الأصلع الرأس وزميله الأشمط المسودّ الشارب من نفخ زقاق الخمر المقيَّرة فى القصيدتين اللاميتين الآنف ذكرهما . كما كان منهم الشبان ، كذلك الفتى الغزير الجمة المسترسل الشعر فى الهمزية الآتى ذكرها . فلا جرم يكون الشيوخ وقد أسنّوا وعَلتهم كَبْرةٌ أسرع إلى التوجس والانزعاج بحكم ضعفهم ووهن عظمهم وظهور عجزهم ، فضلاً عن المخاوف التى تورثها تجارب الحياة القاسية التى قد مرّت لا محالة بهم ، ويكون الشبان أكثر جرأة وأربط جأشاً وأقوى على امتلاك إحساسهم وأقدر على ضبط حركات نفوسهم ، لما هم عليه من قوة البنية وصلابة العود وسلامة العصب ، فضلاً عما تقترن به قلة التجربة من عدم المبالاة بالعاقبة .

بيد أنه أيًّا كان ما بين الخارين الشيوخ والخارين الشباب من اختلاف فى السمات والصفات ، فإنهم جميعاً سواء فى شدة الحرص على تعجيل الكسب من

---

(١) مخيف سبيل : قاطع طريق . (٢) الزحفان : الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر .
(٣) لنخمس : نأخذ خمس المال .

أى الوجوه ، والشره إلى الدراهم مهما يكلِّف جمعها من ابتذال الكرامة وسقوط المروءة وركوب الشين :

يا رُبَّ منزل خمَّارٍ أطَفتُ به ... والليلُ حُلَّته كالقار سوداء

فقامَ ذو وَفرَةٍ من بَطْنِ مَضجعه ... يميلُ من سُكره والعينُ وَسْناء[(١)]

فقال: «مَنْ أنت» فى رفق. فقلت له: ... «بعض الكرام ولى فى النعت أسماء»

وقلت: «إنى نحوْت الخمر أخطبها» ... قال: «الدراهم! هل للمهر إبطاء!»[(٢)]

لمّا تبيّنَ أنى غيرُ ذى بَخَلٍ ... وليس لى شغَلٌ عنها و إغضاء

أتى بها قهوَةً كالمسك صافيةً ... كدمعة مَنَحَتها الخدَّ مَرْهاء[(٣)]

ما زال تاجِرُها يَسْقِى وأشربُها ... وعندنا كاعبٌ بيضاء حسناء

كم قد تغنّت — ولا لومٌ يلم بنا — ... «دع عنك لومى فإن اللّوم إغراء»

الخمّارون والخمّارات

وكان أصحاب الحانات إمّا من الفرس المجوس، أو النصارى، أو اليهود . والشاعر فى وصفه لهم يكشف — إلى جانب دقة التصوير وصدق الملاحظة — عن وجوه عطفه ومواطن ميله ومواقع هواه ناحية الفرس . فيقول فى الدهقان الفارسى :

أُتيح لها مجوسىٌّ رقيقٌ ... نقىُّ الجيبِ من غشٍّ وذَامِ[(٤)]

فأبرزَها وقد بَطِرتْ وصارَت ... شمولاً ، من مُماطلة الجام[(٥)]

ثم الخمار النصرانى :

طربتُ إلى خمرٍ وقصف الدّساكرِ ... ومنزلِ دهقانٍ بها غيرِ داثرِ[(٦)]

---

(١) الوفرة : ما سال من الشعر على الأذنين . وسناء ، مؤنث وسنان : هو النعسان .
(٢) نحوت : قصدت . (٣) القهوة : من أسماء الخمر . مرهاء ، يقال للمرأة غير المكحولة العين وهذه تكون دمعتها صافية . (٤) الجيب : القلب والصدر . الذام : العيب .
(٥) بطرت : طغت وصارت . الشمول : الخمر لها عصفة كريح الشمال . مماطلة الجام : طول الترك . (٦) الدهقان : التاجر . غير داثر : أى ظاهر المعالم .

فلمّا حللناها نزَلْنا بأشمطٍ كريم المحيّا، ظاهر الشِّرْك، كافر[١]
لهُ دينُ قِسِّيسٍ ، وتدبيرُ كاتبٍ وإطراق جبّارٍ ، وألفاظ شاعر
تحيّا وبيّا ، ثم قال لنا « اربَعُوا تَزلتم بنا رحباً بأيمن طائر »[٢]

وإذا كان هذا الخمار شيخاً أشمط طوى مراحل الشبيبة ، فسواه من الخمارين النصارى فى ريعان العمر ورونق الحسن من كل ريّان الشباب غض الإهاب وضىء الطلعة :

وَرُبَّ مُخَضَّبِ الأطرافِ رَخْصٍ مليح الدَّلِّ ذى وجهٍ صبيحٍ[٤]
ظفِرتُ به ونجمُ الصُّبح بادٍ عِبَادىٌّ على دين المسيح
فسُرَّ بطلعتى لمّا رآنى وأيقنَ أنَّنى غيرُ الشَّحيح
وقامَ بمبزلٍ فافتضَّ بكراً عجوزاً قد تجلَّ عن المديح[١]

ومثله هذا الذمى ، حدث السن ، بديع الأوصاف ، بارع الحسن ، مقدود الأعطاف ، الأحور الحلو اللحظ ، الأغنّ الجميل الصوت :

وأحورَ ذمىٍّ طرقتُ فِناءهُ بفتيان صدقٍ ماترى منهُم نكرا[٥]
فلمّا قَرعنا بابَهُ هَبَّ خائفاً وبادَرَ نحو الباب مُمتلئاً ذُعْرا
وقال: « مَن الطُّراق ليلاً فِناءنا؟» فقلت له: «افتح ، فِتْيةٌ طلبوا خَمْرا»
فأطلق عن أبوابه غير هائبٍ وأطلع من أزْرَارِه قمراً بَدْرا
ومرَّ أمامَ القوم يَسْحَبُ ذيلَهُ يُجاذِبُ منه الرِّدْفُ فى مشيه الخصْرا
فقلت له «ما الإسْم حُيِّيتَ» قال لى « دعانى أبى سابا ولقّبنى شمْرا »
فكِدْنا جميعاً من حلاوةِ لَفْظِه نُجَنُّ ولم نَسْطِعْ لمنطقِه صبرا
فقلتُ له « جِئْناك نَبْتاع قهوةً مُمَتَّقَةً قد أنفدتْ قِدَماً دهْرا »

---

(١) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . (٢) ربع : بالمكان أقام .
(٣) رخص : لين ناعم . (٤) افتض بكراً كناية عن بزل الدن . (٥) الذمى : الذى أعطى الذمة ، أى الأمان ، يعنى الذى أعطى الجزية فأمن بذلك على ماله وعرضه ودمه .

فقال « ارْبَعُوا ، عِندِى التى تطلبُونها ... قد احتجَبَتْ فى خِدْرها حِقَباً عَشْرا »
فقلت « فماذا مَهْرُها ؟ » قال « مَهْرُها ... إليكَ » فسُقْنا نحوهُ خمسةً صُفرا
فقلت له : « خذها وهاتِ نُعاطِها » ... فقام إليها قد تملَّى بنا بِشرا
فشكَّ بإشفاه له بَطْنَ مُسنَدٍ ... فسالَتْ تُحاكِى فى تَلَألُؤها البدرا[1]
وجاء بها والليلُ مُلقٍ سُدولَه ... مُدِلا بأنْ وافى مُحيطاً بها خُبْرا
ربيبَةَ خِدْرٍ راضَهَا الخدرُ أعصُراً ... فكانت له قلباً وكان لها صَدْرا
إذا أخذَتها الـكأسُ كادت بريحها ... تخالُ بها عِطْراً وما إن بها عِطرا
وما زال يَسْقِينا ويشرَبُ دائباً ... إلى أن تغنَّى حينَ مَالت به سُكرا
« فما ظبيةٌ تَرْعَى مساقِطَ رَوْضَةٍ ... كسا الواكفُ الغادى لها ورقاً خُضرا[2]
بِأحسنَ منهُ مَنظَراً زَانَ مخبراً ... بَلِ الظبي منه شابَهَ الجيدَ والنَّحرا »
فيا حُسْنَه لحناً بدا من لِسانِهِ ... ويا حُسْنَه لحظاً ويا حُسْنَه ثغرا
ونامَ وما يَدْرِى أأرْضٌ وِسادُه ... تَوَسَّدَ سُكراً ، أمْ وِساداً رأى جَهْرا

. . . .

وبين من نعرف من هؤلاء الخمارين النصارى « يارى » وكان نازلاً فى ناحية نهر طابق ببغداد ، وكان أبو نواس كثيراً ما يغشى حانوته . ويروى أنه جاء خماره هذا مرة فوجده مخموراً ، ومن هنا إشارته فى مطلع قصيدته : « داوِ « يارى » من خُماره » .

وأخيراً نَعْتُ الشاعر لصاحب الحانة اليهودى المصبى ، وقد أتوا حانته ظهراً ، واستدلّوا من زُنّاره المشدود إلى وسطه أنه غير مسلم ، ولـكنهم غلطوا فى حقيقة أمر الذميّ وسبق إلى وهمهم أنه نصرانى ، فثارت عصبية صاحبنا اليهودى ونظر

---

(١) إشفاء ممدود إشفى وهو المثقب .
(٢) الواكف : من وكف المطر سال .

إليهم شزراً وأعرض مُزْوَرّاً ، ثم عاد بعد أن سكنت نُعَرته الدينية يتلطف فى لباقة التاجر ، مع يقظة المحاذر :

وفتيانِ صدق قد صرفتُ مطيَّهُم   إلى بيت خمَّارٍ نزلنـــا به ظُهرا
فلما حكى الزُّنَّارُ أنْ ليسَ مُسلماً   ظننا به خيراً ، فظنَّ بنا شرا[(١)]
فقلنا : « على دين المسيح بن مريم ؟ »   فأعرض مُزْوَرّاً ، وقال لنا هُجرا[(٢)]
ولـكن يهودىٌّ يُحِبُّك ظاهراً   ويُضمر فى المكنون منه لك الغَدرا
فقلت له « ما الاسم ؟» قال « سموألٌ   ولـكننى أُكْنَى بعَمْرٍو ، ولا عَمْرا[(٣)]
وما شرَّفتنى كُنْيَةٌ عربيةٌ   ولا أكسبتنى لا ثناءً ولا فخرا
ولـكنها خفَّت ، وقلَّتْ حروفها   وليست كأخرى إنما جُعِلت وَقْرا »[(٤)]
فقلنا له عُجْباً بظَرْفِ لسانه   « أجدتَ أبا عمرو ، فجَوِّدْ لنا الخمرا »
فأدبر كالمُزورِّ ، يَقْسِم طرفَه   لأرجلنا شَطراً ، وأوجهنا شطرا
وقال : « لعمرى لو نزلتم بغيرنا   لَلُمنا كُمُ ، لـكن سنُوسِعكم عُذرا »
فجاء بهـــا زِيتيَّةً ذَهَبيَّةً   فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنا على أنَّ المُقامَ ثلاثةٌ   فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

---

(١) الزنار : ما يشد على الوسط وهو أخص سمات غير المسلمين من أهل الذمة فى الإسلام .

(٢) المزور : من ازور انحرف . الهجر : القبيح من الكلام .

(٣) أكنى بعمرو : أى يقال لى أبو عمرو ، وكان الجاحظ – واسمه عمرو بن بحر – يزعم أن عمرو أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً . وكان يسميه « الاسم المظلوم » لإلزامهم به الواو التى ليست منه ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها . ويستشهد على ذلك بقول أبى نواس يهجو أشجع السلمى :

أيهـــا المدعى ولاء سـليم   لست منهـــا ولا قلامة ظفر
أنت فيهـــا مستلحق مثل واو   ألحقت فى الكتاب ظلماً بعمرو

ويزعم أن هذا الاسم لم يقع فى الجاهلية إلا على فارس مذكور أو ملك مشهور أو رئيس مطاع أو سيد متبوع ، وكان يعد جماعة من ذلك . ثم هو يستدل بقول أبى نواس فى هذه القصيدة (وما شرفتنى كنية عربية) على أنها كنية الأشراف والملوك والأكابر . ولا عمرو : أى لا ولد لى بهذا الاسم إشارة إلى أنه لما يزل صبياً .

(٤) الوقر : الحمل الثقيل .

ذلك عن الخمارين من جهة أديانهم . أما من جهة ألوانهم وأجناسهم فلم تخل أشعار أبى نواس من إشارة هنا وهناك إليها . فمن الفرس أولاد كسرى ، إلى البيزنطيين الروم بنى الأصفر أولاد قيصر ، ومن أخلاط الأنباط ، إلى الأكراد الجبليين الشداد الأجسام ، إلى السود من أولاد حام .

ذخائرُ كِسرى لأولاده وغَرْسُ كِرام بَنى الأصفرِ

عتَّقتها الأنباطُ عَشراً فعشراً ثم عَشراً فى مُدْمَج مختومِ

فى ظِلالٍ محفوفةٍ بظلالٍ من كرومٍ ومن عريشِ كروم

عتَّقها الكُرْدِىُّ فى مجلسٍ بين بساتين وأَجبالِ

ثم أتانا ناكساً رأسَهُ مُنحدِراً من مَرْقَبٍ عال

إلى بيت خمَّارٍ أفادَ زِحامُهُ لَهُ ثَرْوَةً ، والوجهُ منه بَهيمُ

ولم يكن أصحاب بيوت الخمر كلهم رجالاً ، بل كان فيهم النساء من غير المسلمات ، كما هو الشأن فيما نشهد عندنا اليوم من الحانات المريبات أو شبه المريبات ، تديرها وتقوم على تدبيرها بعض النسوة الأجنبيات .

وقهوةٍ لا القَذَى يُخالِطُها تأتيكَ من معْدِنٍ ومن عَطَن

من بيتِ خمَّارةٍ تروحُ بها إليكَ مثل العَرُوسِ من وَطَن

ومنهن هذه المعتزَّة بالوالى المحسوبة عليه . وما نظنها تحظى عنده بهذه الرعاية ، إلّا أن يكون له فيها أو فى جوارها حاجة وأىّ حاجة

فى بيتِ كافرةٍ ، بالخمرِ تاجرَةٍ شمطاء شاطرَةٍ ، تَعتَزُّ بالوالى[1]

فَبيتُها حَرَمٌ ، وقولُها نَعَمْ وَكَيلها حَكَمٌ فى كل مُكتال

والظاهر أن هذه الكافرة لم تكن بدعاً فى احترافها هذه المهنة . بل الغالب فى

---

(١) الشاطرة : المتصفة بالدهاء والخباثة .

الظن أن « ربات الحوانيت » كنَّ كثيرات . فلقد كثر فى شعر أبى نواس ذكرهن . وما من شك فى أنَّ بعضهن كن ذميات من أهل الكتاب . فتارة خمَّارته يهودية ، بيضاء حَوْراء ، جميلة الصورة ؛ سيئة الطباع :

لا سيما عنـــد يهُوديَّةٍ حَوراء مثل القمرِ السَّارى
تَسقيك من كفٍّ لها رَطبةٍ كأنها فَلْقَة جُمَّار (١)
حتى إذا السكر تَمشَّى بها صارتْ لها صولةُ جبَّار

وقد تكون دمثةً مهذبة :

لخمَّارةٍ دِينُ ابن عمران دِينُها مُهذَّبةٍ تُكْنَى بأمِّ حُصَيْنِ

وتارة نصرانية كالمفهوم من قصيدته التائية الكبرى . ولا مراء فى أن صاحبة الحانوت فيها كانت من العجائز القانتات إن لم تكن من الرَّاهبات . ولعل شيخوختها ، والكَبْرة التى عَلَتْهَا ، فأخلقت جِدَّتها وذهبت بجمالها وطراءتها ، فضلا على تزهدها وتزمُّتها ، كانت جميعها داعية إلى ما نراه من جفوة الخطاب معها ، مع التنكُّر والتندُّر عليها فى تهدّمها وشَيْبها ، حين يحدثها الشاعر فيُعلنها أنه وإخوانه الفتيان الأمجاد يجتازون بحانوتها مُعْجَلِين ، ويدعوها مشجِّعاً ، وبئس التشجيع : أن أحْيَىْ بريحهم الساعة « حتى إذا ارتحلوا عن داركم مُوتى » . على أن ربّة الحانوت كانت لا محالة قد ألِفَتْ مثل هذا وشرًّا من هذا مما يتفوّه به أحلاس الحانات من الخلعاء والسكارى :

وَفتيةٍ كمصابيح الدُّجى غُرَرٍ شُمِّ الأُنوفِ من الصِّيدِ المَصاليتِ (٢)
صالوا على الدَّهر باللهو الذى وَصَلوا فليس حَبْلُهُمُ منه بمَبْتوت (٣)

---

(١) الجمار : شحم النخلة .

(٢) مصابيح الدجى : كناية عن النجوم . غرر : أى بيض . الصيد : جمع أصيد وهو الرافع رأسه كبراً . المصاليت : الشجعان . (٣) ليس بمبتوت : أى ليس بمقطوع .

نادَمتُهم قَرقَفَ الإسْفِنْطِ صافيةً مشمولةً سُبِيَتْ من خمر تكريت[1]
من اللواتى خَطبناها على عَجَلٍ لمَّا تَحجَّجْنا بربّات الحوانيت
فى فَيْلَقٍ للدُّجى كاليمِّ مُلتَطِمٍ طامٍ يُحَارُ به ـ من هَوْله ـ النُّوتى[2]
إذا بكافرةٍ شمطاءَ قد بَرَزت فى زِىٍّ مُخْتَشِعٍ لله زِمِّيت[3]
قالت «مَن القومُ؟» قلنا «مَن عرفتِهمُ من كلِّ سَمْحٍ بفرْطِ الجودِ مَنعوت
حَلّوا بدارِكِ مُجتازين فاغتنمِى بَذْلَ الكرامِ وقولى كلَّ ما شيت
فقد ظفِرت بصفْو العيش غانمةً كغُنْم داودَ من أسلاب جالوت
فاحْيَىْ بريحهم فى ظِلِّ مَكرُمةٍ، حتَّى إذا ارتحلوا عن داركم مُوتى»
قالت «فعندى الذى تَبغُون فانتظروا عند الصَّباح» فقلنا «بلْ بها إيتى
هى الصباح تُحيلُ الليلَ صَفْوتُها إذا رمت بشَرارٍ كاليواقيت
رَمْىَ الملائكة الرُّصَّاد إذْ رَجمتْ فى الليل بالنَّجم مُرَّادَ العفاريت»[4]
فأقبلت كضياء الشمس بازغةً فى الكأس من جوف بادى الضر منكوت[5]
قلنا لها «كم لها فى الدَّنِّ مُذ حُجِبت؟» قالت «قد اتُّخِذت من عهد طالوت
كانت مخبَّأةً فى الدَّنِّ قد عَنَست فى الأرض مدفونةً فى بطن تابوت»[6]

ومضى الشاعر فى تائيته هذه وأطال — وهى من عيون شعره — حتى ختمها داعياً مستغفراً:

أدعوك سبحانك اللهم فاعفُ كما عفوت ـ ياذا العلا ـ عن صاحب الحوت

وكان بعض أولئك النسوة يشتغلن بالأجر عاملات عند الخمَّارين ، يجلسن

---

(١) القرقف : من أسماء الخمر . الإسفنط : المعتقة الطيبة الرائحة من عصير العنب . تكريت : بلد فى غربى الدجلة بين بغداد والموصل . (٢) الفيلق : الجيش العظيم . اليم : البحر . (٣) الزميت : المتوقر . (٤) الرصاد : جمع راصد وهو الرقيب . المراد : جمع مارد وهو العاتى . (٥) المنكوت : الملقى على رأسه . (٦) عنست الجارية : طال مكثها فى بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج .

إلى دكّة الحانوت و بين أيديهن الميزان ، ليقمن على الوزن و يستوفين الثمن نقداً معجّلاً خوف المماكسة فى السَّوْم أو المطاولة فى الدفع . وفى القصيدة التالية دَهقانةٌ من هؤلاء العاملات لم يتمالك الشاعر الماجن أن يقبّل رأسها ، يترضاها بذلك لتستجيد له الخمر فيما يزعم لنا . وهو إلى جانب وصفه لها وسَوْقه لحديثها يصف لنا وصفاً مفصلاً حانوت الخمّار العظيم الثراء الواسع التجارة الذى تعمل عنده ، وما يحويه الحانوت من آنية الخمر وآلاته ، مع الإشارة إلى موقع الحانة فى ناحية من شاطئ النهر ، و إصعادهم إليها فى الزوارق ، ثم عودتهم محملة زوارقهم بالزّقاق الشاصيات(1) مملوءة بالجيد المعتّق من خمرها :

فشمّرتُ أثوابى وهرولتُ مسرعاً ... وقلبىَ من شوق يكاد يهيمُ
وقلتُ للاّحى : « ألاهَىّ زورقى » ... وَبِتٌّ يغنّينى أخٌ ونديم(2)
إلى بيت خمّارٍ أفاد زِحامُه ... له ثروةً ، والوجهُ منه بهيم
وفى بيته زِقٌّ ودَنٌّ ودَورقٌ ... وباطيةٌ تُروى الفتى وتُنيم(3)
فأزقاقه سودٌ ، وحُمرٌ دِنانُه ، ... فنى البيت حُبْشانٌ لديه ورُوم(4)
ودَهقانةٌ ميزانُهــا نُصْبَ عينها ... وميزانُها المشــترين غَشوم
فأعطيتُها صُفراً وقبّلت رأسها ... على أنّنى فيما أتيتُ مُليم(5)
وقلتُ لها « هَذى الدِّنانُ قديمةٌ ؟ » ... فقالتْ : « نعمْ » ، إنى بذاك زعيم(6)
ألستَ تراها قد تَعفّتْ رُسومُها ... كما قد تعفّتْ للدّيارِ رُسوم(7)
تحومُ عليهــا العنكبوتُ بنَسْجِها ... وليسَ على أمثالِ تلك تحوم

---

(١) شاصيات : جمع شاصية يقال شصت القربة : ملئت ماء فارتفعت جوانبها .
(٢) هى : أى هيئ . (٣) الزق : سقاء من جلد للخمر . الدن وعاء عظيم مستوى الصنعة أسفله مدبب لا يقعد إلا أن يحفر له . الباطية : إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل .
(٤) يشبه الزقاق السود بالحبشان ، والدنان الحمر بالروم . (٥) صفر : دنانير . مليم : من ألام الرجل ، إذا فعل ما يلام عليه . (٦) زعيم : كفيل . (٧) تعفى : امحى واضمحل . الرسم : ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار .

ذَخيرةُ دَهقان حواها لنَفْسِه ... إذَا مَلِكٌ أوْفَى عليـهِ وَسِيم
وَما باعهـا إلاَّ لمُظم خَراجِه ... لأنَّ الذى يَجْبى الخراجَ ظَلوم»(١)
فقلت« بِكَمْ رطلٌ» فقالتْ« بأصفرٍ» ... فَحُزْتُ زِقاقاً وزِرُّهُنَّ عظيم
فرُحْتُ بها فى زَوْرَقٍ قد كتمتُها ... ومن أين المِسْكُ الذَّكِىَّ كُتوم
إلى فِتيَةٍ نادمتُهم فَحَمِدْتُهم ... وما فى النَّدَامى ما علمتُ لئيم

على أن الكيل والميزان لم يكن مقصوراً على العاملات ، بل كانت تتولاه أيضاً ربّات الحوانيت أنفسهن ، كهذه التى أدلج إلى حانوتها النواسىّ وإخوانه ، وهى فيما يظهر امرأة قد تقدمت بها السّن ، ولما تزل بها مسحة من جمال وبقيةٌ من لهو . والناظر فيما نظمه الشاعر فى حكاية ما جرى لهم معها وما وقع من حوار بينهم وبينها ، يتوسم من بين سطوره ومعاريض لفظه أن هذه المرأة النَّصَف التى تجاوزت سن الشباب ، وصارت على رأس المنحدر إلى الكِبَر ، قد راق لها اجتماع هؤلاء الشباب عندها ، وتصبّاها وجودُها بينهم ، وتطرّبت — كأشَدّ ما تطربت منذ سنين — إلى دواعى الحب . ولقد كان ألطف الجماعة موقعاً فى نفسها وأخفُّهم على قلبها غير منازَع صاحبَنا النُّواسىّ . فلما أن أصابوا من خمرها ما أصابوا ، وحانَ مُنصَرَفُهم مع انبلاج الصبح ، أقبلت المرأة تستأديهم الثمن ، ونفسها لا تخلو من الحسرة على سرعة انقضاء الليلة ، إذا بصاحبنا النواسى الماجن ينبرى لها مبتسماً ، فيصارحها القول معترفاً بأنهم جاءوا وفى المال قِلّة ، ويقترح فى فكاهته العذبة لو قبلت بعضهم رهناً ! . فلا تثور المرأة فى وجه هؤلاء الفتيان الملاعين ولا تتسخّط كما هو المتوقَّع ، ولكنها تقف بينهم باسمة كالحالمة ، وتعلن — وهى تغمز بعينها — نزولها على اقتراحهم ، على أن يكون أبو نواس الرهينة ، وأن يبقى عندها رهينة العمر :

---

(١) الخراج : المال المضروب على الأرض .

وخَمَّارَةٍ لِلَّهْوِ فيها بقيَّـــةٌ إليهـا ثلاثاً نحوَ حانتها سِرْنا
وَلِلَّيـلِ جلبابٌ علينا وحَوْلنا ، فما إن نرى إنساً لديهِ وَلا جِنَّا
يُسايِرُنا ، إلاَّ سماء نجومُهُـــا مُعَلَّقَةٌ فيها ، إلى حيثُ وجَّهْنا(١)
إلى أن طرَقنا بابهاَ بعدَ هَجعةٍ فقالت: « مَن الطُّرَّاق » قُلنالها « إنَّا
شبابٌ تَعارفنا ببابكِ ، لم نكُنْ نروحُ بما رُحْنا إليك فأدْلَجْنا
فإن لم تجيبينا تبـــدَّدَ شملُنا وإن تجمعينا بالوِدادِ تواصَلْنا »
فقالت لنا « أهْلاً وَسهلاً ومرْحباً بِفتيانِ صدقٍ ماأرَى بينهم أفْنا »(٢)
فقلتُ لها : « كِيْلاً حِساباً مُقوَّماً دَوارِيق خمرٍ ماانقَصْنَ وما زِدْنا »
فجاءتْ بها كالشمس يحكى شُعاعُها شُعاعَ الثريَّا فى زُجاجٍ لها حُسنا
فقلتُ لها « ماالاسْمُ ، والسِّعْرُ بيِّنِى لنا سِعرَها كيْما نزورك ما عِشْنا ؟ »
فقالت لنا « حَنُّونُ إسْمِى ، وسِعرُها ثلاثٌ بِتسعٍ ، هكذا غيرَكم بِعنا »
ولمَّا تولَّى الليلُ أو كادَ ، أقبلَتْ إلينا بميزانٍ لتَنْقُدنا الوَزْنا
فقلتُ لها « جئنا وفى المال قلّةٌ فهلْ لكِ فى أن تَقبلى بعضنا رَهْنا ؟ »
فقالت لنا « أنتَ الرَّهينةُ فى يدى متى لم يَفُوا بالمالِ خَلَّدْتك السِّجنا »

ولا أظن بنا حاجة إلى التنويه بما فى هذا القصص الشعرى جميعه — بغضّ النظر عن مجونه — من البراعة فى الوصف وصدق التصوير ، وإبراز السِّمات فى رسمه للشخصيات ، والاقتدار على إدارة الحوار والتصرف فيه ، مع روح الفكاهة وحلاوة الدُّعابة . فتلك من مزايا شاعرنا وخصائصه. والقارئ لديوان شعره يلقاها فى كل قصيدة أو مقطّعة بين دفتيه . ولقد ألمَّ بها قارئ هذه الصفحات ولاشك فى سائر ما تقدَّم به . ولو اتسع المجال لأوردنا منها فوق ما تقدم عشرات الأمثال .

وإننا لنحب إلى هذا أن ننبه إلى ما جرى عليـه الشاعر من تقطيعه حديث

(١) يسايرنا : أى لا نرى فى الليل إنساً ولا جناً يسايرنا إلا نجوم السماء فهى التى تسايرنا إلى حيث وجهنا . (٢) الأفن : ضعف الرأى . والتسكين لضرورة الشعر .

الشخص الواحد وتوزيعه له بين أواخر البيت وأوائل البيت التالى فى غير واحدة من قصائده على نحو يزيد أحياناً فى ظَرْف الحوار ودُعابته . ونسوق للقارئ على سبيل المثال هذا الحوار بين شاعرنا و بين خمَّار فى قُطْرَبُّل، وقد أتاه مع صديق له فى يوم جمعة يمتاران من خمره ، فجعل صاحبها يبالغ فى صفتها ، ولكن صاحبنا النواسى يتردد — لطول مراسه بالخمَّارين وأساليبهم فى التزجية والزَّغَل — فى أن يسمع لمقالته و يأخذ بشهادته ، و يأبى أن يشترى الخمر إلّا من بعد خُبر :

لا تنسَ لى يَوْمَ العَرُوبةِ وَقعةً ... تُودِى بصاحبها بغَير فسادِ[1]

يوماً شربْتُ وأنتَ ، فى قُطْرَبُّلٍ ... خَمْراً تفوقُ إرادةَ المُرْتاد

لمّا وَردناها نُلِمُّ بشيْخِها ، ... عِلْجٌ يُحَدِّثُ عن مصانعِ عاد[2]

قلنا « السلام عليك » . قال « عليكمُ ... منى سلامُ تحيَّةٍ وَوِداد

ما رُمْتُمُ ؟ » قلنا « المُدامَ » . فقال « قد ... وُفِّقْتُمو — يا إخوتى — لِرَشاد

عِنْدى مُدامٌ قد تَقادَمَ عَهدُها ، ... عُصِرَتْ وَلم يشعر بها أجدادى

فأَكِيلُ ؟ » . قُلنا : « بَعْدَ خُبْرٍ ، إننا ... لا نَشْترى سَمَكاً ببَطْن الوادى

جِئنا بها ! » فأتى بكأْسٍ أشرَقَتْ ... منها الدُّجى وَأضاءَ كلُّ سَواد

فأدارَها عَدَداً ثلاثاً ، فانْثَنَتْ ... منَّا النفوسُ وَليْسَ مِنْها صادى[3]

ونحب أن ننبه كذلك إلى نكتة فى نظم شاعرنا وهى إيراده للجملة الواحدة بعضُها فى بيت والتكملة فى أول البيت الذى بعده مثل قوله :

مَنْ كان يَهْذِى بِحُبِّ جاريةٍ ... أوْ بغُلامٍ ، فإنَّنى أَمِقُ[4]

شاطِرةً فى الإناء صافيةً ... تَمْشى لها من شُعاعِها الحَدَق

(١) يوم العروبة : يوم الجمعة ، والعروبة فى الأصل الضحاكة من النساء . ولعل العرب أطلقوا ذلك على يوم الجمعة لأنه يوم الزهرة وهى ربة الجمال والعشق . (٢) العلج : الضخم القوى من العجم . المصانع : القصور . (٣) الصادى الظمآن . (٤) أمق : أحب .

وقوله :

أسعدُ يومٍ لهــا حَظِيتُ بهِ   مقالُها لِى وَلستُ بالنَّاسى
لذلك اليومِ ما حَييتُ وَما ترْ   جَمَ قولى سَوادُ أنقاس(١)
تقولُ لِى والمُدامُ مُرْسَــلةٌ   تفيضُ حَولى نفوس جُلَّاسى
« هَلْ لكَ أن تَطرُدَ النُّعاسَ فقد   طابَ انضواءُ المُدَامِ والآس ؟ »

وقوله :

أنا أبصرْتُ — صاحِ — الشَّمْ   سَ تمشِى ليْــلةَ الجُمعَهْ
فمَاجَ النَّاسُ فى النَّــاسِ   وَظَنُّوا أنهـــا الرَّجْعَهْ
إلى الله ، وَقالوا « الشَّ   رُّ » لمَّـا عاينـوا بِدْعهْ
فقلتُ : « الشَّمْسُ لا تطلُ   عُ ليْـلاً مَطلعَ الهَقْعَهْ(٢)
ولــكنَّ الفــتى أحمَ   دَ يَجْلو الليـلَ بالطَّلعهْ »

ولعل فى هذه الأمثلة وما إليها ما يقطع بأن النواسى كان لا يدين بوحدة البيت ، وأن مذهبه وحدة القصيدة . وهو يذهب فى ذلك إلى الحد البعيد الذى يحملنا نذهب إلى أن تكرر هذا التصرف فى النظم عند النواسى أكثر من مرة ، هو ظاهرة من آثار الثورة والتجديد(٣) .

وفى القصيدة السابقة الدالية والقصيدة اللاحقة الجيمية نجد الشواهد متواترة

---

(١) الأنقاس : جمع نقس : المداد (٢) الهقعة : ثلاثة كواكب نيرة فوق منكبى الجوزاء قريب بعضها من بعض . (٣) مما يسترعى النظر أن المدرسة الابداعية فى الأدب الفرنسى L'Ecole Romantique قد جعلت « تخطى القافية » Enjambement sur la rime فى جملة ما نادت به ودعت إلى إيثاره فى ثورتها على المدرسة التقليدية L'Ecole Classique ومثال ذلك قول بودلير :

Vite soufflons la lampe, afin
De nous cacher dans les ténèbres

يا خليــلىّ هلمــا   لنطفىء المصباح كيما
نتوارى — من أثام —   فى غيــابات الظــلام

متناصرة على أن أبا نواس كان ذوّاقة يدرك من طُعوم الخمور نوعها ومبلغ جودتها ومقدار عتقها . فلم يطرق حانةً قطُّ مع جماعة إلاّ كان الموكّل عنهم فى سَوْم الشراب . وهو لا يسوم بائع شرابٍ شرابَه إلّا أن يذوقه ، واثقاً من حكمه ، مُدِلا بعلمه . ولا بِدْع فقد أفاد هذا العلمَ اليقين والحكم الموفّق من تقادم عهده بمعاقرة الخمر وطول عشرته للخمارين والخمّيرين . فالمذاق من الدنان شرطه قبل الكيل على أصحاب الحان . ولولا أنه كان عندهم الإمام الثقة ، لما ارتضى شيوخ دهاقينهم حكومته :

وخمَّارٍ أنخْتُ عليه رَحْلِى ... إناخةَ قاطنٍ ، والليلُ داجٍ[1]

فقلتُ له : « اسقِنى صهباء صِرْفاً ... إذا مُزِجتْ تَوَقَّدُ كالسِّراج » .

فقالَ : « فإنَّ عندى بِنْتَ عَشْرٍ » ... فقلتُ له مقالةَ من يُناجى :

« أذِقْنِيها لِأعلم ذاكَ منها » ... فأبرَزَ قهوةً ذاتَ أرْتجاج

كأنَّ بَنانَ مُمْسِكِها أشيمَتْ ... خِضاباً حين تلمع فى الزُّجاج

فقلتُ : « صدقتَ ياخمَّارُ ، هذا ... شرابٌ قد يطول إليه حاجى »[2]

فمَال إلىَّ حين رأى سُرورى ... بها ، والليلُ مُرْتكبُ الرِّتاج

فما هَجم الصباحُ علىَّ حتى ... رأيتُ الأرضَ دائرةَ الفِجاج

بعض الحانات المشهورة

وقد حفظ التاريخ أسماء بعض الخمارين والخمّارات فى عداد ما خَلَّد من الأسماء. وهذا الذى قد أفادوه من خلود الذكر ، مرجعُه إلى ما قاله الشعراء أمثالُ النواسىّ فيهم من الشعر ، جزاء ما جوّدوه لهم من خمر . وقد ردّده واضعو التصانيف فى وصف الأقاليم والأمصار ، حين استطردوا إلى ذكر ما كان فى بعض هذه المواضع

(١) أناخ رحله : حطه وألقاه أى أقام . (٢) حاج : جمع حاجة .

من حانات اقترنت بأسماء هؤلاء الخمارين والخمارات واشتهرت بهم . وليست جميعها بطبيعة الحال فى زمن أبى نواس ، فمنها السابقة لزمنه واللاحقة له . ونذكر من حانات العراق فى أيامه حانة « ابن آذين » فى قُطرُبُّل وحانة « سرجس » فى طيزناباذ ، وحانات الحيرة وهى كثيرة منها أيام الأقيشر الشاعر حانة « شهلاء » وهى خمارة يهودية ، وحانة « دومة » ولعلها نصرانية ، ثم لعهده منها حانة « عون » وحانة « جابر » ونَروى عن هذه الأخيرة حكاية لابن الصلصال قال :

[كان أبو نواس يأتى الكوفة يزورنى ، وكان يأتى بيت خمّار بالحيرة يقال له جابر ، لطيف الخلقة ، نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يعتّق الشراب سنينَ . فقدِم علينا مرةً ، وقد نهاه الخليفة محمد الأمين عن الشراب . فسأل عنى ، فقيل له : « هو بالحيرة » . فوافانى ، وفى يدى شىء من شراب جابر ، عجيب الحسن والرائحة ، فقال لى : « يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهمّ فى صدرٍ واحد » . وكان شديد العُجْب بضرب الطنبور . وكان إذا جاءنى جمعتُ له ضُرّاب الطنابير ، وكانت الكوفة معدنَهم . وكان يسكر فى الليلة الواحدة سَكَراتٍ . فوجّهتُ فجمعتُ له منهم جماعة ، وأحضرتُه شيئاً من ذلك الشراب . فقال لى : « ألم تعلم ما حدث علىّ ؟ » . قلت : « وما هو ؟ » . قال : « نهانى أمير المؤمنين عن الشراب وتوعّدنى عليه ! »

ثم أنشدنى قصيدته التى فيها :

أيها الرّائحانِ باللّومِ ، لُومَا ❊ لا أذوقُ المدامَ إلاّ شَميما !

إلى أن انتهى إلى قوله :

فكأنّى وما أُزيِّنُ منها ❊ قَعَدِىٌّ يُزَيِّنُ التحكيما[1]

---

(١) القعدى : واحد القعد بالتحريك ، وهم طائفة من الخوارج ترى رأيهم وتقول بقولهم ولا تذهب إلى القتال معهم .

لم يُطق حَمْلَهُ السِّلاحَ إلى الحرْ   ب ، فأوصى المطيقَ ألَّا يُقيما

فقلت له . « أَقِمْ معنا كما حكَيتَ من فعل القَعَدِيَّة » . قال . « أفعلُ » . وصرنا إلى حانة جابر . فقلت شعراً ذكرتُ فيه ما قاله لى وأنشدته إياه ، وهو قولى.

عَتِبَتْ عليك محاسنُ الخمر   أم غيَّرتكَ نوائبُ الدَّهر ؟

فصرفتَ وَجهَك عن مُعَتَّقةٍ   تفتَرُّ عن دُرٍّ وعن شَذْر (١)

يسعى بها ذو غُنَّةٍ غَنِجٌ   مُتكحِّلُ اللَّحظاتِ بالسِّحر

ونسيتَ قولَك — حين تمزجُها   فتُريك مثل كواكب النَّسر :

« لا تَحسَبَنَّ عُقارَ خابيةٍ   والهمَّ يجتمعان فى صَدر ! » (٢)

فقال : « هاتها فى كذا وكذا من أمّ الأمين ! » . ومدّ يده فأخذ القدح وشرب معنا . ثم شَخَصَ إلى الأمين . فقال له . « أين كنت ؟ » . قال : « عند صديقى الكوفىّ » وحدّثه الحديث . قال : « فما صنعتَ حين أنشدك الشعر ؟ » . قال : « شربت والله ! يا أمير المؤمنين » . قال « أحسنتَ وأجملت . فاشْخَصْ حتى تحمل إلىّ صديقَك هذا » . فقدم إلىّ فحملنى إليه . فلم أزل معه حتى قُتل] .

ونكتفى من حانات الشام بذكر اثنتين : حانة « هُشيمة » بدمشق ، وكانت صاحبتها هشيمة تخدم الوليدبن يزيد الأموى فى شرابه وتتولى اتخاذه له . وفيها يقول.

قد شربنا ، وحنّتِ الزّماره   فاسقنى — يا بُدَيحُ — بالقرْقاره (٣)

من شرابٍ كأنه دم خِشْفٍ   عتّقته « هُشيمةُ » الخمّاره (٤)

إسقنى ! إسْقنى ! فإنّ ذنوبى   قد أحاطت ، فما لهــا كفّاره

وقد عُمِّرت هشيمة حتى أدركت الرشيد وماتت فى أيامه .

---

(١) الشذر : قطع الذهب . (٢) الخابية : الجرة الضخمة . (٣) القرقارة : كوب من زجاج طويل العنق . (٤) الخشف : ولد الظبى أول ما يولد .

والحانة الثانية المنسوبة إلى الشام حانة تل عَزَاز. ويحكى إسحق الموصلى أنه كان مع الرشيد حين خرج إلى الرَّقَّة. فدخل الخليفة يوماً يشرب مع النساء. فخرج إسحق فنزل هذه الحانة عند خمارتها، وكان لها زوج قَسٌّ، ولها منه بنت. ويقول إسحق: «فلم أر مثل هذه الخمارة قطُّ جمالاً، ولا مثل بنتها. وقد أخرجت إلىّ شراباً لم أر مثل حسنه وطيب ريحه وطعمه. فأجلستنى فى بيت مرشوش، فيه ريحان غضّ. وأخرجت بنتها تخدمنى كأنها خوطُ بان أو جَدْل عِنان، لم أر أحسن منها قدًّا ولا أسهل خدًّا، ولا أشرق وجهاً، ولا أبدع ظَرْفاً، ولا أحسن كلاماً، ولا أتم تماماً. فأقمت عندها ثلاثاً، والرشيد يطلبنى، فلا يقدر علىّ. ثم انصرفت. فذَهَبَتْ بى رسُله إليه فدخلت عليه وهو غضبان فلما رأيته، خطرتُ فى مشيتى ورقصت — وكانت فى رأسى فضلةٌ قوية من السكر — وغَنَّيتُ فى شعرٍ قلته فى بيت الخمارة صنعتُ فيه، وهو:

إنَّ قلبى بالتَّلِّ، تَلِّ عَزازِ ... عند ظبيٍ من الظِّباء الجوازى[1]
شادنٌ يسكن الشَّآمَ، وفيه ... مع شَكل العِراق، ظَرْفُ الحجاز[2]
يا لقَوْمى لبنتِ قَسٍّ أصابت ... منكَ صَفْوَ الهوى وليستْ تجازى
حلفت بالمسيح أن تُنجزَ الوعـ ... ـدَ، وليست تهمُّ بالإنجاز

فسكن عندها غضب الخليفة، ثم قال لى. «ويحك! أين كنت؟». فأخبرته، فضحك وقال: «عُذْرٌ والله! وإنّ مثل هذا لطيّبٌ إذا اتفق. أعِدْ غِناءك!». فأعدتُه. فأعجب به. وأمرنى أن أغنيه ليلتى كلَّها، أعيده أبداً، ولا أغنى أنا ولا غيرى سواه، وأمر المغنين وفى جملتهم ابن جامع بأخذه، فما زلت أغنّيه والرشيد يشرب عليه إلى الغداة. ثم انصرفنا. فصلّيتُ ونمت، فما استقررت جنباً حتى وافانى رسول الرشيد، يأمرنى بالحضور. فركبت ومضيت

(١) الجوازى من الظباء: التى تجتزى بالرطب من العشب عن الماء.
(٢) الشكل: دلال المرأة وغنجها.

فلما دخلت ، إذا أنا بابن جامع يتمرّغ على دكّانٍ فى الدار لغلبة النبيذ والسكر عليه . فقال لى : « أتدرى لِمَ دُعينا ؟ » . قلت : « لا » . قال : « نصرانيّتُك الزّانية ، عليك وعليها لعنة الله ! » . فضحكت . فلما خرج إلينا الرشيد ، أخبرته بالقصة ، فضحك وقال : « صدق . أعيدوا الغناء جميعاً ، ولا تُغنّوا غيره ؛ فإنى اشتقت إلى ما كنا فيه لمّا فارقتمونى » . فغنيناه جميعاً يومَنا كلَّه ، حتى نام فى موضعه سُكرًا . ثم انصرفنا] .

الحانات الخاصة

وكان بعض الحانات مخصصة لِنُزّه الخاصة والسَّراة من الناس . وكانت هذه الحانات حسنة البناء مؤزَّرةً مسقَّفةً بخشب السَّاج العريض الصُّلْب ، وإلى جانبها بستان نَزِهٌ بهيج . وهى غاية فى الأناقة والنظافة وخمّاروها من أظرف الخمارين وأكيسهم خدمةً وأحذقهم صنعة ، نظاف الثياب ، يتخذون فيها آلة الشراب كاملة ، ولا يبيعون إلا شراباً مختاراً سَرِيًّا ، ولا يبيعونه أحداً من العامة والوُضَعاء . وبعض هذه الحانات كانت لا يَعرِض لها جُباةُ الضرائب والخراج فى بعض الأحيان لاعتزازها بحُرفائها من أصحاب الجاه والسلطان .

وقد بلغ من حب الخليفة الواثق لمجالس الحان وما قيل فيها وما غُنِّىَ به فى ذكرها أن عقد حانتين ، إحداهما فى دار الحُرَم ، والأخرى على الشطّ ، وأمر أن يُختار له خمَّار نظيف جميل المنظر ، حاذق بأمر الشراب ، ولا يكون إلاّ نصرانيًّا من قُطرَبُّل فأُتى بنصرانىّ ، له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق فى الحانتين وضمّ إليهم خدماً وغلماناً وجوارى روميّة . وأخدم النساء حانةَ الحُرم ، والرجال حانةَ الشط . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرَشهما من فرش

الخلافة وعلّق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأوانى المُذْهبة والدنان المدهونة . فكانتا أحسن منظر وأبهاه .

فلما فرغ منهما ، كان يأمر بإحضار المغنّين والمُلْهين ، ولا يدع أحداً يصلح من ضُرَّاب الطنابير إلا أحضره . ويدعو الخليفة من يدعو ممن يحب منادمتهم. ويخرج الخمار هو وأولاده معه ، عليهم الأقبية المسهَّمة ، وفى أوساطهم الزنانير المحلَّاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الصَّوانى وتُخرَج تلك الدنان المُذهبة وقد طُيِّنت رءوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب ، فتقام بإزاء المجلس الذى يكون فيه الخليفة جالساً فتُبزَل كما يُفعل فى الحانات . ويُؤتى بالأنموذجات، فيذوقها ويُعرَض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهيه . فيأخذ كل واحدٍ دنًّا ، ويجىء إلى الخمار ويكتال مما اختار بمكيالٍ فى إنائه كما يُفعل فى المواخير ، ويعود إلى موضعه فيجلس . ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبه من الرياحين .

وقد حكى حَمد بن حَمْدون فى يوم حضره بحانة الشط أنه كان أحسن يوم رآه وقد شرب الواثق فيه شرباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجته بألف ، ولكل واحدٍ من أولاده بخمسمائة . ولم يبرح أحد من الجلساء إلا بجائزة سنيَّة .

وحكى الحسين بن الضحاك الشاعر فى حكاية له أن الواثق قال له : « هل لك فى حانة الشط ؟ » فقال الشاعر : « إىْ والله ! يا أمير المؤمنين » . فقام إليها ، فشرب هناك وطرب والشاعر معه . وما ترك الخليفة أحداً من الجلساء والمغنين والحشَم إلا أمر له بصلة . فلما كان من الغد، غدا الحسين بن الضحاك على الخليفة فقال : « أنشِدْنى ياحسين شيئاً إن كنت قلته فى يومنا هذا الماضى » . فأنشده :

يا حانةَ الشطِّ قد أكرمت مثوانا ... عودى بيوم سرورٍ كالذى كانا

لا تُفقدينا دُعاباتِ الإمام ولا ... طيبَ البطالة إسراراً وإعلانا

ولا تَخَالُعَنَا في غيرِ فاحشةٍ ... إذا تَطَرَّبنا الطنبورُ أحيانا
وسَلْسَلَ الرَّطلَ «عَمْرٌو» ثم عَمَّ بنا السُّقْيَا فألحقَ أخرانا بأولانا
سَقياً لعيشك من عيشٍ خُصصتَ به ... دون الدَّساكر من لذّاتِ دنيانا

فأمر له الواثق بصلة سنيَّة مجدَّدة ، واستحسن الشعر وأمر أن يغنَّى به .

صورة مجملة للحانة

ولنستوقف القارئ هنا لحظة قبل أن يتمادى بنا الكلام ونبعد عن المكان ، مستذكرين ما تقدّم منذ قريب بنا من أشعار وأخبار فى موضوع الخمر وأصحابها ، مستجمعين شتات ما تردَّد فيها من صفات الحانات لذلك العهد ، فإننا لا نلبث أن نتمثلها — في تطرُّحها وقيامها بعيدة من المدن على طريق المسافر ، وفى مقام رُوّادها فيها جماعاتٍ أياماً — على صورة مخالفة لحانات اليوم وعلى غير هيئتها ، وإنما هى قريبةُ شَبَهٍ بالنُّزُل «Inn» عند الغربيين قبل تسيير قُطر البخار ، أيامَ كانت مدن الإقليم الواحد على مسيرة أيام بعضها من بعض ، وكان السفر مراحلَ على ظهور الجياد ، وفى المركبات تجرّها الخيل الصافنات للخاصة ، وفى مركبات البريد لعامة المسافرين.

ومن ثمة لا أرانا نخطئ القول إذا قلنا إن هذه الحانات كانت فى الأغاب متسعة البناء ، متعددة الغرفات والعَرَصات والمرافق للطعام والمدام والمنام لروّادها الكثيرين ، قد اتُّخِذَت فيها للمقيمين المنامات والفُرُش ، وسوِّرت لدوابِّهم الحظائر وأعدّت المراعى والأعلاف . وكان ثمة كذلك مالا بدّ منه من السقائف والسراديب تُجعل فى ظلِّها الزقاق والدِّنان . وثمة كذلك ما لا غنى عنه من الخزائن لحفظ آلة الشراب وصَوْن طرائفها من أباريق الفضة والجامات المنقوشة والأقداح اللطاف من الزجاج الفرعونى البلّورى . ويتعهّد الخمارون حول حانتهم الأشجار الوارفة الظلال ، وأشجار الفاكهة المهدلة الثمار ، والكروم المعروشة وتحتها معاصر الخمر وآلة العصر . ولم تكن مجالس الشراب كلها بين جدران الحان بل كانت تهيأ

لمن شاء مجالس فى نواحى البستان وأخرى على سطح الخان . و إلى هذا جميعه كان معظم الهمة وأحسن العناية إلى اختيار ما تستلزمه الخدمة من جوار وغلمان ، وما يتصل بأسباب المتعة من ملهين وقيان .

بين جدران الخان

ولقد كانت الخانات ، فى تطوحها فى سواد بغداد وظواهر غيرها من البلاد بعيداً عن رقابة الشرطة ، مباءة لأهل البطالة والخلاعة ، يقيمون بها أياماً يطلقون فيها العنان وراء الجدران للتصف واللهو والمجون ، لا يبالون ما يصنعون . وقد غلّق الخمارون الباب بالمزاليج والأرتاج ، واتخذوا فيه كوّة يتعرّفون بها الطرّاق ، فما يفتحون إلّا لمن يأمنون . ثم إنهم قلّ ما كانوا يعدمون الوسيلة لترضّى الشرطة إن هم تعرّضوا لهم ، وذلك بالرشوة إذا كانوا من أهلها ، و بالشراب إذا كانوا أصحاب شراب . و إلى القارئ واقعة فى بعض حانات الحيرة تدلنا على ما كانت تصير إليه أحياناً الرقابة عند بعض هؤلاء الشرطة :

حُكى أن الأُقيشر الشاعر كان يألف خمارة يهودية وهى المعروفة بشهلاء من أهل الحيرة ، وكان يشرب فى حانتها . فجاءه شرطىٌّ فدق الباب وقال : « اسقنى وأنت آمنٌ » . فقال الأقيشر : « والله ! ما آمَنُك . وهذا النقب فى الباب فأنا أسقيك منه » . فوضع له أُنبوب قَصَبٍ فى النقب ، فصبَّ فيه النبيذ من داخل ، والشرطى يشرب من خارج . وفى ذلك يقول الأقيشر :

سأل الشرطىُّ أن نسقيَه ... فسقيناه بأُنبوبِ القصبْ
إنما لِقْحتنا خابيةٌ ... فإذا ما مزجت كان العجب[1]

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

لبَنٌ أصــفرُ صافٍ طعمُه ، يَنْزع الباسور من عَجْب الذَّنب[1]
إنما نشربُ من أموالنا فاسألوا الشرطىَّ : « ماهذا الغضب؟ »

وكان أصحاب هذه الدساكر لا يدَعون سبباً من أسباب الفتنة يجتذب إليهم القوم ويغريهم بإطالة المقام والتخرق فى النفقة إلاّ توسلوا به . فهم يتخذون فى حاناتهم السقاة المردان ، والساقيات الشاطرات الحسان . ويزيد بعضهم فيحضرونهم المسمعات العازفات من الجوارى القيان ، والملهين من ضرّاب الطنابير والعيدان ، ليستخف القوم الطرب ، ويحلو لهم مجلس الشرب ، فيكثروا من الشراب ويحيفوا على أنفسهم فيه ، يفرغونه فى أجوافهم أرطالاً شرباً دِراكا لا يفترون عنه ، ولا يزالون كالمولهين يقرّبون بين الأقداح يستحثونها من أبدى الملاح ، على ترجيع الغناء ونقر الدفوف ونغم الأوتار الفصاح ، حتى تغلبهم على عقولهم العقار ، فيخلعوا ما بقى من حشمةٍ وفضلِ عِذار .

وكان معظم هذه الدساكر بيوت خمر وبيوت ريبة معاً ، لِما ثبت بالتمرّس والحُنكة فى علم هؤلاء الخمارين والخمارات ، من فعل الخمر « أمّ الخبائث » فى تحريك ساكن الغرائز وتهييج كامن الشهوات ، والإسفاف بها إلى أحط الدركات .

وخمّارةٍ نبهّتُها بعـد هجعةٍ وقد غابت الجوزاء وانحدر النَّسرُ[2]
فقالت : « من الطرّاق؟ » قلنا « عصابةٌ خفافُ الأداوَى يُبتغَى لهمُ خمرُ[3]
ولا بدَّ أن يزنوا » . فقالت : « أوِ الفدا بأبلجَ كالدِّينار ، فى طَرفه فَترُ »
فقلنا لها : « هاتيه . ما إنْ لمثلنا — فديناكِ بالآباء — عن مثله صبرُ »

(١) عجب الذنب : أصله عند رأس العصعص . (٢) الجوزاء : برج ويقابل كذلك من النجوم عند المحدثين الجبار والتوأمين . النسر : نجم تمتاز به ليالى الصيف وهو ألمع نجم فى السماء الشمالية . (٣) الأداوى : جمع إداوة وعاء صغير من جلد .

فجاءت به كالغصن يهتزُّ رِدفُه | تخال به سحراً وليس به سحر
له شبهٌ بالبدر ليلةَ تِمِّه | مُهَفْهف أعلى الكَشح، فى ثغره أَشر (١)

والظاهر أن صاحبة هذه الحانة لها نظائر كثيرات جَرَين على سنتها ، فاحتطنَ مثل حيطتها وتجهزن بمثل عدّتها . وظاهرٌ كذلك أن أبا نواس كان لا يُعرَض عليه ما يُسَمِّينه « الفدا » إلا تلقَّاه فى كل مرة بالرضا :

لخمارةٍ دينُ ابنِ عِمْرانَ دينها | مهــذَّبةٍ تكنى بأُمِّ حُصينِ
فقلت لها : « إن لم تجودى بنائلٍ | فلا بدَّ من تقبيلىَ الشَّفتين
فقالت : « فهل ترضى بغيرهما هوًى | بأمردَ كالدِّينار ؟» قلتُ : «مِنَ اْينِ»
فجاءت به كالبدر يشرق وجهُه | أغنُّ ، غضيضٌ ، راجح الكَفَلين
فروّحتُ عنها مُعسراً غيرَ مُوسرٍ | أُقَرْطِسُ فى الإفلاس من مئتين (٢)
فقال لى الخمار عنــد وداعه | وقد ألبستنى الخمر خُفَّ حُنين
« ألَا عِشْ بزَيْنٍ أين سرتَ مسلَّماً!» | وقد رحتُ منه ـ حين رُحتُ ـ بشين

مطارح الحوانيت

وإذا كان أصحاب بيوت الخمر يتخيرون لحوانيتهم المواضع المتطرحة البعيدة عن الناس فإنهم قد تحرّوا لها هناك البقاع النَّزِهة الحسنة ، وتوخّوا أن يكون الوصول إليها متأتياً لطلاب النزهة والشراب ، كأنْ تكون على طريق القوافل ، فيركبون إليها المطايا من نجائب الإبل المهارى أو الخيل الجياد ، وقد نراهم يقطعون من أجلها شاسع المسافات ويطوون لها الفلوات ، متجشمين وعثاء السفر ، متعرضين للخطر من ذؤبان العرب وقطّاع الطرق .

(١) الأشر : ترقيق الأسنان . الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .
(٢) قرطس القرطاس : أى أصاب الغرض .

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهم إلى بيت خمارٍ نزلنا به ظهرا

وخمَّارٍ حططتُ عليه ليلًا قلائصَ قد وَنينَ من السِّفار

وَدَوِّيةٍ لِلرِّيح بين فروجها فنونُ لغاتٍ : مُشكِلٌ ومُبينُ[1]
رمَيتُ بها العِيدِيَّ حتى تحجلتْ نواظرُ منها وانْطَوَيْنَ بُطونُ[2]

أقول لناقتي إذْ بلَّغتني : « لقد أصبحتِ عندىَ باليمينِ
فلم أجعلْكِ للقُرْبانِ نحـراً ولا قلت أُشْرَقى بدَم الوَتين
حَرُمْتِ على الأزمَّة والوَلايا وأعلاق الرِّحالة والوَضين »[3]

نجوتُ من اللصِّ المغير بسيفه إذا ما رماه بالتِّجار سبيلُ
وسلطتُ خمَّاراً علىَّ بكأسه فراح بأسلابى ورحتُ أميل

وكأنْ تكون الحانات على شُطئان الرافدين الدجلة والفرات ، فيُصعدون إليها فى الزوارق والسُّمَيْرِيَّات[4] ، حتى إذا صاروا إلى محاذاتها ، شدّوا مراكبهم إلى جانبها ، ونزلوا يشربون فيها أو يمتارون منها . وقد مرّ بنا من قصيدة لأبى نواس قوله :

وقلتُ لملَّاحى : « ألَا هِىَ زورقى » وبِتُّ يغنينى أخ ونديمُ
إلى بيت خمَّارٍ أفادَ زِحامُه له ثروةً ، والوجهُ منه بهيم
فقلت : « بكم رطلٌ ». فقال : « بأصفرٍ » فخزتُ زِقاقًا وِزْرُهنَّ عظيم
فرحتُ بها فى زورقى قد كتمتها ومن أين للمسك الذكى كُتوم

(١) الدوية : البرية والفلاة . (٢) العيدى : الواحد من الإبل النجائب نسبة إلى فحل مشهور فيقال النجائب العيدية . تحجلت : غارت .

(٣) الأزمة : جمع زمام ما يزم به . الولايا : جمع الولية البرذعة أو ما تحتها . الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر . (٤) السميرية (والسمارية) : سفينة كانت تستعمل فى العراق للنزهة مثل الذهبية فى وادى النيل .

وقد كان من شأن ما طبع عليه الشاعر من الافتتان بمناظر الطبيعة ومحاسنها الحسيَّة ، ما نراه من ولعه بالحانات تجمع إلى جودة الخمر نزهةَ مكانها وحسن موقعها وطيب مجالسه فيها ، بين الرياض المونقة الناضرة ، فوق بُسُط سندسية مفروشة ، وتحت كروم مهدّلة معروشة ، وعند الغدران المترقرقة والجداول السّربة المتعرجة ، وعلى شطئان الفراتين بمشهد من العباب الجارى المدّار ، وبمسمع من الموج الزاخر الفوّار

إلى جنَّاتِ كَرْمٍ من كُرومٍ مُعَرَّشةٍ مُعَرَّجة النــواحى
فمنِ اليمينِ جداولٌ منسوقةٌ وعن الشّمالِ حدائقٌ وكرومُ
واقصدْ إلى شطِّ الفرات ، وعاطنى قبل الصباح وعاصِ كل مفنّدِ

فلم يكن ما هو آخذٌ فيه من اللهو والقصف ليلهيه عن جلاء العين بما يضاحكها من ألوان الأزهار وجنىّ الثمار ، وطَرَبِ الأذن بما يناغيها من خرير الأنهار وتغريد الأطيار :

ثم مِلنا إلى بقاع رياضٍ زيَّنتها الأنواء بالأنوارِ[1]
جامعاتٍ لكل نَوْرٍ غريبٍ من بياضٍ فى حسن خدِّ العذار
وَورودٍ تزهو كحمرة خدٍّ جرّحتــه نواظرُ النُّظار
بينها صُفرةٌ كصفرة صَبٍّ ساهر اللَّيل من هوى غدّار
فى سوادٍ مثل الشَّباب ترى الحو رَ يُجاوِرْنَه بحُسن اخورار
طاب فيها ارتضاعُنا الكأس حتى صرَّعتنا عن ضعفها باقتدار
فُزنا بها فى حديقاتٍ مُلفَّفةٍ بالرَّند والطَّلح والرُّمان والتُّوت

(١) الأنوار : جمع نور : الزهر الأبيض .

تُلهيك أطيارُها عن كل مُلْهيةٍ إذا ترنّم فى ترجيعِ تَضويت[١]
لم يَثنِنِى اللّهوُ عن غِشيان مَوْرِدِها ولم أَكُنْ عن دَواعيها بِصِمِّيت[٢]

وهنا وسط هذه المناظر الباهرة والأنغام الساحرة ، بعيداً عن هموم الحياة وفى غفلة عن حركة الزمن ، كان يلذّ للشاعر الشرب ، وكأنه فاز بالرحيق فى جنة الخلد :

فنحن وإن لم نسكن الخُلْدَ عاجلاً فما خلدُنا فى الدّهر إلّا رَحيقُها

وهكذا كان أبو نواس فى تفتّح حسّه لأنواع اللذة حريصاً أشدّ الحرص على استيفاء المتعة . ومن ثمة إيثاره إلى جانب الحانات فى كرخ بغداد ، وحانات قُطْرَبُّل وطَيْزَناباذ[٣] ، فما زالت هذه وتلك متنزَّهاً للبطالين ومحلة للخمارين :

ومِلْ إلى مجلسٍ على شرفٍ بالكرخ بين الحديق مُعتمدِ[٤]
ممّهـدٍ صفِّفتْ نمارقُه فى ظلّ كرمٍ معرّشٍ خَضِد[٥]
قد لحفَتك الغصونَ أرْديةً فيومك الغضُّ بالنَّعيم نَدى

يا حبّذا مجلسٌ قد كان يجمعُنا بطَيْزَناباذَ فى بُستانِ عَمَّارِ

ومجلسِ خمارٍ إلى جنب حانةٍ بقُطْرَبُّلٍ بين الجنانِ الحدائقِ
تجاه ميادينٍ على جنباتها رياضٌ غدت محفوفةً بالشقائق

ومن الحكايات التى يحدثنا بها أبو نواس عن نفسه خبرٌ نسوقه إلى القراء على بساطة فحواه ، لما يُستدل من سياقه على ما كان للمواضع النزهة من فتنة للشاعر واستيلاء

---

(١) ملهية : مغنية عازفة . ترنم : تغنى . (٢) الصميت : الكثير الصمت .
(٣) طيز ناباذ ، ضبطها الطبرى وابن خرداذبة بفتح الطاء ، وضبطها ياقوت بكسرها .
(٤) شرف : المكان العالى . (٥) النمارق : الوسائد الصغيرة يتكأ عليها .
الخضد : المتهدل العاجز عن النهوض وحده .

على هواه . [أهدىَ للأمين أربعمائة دينار مُضمَّنة فى الدينار ديناران فوهبها لى . فقلتُ : « يأذن لى أمير المؤمنين فى المصير إلى قطربل ؟ » . فقال لى : « ويحك ! أتريد وجهاً أحسن منى ، أو أمثلَ قدراً وأعظم خطراً ، أو مكاناً أطيب من مكانى ، أو آلة أحسن من آلتى ، أو مجموعاً أحسن مما نحن فيه ؟ » . قلت : « لا ، يا أمير المؤمنين . ولكنى أريد أن أتنسم ذلك الهواء ، وأنظر ذلك الثرى . وليس لى بها مقام أكثر من ليلة واحدة ثم آتيك فى صبيحتها » .]

ولم يكن أبو نواس يبالى بُعد النقلة فى ارتياد هذه الحانات النزهة . حكى أبو الشبْل البرْجُمىّ : [اجتمعت بأبى نواس فى النوبختية . فسلمتُ عليه وسألته عن خبره ، وتحدثنا طويلاً . ثم قال مقترحاً : « أتساعدنى حتى نمضى إلى موضعٍ طيب ؟ » . فقلت : « أين هو ؟ » . قال : « بقطربل » فقلت « ضاقت الدنيا حتى نسافر ! » فقال لى : « إن هناك خماراً ظريفاً لبقا ، مساعداً ، عنده شرابٌ عتيق وغلمانٌ صِباح . فامض بنا » فمضيت معه حتى أتى حانة خمار . فقال لى : « أتعرفه ؟ » . قلت : « لا » . قال : « هذا ابنُ أذين الذى أقول فيه :

إسقنى يا ابنَ أذينٍ من شراب الزَّرَجونِ[1]
إسقنى حتى ترى بى جِنَّةً غيرَ جنون
قهوةً عُمِّيَ عنها ناظرًا رَيْبِ المَنون
عُتِّقتْ فى الدَّنِّ حتى هى فى رِقَّةِ دِينى
ثمَّ شُجَّت فأدارت فوقها مثلَ العُيون
حَدَقًا ترْنُو إلينا لم تُحجَّرْ بجفون[2]

(١) الزرجون كلمة فارسية مكونة من (زر) الذهب (كون) اللون إشارة إلى لون الشراب الذهبى . (٢) حجر : صارت حوله دائرة .

ذَهَباً يُثمرُ دُرّاً كلَّ إبّانٍ وحين
بيَدَىْ ساقٍ عليه حُلَّةٌ من ياسمين
وعَلَى الأُذْنين منـه وَردتا آذَرَيون(١)
غايةٌ فى الشَّـكل والظَّرْ فِ ، وفَرْدٌ فى المجُون
غنِّنى يا ابن أذينٍ « وَلهاَ بالماطرونِ »(٢)

فأقمنا عنده ثلاثة أيام فى أنزه موضعٍ ، ومع أ كيَس خادم ، ثم انصرفنا]

وكان أبو نواس — كما رأينا — يطيل مقامه أياماً فى الحانة من هذه الحانات المألوفة له الأثيرة عنده ، عاكفاً على الخمر مدمناً لها ، ولقد يأتى على ماله كله ولم يستوفِ شرابه ، فلا يبالى أن يرهن للخمار ثيابه :

إلى بيت حانٍ لا تهرّ كلابه علىّ ، ولا ينكرن طولَ ثوائى
فما رِمتهُ حتى أتى دون ما حوت يمينىَ ، حتى رَيطتى وحذائى(٣)

وكذلك كان الشاعر كثير الأسفار إلى طيزناباذ بين الكوفة والقادسية . وكانت من أنزه المواضع ، كثيرة الكروم ، تخرقها من كل ناحيةٍ الأنهار الآخذة من الفرات . وخمرها موصوفــة بالجودة كالشراب القطربلى . ومن أقوال النواسى فيها .

بطيزناباذ كرمٌ ما مررتُ به إلا تعجبتُ ممن يشرب الماء

---

(١) الآذريون : زهر أصفر . (٢) الماطرون : موضع بالشام قرب دمشق : والشاعر يطلب إلى ابن أذين هنا أن يغنيه أبياتاً ليزيد بن معاوية مطلعها .

آب هــذا الهم فاكتنعا وأمــر النــوم فامتنعـا

ومنها : ولهــا بالمــاطـرون إذا أكل النمــل الذى جمعــا

(٣) رام المكان يريمه : فارقه . الريطة : الثوب يلتحف به .

وقوله :

فتَّكتْنى طيزنابا ذُ ، وقد كنتُ تقيا
قد تركت الماء فيها وشربتُ الخسرَويا
أرضُ كرمٍ تجاب الدّهـ ـرَ شراباً سابريا

والشرابُ الذى يجاء به من طيزناباذَ منتهى كلِّ عيشِ

ولقد اشتهرت مجالس النواسى فى طيزناباذ حتى إنها بعد أن خربت ولم يبق بها إلا أثر قبابها ، شاعت تسميتها باسم « قباب أبى نواس »

وكانت أطيب حانات طيزناباذ وأحظاها لديه وآثرها عنده ، حانات ديرها المعروف بدير سرجيس ، وهو أحد البقاع المعمورة ونزُه الدنيا المقصودة . فقد كانت أرضه محفوفةً بالنخل والكروم والشجر ، وفى ظلالها الحانات والمعاصر. وقد بلغ من كثرة اختلاف الشاعر إلى هذا الدير ، ولهجه بخمره ، أن كان يسميه الناس « معصرة أبى نواس » . وممن ذكروه فى شعرهم الحسين بن الضحاك إذ يقول :

هل تعذران بدير سرجس صاحباً بالصحو ، أو تريان ذاك جُناحا

وطيزناباذ على طريق الحاجّ من بغداد إلى مكة . ومن أجل ذلك اقترن ذكرها بذكر الحج فى أشعار أبى نواس وأخباره أكثر من مرة

فى الطريق إلى الحج

حكى سليمان بن نوبخت : [خرجت للحج واستصحبت أبا نواس بعد امتناع منه ونفار . وشرط علىّ أن أتقدّم معه الحاج إلى القادسية ، فنقيم نشرب بطيزناباذ .

فنزل على خمار كان يألفه — اسمه سرجس — فشرب يومه وليلته . ثم انتبه يقول أبياتاً له مطلعها :

وخمارٍ أنختُ عليه ليلاً قلائصَ قد وَنينَ من السِّفارِ

ثم جلس يشرب . فلم يزل كذلك حتى ورد علينا أوائل الحجاج ، وحجوا ثم عادوا . فرحلنا معهم إلى بغداد على أننا كنا حجاجاً معهم]

وصاحبنا فيما قدَّمناه من حكايةِ حجه المزعوم ، إنما جرى على سنَّة أنداده وأصحاب الفضل فى إفساده ، أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس . فقد روى الشابشتى — فى الديارات — أنهما خرجا حاجيْن من بغداد ، فلما صارا بين الكوفة وحمَّام أعْين ، ولاح لهما على يمين طريق الحاج دير زُرارة — وكان نزهاً كثير الحانات — قال أحدهما لصاحبه : « هل لك أن نقدم أثقالنا ، ونمضى إلى زرارة ، ونشرب فى ديرها ليلتنا ، ونتزود من خمرها ونستوفى من مُردها ما يكفينا إلى العودة ، ثم نلحق بأثقالنا ؟ » . ففعلا . وسار الناس ، وأقاما . ولم يزل ذلك دأبهما إلى أن عاد الحاج . فحلقا رءوسهما ، وركبا بعيرَيْن ، ودخلا مع الحاج على أنهما قد حجَّا . وقال مطيع فى ذلك :

ألم ترنى ويحيى إذْ حججْنا وكان الحجّ من خير التجارهْ
خرجنا طالبَيْ خيرٍ ودينٍ فمال بنا الطريقُ إلى زُراره
فآب الناس قد غنموا وحجوا وأُبنا مُوقَرَيْن من الخساره

وهكذا كانت حوانيت الخمارين فى مواضعها النزهة فى ضواحى بغداد وفى طيزناباذ تفتن القوم عن دينهم ، وتعترض انصياعهم لأوامره وتشغلهم عن إقامة شعائره . ولعل أبلغ الشهادة على ذلك هاتان المقطوعتان لأبى نواس :

وقائلٍ « هل تريد الحجّ ؟ » قلت له « نعم ، إذا فنيت لذّات بغذاذ
أما وقُطْربلٌ منهـا بحيثُ أرى فقُبَّةَ الفِرْكِ من أكنافِ كلواذى
فالصالحيّةُ ، فالكَرخُ التى جمعت شُذّاذَ بغداد ماهم لى بشذّاذ
فكيف بالحجّ لى ما دمتُ مُنغمساً فى بيت قوّادةٍ أو بيت نبّاذ[1]
وهَبْكَ من قصف بغدادٍ تخلّصُنى كيف التخلص لى من طيزناباذ ؟ ! »

قالوا « تنسّك بعد الحج » قلت لهم « أرجو الإله وأخشى طيزناباذا
أخشى قُضَيِّبَ كرمٍ أن يُنازعنى فَضْل الخِطام وإن أسرعتُ إغذاذا
ما أبعد النسك من قلبٍ تقسّمه قطربلٌ، فقُرَى بُنَّى ، فكلواذَى
فإن سلمتُ — وما قلبى على ثقةٍ من السّلامة — لم أسلَمْ ببغذاذا
ما شئت من بلدٍ دانٍ منازهُه لـكنْ فيه قَبيلاتٍ وأفخاذا
قومٌ تواصَوْا بترك البرّ بينهم تقولُ ذا شرُّهم ، بل ذاك ، بل هذا
ليسوا كقوم إذا حاذيتَ مجلسَهم أنفذْتَ بالتّرْك والإزكانِ إنفاذا[2]
هناك لا تتخطّى الأذنَ لائمةٌ ولا ترى قائلاً من ذا ولا ماذا »

مجالس الشرب فى الأديرة

ولقد كثرت أوصاف أبى نواس وأمثاله لمجالس اجتمعوا فيها للشرب واللهو والقصف فى الدّيارات النصرانية فى أنحاء العراق والجزيرة والشام ومصر. ولا يكاد يخلو مصنّف فى أوصاف البلدان يتعرض لذكر الأديرة فى مواضعها من إيراد جملة صالحة من أخبار هذه المجالس وما قيل من الأشعار فيها .

والدير مقام الرهبان يتأبّدون فيه اعتزالا للناس وانقطاعاً لله بالعبادة والتأمل ، متنسكين زاهدين فى عَرَض الدنيا وطيبات الحياة ، متنزهين عن النساء وعن

---

(١) النباذ : بائع النبيذ . (٢) أزكن الشىء : ظن فيه ظنا فأصاب .

أ كل ذوات الأرواح وما يخرج منها إلا العسل والسمك . ويكون الدير كبيراً كثير المرافق والمحاريب ، فإذا كان صغيراً فقد يقال له الصومعة . ويقال للراهب الساكن الدير دَيّار ودَيْرانيّ ، وللراهبة دَيْرِيّة وديْرانيّة . والرهبان والرواهب يلازمون لبس المسوح وخدمة الدير . ولكل دير رئيسه القيم عليه . أما الكنيسة فهى مجتمع عامة النصارى للصلاة ، وليس فى ارتفاع بنائها طبقات . والبيعة أصغر منها . ورجال الكنيسة من شمامسة وقساوسة وأساقفة ليسوا كالرهبان فى التوحد والنسك ، وهم موكلون بخدمة الناس فى أمور العبادات من إقامة الصلوات ومناولة القربان وما شاكل ذلك .

والأديرة على خلاف الكنائس والبِيَع لا تكاد تكون فى الأمصار ، بل أكثر ما تكون بعيدة عن العمار ، فى ظواهر المدن وفى رءوس الجبال . وسواء كانت فى بسيط من الأرض أو على يفاع ، فإنها كانت تقام فى أجمل المواقع وأنزه البقاع . وهى تختلف فى بنائها وغلاّتها وطريق الوصول إليها بحسب مواضعها ومقتضى طبيعة الإقليم .

فهذا دير فى السهل تحف به الرياض الغنّاء الكثيرة المياه ، ومن حوله قلاليّ رهبانه يتعهد كل راهب منهم رقعة بستانه ، وقد ازدهرت فيه طرائف الرياحين وزكت أشجار الفاكهة وترعرعت أنواع البقول .

وهذا دير ثان على سفح ربوة من الربوات ، يركب الدجلة أو أعالى الفرات ، ترى عنده أرحية الطواحين يديرها الماء ، وحوله من الكروم ومن شجر الزيتون والرمان ومن الآس والنرجس والزعفران شىء كثير .

وهذا ثالث مشرف الذرى على قُنَّةِ جبل شامخ ، يبين للناظرين من عدة فراسخ ، بدَرَجٍ فى الصخر ، وقلاليه مبنية بعضها فوق بعض فى صعود الجبل ،

والماء ينحدر إليه من ينبوع ينصبّ من أعلاه ، وله صهريج يجتمع فيه ماء المطر ويجرى إليه ماء الينبوع فى أنابيب من صُفْر ، وفيه جنات من شجر البندق والفستق واللوز الفَرِك[1] ، وله مُشْتَرَف على سطح هيكله يطلّ على الجبل وعلى دجلة ، و بإزائه الجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها ، وهو غاية فى روعة المنظر ورقة الهواء .

ثم هذا عُمْرٌ كبير على حدود البادية كالحصن العظيم ، عليه سور محكم البنيان ، وبابه من حديد مُصْمت مفرط فى الكبر، وهو فى بقعة طيبة ذات مروج وغدران صافية وعين جارية ، وله سطح يُصعد إليه ، به مجلس أروع يشرف على سعة فضاء ، ومخاضر فيحاء .

وإذا نحن ذكرنا أن الخمر طِلْق عند النصارى مرخص فيها مما حدا شاعرنا المخمور أن يقول قوله المشهور :

خُذْها على دِين المسيح ، إذا نَهى   عن شربهـا دينُ النبىِّ محمدِ

وأن الخمر فوق ذلك تدخل عند النصارى فى أسرار القربان المقدس ومراسمه ، لم نعجب لهذا الذى نراه من عناية الأديرة بتوفير الكروم فيها ، واتخاذ المعاصر لها ، والخبرة بصناعة الخمر وإحكام تعتيقها ، حتى كان أمراء النصارى أنفسهم — مع ما فى قصورهم من الشراب الجيد — لا يضيعون فرصة للشرب من خمر الأديرة كلما أمكنت . وهى شهرة قديمة مثل قدم الأديرة . ومن ذلك ما يروى عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة . فقد كان فى كل أحدٍ وكل عيدٍ يركب إلى « دير اللجّ » ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه ، وعليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رءوسهم أكاليل الذهب ، وفى أوساطهم

---

(١) اللوز الفرك : المتفرك قشره وهو المتكسر .

الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب ، فإذا قضوا صلاتهم ، انصرف إلى مستشرفه على النجف فيشرب فيه بقية يومه إلى أن يمسى .

طراق الأديرة المسلمون

ولما كانت الأديرة — كما أسلفنا القول — تقع فى ظواهر البلاد وأرباضها وفى الخلوات والجبال والقفار ، فهى ثمة فى طريق المسافرين والخارجين للتصيد من ملوك وأمراء ، والمتطرحين فى طلب النزهة من أهل البطالة أو الجد . فكانوا يعدلون إليها أحياناً ، إذا المسافر أدركه الليل وخاف ركوبه والإدلاج فيه ، وإذا أصحاب الطرد والقنص أخذهم مطرٌ أو أجهدهم تعبٌ أو نال منهم عطش ، كما كان يعدل سواهم لغير هذا وذاك من دواعى التفرج والتنزه فى مشترفاتها وبساتينها . فكان من ثَمَّ أن تعوّد المسلمون الخلطة بالرهبان ولا سيما فى الدِّيَرَة التى لم تخصّص بها بيوتٌ للضيافة . وقد جرى الرهبان على إكرام هؤلاء الأضياف على حسب أقدارهم بالطعام الكثير والشراب العتيق. حكى إسحاق بن إبرهيم الموصلى قال : [خرجنا مع الرشيد نريد الرَّقة . فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم ، نزلنا وخرج يتصيّد وخرجنا معه ، فأَبعد فى طلب الصيد . ولاح لى ديرٌ فقصدتُه وقد تعبتُ ، فأشرفتُ على صاحبه فقال : « هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ » فقلت : « إى والله ! وإنى إلى ذلك لمحتاج » . فنزل ففتح لى الباب ، وجلس يحدّثنى . وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بنى أميّة . فجعل يحدثنى عمّن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم . وعرض علىّ الطعام فأجبته . فقدّم إلىّ طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيّباً ، فأكلت منه ، وأتانى بشراب وريحانٍ طرىّ ، فشربت منه . ووَكلَ بى جاريةً تخدمنى راهبةً لم أرَ أحسن وجهاً

منها ولا أشكل . فشربتُ حتى سكرت . ونمْتُ وانتبهتُ عشاءً . فقلت فى ذلك :

بِدَيرِ القائمِ الأقْصَى غزالٌ شادِنٌ أحْوَى
بَرَى حُبِّى له جِسْمى وَلا يَعلمُ ما ألقى
وأكتُمُ حبَّهُ جَهدى ولا واللهِ ما يخْفى

وركبتُ ، فلحقت بالمعسكر . والرشيد قد جلس للشرب وطلبنى فلم أُوجد . وأُخبرت بذلك، فغنّيت بالأبيات ودخلت عليه . فقال لى : «أين كنت؟ ويحك» فأخبرته بالخبر ، وغنيتهُ الصوتَ ، فطرب وشرب عليه حتى سكر . وأخَّر الرحيل فى غد . ومضينا إلى الدّيْر ، ونزله ، فرأى الشيخ واستنطقه ، ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس . فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ، ودعا بالشراب ، وأمر الجارية التى كانت بالأمس تخدمنى أن تتولى خدمتَه وسَقْيه . ففعلتْ . وشرب حتى طابت نفسه . ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين . ورحلنا] .

الخمر النصرانية

وكانت للأديرة تجارة ومعاملة مع الناس تبيعهم من غلّات مزارعها ، وخاصةً من خمرها ، للارتفاق بما يحصل من ثمنها فى مصالح الدير ، وتأديةِ ما قد يكون عليه من جبايات الخراج . وهذه التجارة لم يكن للدَّيَرة عنها مندوحة لأن الكثير منها لم تكن له وُقوفٌ للنفقة على مصالحه .

وهكذا كثُر شُرّاب الخمر من المسلمين الذين كانوا يقصدون إلى الديارات النصرانية لجودة الشراب ونظافة الآنية وطيب المكان . ومن الحكايات التى

كانت متداولة متواترة على ألسن أهل الحيرة ونقلها عنهم الرواة هذه الحكاية عن خمَّار في دير حَنّة الكبير يقال له مرعبداً . حكى مرعبداً قال : [ما شعرت يوماً وقد فتحتُ حانوتى وجلست إلى جانب الهيكل ، إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا فى طريق السَّماوة فى البَرّ ، حتى وقفوا علىّ ، وهم متلثّمون بعمائم الخزّ وعليهم حُلل القصب . فسلموا علىّ ، وأسفَر أحدهم وقال : « أنت مرعبدا ، وهذا دير حنَّة ؟ » . قلت « نعم » . قال : « قد وُصفتَ لنا بجودة الشراب والنظافة ، فاسقنى رطلاً » . فبادرت فغسلتُ يدى ، ثم نقرتُ الدّنان ونظرت أصفاها فبزلته . فشرب ، ومسحَ يده وفمه بالمنديل . ثم قال : « اسقنى آخر » . فغسلت يدى ، وتركت ذلك الدّنّ وذلك القدحَ والمنديلَ ، ونقرت دنًّا آخر . فلما رضيت صفاءه ، بزلتُ منه رطلاً فى قدح ، وأخذت منديلاً جديداً . فناولته إياه فشرب كالأول . ثم قال : « اسقنى رطلاً آخر » . فسقيته فى غير ذلك القدح وغير ذلك المنديل . فشرب ومسح فمه ويده . وقال لى : « بارك الله فيك ! فما أطيب شرابك وأنظفك وأحسنَ أدبك ! وما كان دأبى أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال . فلما رأيت نظافتك ، دعتنى نفسى إلى شرب رابعٍ ، فهاته ! » فناولته إياه على تلك السبيل . فشرب ، وقال : « لولا أسبابٌ تمنع من بيتك ، لكان حبيباً إلىّ جلوسى يومى هذا فيه » . وولّى منصرفاً فى الطريق الذى بدا منه . ورمى إلىّ أحد الراكبيْن اللذين كانا معه بكيس . فقلت : « وحقّ النصرانية ! لا قَبِلتُه حتى أعرف الرجلَ » . فقال : « هذا الوليد بن يزيد ابن عبد الملك . وُصفتَ له ، فأقبلَ من دمشق حتى شرب من شرابك ، ورأى ديرك والحيرةَ » . ثم انصرف . فحللت الكيس ، فإذا هو أربعمائة دينار] .

بين النظر والسماع

وكان هؤلاء الزوّار كثيراً ما يروعهم ويملك عليهم إعجابهم ما تكون عليه الأديرة القديمة — من العهود الرومانية البيزنطية — من حسن البناء ونفاسة العمارة ، ولطافة القباب وبهجة ألوانها ، وما فى سقوفها من الذهب و بدائع التصوير ، وما فى حيطانها من الفسافس وآزاج أبوابٍ فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة ، والهيكل المفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم ، وقناديل الفضة ، وصلبان الذهب ، وأخيراً — وليس آخراً — صورة مريم العذراء بالأصباغ الزاهية وفصوص الفُسيفساء فى غاية من إتقان الصنعة والبهاء ، تستوقف النظر منهم وتشغل الفكر ، حتى قال شعراؤهم فيها شعراً ، كالذى قاله أبو النصر البصرى فى صورة ببيعة مارسرجس فى نواحى بغداد :

فَتَنَتْنا صورةٌ فى بِيعَـةٍ فَتَنَ اللهُ الذى صوَّرَها
زادها النَّاقِشُ فى تحسينها فَضْلَ حسنٍ . إنه نضَّرها
وَجهُها لاشكَّ عندى فتنةٌ وكذا هِى عند مَن أبصرَها
أنا لِلقَسِّ عليها حاسدٌ ليْتَ غيرى عبثاً كسَّرها

وكقول محمد بن عاصم فى صورة بدَير القُصَير فى مصر :

صورةٌ من مصوِّرٍ فيـه ظلّتْ فتنـةً للقـلوبِ والأبصارِ
يفتُرُ الجسمُ حين ترْميه ـ حُسناً ـ بفنونٍ من طَرفها السَّحار
وإشاراتِها إلى مَن رَآها بخضـوعٍ وذِلَّةٍ وانكسار
لا ، وحسنِ العَيْنين والشفةِ اللَّمْـ ـياء منها ، وخدّها الجُلّنارى
لا تخلّفْتُ عن مَزارِى لِدَيرٍ هى فيـه ، ولوْ تناءى مَزارى

وقد بلغ من افتتان زوّار الأديرة المسلمين بأمثال هذه التصاوير الحسان أنهم كانوا يشربون على وجوهها :

كَمْ شربنا على التّصاويرِ فيه بِصِغارٍ مَحْثوثَةٍ وكبار

وكانوا إذا انصرفوا لم تبرح هذه الصور فى جمالها الحلو الرقيق ماثلةً فى أذهانهم، حتى صارت فى عداد التشابيه المتداولة المشتركة كلما أراد الواصفون أن يبلغوا الغاية فى وصف جمال مَن ينسِبون به . ومن ذلك قول النواسى :

شمِّرْ شبابَكَ فى قَتلى وتعذيبى فقد تَسرْبلْتَ ثوبَ الحسن والطيب

عَيناى تشهدُ أنّى عاشقٌ لكمُ يا دُميةً صوّروها فى المحاريب

ولم تكن مفاتنُ النظر مع الشراب كلَّ ما يشوق القوم ويحبّب إلى نفوسهم القصف فى الأديرة ، بل كان يهتاجهم ويحرّق أشواقهم ويزيدهم طرباً إلى الغَبوق فيها والصَّبوح ما كان يقرع آذانهم فى هدأة المساء وفى هدأة الصباح من ضرب النواقيس وتراتيل الرهبان أو الراهبات فى صلواتهم فى كنيسة الدير .

وللشعراء فى ذلك قول كثير نلخصه فيما يلى :

إشرَبْ على قَرْعِ النّواقيسِ أوْ صوْتِ قُسّانٍ وتَشميسِ

وهكذا فاشرَبْ وَإلاّ فكُنْ مُجاوِراً بعض النّواويس

كَمْ تنبَّهتُ من لَذاذةِ نوْمى بنعيرِ الرُّهبانِ فى الأسحارِ

والنّواقيسُ صائحاتٌ تُنادى : «حَىَّ — يا نائماً — على الابتِكار»

ألا هَلْ إلى دَيرِ العذارَى ونظرةٍ إلى الخيرِ — من قبل المات — سبيلُ

وهلْ لى بسوقِ القادسيَّةِ سَكْرَةٌ تُعلِّلُ نفسى ، والنَّسيمُ عَليل

وهلْ لِى بحاناتِ المطيرةِ وَقفةٌ   أراعِى خُروجَ الزِّقِّ وَهُوَ حَميل
إلى فتيةٍ ما شتَّتَ العذلُ شملهم   شِعارُهُمُ عنــد الصَّباحِ شَمول
وقد نطقَ النّاقوسُ بعد سكونهِ   وشَمْعَلَ قِسِّيسٌ، ولاحَ فَتيل (١)

وقد ذكر أبو نواس قرع النواقيس فى خمرياته أكثر من مرّة ، وأشار فى بعض أبياته إلى مواقيت قرعها عند الشروق .

وبالنَّاقوس فى البِيَعِ اللواتى   تُقامُ بها الصَّلاةُ لدَى الشُّروقِ

واستوفى ذلك فى قوله :

يُكرِّرون نواقيساً مُرَجَّعَةً   على الزَّبورِ بإمساء وإصباحِ

ولم يتورع الشاعر المسلم ، فى دولة الإسلام وصولته ، من المجاهرة فى هذه القصيدة بإيثاره ترجيع هذه النواقيس بإمساء وإصباح ، على صوت المؤذِّن فى مناداته : « حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح » . فأتبع الشقىُّ البيت السابق بقوله :

تَنأى بسمعِكَ عن صوتٍ تكرَّهَهُ   فلست تسمعُ فيــه صوتَ فَلَّاحِ

وبديهى أنه إنما يتكره صوتَ المؤذِّن لما فيه من تنبيه الغافلين مثله إلى تقصيرهم فى جانب الدين :

يا سُليمانُ غنِّــنِى   ومن الرَّاحِ فاسْقِنى
فإذا دارتِ الزُّجا   جةُ خُــذْها وأعطِنى
ما ترَى الصُّبحَ قد بدا   فى إزارٍ مُبَيَّنِ
عاطِنى كأسَ سَلوَةٍ   عن أذانِ المُؤذِّنِ

---

(١) شمعل بمعنى سعى جداً .

وفى مثل هذا المعنى قوله :

إذا ما دنا وقتُ الصلاةِ رَأَيْتَهُمْ　　يَحُثُّونها حتى تَفوتَهم سُكرا

ولقد كانت عادة القوم الكناية عن انقضاء الليل بصياح الديكة ، فإن كانوا إلى جوار الدَّيرة زادوا على ذلك ضرب النواقيس، مثل قول جرير فى دمشق

لَمَّا تذكَّرْتُ بالدَّيرينِ، أرَّقَنى　　صوتُ الدَّجاج وضربٌ بالنَّواقيسِ

وقد يستغنون بالنواقيس عن كل ماعداها ، ولا يصغون إلى صوت سواها ؛ كما نرى فى قول النواسىّ :

يا ليلةً طلعَتْ بالسعدِ أنجُمها　　فباتَ يَفتِكُ بالسكْرانِ سَكْرانُ

بِتْنا ندينُ لإبليسٍ بطاعتِهِ　　حتى نعَى الليْلَ بالنَّاقوسِ رُهْبان

وليس شىء أكثر من اقتران ذكر النواقيس بالشراب . فقد كان قرعها ينبّه أصحاب الشراب إلى حلول موعد الغَبوق ، فلا تكاد تهدأ النواقيسُ حتى يبادروا الليل المقبل بما هيئوا من مجلس أنيق وشراب عتيق، يدور عليهم بقدحه المشرق كالبدر ساقٍ كالبدر ، كما يحكى أبو نواس :

حتى إذا اشتملَ الظلامُ ببُرْدِهِ　　وَهدا حنينُ نواقسِ الرُّهبانِ

ألفيْتَهُ بدْراً يَلوحُ بِكفِّهِ　　بدْرٌ جمعتَهُما لِعَيْنِ الرّائى

ولما كان الذى جرى عليه أبو نواس ومن على شاكلته إذا اجتمعوا للشرب أن يُفنوا الليلةَ كلها فى المعاقرة ، فقد كان مجلس شرابهم يمتدّ بهم كما رأينا من وقتِ أن تقرع النواقيس فى الأصيل إلى أن تقرع النواقيس ثانيةً فى السحر ، وعندئذ يعمد شاعرنا إلى صَرْعى السكر حوله ينبّههم ليبادروا الصبوح معه :

تَرَى الكأسَ تَسعى بيننا فكأنما　　تَرَدَّدُ فيما بيننا فى الأصائلِ

فما بَرِحتْ حتى الصبَّاح يديرُها ويجرِى بنا فى كل حقٍّ وباطِل
فبينَ صريعٍ قدْ تجدَّلَ طافحاً إلى ذى وِسادٍ مائلِ الرّأس زائل
فلما رأيتُ الصُّبْحَ أسفرَ وَجهُهُ وحنَّتْ نواقيسُ الدُّجى فى الهَياكِل
طَفِقْتُ أُفدِّيه وأدعوهُ باسمِهِ فقال مُجيباً « ما تَشا ؟ » بتَثاقُل
فقلتُ له : « تفديكَ نفسى وأُسرتى ويَفديكَ طُرًّا كلُّ حافٍ وناعِل
ألستَ تَرى ضوْءَ الصَّباحِ ونورَه وتسمعُ تغريدَ الحمامِ الثَّواكِل ؟
فقُمْ فاصْطَبِحْها وانْفِ عنكَ خُمارَها فليسَ لها مثلُ الصَّبوحِ المُعاجِل »
فما زالَ حتى ذاقهـــا متكرِّهاً فرَدَّتْ إليـه رُوحَه فى المفاصِل
وحتَّى تغـــنَّى لاهياً مُتطرِّباً غِناءَ عميدِ القلْبِ نشـوانَ ناحِل
(خليليّ عُوجَا من صدورِ الرّواحِلِ بوَعساءِ حُزْوى فابكيا فى المنازِل)

فتنة الفتن

فالديارات النصرانية بما فيها وما حولها من المنازه ومن أسباب الفرجة والمتعة ، كانت تجتذب طائفة كبيرة من الزوّار المسلمين ، حتى كان يتخذها بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين مُستراداً للاستجمام واللهو بعيداً عن متاعب الحكم ، فيخرجون إليها ويقيمون فيها أياماً مع من يأنسون إليه من خوّاص الحاشية والندامى . كما كان أهل البطالة من الخلعاء والشعراء لا يصبرون على ارتيادها . وغنيّ عن البيان أن شراب الأديرة كان فتنتها الكبرى ، وإن كان يزيد فى هذه الفتنة ما كانت عليه الأديرة من النزهة وما كان من طيب مجلس الشراب فيها .

وكان عامة الناس يقصدون إلى الأديرة يمتارون من خمرها هذه التى اشتهرت بالجودة حتى زعموا أنها لا تورث الخمار . وكانت القوافل تحطّ كلّ يوم عند

بعضها لتأخذ خمراً تحمله فى الزّقاق إلى مُوَيديها الكثيرين فى المدن . ولقد بلغ الإقبال على خمر النّصارى فى الأقطار الإسلامية أن خصهم الخليفة الأموى الورع عمر بن عبد العزيز بالذّكر ، وعرض لأمرهم من جهتين ، فى كتابه إلى أيوب ابن شرحبيل : (. . . وما يشرب أولئك شرابهم الذى يستحلون ، إلاّ من أيدى النصارى الذين يهون عليهم زَيْغ المسلمين فى دينهم ودخولُهم فيما لا يحلّ لهم ، مع الذى يجمع نَفاقَ سِلعهم و يسارةَ المؤونة عليهم) .

وفى هذه المعتقة من خمر الأديرة يقول أبو نواس يصف وقدة لونها وسطعة ريحها وحرقة مَذاقها وشدة غولها من إحكام الصلابة وجودة التعتيق :

وَقَهْوَةٍ عُتِّقَتْ فى بَيتِ شَمّاسِ	تفترُّ فى كأسها عن ضوء مِقْباسِ
لوْلا مُداراةُ حاسِيها إذا اقْتَرَبَتْ	من فيهِ لانتهبَتْ من مُقْلةِ الحاسى
لهـا أليفانِ مِن لوْنٍ وَرائحةٍ	مَثْوَى مقرّهما فى العينِ وَالرّاس
مِزاجها دمعُ حاسِيها ، فأىّ فتًى	لمْ يبْكِ إذْ ذاقها مِن حُرْقةِ الكاس
سَلْمٌ ، وَلكنها حرْبٌ لِذائقِها	يا حبّذا بأسها ما كان مِن باس
نازعتُها فِتيةً غُرّاً غطارفةً	ليسوا إذا امْتُحِنوا يوماً بِنُكّاس

صورة مجملة للدير

يشتمل الدير على عدة من الأبنية ، وعليه فى غالب الأحوال كالحصن سور منيع يطيف به .

وفى المقدمة من الدير دار الضيافة ، و بها يُلِمّ المسافرون المجتازون ، وفيها يبيت الأضياف النازلون يوماً أو بضعة أيام . ولكل مَن طرق الدير من الناس

ضيافة قائمة على أقدار المضاف لا يُخَلّ بها . وإلى جانب دار الضيافة بيت القيِّم على الدير، والكنيسةُ .

ومن وراء ذلك جميعه يأتى مسكن الرهبان . وهنا تنقسم الأديرة نوعين على حسب ما يجرى عليه الرهبان فى معيشتهم . فإن كانوا على نظام المعيشة المشتركة — وهى الشائعة إلى زماننا فى الأقطار المسيحية — فمسكن الرهبان مبنى واحد فى مؤخر الدير مشترك بينهم لا ينفرد واحد منهم بشىء . فلهم جميعاً بيت للطعام، وبيت للمنام ، وخزانة كتب للتفقه فى الدين وفيها يشتغل بعضهم بنسخ الأسفار الدينية القديمة ، وجملة حجرات تعرف بالقلالى للعمل اليومى يزاولون فيها إلى جانب أعمال الزراعة ما يُحتاج إليه من الصناعات اليدوية الصغيرة . ولهذا المسكن العام فناء يدور حوله طوار لممشى الرهبان ساعة أو بعض ساعة من النهار . وإذا كان الدير للرهبان والرواهب ، كان فيه مسكنان، أحدهما للنساء والآخر للرجال. ومن وراء المساكن مرافق الدير المختلفة من مخازن غلاته ومعاصر كرومه وغيرها .

والأديرة التى كان يجرى نظامها على المعيشة المشتركة فى الشرق فى ذلك الحين تتمثل لنا فى دير متّى شرقىّ الموصل . فقد ذكر ياقوت فيما ذكره عن هذا الدير أن فيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام إلاّ جميعاً ، فى بيت الشتاء أو بيت الصيف ، وهما منقوران فى الصخر ، وكل بيت منهما يسع جميع الرهبان ، وفى كل بيت منهما عشرون مائدة منقورة من الصخر ، وفى ظهر كل مائدة منهن قُبالة برفوف وباب يغلق عليها ، وفى كل قبالة آلة المائدة التى تقابلها من غضارة وطوفرية وسُكُرّجة ، لا تختلط آلة هذه بآلة هذه . ولرأس ديرهم مائدة لطيفة على دكان لطيف فى صدر البيت يجلس عليها وحده . وجميع الموائد حجر ملصق بالأرض .

وأما الأديرة التى كانت تجرى على غير نظام المشاركة المطلقة ، فكانت كثيرة فى الشرق على ما يظهر . فإننا نجـد فى معظم ما أورده الشابشتى وياقوت وابن فضل الله العُمَرى فى أوصاف الأديرة أنه كان حولها للرهبان قلالى كثيرة، وهى قلالىّ منفصلة عن الدير قد انفرد كل راهب بواحدةٍ منها . والقِلّية (ويقال القَلّاية) بناء مرتفع دقيق الأسفل كالمنارة تكون لراهب ينفرد بها ، وقد لا يكون لها بابٌ ظاهر . والصومعة دونها . ويتبع كل قلية بستانٌ فيه البقول والرياحين والأشجار ذات الثمار ، يقوم الراهب على تعهد زراعتها والارتفاق ببيع غلتها . وقد ذكر الشابشتى أن الرهبان كانوا يتبايعون هذه القلالى بينهم بأثمـان بلغت فى بعض الأحيان ألف دينار ، وهذا الثمن للقلية منظورٌ فيه إلى ارتفاع ثمن الغلة وقتئذ حتى ليبلغ مائه دينار .

وقد جاء فى معجم البلدان لياقوت أن الرهبـان الذين لا قلالىّ لهم كانوا يسكنون بيوتاً صغاراً يقال لها الا كَيراح ، والواحد كِرْح .

فالأديرة من هذا النوع تختلف عن سابقتها فى العمارة وهندسة البناء للاختلاف بينها فى نظام المعيشة . فهناك حيث المشاركة نجد فى مؤخر الدير مبنًى عظيماً هو مسكن الرهبان المشترك يعيشون جميعاً تحت سقفه ، وهنا نجد حول الدير مجموعة من القلالىّ كباراً وصغاراً ، لكل راهب قليته الخاصة ، والسور محيط بها جميعاً .

فى دور الضيافة

وكان من الرسوم المصطلح عليها مع المسلمين أن يضيف النصارى من يمرّ بهم من المسلمين إذا لزم الحال أياماً . ولا شك عندنا فى أن معظم ما يُروى لنا من نوادر ماجنة وحكايات شائنة على أنها وقعت فى الأديرة ، إنما حقيقةُ مسرحها

دارُ الضيافة . فما نصدّق أن أهل التطرب والتطرح من الأمراء والشعراء كانوا يحملون القيان و يقيمون الأيام فى السكر وسماع الأغانى المبتذلة والعربدة على الجوارى والغلمان وهم وسط الرهبان . و إذا قيل إن أبا علىّ بن الرشيد كان مشتهراً بملازمة دير مريان والشرب فيه و إنه كان له قيان يحملهنّ إليه و يقيم به الأيام لا يفتر عزفاً وقصفاً ، و إنه كان شديد التهتك ، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونه منه . . . فإننا لنرجح أن مثل هذا ما كان يمكن أن يقع إلا فى دار الضيافة بجانبٍ من الدير .

ففى دار الضيافة إذنْ كان معظم القصف والعزف، وفيها كان السكر والعربدة ووقائع المجون والجنون .

مشارب القلايات

وكان بعض الرهبان أصحاب القلايات فى الأديرة يتخذون من قلاياتهم مشاربَ للخاصة من أهل الفن الأصدقاء أو السادة الوجهاء . ومن أولئك « قلاية القس » ، والقس الذى تنسب إليه من ملاح النصارى ، وكان ناسكاً ثم صار فاتكاً . وغنى عن البيان أنهم ليسوا كلهم كذلك . والخمر التى يقدمها صاحب القلية هى بطبيعة الحال من كروم بستانه ، وقد تولى تعتيقها فى زقاقه ودنانه ، ثم هو متجهِّز لقصاد الشراب عنده بالآنية اللطيفة النظيفة . وكانت أكثر مجالس أصحابنا عنده على سطح القلية يجلون الناظر والخاطر بما يُشرفون عليه من مناظر ، و يشربون على قراءة الرهابين فى الكنيسة وقرع النواقيس .

حكى الخباز البلدى : [اجتزت بدير بارقانا ـ وهو فى موضع نزهٍ ، راكبٌ لدجلة ، وقلاليه كثيرة الشجر والزهر — فرأيت من حسنه ونضارة شجره، مادعانى

إلى للقام به والقصف فيه . وسألت رهبانه عن الشرب. فدلّونى على راهب منهم ، فرأيتُه ظريفاً ، وقلايته مليحةً ، وشرابه صافياً جدًّا . فابتعت منه ، وأقمت عنده نهارى وليلتى] .

وحكى حمزة بن أبى سلامة : [كان الثروانى جارى بالكوفة ، وكان كثير الإلمام بالديرة . فباكرنى فى يوم شعانين ، وقال لى : « اعزم بنا اليوم على الشرب فى دير الحريق ، لأنه يوم سيقصده فيه خلق . ولى به صديق من رهبانه ظريف، مليح القلاية ، جيد الشراب . فهلم ، ننزه أعيننا فيما نراه من الجوارى والغلمان ، ثم نعدل إلى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان فى الحلى والحلل ما لم أر مثله قطّ . فلم يزل يعبث ويتعرض ويُقبّل ويعانق ـ وكان معروفاً بذلك فما أحدٌ ينكر عليه فعله ـ إلى ما بعد الظهر . ثم أتينا قلاية صديقه الراهب ؛ فلقيه بالإكرام والترحيب . فدخلنا قلّايته ، فما رأينا أنظف من آلته ولا أنضر من بستانها . ثم قدّم لنا شيئاً من طعامه ، فأصبنا منه . ثم صعدنا سطحها ، وجلسنا ننظر إلى منظرٍ يبهر حسناً وجمالاً ، من رياضٍ وغدرانٍ وطيرٍ يصفر ، ونحن نشرب حتى ثملنا ، ونمنا هناك] .

حانات الأديرة

ولقد كان من شأن هذا الإقبال على خمر الأديرة أن اتخذت الأديرة حاناتٍ لها تُباع فيها خمرُها ، لتُحفظ على بيوت العبادة عزلتها وتُصان لها حرمتها . ولما كان الدير تحفّه البساتين المزدهرة بالرياحين ويجتمع عنده الشجر والنخيل وعرائش الكروم وفى ظلها المعاصر ، فقد اتخذوا بين هذه المتنزهات فى ناحية

المعاصر حانةً لاحقةً بالدير تابعةً له . وعلى ذلكِ جرت معظم الديارات ، وإن لم يَخلُ الأمر مع هذا من ديارات غير متسعة الرقعة ولا كثيرة الطرّاق كانت تباع الخمر فيها لمن شاء المِيرَة منها .

وكانت هذه الحانات فى معظم الأحيان تعقد إدارتها للقساوسة أو الرهبان :

يا حبّذا حانةٌ بالكَرْخ تجمعُنا ... نُطيعُ فيها بشُرْب الخمر إبليسا
راحاً مُشَعْشَعَةً حمراء صافيةً ... بالكَرْخ عتّقها الدّهقانُ فادوسا
مُخالِفُ الدّينِ ، قد شابتْ ذَوائبُه ... يدعونَه النَّاسُ رَبّاناً وقسيسا

نَدبْتُ لها الخمّارَ فانصاعَ مسرعاً ... إلى عِدَّةٍ من حَنْتمٍ ودِنانِ [١]
دراستُه الإنجيلُ حولَ دنانِه ... بصيرٌ بَبَزْلِ الدنّ والكيلانِ
فوَدَّجها من جانبَيها كِليهما ... فلِلّهِ ماذا أبرَزَ الوَدَجانِ ! [٢]

وكثيراً ما كان يُعين الراهبَ الخمّارَ على الخدمة وتقديم الشراب بعضُ الفتيان من الرهبان ، وهم فى مسوح الرهبانية وعليها سود المدارع من صوفٍ خشن . وقد جاء وصفهم على لسان أبى نواس فى زيارته لدير حنّة بظاهر الكوفة :

يا طِيبَهُ ، وَعتيقُ الرّاحِ تَحفتهمْ ... بكلِّ نوعٍ من الكاساتِ رَحْراحِ [٣]
يَسقيكها مُدْمَجُ الخصْرَيْنِ ذُو هَيَفٍ ... أخو مَدارِعَ صوفٍ فوقَ أمساحِ [٤]

ولما كان القساوسة فى الشرق يتزوّجون ، فقد كان القس إذا تولّى الحانةَ من هذه الحانات استعان ببعض أهل بيته ، فتارةً أُمّه ، وتارةً زوجه ، وتارات ابنته

---

(١) الحنتم : الجرة الخضراء . (٢) الودج : عرق فى العنق ، وودجه : قطعه .
(٣) الرحراح : الواسع المنبسط القريب القعر . (٤) مدارع : جمع مدرعة وهى جبة مشقوقة المقدم ، وأمساح : جمع مسح وهو الكساء من شعر .

الجارية الجميلة ، وفى غالب الأحوال ابنُه الأمرد الشمَّاس ، يتخذ منهم الخازن والوزان والصَّيْرَفىّ والساقى . ولا بدع ، فهم موضع ثقته والمؤتمنون على ماله ، وأولى الناس بالغيرة على صلاح حاله . ثم إنهم — وهم عيالهُ وشركاؤه — لا يتكلف لهم من الأجر ما يكلِّفه أُجَراؤه .

ومن أقوال الشعراء :

شمَّاسُه هوَ وَزّانٌ ومُنْتقِدٌ وقَسُّه هوَ خمَّارٌ وكرّامُ[1]

سَقانِى ابنُ قِسيسها كأْسَها على زَوْرَةٍ من حبيبٍ أَلَمّْ

تُعلِّلُنى بالرّاحِ هَيفاءُ غادةٌ يُخالُ عليها للقُلوبِ كَفيلُ
أيا ابنةَ قَسٍّ الدَّيرِ ! قلبي مُدلَّهٌ عليكِ ، وجسمي مُذْ بَعُدْتِ عليلُ

وقال أبو نواس :

يا حبَّذا مَجْلسٌ قد كان يَجمعُنا بطيْزَناباذَ فى بُستانِ عَمَّارِ
وحبَّذا أُمُّ عَمَّار ورُؤْيتها ، خَمَّارةٌ أصبحت أُمًّا لخمَّارِ

ومُزَنّرٍ قد صَبَّ فى قارورةٍ ريقَ السَّحاب على النَّجيع القانى
شمسُ المدام بِكفِّه ، وبوَجهِهِ شمسُ الجمالِ ، فبينَنا شمسان
والشمسُ تطلُع من جِدارِ زُجاجها وتغيبُ حين تغيبُ فى الأبدان
فى مَجلسٍ جعل السرورُ جناحه ستراً له من ناظِر الحِدْثان
لا تطرُقُ الأسماعَ فى أرْجائهِ إلّا ترنُّمُ ألْسُنِ العيدان

---

(١) الكرام : صاحب الكرم .

أو صوتُ تصفيقِ الجليسِ تطرُّباً ، وبُكاءُ خابيةٍ ، وضِحْكُ قَنانى[١]
حتى إذا اشتمل الظلامُ ببُرْدِهِ وهَدا حنينُ نواقِسِ الرُّهبانِ
ألفيتَــهُ بَدْراً ، يلوحُ بكفِّهِ بدْرٌ ، جمعتهما لعيْن الرَّانى

ومن حانات الأديرة التى يتولاها القساوسة والشمامسة ، حانة عُمْر « نصر » بسامرّا . وكان الحسين بن الضحّاك الخليع الشاعر يختلف إليها و يألفها ، وكان خمارها يقال له يوشع ، و يتولى الخدمة فيها ابن له أمرد حسن الوجه شمَّاس . فكان الحسين يتألف الشيخَ الخمَّار من أجل ابنه حباً له . ومن قوله فى الفتى الشماس الخمَّار يذكر حفاوته بزوّار حانته ، و يصف حسن مشيته وهو يسعى فى خدمته ، مشيراً إلى قدّه المقدود تحت المسوح الدارسة السود :

خمَّارُ حانتها ، إن زُرْتَ حانتَه أذْكى مَجامِرَها بالعود والغارِ
يَهْتزُّ كالغُصْن فى سُلْبٍ مسوَّدةٍ كأنَّ دارِسها جِسمٌ من القار[٢]

ومِثْلُها حانة دير « مارت مريم » بالحيرة ، خمَّارها من قساوسة الدير يقال له يحيى ، يعاونه ابن له اسمه يوشع تألفه الفتيان ، وتستحب منادمته حين يشتغل الشيخ عنهم ليلاً بالتهجد والتعبّد . وفى ذلك قول بكر بن خارجة :

بِتْنا بمارَتِ مرْيَمِ سَقْياً لمارَتِ مريمِ!
ولقَسِّها « يحيى » المُهيْنِمِ بعد نوْم النُوَّمِ[٣]
ولِيُوشَعٍ والخمرِه حمراء مثلَ العَنْدَمِ[٤]
ولفتيةٍ حفّوا بهِ يَعصون لَوْمَ اللُّوَّمِ

---

(١) القنانى : جمع قنينة (الزجاجة) إناء من زجاج يجعل فيه الشراب .
(٢) السلاب : الثوب الأسود والجمع سلب (بضمتين) وقد يسكن . الدارس : البالى .
(٣) المهينم من الهينمة وهى الصوت الخفى . (٤) العندم : صبغ أحمر .

يسقيهم ظبيٌ أغنُّ لطيفُ غَلْقِ المعصم
يَرْمِى بعينيه القلو بَ كمثل رَمْى الأسْهُم

ولم تختصَّ بهذه الحانات أديرةُ الرهبان دون أديرة الراهبات . فثمة من أديرة النساء ما يعرف « بدير العذارى » وهو علَمٌ على أكثر من دير . وفى هذه الأديرة نساء عذارى قد ترهّبْنَ وأقمن بها للعبادة . ونخص منها بالذكر «دير العذارى» بين سامرّا و بغداد ، وهو فى موضع حسنٍ على دجلة ، كانت حوله حانات للخمارين و بساتين ومتنزهات ، لا يعدم من دخله أن يرى من رواهبه جواريَ حسانَ الوجوه والقدود والألحاظ والألفاظ . وقد ذكر الخالدى أنه اجتاز به ، وكان ذلك اليومُ عيداً له ، فرأى فى الحانات التى حوله خلقاً يشربون على الملاهى ، ورأى فى جُنَيْناتٍ لرواهبه جماعةً منهن يلقطن زهر العصفر ولا يماثل حمرة خدودهن . وقد ورد فى شعر النواسى ذكر « دير العذارى » فى مطلع قصيدة من قصائده الماجنة :

دَع الأمطارَ تعتورِ الدِّيارا ودُرْ عنها إلى دَيرِ العذارى

وفيه يقول جحظة البرمكى :

قالوا : « قميصُكَ مغمورٌ بآثارِ من المدامة ، والريحانِ ، والقار »
فقلت : « مَن كان مأواه ومسكنه دير العذارى ، لدى حانات خمار
وِسادُه يدُه ، والأرضُ مَفرشُه لا يستطيع لسكرٍ حَلَّ أزرار
لم يُنكر الناسُ منه أنّ حُلّته خضراء كالرّوض، أوحمراء كالنار»

ويحسن التنبيه هنا إلى أن بعض الأديرة كان يضم بين جدرانه الجنسين لكلٍّ ناحيةٌ مفردة له مختصة به . وهذا يفسر ذكر الشعراء للرهبان والرواهب فى وصفهم

للدير الواحد فى القصيدة الواحدة . ومن ذلك قول جحظة البرمكى فى دير قريب من دير العذارى يعرف بـ« دير العَلْث » وهو أيضاً على دجلة والوصول إليه بالسميريات ، وقد بلغ من شوق الشاعر إليه أنه يستبطىء القارب الذى ركبه إليه ، وفيه بدل النوتىّ نوتيّان ، فيطلب إليهما مع التجذيف نشر الشراع و إصلاح السُّكان :

أيها الجاذِفانِ ، بالله جِدّا واصلحا لِى الشِّراعَ والسُّكّانا
واحطُطَا لى الشراعَ بالدير بالعَلْـ ـثِ ، لعلِّى أُعاشر الرُّهبانا
وظباء يَتلون سِفراً من الإنجـ ـيلِ باكَرْنَ سُحْرةً قُرْبانا
لابساتٍ من المسوح ثياباً جعلَ الله تحتها أغصانا
خَفِراتٍ ، حتّى إذا دارتِ الكا سُ كشفنَ النحورَ والصلبانا

ثم إن رياسة هذه الأديرة كانت للرهبان . يشهد بذلك ما تقدم من أن صاحب « دير القائم الأقصى » بالرقة وَكَّل بالنازلين على الدير راهبة تخدمهم . فالدير كان للرجال والنساء ، وهو رئيسه وصاحب أمره . والذى نرجحه أن معظم أديرة النساء فى ذلك الحين كانت فى ناحية من أديرة الرجال داخلة فى أسوارها ، وعلى الخصوص فى المواضع المتطرحة تأميناً لنسائها من العدوان والسطو .

ولقد كانت حانات الأديرة لا تُنادى بالنهار وحده ، بل يطرقها السكارى أحياناً فى حلك الليل وسدفة السحر ، و إن تكن الحانة — كما يدل مفهوم هذه الأبيات — ملحقة بدير الراهبات ، وكانت إدارتها إلى عجوز من المتقشفات ، فى مسوحها الخشنة الباليات :

يا رُبَّ خمارةٍ بالعُمر حانتُها عادِيّةٍ ذاتِ أطمارٍ مهاريتِ[١]
فى روضةٍ من رياض العمر مشرقةٍ تنوح فيها مثاكيل الفواخيت[٢]
نبّهتُها سَحَراً واللّيــل مُعتــكرٌ والدِّيك يمزج تصفيقاً بتصويت
فأوجستْ خيفةً منى ، وما شعرت أنِّى طَروقٌ لِرَبّاتِ الحوانيت
فقلت: «لاتجزعى» قالت: «حسبتُكم طُرّاقَ ليــلٍ أرادونى لتبييتِ»
وقلت : «عندكِ خمرٌ تُمتِعين بها ، بِكرٌ ، وحظُّكِ عندى كلّ ماشيت؟»
قالت: «أُتيتَ المُنى من عانسٍ عُصرَت فى الدّن مُذ صاحبِ اليَقْطين والحوت»
فقلت: «ما إن لها غيرى ، فكيف بها؟ قالت «فأنّى بها؟» قلت لها: «إيتى»
فوَدَّجَتْ خصرَ دَنٍّ فى زجاجتها فأبرزت خمرةً فى لون ياقوت
فقلت لما رأيْتُ الشمس طالعةً تجلو الظلام : «ألا يا خمر حُيِّيت !»
ولم نزَل نتحساها مُشعْشَعــةً مَعْ كلِّ مُدَّرِعٍ بالحلم سِكّيت[٣]
ترى وجوهُهم منها إذا خضعوا للسكرِ تلمع كالبيضِ المصاليت[٤]
كأنها حين حلّ الماء مِئزَرَها شيبت بمسكٍ ذَكىِّ العَرف مَرفوت[٥]

فى الآحاد والأعياد

وكانت حانات الأديرة أعمر ما تكون فى الآحاد وفى الأعياد خاصة . وقد كان لكل دير عيد فى وقت من السنة ، عدا الأعياد المسيحية العامة .

---

(١) عادية : قديمة نسبة إلى عاد ، الأطمار : جمع طمر وهو الثوب البالى ، مهاريت : جمع مهروت ، يقال مهروت الفم أى واسع الشدقين ، والمراد أنها واسعة الحروق .
(٢) مثاكيل : جمع مثكال وهى من فقدت ولدها ، والفواخيت : جمع فاختة نوع من الحمام البرى. (٣) السكيت : كثير السكوت .
(٤) البيض المصاليت : السيوف الصقال المواضى . (٥) المرفوت : المكسور المدقوق .

وفى هذه الأعياد يخرج أصحاب البيعة فى موكب دينى ، وعلى حُللهم شارات الصليب ، و بين أيديهم الأعلام فوقها الصلبان ، و بأيديهم المجامر ، والقسوس والشمامسة يرتّلون أناشيدهم الكَنَسية على نغم واحدٍ متفق فى الألحان ، إلى أن يقضوا شعائرهم ، ثم يعودوا على هيئتهم .

وكان يخرج إلى هذه الأعياد جموع النصارى نساء وصبية ورجالا فى أحسن زى فى الحلل والحلىّ ، وكانت مواكبهم قبل العيد بيوم تُرى متزاحمة متدافعة تسيل بها الطرق ، يطلبون الدير خارج المدينة ليعيّدوا فيه ، وفى هذه المواكب كانت تتوالى على الناظر المتفرج وجوهٌ صِباح حِسان من نصرانيات عليهن أبهى الثياب وفاخر الجوهر ، مضمّخات بالروائح قد طُيّب الهواء منها ، وقد فُرش لهن على العَجَل وهو يُجرّ بهن ، وأُخريات مثلهن على المهارى الخراسانية والبغلات المصرية والحُمُر الفره ، ومشاة . . . وفى خلال ذلك صبيان لم يُر أحسن منهم وجوهاً وقدوداً وثياباً . وعلى الجملة كان منظر هـذه المواكب لا يُرى أبهج ولا أجمل منه . فكان من المسلمين خلق يخرجون للنظر والنزهة ، وهذا طبيعى مألوف . ولـكن السباقين منهم إلى هذه الأعياد المتفرغين لها المشاركين فيها كانوا أهل الرّفث المجان ، يتعرضون للجوارى والفتيان بالـكلام والمزاحمة فى الطريق والنظر الفاسق والعبث الخليع . و إلى القارئ مثالا على ذلك فى بعض أعياد الشعانين أو السعانين وهو المعروف بـ « أحد السّعف » على لسان شاعر من هؤلاء الماجنين :

خرجنا فى شعانين النّصارى   وشيّعنا صليبَ الجاثليقِ[1]
فلم أر منظراً أحلى بعينى   من المُتَقيّنات على الطريق[2]

---

(١) الجاثليق: متقدم الأساقفة .   (٢) المتقينات : المتزينات .

حَملنَ الخوصَ والزَّيتونَ حتى بلَغْن به إلى دير الحريق
أكلناهُنَّ باللَّحظاتِ عِشقاً وأضمرنا لَهُنَّ على الفسوق

ثم هم بعد ذلك يقضون أيام العيد كله فى حانات الدير ، وقد زينت مجالس الشراب بأنواع الرياحين من جنيناته ، و بيعت من زهره وثمره التحايا للشار بين يتهادونها ويُحيّون بها من يحبون . وقد يوافيهم هناك من على شا كلتهم من الخلعاء ، ومعهم معشوقات لهم حسان الوجوه والغناء . وعلى هذه الحال يقيم أصحابنا ها هنا يشربون ويقصفون وسط المردان والجوارى الحسان إلى آخر العيد وكانوا لا يعدمون أن يجدوا على المكان جماعة من القيان ، وما كانت أمثال هذه الفرص اتفوتهنّ ، فتُذبح الذبائح وتشرب الخمور على نغم الناى ونقر الطنابير والعيدان وأنواع الملاهى والأغانى مختلطةً بقرع النواقيس وقراءة الرهابين .

ومن الأعياد النصرانية التى ورد فى أشعارهم وأخبارهم ذكرها ، عيد الشعانين — وقد تقدم — وهو قبل الفصح بأسبوع ، وهو الأحد الأخير من الصوم الكبير ، واليوم الأول من أسبوع الآلام ، وفيه يبارك القس أغصان الشجر من الزيتون أو سعف النخل . وفيه يطوف النصارى كما رأينا طوافهم الرمزى تذكاراً لدخول المسيح إلى أورشليم ، وإشارة إلى ما كان من استقبال أتباعه له وفرشهم أرديتهم أمامه وقطعهم لأغصان الشجر يطرحونها فى طريقه احتفاء به وهم يهتفون بالعبرية « هوشعنا » أى خَلِّصنا .

وعيد الفصح وهو عند النصارى تذكار قيامة السيد المسيح من الموت — وعيد الباعوث وهو صلاة ثانى عيد الفصح — وعيد الصليب وهو تذكار لما وفقت له الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين أول الأباطرة الرومان النصارى من العثور فى قولهم على صليب المسيح فى مغارة بأورشليم .

وأما الأعياد الخاصة بكل دير من الأديرة ، فأشهرها عيد « دير أشمونى » . وأشمونى اسم المرأة القديسة التى بنى الدير باسمها ودفنت فيه . وعيد أشمونى فى اليوم الثالث من تشرين الأول وهو معروف ببغداد بأنه من أحسن الأعياد مقصودٌ للنزهة ، معمور بالقصف .

حكى جحظة فى عيده : خرجت فى عيد أشمونى ، فلما وصلت الشطَّ ، مددت عينى لأنظر موضعاً خالياً أصعد إليه أو رجلاً أنزل عليه . فرأيت قَينَتين من أحسن مَن رأيت . فقدَّمتُ سُمَيريَّتى نحوهما ، وقلت : « تأذنون لى فى الصعود إليكما ؟ » . فقالتا : « بالرحب والسعة » . فصعدت ، وقلت : « يا غلام ! طُنبورى ونبيذى » . فقالتا : « أما الطنبور فنعمْ ، وأما النبيذ فلا » . فجلست مع أحسن الناس خَلقاً وأخلاقاً وعِشرة ، فأخذتُ الطنبور وغنّيت بشعرٍ لى . فشربنا بالأرطال من نبيذ لهما . وطاب لنا الوقت إلى آخر النهار .

وحكى محمد بن المؤمل : كنت مع أبى العتاهية فى سُمَيريته ، ونحن سائرون إلى أشمونى . فسمع غناء من بعض تلك النواحى ، فاستحسنه وطرب له ، وقال لى : « أتحسن أن ترقص ؟ » . فقلت : « نعم » . فقال : « فقمْ بنا نرقص » . فقلت : « فى سُميرية ! أخاف أن نغرق » . فقال : « إن غرقنا ، أليس نكون شهداء الطرب » .

ولعلَّ أبلغ تصوير لهذا الطرب الذى يغالى به المتطربون إلى هذا الحد ما قاله جحظة فى دير الزَّندوَرْد شعراً :

سقياً ورعياً لدير الزندوَرْد وما يحوى ويجمعُ من راحٍ وريحانِ
ديرٌ تدور به الأقداحُ مُترعةً من كفّ ساقٍ مريض الطَّرْف وَسنان

والعود يتبعه ناىٌ يوافقه ... والشدوُ يحكمه غصنٌ من البان
والقوم فوضى ترى هذا يُقبّلُ ذا ... وذاك إنسانُ سوء فوق إنسان
هذا ، ودجلةُ للرائينَ مُعرَضةٌ ... والطيرُ يدعو هَديلاً بين أفنان
برٌ وبحرٌ ، فصيد البرِّ مُقترِبٌ ... والبحر يسبح شطّاه بحيتان

من منافع الغزل !

والذى انحدر إلينا على لسان هؤلاء المُجّان من غزل بالنصارى كثير .

وقد اشتهر منهم مدرك بن على الشيبانى بما كان من هيامه بعمرو بن يوحنا. واشتهر كذلك بكر بن خارجة بما قاله فى عشير بن البراء الصراف من نصارى الحيرة . وقبلهما اشتهر النواسى بما تناقله الناس عنه فى غلمان النصارى من أشعار تتميز عن غيرها من غزله الفاتر بما يغلب عليها خاصة من حرارة وجده وسَرَف مجونه حتى خرج فى بعضها عن عقله ودينه ، فاستوجب غضب أمير المؤمنين عليه وإيداعه المطبق مدة غير يسيرة . وذلك إذ يقول :

تمرُّ فأستحييك أن أتكلما ... ويَثنيكَ زَهوُ الحسنِ عن أنْ تُسلِّما
ويهتزُّ فى ثَوْبيكَ كلَّ عشيةٍ ... قضيبٌ من الريحان شبَّ مُنعَّما
بحسبكَ أنَّ الجسمَ قد شفَّه الضنى ... وأنَّ جفونى فيك قد ذرفتْ دَما
أليس عظيماً عند كلِّ مُوَحِّدٍ ... غزالٌ مسيحىٌ يُعذِّب مُسلما
فلولا دخولُ النارِ بعد بصيرةٍ ... عَبدتُ مكانَ الله عيسى بنَ مريَما

ثم قوله ، وهو شرٌّ من سابقه :

ومُلِحَّةٍ بالعذلِ ذاتِ نصيحةٍ ... ترجو إنابةَ ذِى مُجونٍ مارقِ

بَكَرَتْ تبصِّرُنى الرّشادَ ، وشيمتى غيرُ الرشادِ ومذهبى وخلائقى
لما ألحَّتْ فى العتابِ زَجرتها فتأخَّرتْ عنى بقلب خافق
كم رُضتُ قلبى — فاعلمى — وزَجرتُه فرأى اتّباعَ الرشد غير موافق
ومدامةٍ مثل الخلوق عتيقةٍ حُجبت زماناً فى كنائس دابق
باكرتُها من كفِّ أغيدَ شادنٍ حسنِ التنعُّم ، فوق سؤْلِ العاشق
مُتعقربِ الصُّدغين ، فى لحظاتهِ فِتنٌ لنا مقرونةٌ ببوائِق
مُتَخَرْسِنٍ ، دينُ النصارى دينه ذى قُرطقٍ لم يتصلْ بينائق
لبقٍ ، بديع الحسن ، لو كلَّمتَه لنبذتَ دينك كلَّه من حالِق
واللهِ لولا أننى متخوِّفٌ أن أُبتلى بإمامِ جورٍ فاسق
لتبعتُه فى دينه ودخلته ببصيرةٍ فيه دخولَ الوامق
إنِّى لأعلم أنَّ ربِّى لم يكن ليَخُصَّه إلا بدينٍ صادق

ولم تقف هذه الجماعة عند التغزل بعوامّ النصارى ، بل كان غزلهم شاملا جامعاً يدخل فى بابه وينسلك فى نظمه الرواهب الحسان والشمامسة الشبان[1] . على أن الأحجى بقرّاء الشعر أن يحملوا أكثر ما ورد فى قول الشعراء فى هذا الشأن على أنه أمنية المتمنى واختراع الخيال المريض . ونحن نسوق من بين الحكايات المروية هذه الحكاية على أنها أقربها إلى الصدق واللياقة ، وأدلها على نوع تلك العلاقة .

حكى جحظة : أحَبّ إبراهيم بن المدبر أن يرى دير حَنّة بالأكيراح ، فتقدم إلى غلمانه بإعداد ما يُحتاج إليه . وخرجنا حتى وافينا الدير ، فضُربت لنا خيام

(١) ذكر ريموند جانين أن الرسم عندهم ألا تقل سن الشماس عن الثامنة عشرة ، ومع ذلك كان فى الشمامسة عدد ليس بالقليل دون سن الحلم .

عنده ، فأكلنا وجلسنا نشرب . وغنيتُه بشعر أبى نواس فى الدير فبينما نحن كذلك ، إذ اجتاز بنا غلام عارضه كأنه بدرٌ على غصن ، ومعه مصحفٌ من مصاحف النصارى ، كامل العقل ، ساحر اللحظ واللفظ ، فشرب ابن المدبر على وجهه رطلاً ، وسقاه قدحاً . واستأذنه الغلام فى النهوض ، وقال : « معى مصحف لا تتم للرهبان صلاةٌ إلا بحضوره . وهذا وقت صلاتهم ، وقد ضربوا الناقوس منذ ساعة » . فأخذ ابن المدبر عليه العهد فى الرجوع إليه ، وأمر له بمائة دينار .

وعمل جحظة فى ذلك شعراً صنع فيه لحناً :

فَدَيتُ من مَرّ بنا مُسرعاً يسعى إلى الدّير بأسفارِه
خدمتُ ربّ الدير من أجلهِ حتّى كأنّى بعضُ أحبارِه
حيّرنى تفتيرُ أجفانه وحلّ عَقدى عَقد زُنّاره
حذّرنى النارَ ، ولم يدرِ ما فى القلبِ والأحشاء من ناره

والذى يعنينا هنا فى شأن هذا الغزل أن القارئ له يدرك مقدار ما أفاده أصحابنا — لطول تردّدهم على الأديرة وشهودهم للمهرجانات النصرانية — من وقوفٍ على شعائر القوم ومناسكهم ، وإلمام بأساطيرهم ومعتقداتهم ، وإحاطةٍ بأسماء قِدّيسيهم ومعابدهم ومواسم أعيادهم ، واستظهارٍ لمصطلحاتهم ورموز كلامهم وصيغ أقسامهم ، وغير ذلك مما لا يخلو بعضه من فائدة عند الذين يعنون بدراسة الكنيسة الشرقية فى الشام والجزيرة والعراق ومصر ، على الرغم من موضوع هذه الأشعار وانصرافها إلى المجون .

ومن الغزل النصرانى قول أبى نواس :

يا ديرَ حنّةَ من ذاتِ الأكيراحِ من يصحُ عنكَ فإنّى لستُ بالصّاحى

رأيتُ فيكَ ظِباءً لا قرونَ لها ... يلعبْنَ منّا بألبابٍ وأرواح

ومُعقرَبِ الأصداغ يهتكُ لحظُه ... عن كلِّ مكنونٍ من الأسرارِ
أحوَى، أغنّ، مُزَنّرٍ، ذى رَونقٍ ... حسنِ التّشكلِ من بنى عَمّار

إنى هَوِيتُ حبيباً لستُ أذكرُهُ ... إلا تبادَرَ ماءُ العين ينسكِبُ
مزنّرٌ يتمشّى نحو بِيعتــه ... إلهُه الابنُ ـ فيما قال ـ والصُّلُب
يا ليتنى القسُّ، أو مَطْرانُ بيعته ... أو ليتنى عنده الإنجيلُ والكتب
أو ليتنى كنتُ قُرباناً يُقرِّبه ... أو كأس خمرته، أو ليتنى الحَبَبُ
كَيْما أفوز بقربٍ منه ينفعُنى ... وينجلى سَقَمى والبثُّ والكُرَب

وكان للنواسى وأمثاله ولع شديد بالزنار المفروض على النصارى شدُّه إلى أوساطهم، فلم يكن شىء أكثر منه تردداً فى شعرهم، لأن شيئاً لم يكن يروقهم ويعجبهم منظره فى المزنَّر مثل ما يبدو من دقة خصره، وقَطْع الزنار بين خصره وردفه.

بكفٍّ مُزنّرٍ أعلاه غُصنٌ ... وأسفلُ خصْرِه رِدفٌ ثقيلُ

على أن أخص خصائص غزل شاعرنا الماجن بالنصارى ذلك الاستعطاف الذى يصطنعه لمن تَيمه قلبه وشفّه حبه منهم مناشداً له مستحلفاً إياه بكل ما هو معبود عندهم مقدس فى دينهم:

بحقِّ دينِ النّصارى ... عليكَ فى الأديانِ
وبالمســيحِ ولُوقَا ... ويُوحَنّا المِعْمــدان
لمّا رَحِمْتَ اشتكائى ... لطرفِكَ الفتّـــان

بعيسىَ لم يُرِقْ يوماً دماءً ولا عن غادةٍ كَشفَ الإزارا

بِعَمُودِيَّة الدِّين العتيقِ بمُطْرُ بُلِيطِها ، بالجاثَلِيقِ (١)

بِشَمْعونٍ ، بِيُوحَنَّا ، بِمَتّى ، بمارى سَرْجِس َالقَسِّ الشفيق

بمارتِ مَرْيَمٍ ،و بيوم ِفِصْحٍ ، وباعوثٍ لتأدية الحقوق (٢)

وأيَّامِ السَّمانين المُبدَّى وشَمْعَلَةِ النَّصارى فى الطريق (٣)

بهَيْكَل أسقفٍ ، وبمايليه ، ونشر البَندِ والعلَم الخفوق

وبالصُّلبان ترفَعُها رماحٌ تلألا ، حين تُومِضُ بالبروق

وبالنَّاقُوس فى البِيَع اللَّواتى تقامُ بها الصَّلاةُ لدى الشُّروق

بداودٍ وما يَتلُونَ منه بتَرجيعٍ يُرَدَّدُ فى الحُلوق

بقلّاياتِ دُومَةَ ، بالمقاسِى ومَذْبَحِ دَيرِها الحسنِ الأنيق

ورُهانِ الصَّوامع فى ذُراها مُقامهمُ على جهدٍ وضِيق

بكُنْسِ الرُّومِ والشَّاماتِ طُرَّاً بقُسْطَنطِينَةَ البلدِ السحيق

لقدأصبحتَ زينةَ كلِّ عيدٍ ودينٍ ، مَعْ جفائكَ والعقوق

صورة جديدة لحياة الرهبانية

على أن هذه الزيارات غير المباركات للأديرة لم تخلُ فى بعض الأوقات أن

---

(١) المطر بليط Metropolite مأخوذ عن اليونانية : المطران وهو دون الجاثليق Catholicos وفيما يلى بيان المراتب الكنسية : فأدناها الشماس وهو القارئ للإنجيل المساعد فى القداس ثم القسيس ولا يزال قسيساً ما دام عنده زوجة وإن بلغ فى العلم ما بلغ ، ثم الأسقف ، فالمطران فالجاثليق وهو رئيس للنصارى وكان بمدينة السلام (بغداد) كرسى للجاثليق ، ثم البطرك وهو كبيرهم وينتخب البطرك من طائفة الرهبان . (٢) الفصح : العيد الأكبر وهو ختام الصوم الكبير . الباعوث عيد للنصارى كالاستسقاء للمسلمين . (٣) السمانين أو الشمانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

تُوقع فى نفس هذا الماجن من الارتسامات والانطباعات ما يستوقف القارئ لحظةً يتأمل ما فى الحياة البشرية وما فى النفس الإنسانية من عجائب وفوارق ومناقضات . ولقد مرّ بالقارئ كيف صارت الأديرة النصرانية حيناً من الدهر فى الشرق الإسلامى متعبَّدات وحانات . ونحن نسوق إلى القارئ هنا مشهداً آخر من هذه المفارقات لا يقلّ غرابة وعجباً ، وهو مشهد أبى نواس — أشدّ طلاب اللذة استهتاراً بها واستغراقاً فيها — يصف فى لهجة جدية كلها تقدير وتوقير، غير ماجنٍ ولا ساخرٍ ، حياةَ الرهبانية فى دير حنّة بالأكيراح :

دعِ البساتينَ من آسٍ وتُفّاحِ واعدِلْ - هُديتَ - إلى ذاتِ الأكيراحِ
اعدلْ إلى نَفَرٍ دَقَّتْ شخوصُهُمُ من العبادة إلّا نِضْوِ أشباحِ
يكرّرون نواقيساً مرجَّعةً على الزّبور بإمساءٍ وإصباحِ
تَبْعُدْ بسمعكَ عن صوتٍ تكرّههُ فلستَ تسمع فيه صوتَ فَلّاحِ
إلّا الدراسةَ للإنجيلِ من كُتُبٍ ذِكْرَ المسيحِ بإبلاجٍ وإفصاحِ

دعِ التّشاغل باللّذاتِ يا صاحِ من العُكوف على الرّيحانِ والرّاحِ
واعدِلْ إلى فِتيةٍ ذابت نفوسهمُ من العبادة نُحفِ الجسم أطلاحِ
لم يَبْقَ منهم لرائيهم إذا حصلوا — حِذارَ ما خوّفوه — غيرُ أشباحِ
تلقَى بهم كلّ مَحْفُوٍّ مَفارقُهُ من الدّهان ، عليه سَحْقُ أمساحِ(١)
لا يَدلِفون إلى ماءٍ بآنيةٍ إلّا اغترافاً من الغُدْران بالرّاحِ(٢)

وإننا لنتمثل فى هذه الأبيات مبلغ ما وقع فى نفس النواسى من منظر هذه

---

(١) حفا شاربه : بالغ فى أخذه . السحق الثوب البالى .
(٢) دلف : مشى مشى المقيد ، وفوق الدبيب .

الجماعات وقد آثروا التأبد والتوحد فى الأديرة بعيداً عن زحمة الحياة ومجالى العمران للنجاة بأنفسهم من غوايات الدنيا وأحابيلها ، ثم الاستظهار — وقد خلصوا من غواية المجتمع حولهم — على ما لم يزل بهم من نزعات الجسد، مستعينين على قهره بأنواع الرياضات من تقشف ٍ وصيامٍ ، وتهجدٍ بالليل وقيام بالسَّحَر يصلّون ، ويقرءون التوراة والأناجيل ويترنمون بالزبور إلى آخر ما هنالك من العبادات .

على أنه لا محل للعجب وهذا ديوان الشاعر بين أيدينا طافحٌ بالخمريات ، ولم يخل مع هـذا كله من باب فى الزهديات . والمرء شـديد الالتفات إلى ما ينقصه كثير الاحتفال بما يعز عليه دركه . وأبو نواس طالب لذة لا صبر له عنها ، ولا همّ له إلا مبادرتها ، ولا نُجْحَ يعرفه إلا فى إصابتها . وهنا تلك الجماعة من الرّهابين وهم بشرٌ مثله من لحم ودم ، و بطباعهم من الغرائز النزوعية مثل ما به ، وفيهم شبانٌ فى ريعان الصبا وعنفوان القوة . وهو يراهم — مع ذلك — على هذه الهيئة التى أتى على وصفها من التقشف ونبذ أسباب التنعم والراحة ، والزهد فى طيّبات العيش ، ورفض دنيا اللذة التى يحرص عليها ويهيم بهـا ولا يجد للحياة معنى بغيرها . فـكيف لا يكون لصاحبنا هذه المواقف التى وقفها بإزائهم ، يتأمل فى أفعالهم ويتعجب من حالهم ! ومَن أولى منـه بالتأمل والتعجب ، وهذا مقدار الخُلْف بينه و بينهم فى النظرة إلى الحياة ، وهذه سَمة الشقة بينه و بينهم فى مَنْحى السلوك والسيرة !

الـكنائس الشرقية

ومعلوم أن الكنائس الشرقية كانت منذ القرن الخامس الميلادى تتبع ثلاث شيع : شيعة الكنيسة الرومية ، ويُنعتون فى مصر والشام وغيرهما من أعمال

الإمبراطورية البيزنطية بالملكانية لتشيعهم للأمبراطور وكنيسة الدولة الرسمية.
ويخالفهم شيعة القائلين بأن فى السيد المسيح طبيعتين منفصلتين إلهية وبشرية، وهم النسطورية [1] الغالبة على نصارى العراق والموصل وفارس وخراسان وما وراءها. ويخالف هؤلاء وهؤلاء شيعة القائلين بالطبيعة الواحدة من طبيعتين متحدتين، وهم أتباع الكنيسة الأرمنية، واليعقوبيّة [2] الغالبة على نصارى مصر (وتتبعها الحبشة) ونصارى الشام، أو بعبارة أخرى القبط والسريان الأرثوذكس. وبديهى أن يكون النصارى المقربون إلى خلفاء بغداد والداخلون فى خدمتهم — أطباء ونقلة أدباء — من تلك الطوائف الخارجين على الكنيسة البيزنطية، لبعدهم عن مظنة التجسس للعدو وممالأته فيما كان بين المسلمين والروم من حروب ومناوشات لا تفتأ دائرة متواترة عند العواصم والثغور.

ويتبين مما تقدم عن طوائف النصرانية أن الأديرة التى جاء ذكرها على لسان أبى نواس شاعر العراق معظمها من أديرة النساطرة.

وغنىّ عن القول أن هذا التقسيم على صحته ليس يفيد بحال أن هنالك حدوداً إقليمية قاطعة مانعة لكل شيعة من هذه الشيع. فالملكانية واليعقوبية لا تخلو أرض العراق والجزيرة منهما. ولقد كان على أربعة فراسخ من الموصل فى الجانب الغربى من أعمال الحديثة «دير القيّارة» لليعقوبية، كذلك جاء عن «دير

---

(١) سموا بالنسطورية أو النساطرة نسبة إلى نسطوريوس أسقف القسطنطينية فى القرن الخامس وهو صاحب القول بالطبيعتين وقد عارضه كيرلس أسقف الإسكندرية ولكن أسقف أنطاكية انتصر له وكان من ذلك ما كان وقتئذ من انشقاق الكنيسة.

(٢) سموا باليعقوبية أو اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرذعانى أسقف كرسى أذاسا وهى الرها عند العرب وأورفا عند الترك، ومن أعماله الشام والجزيرة وآسيا الصغرى، وقد أقامته الإمبراطورة تيودورا فى القرن السادس الميلادى إجابة لرغبة الحارث بن جبلة الغسانى الذى ألح فى إقامة أسقف من القائلين بالطبيعة الواحدة. ويذهب اليعاقبة المحدثون إلى أن نسبة الاسم إلى مار يعقوب الرسول.

مَرْيُحَنَّا » إلى جانب تكريت على دجلة وهو للنسطورية أنه كان على بابه صومعة لرجل من الملكانية يقال له عبدون الراهب . وتكريت فيما يذكر ابن حوقل كانت تجمع سائر فرق النصارى . وجاء فى الكلام عن البيعة الكبيرة المعروفة بـ « دير الروم » ببغداد فى الجانب الشرقى منها أنها للنسطورية خاصة وأنها كانت تجاورها بيعة لليعقوبية مفردة لهم . وقد روى الشابشتى أن كل دير لليعقوبية والملكانية عنده قائم ، وأن ديارات النسطورية لا قائم لها . والقائم منارة عالية كالمرقب . ولعلنا لانخطىء إذا زعمنا أنه الأصل فى المنارات التى دخلت بعد ذلك فى عمارة الكنائس عند النصارى عموماً . ولقد كان أول ظهور هذه المنارات فى العراق عند البابليين ، فكان إلى جانب معبد البابلى برج قائم وعنهم أخذه الأشوريون كما كشف عن ذلك المنقبون فى أرض آشور حديثاً .

الأديرة المشهورة فى أرض الحيرة

وأكثر ما كانت الأديرة فى العراق بأرض الحيرة . ولا غرابة ، فقد كان من ملوكها قبل الإسلام من تركوا الوثنية إلى المسيحية . وقد بنوا وبنى ولدهم البيعَ والصوامع ، وانتشرت فى أيامهم النصرانية بين أهل الحيرة ، حتى فتحها المسلمون بإمرة خالد بن الوليد .

ومن أقدم دياراتها « دير هند الكبرى » زوجة المنذر الثالث (٥١٤ — ٥٦٣م) م المعروف بابن ماء السماء وهى أُمّه . وهند المذكورة بنت الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار الكندى ، وكانت مسيحية . وقد بثت الأم تعاليم الدين المسيحى فى ابنها عمرو المعروف بابن هند ، فنشأ نصرانيًّا . وفى مُلك ابنها بَنَتْ هذا الدير ، وكان منقوشاً فى صدره هذه الكتابة :

« بَنَتْ هذه البِيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر ،

« الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ،

« أمَة المسيح ، وأمُّ عبده ، و بنت عبيده ،

« فى مُلك مَلك الأملاك خسرو أنو شروان ، فى زمن مار أفريم الأسقف .

« فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ،

« و يترحم عليها وعلى ولدها ، الدهرَ الداهر »

وكثرت الديارات فى عهد النعمان الثالث (الأصغر) ابن المنذر الملقب بأبى قابوس (٥٨٥ — ٦١٣ م) وكان النعمان على الوثنية يذبح للأصنام فما زال عدى بن زيد الشاعر النصرانى العبادىّ يرغبه فى النصرانية حتى تنصَّر . وكان تعميده على يد الجاثليق صبريشوع . و بنى النعمانُ فيما بنى من الديارات فى الحيرة فى أيام مملكته « دير اللُّجّ » فى ظاهرها ، ولم يكن فى ديارات الحيرة أحسن بناء منه ولا أنزه موضعاً لما يُطيف به من البساتين . وكان النعمان يأتيه يتعبَّد فيه ، و يستشفى به فى مرضه .

و يأتى بعد دير اللج « دير هند الصغرى » وهى الُحرَقة هند بنت النعمان . وكانت هند من أجمل نساء أهلها وزمانها ، رآها عدىّ بن زيد فافتتن بها وتزوجها . وعدىّ كما نعلم كان حضريًّا من أهل الحيرة ، تعلم فى حداثته الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها ، وقال الشعر وكان من أفصح الناس بالعربية ، وتعلم الرَّمىَ بالنشَّاب فخرج من الأساورة الرُّماة ، وتعلّم لعب العجم على الخيل بالصوالجة ، وكان إلى هذا جميعه جميل الوجه فائق الحسن. فلحق بديوان كسرى أنو شروان بالمدائن . فكان أول كاتبٍ فيه بالعربية، وعلت منزلتُه حتى كان يؤذن له عليه فى الخاصة وحتى صار صاحب سفارته إلى العرب والروم .

والقارئ لحياة هند يتمثل صورة حية للكنائس والبيع . فقد بدأت هند سعادتها فى ظل هذا الحرم المقدس ، وفى ظل هذا الحرم المقدس ختمت حياتها ولا مندوحة لذلك من عرض قصتها .

كان عدى بن زيد بعد وفاة كسرى أنو شروان وولاية ابنه هرمز قد قدم الحيرة يحمل هدية من عاهل الفرس إلى ملك الحيرة الذى وليها وقتئذ (نحو ٥٨٢ ميلادية) وهو المنذر بن المنذر والد النعمان وجد هند . وكانت هند بنت النعمان — ولها حينئذ إحدى عشرة سنة — قد خرجت ومعها جواريها فى خميس الفصح تتقرب فى البيعة . فاتفق حين دخولها البيعة أن دخلها عدى ليتقرب ، وكانت مديدة القامة عبلة الجسم ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ووقعت هند فى نفس عدى وأخذت بقلبه . ولبث عدى حولاً لا يخبر بذلك أحداً . ثم غلبه الوجد ، فجعل وسيلته إحدى جواريها ، فحببت إليها أن تزور بيعة توماً و بادرت الجارية إلى عدى ، فأخبرته الخبر وموعد الزيارة . فمضى إلى البيعة ومعه جماعة من فتيان الحيرة وقد تأنق فى مظهره وارتدى أفخر ثيابه يلمقاً مذهباً لم يُرَ مثله حُسناً . وكان عدى وضىء الطلعة ، مديد القامه ، حلو العينين ، لطيف المبسم ، نقى الثغر . فلما رأته هند من قريب وهو يمازح الفتيان الذين معه ، وقد برع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، ذهلت لما رأته وعلقت نفسها به وهويته وأتى عدى أباها النعمان[1] وخطبها إليه ، فأجابه لعلمه شغف كل منهما بصاحبه وزوجه منها وضمها إليه .

---

(١) ورد فى الأغانى جزء ثالث فى ترجمة عدى بن زيد أنه لما ملك المنذر جعل ابنه النعمان ابن المنذر فى حجر عدى بن زيد . وهذا القول يجعل عدى شيخاً فى ذلك الحين . ولعل تحرير عبارة الأغانى (فى حجر آل عدى بن زيد) يؤيده قول الأغانى فى بقية الحديث « فهم الذين أرضعوه وربوه » .

وتُوفِّى المنذر سنة ٥٨٥ ميلادية أو نحـو ذلك . فشاور عاهل الفرس صفيَّهُ العربىَّ عدىَّ بن زيد فيمن يولّيه على الحيرة ، واستنصحه فى بنى المنذر ، فأشار عليه بالنعمان والد هند وكان أحمرَ أبرش قصيراً على خلاف إخوته الحسان الأشاهب ، فولاّه كسرى خلفاً لأبيه على الحيرة . فكان فى أيام مملكته كثير العمارة للبيع والأديرة . وقد بنى دير اللج الذى سلف ذكرُه ، ودير الحريق بناه على ولدٍ كان له عُدِىَ عليه فى موضعه وأُحرق فيه . وكذلك بنى لهند الدير المعروف بدير هند الصغرى لتتعبَّد فيه ، وكان النعمان يصلى به ويتقرّب فيه . و بلغ من احتفاله به وعنايته بأمره أنه علّق فى هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة ، وكانت أدهانها فى أعياد الدير من زنبقٍ وبانٍ وما شاكلها من الأدهان ، ويوقد فيه من العود الهندى والعنبر شىء يجلّ عن الوصف .

وظلّ عدىّ بن زيد فى خدمة عاهل الفرس فى المدائن ، يستأذنه كلما أراد المقام بين أهله فى الحيرة بعضَ الوقت . وكان يقيم فى الحيرة كل عام الشهرَ والشهرين أو أكثر أو أقل . ولم يلبث خصوم عدىّ فى الحيرة أن سعوا به عند حميه النعمان حتى أحقدوه وأوغروا صدره عليه . فبعث إلى عدىّ بالمدائن يستزيره ، فلما قدم حبسه وقتله (نحو ٥٩٠ ميلادية) .

وهكذا لم ينقض على زواج هند ثمانية أعوام حتى فُجِعت فى زوجها المحبوب على يد أبيها . فكان مصابها مضاعفاً ، وتعاظمها الأمر وشقّ عليها حتى أسلمت نفسها للحزن واليأس . واشتد الإلحاح على الأرملة الجميلة فى طلب زواجها ، فلبست المسوح تعففاً عن الأزواج وترهّبت وحبست نفسها فى الدير المنسوب إليها .

ولم يلبث النعمان أبوها أن دارت عليه الدائرة بوقيعة ولدٍ من أولاد عدىّ

أحفظت عليه عاهل الفرس كسرى أبرويز ، فحبسه ومات فى حبسه (نحو ٦١٣م).

وكان من شأن هذا جميعه أن يزيد هنداً فى ديرها عزوفاً عن الدنيا وشعوراً ببطلان نعيمها وغرورها .

ولما كانت السنة الثانية عشرة من الهجرة ودخل الحيرة خالد بن الوليد فاتحاً ، عرض عليها الإسلامَ قائلاً لها : « اسلمى حتى أزوّجك رجلاً شريفاً من المسلمين». فقالت : « أما الدين فلا رغبة بى عن دينى ، ولا أبتغى به بدلاً . وأما التزويج ، فلو كانت فىَّ بقيةٌ لما رغبتُ فيه ، فكيف وأنا عجوزٌ هامَةُ اليوم أو غدٍ » . فقال خالد : « إذاً ، سلينى حاجتك » . فقالت : « هؤلاء النصارى الذين فى أيديكم ، تحفظونهم » . فقال : « هذا فرضٌ علينا وقد وصّانا به نبيُّنا » . قالت : « ما لى حاجة غير هذه . أنا ساكنة فى دير بَنيتُه ملاصقٍ هذه الأعظمَ البالية من أهلى حتى ألحق بهم » . فأمر خالدٌ لها بمعونةٍ ومالٍ وكسوةٍ . فقالت: « مالى إلى شىء من هذا حاجة . لى عَبدان يزرعان مزرعةً لى ، أتقوّت بها ما يمسك رمقى » . وأقامت فى الدير مترهبة حتى ماتت ودفنت فيه .

ولآل المنذر غير ما تقدّم « دير حنة القديم » وإلى جانبه قائم ، و «دير مارت مريم » بين الخورنق والسدير وبين قصر أبى الخصيب مشرفاً على النجف .

وقد سار أهل الحيرة على سُنَّة ملوكهم . فثمة « دير عبد المسيح » فى بقعة يقال لها الجرَعة ، وصاحبه أحد أعيان نصارى الحيرة من العباد ، وكان أبوه عمرو بن بُقَيلة وزيراً للنعمان ، ومثله « دير علقمة اللخمي » وهو عم إياس بن قبيصة الذى ملك الحيرة بعد النعمان من غير اللخميين ، وقبة « السُّنَّيق » و بإزائها قباب « الشكورة » ، و « ديارات الأساقفة » بظاهر الكوفة ، و « دير زرارة»

بين الكوفة وحمام أعين ؛ و « دَيْر مَرْجِس » بطيزناباذ بين الكوفة والقادسية .

ونختم الكلام عن هذه الأديرة القديمة بأرض الحيرة بذكر دَيْرَيْن آخرين : « دير الأسكون » وهو راكب للنجف ويعدّ أنزه ديارات الحيرة . وفيه قلاليّ وهيا كل ، ورهبانه يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم ، وهو حصنٌ منيع ، له سورٌ عالٍ ، وباب من حديد . ومنه يُهبط إلى غدير الحيرة . وأرضه رَضْرَاضٌ[1] ورملٌ أبيض . وله مشرعةٌ[2] تقابل الحيرة ، لها دَرَجٌ ، إذا انقطع النهر كان منها شُرْبُ أهل الحيرة .

و « دير حنة » بالأكيراح وهو حسن البناء ، والرياض محدقةٌ به ، ونهر الحيرة الذى يقال له الغدير بقرب منه . ويُقصد في أيام الربيع ، والرياض مُعْتَمَّةٌ بالزهر ، والغدران مَسجورة تترقرق جنبَه ، والبادية فى حدّه . ولا يعدم ضيوفُه أعرابياً فصيحاً يطير إليهم وهم فيه ، فيهدى إليهم بيضَ نعامٍ ويجنى لهم الكَمْأَة[3] وكثيراً ما كان الأمراء يقصدون إليه للتفرّج والشرب، فتضرب لهم الخيام عنده ، ويخرج إليهم رهبانُه يحملون إليهم ما عندهم من اللطف والتحف والشراب الجيد المعتق .

ومن هذه الصور التى أثبتناها يتمثل القارئ نماذج الأديرة بأرض الحيرة على حافة بادية الشام .

وقبل أن نترك أرض الحيرة نذكر فى جنوبها فى سواد العراق « عُمْر كَسْكَر » بين الكوفة والبصرة أسفل من واسط ، وفى هذا العمر كرسى المطران ، وهو عُمْرٌ حسنٌ جيد البناء مشهور عند النصارى ، تحيط به بساتين نخيلٍ بينه وبين دجلة ، فلا يراه القاصد حتى يلتصق بحائطه .

---

(١) الرضراض : صغار الحصى . (٢) المشرعة : مورد الشاربة .

(٣) الكمأة : نبات يوجد فى الربيع تحت الأرض لا ساق له ولا عرق .

كما نذكر شمالَ أرض الحيرة « عمر يونان » بالأنبار بالقرب من حدود الجزيرة من ناحية الحيرة . وهو دير كبير على الفرات ، كثير القلايات ، عليه سور محكمُ البنيان كالحصن العظيم . وله ظاهرٌ حسن ولا سيما فى أيام الربيع ، لأن صحاريه وسائر أرضه تكون كالحُلل لكثرة نوّاره وطرائف أزهاره . نزَله كلٌ من اجتاز به من الخلفاء . ولأبى نواس أبيات من عيون شعره فى وصف عُمْر يونان يصوّر لنا منظر الربيع به فى شهر نيسان كما يشير إلى نساء الدير ورهبانه واشتياقه إلى الشرب من معتقة دنانه :

آذَنكَ النَّاقوسُ بالفجر　　وغرَّدَ الرَّاهبُ فى العُمرِ
وحنَّ مَخمورٌ إلى الْخَمرِ　　وجاءكَ الغيْثُ على قَدر
واطَّرَدت عيناكَ فى روضَةٍ　　تضحك عن خضرٍ وعن صُفْر
فعاطِ نَدْمانَك من خَمرةٍ　　مِزاجُها من مُعْرقِ القطر (١)
على خُزامَاها وحَوْذَانِها　　ومُشكلٍ من حُلَلِ الزَّهر
فى مسرحٍ ترتَعُ أكنافَه　　شَوادنٌ من بَقرٍ زُهر
يا حبَّذا الصَّبْحَةُ فى العمرِ　　وحبَّذا نَيسانُ من شَهر (٢)
يا عاقدَ الزُنَّار فى الخصْرِ　　بحُرمَة الحانة والفِهر (٣)
لا تسقنى ـ إن كنتَ بى عالمًا ـ　　إلاَّ التى أضمرتُ فى صدرى
هاتِ التى تعرفُ وَجدى بها　　واكْنِ بما شئت عن الخمر

فى سواد بغداد

وندع أرض الحيرة فى الجانب الغربى من العراق حيث أطلال بابل القديمة

---

(١) أعرق الخمر : مزجها بقليل من الماء .　　(٢) الصبحة : شربة الصبوح .
(٣) الفهر : عيد لليهود أو معبدهم .

ناحية الفرات ، ونتحوّل إلى الجانب الشرقى حيث أطلال المدائن الكسروية ناحية دجلة .

وهنا نجد فى أرض بغداد « دير الروم » وهو بيعة كبيرة حسنة البناء محكمة الصنعة للنسطورية خاصة ، و إلى جانبها قلاية للجاثليق ، و بينها و بين البيعة بابٌ يخرج منه إليها فى أوقات صلاتهم وقربانهم . و « دير الزَّنْدَوَرْد » فى بقعة أرضها كلها فواكه وأُتْرُجٌّ وأعنابٌ ، وهى من أجود الأعناب التى تعصر ببغداد ، وفيها يقول أبو نواس :

فسَقِّنى من كروم الزَّندَ وَرْدِ ضُحًى ماءَ العناقيد فى ظلِّ العناقيدِ

و « دير دومالس » فى باب الشماسية وهو نزهٌ كثير الأشجار والبساتين بقربه أَجَمَةُ قصبٍ ، والدير كبير آهِلٌ ، وعيده أحسن عيد ، يجتمع نصارى بغداد فيه . و « دير سمالو » على باب الشماسية وهو على نهر المهدى ، وعنده أرْحية للماء . وحوله بساتين وأشجار ونخيلٌ ، و بين يديه أجمة قصب يُرْمَى فيها الطير . وفى عيد الفصح لا يبقى أحدٌ من النصارى ببغداد حتى يأتيه . وهذه الديارات جميعها فى الجانب الشرقِ من بغداد .

وفى الجانب الغربى من بغداد « دير الثعالب » فى كورة نهر عيسى ، وهو بمكان متنزَّه لايخلو من قاصد وطارق ، ولايتخلف أحدٌ من النصارى عن عيده و « دير أشمونى » بقطربل من ضواحى بغداد . و « دير مديان » على نهر كرخايا ببغداد وهو ديرٌ حسنٌ عامرٌ حوله البساتين و يقصد للتنزّه . ثم « دير قُنَّى » و « دير العاقول » ناحية المدائن وفيهما يقول الشاعر :

بين دير العاقول مُرْتَبعٌ أشرَ فَ مُخْتَلُّهُ على دير قُنَّى

حيثُ بات الزَّيتونُ من فوقه النَّخْــــلُ عليه وُرقُ الحمامِ تغنَّى

ثم « دير سابُر » فى الجانب الغربى من دجلة بين قريتى المَزْرَفَة والصالحية فى بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمارين . و« دير مَرْجرجس » بالمزرفة على شاطئ دجلة ، ويخرج إليه من يتنزه من أهل بغداد بالسميريات لقربه وطيبه ، والبساتين محدقة به والحانات مجاورة له ، وبه كلّ ما يحتاج إليه . و « دير قوطا » بالبَرَدان على شاطئ دجلة ، وبينه وبين بغداد بساتين متصلة ومتنزهات منتظمة . وكل ذلك شجر وكروم كثيرة الطراق . و « دير الُخوات » أى الأخوات، بعُكبَرا وهو دير كبير عامر ؛ وأكثر سكانه نساء مترهبات، وعيده الأحد الأول من الصوم . و « دير العَلْث أو العذارى » بين بغداد وسامرّا ، وهو راكبٌ دجلة من الجانب الشرقي ويعدّ من أنزه الديارات وأحسنها . و« دير باشَهْرا » على شاطئ دجلة ، نزهٌ كثير البساتين وهو منزلةُ المُصعد والمنحدر على طريق سامرّا ، و « دير عبدون » إلى جانب المطيرة فى أرض سامرا . و « دير السوسى» فى الجانب الغربى من سامرّا . و « دير مَرْمارى » بسامرا عند قنطرة وصيف وحوله كرومٌ وشجر . و « دير الجاثليق » وهو قديم البناء فى غربى دجلة على الحد بين آخر السواد وأول أرض تكريت .

ومن الديرة التى تقوم على الحدود الشرقية بين العراق العربى والعراق العجمى « دير الغادر » وهو فى أرض حلوان على الطريق إلى خراسان ، وقد نزله أبو نواس وله مع راهبه واقعة حال فيما يزعمون . وفى سواد العراق العربى كذلك كورة يقال لها « ماه بَهْرَاذان » ناحيه راذان ، وأكبر الظن أنها موضع « دير بهراذان » الذى يقول فيه أبو نواس :

بديرِ بَهْرَاذانَ لى مجلسٌ ・ وملْعبٌ وَسْط بساتينهِ
رحتُ إليه ، ومعى فتيةٌ ・ نزورهُ يومَ سعانينه
بكُلِّ طَلَّابِ الهَوى فاتكٍ ・ قَدْ آثرَ الدُّنْيا على دِينه
حتى توافَيْنا إلى مجلسٍ ・ تضحكُ ألوانُ رياحينه

والنَّرجسُ الغضُّ لدى ورده ... والوردُ قد حُفَّ بنسرينه
وجيء بالدَّنِّ عَلَى مَرْفعٍ ... وخاتَمُ العِلْج على طِينه[١]
وافتُصِدَ الأَكْحَلُ من دنّنا ... فانصاعَ فى حُمْرةِ تلوينه[٢]
وطافَ بالكأس لنا شادنٌ ... يُدميه مسُّ الكفِّ من لينه
يكاد من إشراق خدَّيه أن ... تُخْتَطف الأبصارُ من دُونه
فلم نزل نُسْقَى ونلهو به ... ونأخذ القصف بآيينه[٣]
حتَّى غدا السَّكرانُ من سكره ... كالميْتِ فى بعض أحايينه

وفى هذا الذى قدمناه الكفاية وفوق الكفاية ، ليتمثل القارئ طبيعة أرض العراق ، بما يتكرر فى وصف مواضع الأديرة النزهة من كثرة المياه مما كان يساق بين الرافدين من الجداول والرواضع والقنوات ، ثم كثرة النخيل وهى تمتد فى نواحٍ من العراق كالغابات مسافات بعيدةً ، ثم الكروم ، ثم الأشجار ذات الثمار وأخصها الزيتون . ويُلحظ خلوّ هذه الصفحات الوصفية من ذكر الربى والمرتفعات، ومن ذكر الصخور والحجارة ومعادن الفلزّ لأن الأرض هنا سهول من رواسب الغرين مما جرّته سيول الرافدين من كرائم الرمل والطين ، وهذه السهول كانت أخصب بلاد العالم يزرع فيها القمح والشعير من قديم ، وهى كذلك ذات خمائل ورياض و بساتين ، وفى بطائحها التى يَستنقع فيها ماء الفيضان غياضٌ وأجماتُ قصب .

---

(١) المرفع : ما يرفع به ، العلج : الرجل الضخم القوى من العجم .
(٢) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد . (٣) الآيين : القانون .

فى الجزيرة

فإذا بلغنا فى رحلتنا مُصعدين إلى الحدّ بين العراق والجزيرة ، تبدلت المناظر. وهذا التبدل لا يكاد يبين من ناحية الفرات فى سهوله المنبسطة المتاخمة لبادية الشام كما نرى فى وصف أديرة هذه النواحى، ونذكر منها بنواحى الرقة — وهى المدينة التى كان الرشيد يستطيب الاستجمام بها — « دير القائم الأقصى » فى الطريق إلى الرقة من بغداد على شاطئ الفرات من جانبه الغربى ، ويقال « القائم » لأن عنده قائماً عالياً كالمرقب. و « دير زَكّىّ » وهو قريب من الفرات وعلى جنبيه نهر البليخ بالرقة ، وقيل بالرُّها التى كانت من أكبر الحواضر المسيحية فى الشرق ومن أكثرها بيعاً وأديرة وصوامع . ثم « دير الباعوث » وله مزارع ومباقل وجنينات ، وفى هيكله صورة دقيقة الصنعة عجيبة الحسن يقال إن لها مئين سنين لم تتغير أصباغها ولا حالت ألوانها ، وهو على شاطئ الفرات من جانبه الغربى كذلك ، والوصول إليه بالسميريات ، وكانت العمارة قليلة حوله ، وله من أجل ذلك خفراء من الأعراب .

أما من ناحية دجلة فالمناظر مختلفة أشد الاختلاف . فالنهر العظيم فى انحداره من جبال أرمينية لا يفقد سرعة جريه كما يفقدها الفرات عند دخوله أرض الجزيرة الوَطاء(١) السهلة ، وذلك أن دجلة مجاورٌ على طول مجراه أو معظمه لهضبة إيران ومن مرتفعاتها تنصب الروافد فيه ، فضلاً عن أن هذا الفيض موفور لا يتعرض لما يتعرض له الفرات من نزف مائه بالتبخر من أثر الحرارة والجفاف فى البادية الشامية . فنحن ها هنا فى أرض فيها حدبات وفى جوارها جبال ومرتفعات ، والنهر الذى نحن بسبيله زاخر اللجة سريع الجِرية من امتلائه وتدافع

(١) الوطاء : ما انخفض وسهل من الأرض .

عُبابه . وعلى ضوء هذا البيان نعرض أوصاف الأديرة فى ناحية الموصل ، ناحية نينوى القديمة حاضرة الآشوريين مساعير الحرب الفاتحين .

فمن الأديرة القائمة على الحدود من جهة الموصل « دير مَرْيحنا » إلى جانب تكريت على غربى الدجلة وهو للنسطورية عامر بالقلايات والرهبان ، مطروقٌ مقصود ، منزلٌ لكل مسافر ، وبه ضيافة قائمة على أقدار الناس ، وله مزارع متسعة وغلات كثيرة . وتكريت مطلة على جبل عظيمٍ شاهق وبها الكثير من البيع والأديرة القديمة التى تقارب عهد عيسى والحواريين لم تتغير أبنيتها وثاقة وجلداً ، وأبنيتهم بالجص والآجرّ والحجر .

و « دير باطا » قرب مدينة السنّ الواقعة على مصب الزاب الأسفل فى دجلة . وبين هذا الدير ودجلة بُعْدٌ ، وله بابٌ حجرٌ ، وبه بئر تنفع من البَهَق[1] ، وفيه كرسى الأسقف .

و « عُمر إتراعيل » عند قرية قريبة من إربل من أعمال الموصل ، وهو مشرف على ما حوله ، والشجر والكروم من شرقيّه ، وله نهر يجرى على بابه ، ورحًى عامرة يديرها الماء تطحن فوق الكرم ، والصاعد إليه أيام الربيع يرى حوله من ألوان الزهر وأنواع الأقاحى والشقائق وصنوف النوْر ما يسر الناظرين ويقصر عنه وصف الواصفين ، وفى قلالىّ رهبانه جنينات حسان فيها آس مِصر ، وشجر مريم وغير ذلك . وفى كل عيد من أعياد النصارى يقام به سوق وتخرج إليه جماعة من إربل ويزوره خلق من النواحى يكونون فيه مدة يومين أو أكثر وينصرفون عنه .

و « دير بارقانا » فوق الحديثة على جانب دجلة الشرقى ، راكب للماء ،

---

(١) البهق : بياض فى الجسد لا من برص .

فى موضع نزه حسن ، و بناؤه محكم ، وقلاليه كثيرة الشجر والزهر ، وله بساتين ومباقل ، و يقال إنه ليس فى سمك دجلة أسمن من سمك يصاد من شاطئه. و «دير باعَرْبا» بين الحديثة والموصل على جانب دجلة الغربى بإزاء جزائر كثيرة الشجر قلما خلت من سَبُع، وهو جليل عند النصارى وفيه قبور يعظمونها ، و بناؤه عجيب وارتفاع حائط هيكله نحو المائة ذراع وما حوله بناء يسنده ، وله مزارع ، وفيه بيت ضيافة ينزله من يجتاز عليه . و « دير الخنافس» وهو دير صغير بالموصل بالجانب الشرقى على قُلة جبلٍ شامخ يشرف على أطلال نينوى وأنهارها و « دير بار بيثا » وهو بنينوى بأرض الموصل على نهر الخازر ، و به بيت ضيافة. و « دير القيّارة » فوق دير باعربا على جانب دجلة الغربى وسمى بالقيارة نسبة إلى عين فيه ومعدن يستخرج منه القار وتحته حَمّة[١] عظيمة يقصده مَن به عِلة أعيت الأطباء فيقيم به خمسة أيام مستنقعاً فى مائها من علته ، وماؤها يشفى من النقرس و يبسط التشنج و يزيل الأورام الجاسية و يلحم الجراحات . وسبيل من قصدها أن يظل نهاره فى مائها ، و يأوى ليله فى هيكل ديرها فيدهنه رهبانها بالطيبوث[٢] فيشفى . وفى الدير عيون يخرج منها النفط والقير ، فتُتَقبَّل من السلطان بألوف دراهم فى كل سنة . ومرافق هذا الدير عظيمة .

و « الدير الأعلى » بالموصل فى أعلى جبل ، يطل على دجلة ، يضرب المثل به فى رقة الهواء وحسن المُسْتشرَف تحته. والجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها بإزائه. وكانت الولاة تخرج إليه للطف الهواء والنظر إلى الماء . و يقال إنه ليس للنصارى دير مثله لما فيه من أناجيلهم ومتعبداتهم . وظهر عنده عدة معادن كبريتية

---

(١) الحمة : العين الحارة الماء يستشفى بها الأعلاء .

(٢) الطيبوث عند نصارى اليعاقبة مادة تؤخذ من زيت قد صلى عليه مطرانهم و باركه ، وقد أضيف إليه شىء من الماء وقليل من تراب رفات أحد الأولياء القديسين .

ومرقشيثا وقلفطار يزعم أهل الموصل أنها تبرئ من الجرب والحكة والبثور وتنفع المقعدين والزَّمنى ، ثم صانعت النصارى حتى أبطلت خوفاً من تنقيل السلطان .

و « دير متّى » بالموصل من الجانب الشرقي على جبل شامخ يعرف بجبل متى يشرف على رستاق[1] نينوى وعلى المرج . وهو حسن البناء ، جيد الحصانة . وأكثر بيوته منقورة فى الصخر ، فى نهاية الحسن والنظافة . ورهبانه لا يأكلون طعاماً إلا جميعاً فى بيت للشتاء وبيت للصيف . ومتى جلس أحدٌ فى صحن هذا الدير نظر إلى الموصل و بينهما سبعة فراسخ . وله عدة أبواب مفرطة فى الكبر ، وكلها من حديد مُصمت . و به صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر ، عمقه اثنا عشر ذراعاً ، لكل شهر ذراع من الماء . و يفتح هذا الصهريج من موضعين فى أعلاه وفى أسفله ، فيخرج ماؤه من أسَدَيْن من صُفْر . وجملة أمره أنه عجيب عظيم فى أمثاله . وحول هذا الدير من الأشجار ومن سائر الثمار . وفى خارجه مغارٌ فى الجبل فيه صناديق من صخرٍ بأطباقٍ لموتاهم ، فمتى امتلأت خرج رأس الدير مع رهبانه يقرءون أناجيلهم و يجمعون العظام البالية منها ثم تطرح فى فجّ داخل هذا المغار .

و «دير ميخائيل» بأعلى الموصل على ميل منها ، يركب دجلة فى بقعة حسناء ، ذو كروم وشجر ، وهو برّى بحرىّ ، سهلىّ جبلىّ . وفيه يقول الشاعر :

بمارْ مخائيل إن حاولتما طلبى ... فأنتما تجدانى ثَمّ مطروحا
يا صاحباى هو العُمر الذى جُمعتْ ... فيه المنى، فاغدُوَا للدير أو رُوحا
برٌّ وبحرٌ به يهدى نسيمهما ... للروح مسكاً بماء الورد منضوحاً

---

(١) الرستاق : القرى وما يحيط بها من الأراضى .

يجرّ صيادُه الشَّبُّوطَ مضطرباً حيًّا، وقانصُه اليعفورَ مذبوحا

وبه قلالى كثيرة فى غاية الظرف محفوفة بأنواع الشجر وأصناف الزهر، وله عيد يكون قبل الشعانين بأسبوع. وحكى أنه أُريد به حفر بئر فى بعض قلاليه فأفضى الحفر إلى صندوق من حجر، فكشف، فإذا فيه ميت لم يتغير من جسمه شىء، وإذا ثيابه صحيحة. وعند رأسه صحيفة من صُفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها، ولكنهم فهموا أن فيها ذِكرَه. فردّوه إلى مكانه وعفوّا أثره، والذى يُظن أنه كان ممن على دين المسيح وأنه هرب بدينه من الاضطهاد فمات فى هذا الموضع ودفن فيه. وبين هذا الدير والموصل وادٍ يعرف بوادى زمّار، عليه رابية، تُعرف برابية العُقاب تشرف على دجلة والبساتين والجزائر والنهر، وهى غاية فى الربيع. وكان هذا الدير حبيباً إلى نفس الخالدى أثيراً عنده، فقال يعارض أبيات جحظة فى دير العلث وأبيات أبى نواس فى دير الأكيراح من عروضها وقافيتها:

بدائعٌ لا لدير العَلْث هنّ، ولا لدير حنَّة من ذات الأكيراح
أبا مخائيل لا تعدَمْ ضُحًى ودُجًى سِجالَ كلّ مُلثّ الوَدْق سحّاح[1]

و « دير أبى يوسف » وهو فوق الموصل ودون بَلَد (وتسمى بلط واسمها بالفارسية شهراباذ) وموضعه حسن معمور بشجر الزيتون والسرو وبالآس والرياحين، مغروس الربى بالنرجس. وهيكله حسن البناء، وفيه عجائب من بدائع التصوير، ورهبانه ذوو جِدَة. وهو على شاطئ دجلة، فى ممرّ القوافل ولا يُعوزه كل يوم قافلة تحط عنده لتأخذ خمراً.

و « دير مَرْسرجس » فوق بلد بثلاثة فراسخ، على قُلة جبل عالٍ، والدير

(١) لث المطر: دام أياماً. الودق: المطر.

يبين للناظر من عدة فراسخ ، وعلى بابه شجرة من الشجر الدائم الخضرة لا يسقط ورقها عند سقوطِ ورق الشجر ولها ثمرةٌ تشبه اللوز ، وفى جبله من الزرازير شىء عظيم ، لا تفارقه صيفاً ولا شتاء ، لا يُقدَر على صيد شىء منها ، وفى شعاب جبله أفاعٍ كثيرة تمنع من صيد طيره ليلاً ، وفى أوديته حصى على شكل اللوز .

و « دير أُبُّون » فى نواحى الموصل ، بين جزيرة ابن عُمَر — وهى على غربى دجلة والنهر محيطٌ بها إلّا من ناحية واحدة شبه الهلال — وبين قرية ثمانين الواقعة عند جبل الجودى ، وهو دير جليل عند النصارى وإلى جانبه ضَيعة غنّاء كثيرة البساتين وبه صهريج للماء زعموا أن له أنابيبَ صُفْرٍ يجرى فيها الماء من جبل الجودىّ إلى الصهريج .

و « دير الكَلْب » وسمى كذلك لأن له فيما يقال خاصية فى بُرْء عضّة الكَلْب الكَلِب . وهو عند مَعْلثايا وهى بُلَيْدٌ قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الموصل ، فى سفح جبل . والماء ينحدر إليه . وقلاليه مبنية بعضها فوق بعض فى صعود الجبل ، فمنظرها أحسن منظر ، وينبوعه ينصّب عليه من أعلاه . وفيه من الكروم ومن شجرة الزيتون والرمان ومن الآس والزعفران والنرجس شىء كثير . ولرهبانه مزارع فى السهل . وغلاته كثيرة .

ثم « دير الزعفران » بالقرب من معلثايا على الجبل المحاذى لنصيبين ، وهو كثير الرهبان والقلالى . وماؤه سائح من ينبوع فى جبله يجتمع فى صهاريج ، والصهاريج منقورة فى صخور . والثلج به ممكن . ورهبانه ذوو يسارٍ وغنى بمالهم من البساتين والمزارع والنَّعَم ، وفيه جنات لهم حسنة نضرة مملوءة بشجر البندق والفستق واللوز الفرِك والزيتون والبُطْم [1] . وقلاليه بعضها فوق بعضٍ كبناء

---

(١) البطم : شجر كالفستق جرماً له حب مفرطح .

دير الـكلب بأحسن وصفٍ وأملح تكوين . فرشُ أرضه من زهر الزعفران ، ومنه ومن العسل أ كثرُ يسار رهبانه . ولهذا الدير بيوت للضيافة فى عُلوٍّ الهيكل وله سور عجيب التسوير يحيط به ، وعليه أبواب من حديدٍ مُصمت . وشرابه مفضل فى اللون والرائحة والعتق .

وفى نصيبين يقول أبو نواس :

طابَتْ نصيبين لى يوماً ، وطبتُ لها   يا ليتَ حظِّى من الدنيا نصيبين[1]

والقارئ لأوصاف الأديرة فى هذه الناحية من الجزيرة على شاطئ دجلة يتبين مواقعها الجبلية السهلية ، البرية البحرية ، كما يلحظ اختفاء النخيل من حد الموصل، وظهور صنوفٍ أخرى من الشجر على سفوح الجبال شاهدة على أن الحياة النباتية هنا غيرها فى العراق . كذلك تظهر الحجارة والرخام فى العمارة على حين لا يملك العراقيون غير الآجرّ مادة للبناء . ولما كانت الأرض هنا ذات جبال تتزايد ارتفاعاً ، فقد كان يتهيأ من هذا التفاوت فى الارتفاعات سطوح مدرجة ، وكان سكان الجبل من الرهبان يجعلون قلاليهم بعضها فوق بعض فى صعود الجبل وعلى هذه السطوح يزرع كل منهم جنينته ومبقلته . وكانت الجبال الشامخة فى الأصقاع يكسوها الجليد . فالثلج من أجل ذلك لم يكن بعيداً عن المتناول . ومن ذَوْب الجليد تسيل الجداول فى الشعاب ، ومن الماء السائح من الجبل رىٌّ الزرع وشرب الرهبان ، وهم ينقرون فى الصخور لهذا الماء صهاريج يجتمع فيها . وفى بطن هذه الأرض الصّلبة اتخذ النصارى السراديب الطويلة لتكون فيها مدافن موتام catacombes وهذه الدّياميس[2] كانت تُعقد فيها مجتمعاتهم إبان الاضطهاد

---

(١) استشهد به ابن بطوطة فى رحلته .

(٢) الدياميس : الأمكنة العميقة التى لا ينفذ إليها الضوء .

وكلما أصعدنا صوب الهضاب الإيرانية ظهرت الثروة المعدنية وخاصة الصُّفْر (النحاس) وانبجست العيون المعدنية الحارة — الحمَّات — التى يُستشفى بها

الأديرة القبطية

ولقد خرج أبو نواس من العراق فى أوائل عام ١٩١ أو نحو ذلك قاصداً إلى مصر بدعوة من أمير الخراج عليها وقتئذ وهو أبو النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمى وكان خروجه فى قافلة رحلت بركبها فى البكور أولَ انبلاج النور ، من « عقرقوف » وهى قرية فى نواحى دجيل تبعد عن بغداد ستة فراسخ ، فما وافى الأصيل وانحدرت الشمس للمغيب حتى كان الركب منحدراً فى الوادى المعروف بـ «عَين أُباغ» وراء الأنبار على طريق الفرات،وفى ذلك قوله مخاطباً الأمير الممدوح

إليكَ رَمَت بالقومِ هُوجٌ كأَنَّما جماجِمها تحت الرِّحالِ قُبورُ[1]

رَحلن بنا من «عقْرقوف»وقدبدا من الصُّبح مَفْتوقُ الأديم شَهير

فما نجدَتْ بالماء ، حتَّى رأيتها مع الشمس فى«عيْنىْ أُباغ»تغور[2]

وبعد إناخة قصيرة فى صدر الليل عرّجت القافلة غرباً وتابعت المسير فى الهزيع الأخير فبلغت إلى غدران «النقيب» فى فجر اليوم التالى . ولم يتقدم بالركب النهارُ حتى كانوا قد استشرفوا آثار « تدمر » القديمة ، وأطلال معابدها العظيمة

وغُمِّرن من ماء « النَّقيب » بشربةٍ وقد حان من ديك الصَّباح زَمير[3]

---

(١) الهوج : جمع هوجاء ، وهى الناقة المسرعة حتى كأن بها هوجاً .

(٢) نجدت بالماء سال عرقها من الإعياء . وقوله « عينى أباغ » لضرورة الشعر ، ويحكى فى ذلك عن أبى نواس أنه قال [جهدت على أن تقع فى الشعر « عين أباغ » فامتنعت على ، فقلت « عينى أباغ » ليستوى الشعر] .

(٣) النقيب هنا غير النقيب بين تبوك ومعان لأنه لا يستقيم مع سير الرحلة ولعله تصحيف من الناسخ .

ووافَيْنَ إشراقاً كنائسَ « تدْمُرٍ »   وهنّ إلى رَعْن « المدخّن » صُورُ(١)

ودخلت القافلة الشام ، ولعلها عرجت على حِمْص فهى التى تلى تدمر من قريب وإن كانت لم يرد لها ذكر فى قصيدة الشاعر . والذى يحملنا على هذا الظن ما رواه النضر بن أمية الحمصى الشاعر ، قال [لما خرج أبو نواس إلى مصر ، كتب الناس إلينا بذلك ، فلم نزل نرقبه حتى قيل لنا : قد قدم . فجئت الخان لأسأل عن خبره ، فإذا إنسان قاعد على درجة ، متّشحٌ بخلوقيّةٍ يستاكُ ، فدنوت منه ، فقلت: «يافتى، إنسانٌ قدم من العراق يقال له أبو نواس» وكان معى ابنٌ لى حسن الوجه جداً ، فقال : « ماتجعل لمن يدلك عليه ؟ » . قلت : « حُكمه » قال : « قُبلةٌ من هذا الغزال الذى معك » . قلت : « ويحك ! هذا ابنى » قال : « آدم خيرٌ منك والناس يقبّلون بنيه و يلاعبونهم » . فقلت له : « أنت أبو نواس ؟ » قال : «أنا هو . فمن أين عرفتنى ؟» قلت : «بنور الإيمان» ، قال : « لا والله ، ولكن بظلمة الكفر ، فمرحباً بك » فما زلت أنادمه ، وما فارقته حتى ارتحل عن حمص وشيّعته .]

ومع أنه غير مستغرب ولا مستبعد إلمام الركب بحمص والإناخة قليلا فيها لإراحة الإبل واستجمام المسافرين يوماً أو بعض يوم فى خانها، فإننا نعدّى على الخبر بعد أن سجلناه دون أن نقطع ببطلانه أو بصحته ، و إن كنا أميل إلى إثباته لما هو ثابت من اجتياز الشاعر بحمص فى طريق عودته . ونعود فنستأنف ما كنا فيه من متابعة خطة رحلته كما دونها فى قصيدته . فنذكر بعد الذى أتينا عليه من المراحل والمنازل أن القافلة وافت أرض دمشق ، وهنا اجتاز الركب أرض جولان الصخرية التى أصابت أخفاف المطايا بالوَجى والجراح ، ثم كان مسراهم غير المحمود

---

(١) الرعن : أنف الجبل . صور : روانى .

إلى بَيْسان وهى بلدة حارة و بئة بالأردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين ، ثم توغلوا فى فلسطين فجازوا بالرملة ثم بنهر أبى فُطْرُس قريباً منها ، ومضوا مهطعين فلم يعوجوا على بيت المقدس للتبرك والزيارة كما كان حقاً عليهم لولا أنهم كانوا إلى بلوغ مصر مُعْجَلين .

يُؤَمِّمْنَ أهلَ « الغوطتين » كأنّما لها عند أهل « الغوطتين » نُذُورُ
وأصبحن « بالجولانِ » يَرْضَخْنَ صخرها ولم يَبقَ من أجراحهنّ شطور[1]
وقاسَيْن ليلاً دونَ « بيسان » لم يَكد سنا صُبحِهِ للناظرين يُنير
وأصبحنَ قد فوّزْنَ من نهر « فُطْرُسٍ » وهنّ « عن البيت المقدّس » زُور[2]

وأخيراً بلغوا غزّة على الحدود بين فلسطين ومصر . وكان دخولهم الأرض المصرية من ناحية الفَرَما حتى أتوا الفسطاط .

طوالب بالركبان « غَزّةَ » هاشم وفى « الفرَما » من حاجهنّ شقور[3]
ولما أتت « فسطاط » مصرَ أجارَها على ركبها — أن لا تزال — مجير

على أننا لم نقع لأديرة مصر على ذكرٍ فى أشعار أبى نواس ، مع أن دياراتها كانت مقصودة ومتنزّهاتها مطروقة ، وهى كثيرة القلالى عامرة بالرهبان ، عظيمة الثراء بذهب صلبانها وفضة قناديلها ، ولها أعياد مرصودة الأوقات ، منتظرة الميقات ، ينسخ وقودُها آية الظلمات

والمرجح مع ذلك أن يكون أبو نواس قد شرب فى بعضها بدليل قوله :

هاتِ من الرّاحِ فاسْقِنى الرّاحا أما ترى الدّيك كيف قد صاحا

---

(١) يرضخن : يكسرن . الشطور جمع شطر وهو من الناقة حلمة ضرعها . والمعنى ان النياق لكثرة ما أصاب صدورها من جروح لم يبق لضروعها شطور . (٢) زور : جمع زوراء ، وازور مال وصدف . (٣) شقور : جمع شقر وهى الأمور الملتصقة بالقلب .

وأدبَرَ اللَّيلُ في مُعَسكَره مُنصرفاً ، والصَّباحُ قد لاحا
فاستَعجِل الكأس واسقِني بكراً إني إليها أصبحتُ مُرْتاحا
كأساً دِهاقاً صِرْفاً كأنَّ بها إلى فَمِ الشَّاربين مصباحا
تُؤتَى بها كالخَلوقِ في قَدَحٍ خالَط ريحُ الخَلوق تُفَّاحا
من كَفِّ قِبطيَّةٍ مُزَنَّرَةٍ نجعلها للصَّبوح مِفتاحا
تقولُ للقوم من مجانتها : « باللهِ لا تَحبِسنَّ الأقداحا »

ومما وقع إلينا في صفة مجالس شربه ومنادماته في صعيد مصر :

بديعُ الخَلقِ موفورُ الخُطوطِ لَطيفُ الخَصرِ كالفَرَس الرَّبيطِ
أبوه من أكابِرِ قِبط مِصرٍ تَسامَى عن مُناسبَة النبيط
سقاني صَفوَ ماءِ النِّيل وَهناً براحٍ من كُرومِ قُرَى « سُيُوط »
لها حالان من طَعمٍ وريحٍ ، ولونٌ في الزُّجاجة كالسَّليط[1]
خَلوتُ به أُنازعُه شَمولاً وأُنشدُه من البَحرِ البَسيط

ومما لا شك فيه أن لأبي نواس بمصر قصائد لم يأتنا خبرٌ عنها . وقد قال أحمد ابن أبي طاهر إن المصريين يروون له أشعاراً لم تقع إلى أهل العراق . ورُوِي عن ديك الجن الحمصي أنه قال : « دخلت مصر بعد أبي نواس ، فوجدت له بها أشعاراً ليست عند أهل العراق » . وفي رسالة تنسب إلى أبي العباس في شعر أبي نواس أنه سقط من الشعر الذي قاله بالشام ومصر شيء كثير .

على أن الثابت المحقق أن أبا نواس كان وهو في مصر شديد الشوق دائم الحنين

---

(١) السليط : الزيت الجيد ، أو كل دهن عصر من حب .

إلى المعاد إلى بغداد ولم يكن يحتبسه تلك المدة اليسيرة فيها إلاّ طمعه فى عطاء الخصيب :

إذا ذُكرتْ بَغدادُ لى فكأنَّما   تحرّكَ فى قَلبى شَباةُ سِنانِ
وأوبةُ مَشتاقٍ بغيرِ دَراهِمٍ   إلى أهلهِ من أعظم الحدثان

ولعل الذى جعله يبرَم بها ويجتويها ويستثقل ظلها ويستكره المقام فيها عدم استجادته لشرابها وجهله بمعاهد لهوها ومخالفته لأهليها فى إيثارهم الكتمان والتستر، مع عدم كمال اللذة عنده إلاّ بالتهتك والمجاهرة . فنراه فى مصر لا يفتأ يذكر من بغداد وأرباضها تلك الحياة اللاهية الصاخبة التى لا مشبه لها فى مظاهر اللذة والحبور إلاّ ما اشتهر فى متأخر العصور عن باريس مدينة النور :

ذَكرَ الكَرْخَ نازحُ الأوطان   فصبا صَبوةً ولاتَ أوانِ
ليس لى مُسْعِدٌ بمصرَ على الشَّو   قِ إلى أوجُهٍ هُناكَ حِسانِ
نازلاتٍ من السَّراةِ فكَرْخَا   يَا ، إلى الشَّطِّ ذى القُصور الدَّوانى
إذْ لبابِ الأميرِ صدرُ نهارى   ورَواحى إلى بيوتِ القِيانِ
واغتِفالى المَوْلى لأَختَلِس الغمـ   ـزة ممَّن أُحبُّه بالبَنان
واعتمالى الكئوسَ فى الشُّرب تسعَى   مُترعاتٍ كخالِصِ الزَّعفران

الإلمام بأديرة الشام

والذى نرجّحه أن أبا نواس لم يتّسع له الوقت للنزهة فى أديرة الشام فى مسيره إلى مصر لأنه ما فارق العراق إلا لرقة الحال وخفة الوفاض ، كما أنه كان مُعجلاً يحدوه إلى مصر مبسوطُ الرجاء ، فيما سيغدقه عليه أمير خراجها من سَعة العطاء . وأما الأديرة الشامية التى يقع لنا هنا وهناك ما يفيد زيارته إياها ، فلا ريب عندنا

أنه زارها فى طريق عودته بعد أن أفاد الجزيل من هبات الخصيب . ويكفى تنويهاً بمقدار هذه الجوائز أن نذكر أن الأمير قد جزاه على قصيدته التى أنشدها فى مدحه فى اليوم الأول ألف دينار ، وعلى قصيدته فى اليوم الثانى ألف دينار أخرى . وليس يصحّ فى العرف النواسى ولا هو يتفق مع التقاليد النواسية ، أن يبلغ الشاعر موطنه فى العراق ، وفى هِميانه[١] درهم لم ينفقه فى الطريق على الشراب فى الأديرة والحانات . فكيف به وهو — فوق ذلك — قد حُرم متعة الشراب الجيد فى مصر ، وكان الجيد من الخمر لا يمكن بها إلا ما كان يُحمل من الشام إلى الخصيب ويُخصّ به . وكان الخصيب يدّخره لنفسه ، ويضن به على من سواه ولو كان ضيفه ، حتى قال أبو نواس محتجاً : « ما ترى استئثار الخصيب علينا بشرابه ! » ثم قال كالمحدث نفسه :

يُخَصُّ « خصيبٌ » بالشّرابِ وتَرتجِى لديه نوالاً إنّ ذا لَعجيبُ
وليس « خصيبٌ » بالخصيبِ لضيفهِ ولكنّه وَعرُ المحَلِّ جَديب

وكلنا يعرف شهرة الشام بالخمر ، ويذكر ما ورد فيها فى شعر الجاهليين ، وأشهره هذا المطلع من معلقة عمرو بن كلثوم .

ألا هُبّى بصَحنكِ فاصبحينا ولا تُبْقِى خمور الأندرينا[٢]

ولقد وردت فى خمر الأديرة الشامية أخبار كثيرة ، نكتفى منها بما روى عن الوليد بن يزيد فقد كان الخليفة الأموى كثير الغشيان لأديرة الشام للنزهة والشرب فيها ، فكان يخرج إلى « دير سمعان » بنواحى دمشق بالقرب من الغوطة على قطعة من الجبل يطلّ عليها ، فيقيم اليوم كله فيه يصطبح ويغتبق ، ومعه ندماؤه

---

(١) الهميان : كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

(٢) أندرين : قرية فى جنوبى حلب على مسيرة يوم للراكب فى طرف البرية .

ومغنوه . وقد روى أنه زار « دير بونا » وليس بكبير ولا رهبانه بالكثير، ولكنه في رياض مشرقة وأنهار متدفقة، فأقام فيه أياماً في تخرّق ومجون . ورُوى كذلك أنه كان يغشى « دير مرّان » على تل فى سفح قاسيون وأشجاره متراكبة وماؤه يتدفق وفى هيكله صورة عجيبة دقيقة المعانى ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون . ومما يحكى عنه فى هذا الدير أنه لما دبّ فيه السكر ذات مرة وثب إلى جرْن هناك فملأه وشربه ، وملأه وسقى أخاه « الغمر » فما زالا يتعاطيانه حتى سكرا ، وملآه للديرانى دراهم .

وأما الدير الذى كان الوليد يؤثره على الديارات جميعاً فذاك « دير صليبا » المطل على غُوطة دمشق من ناحية باب الفراديس ، فقد كان كثير المقام فيه ، يخرج إليه ومعه حُرَمه استحساناً له ، ويجلس أيام مقامه فيه فى صحنه كل يوم ساعةً من النهار ، ثم يأكل ويشرب فى مواضع منه طيبة حسنة . وقد حكى عنه أنه دعا يوماً بطعامه وحضر ندماؤه وكان فيهم حُنَين ، فبينا هم على المائدة إذ قال : « ياحُنين ، غنيتنى البارحة فى آخر المجلس — وقد أخذ الشراب منى — بشعر صاحبكم عَدِىّ بن زيد ، فلم أستكمل الطرب لأجل سكرى . فأعدْه علىّ الساعة » فأخذ حُنين رقاقه وأوقع عليها وغنّى :

يا لُبَيْنَى أوقِدى النارا ... إنّ مَن تَهوَيْنَ قد حارا
رُبّ نارٍ بتُّ أرْمُقها ... تَقْضَم الهِندىَّ والغارا
عنـدها ظبىٌ يُؤَججُها ... عاقدٌ فى الخصر زُنّارا

فطرب الوليد طرباً عظيماً ، وأخذ رقاقه ، وقام وترك الغداء ، وجعل ينقر عليها مع حنين . وأخذ كل من على المائدة رِقاقه ، وجعلوا ينقرون عليها مثله . ومضى الوليد يطلب باب الدهليز ، وحنين والندماء حوله ، والحاجب قد جاء

ينتظر جلوسه ، وقد حضر وجوه العرب . فلما رآه الحاجب على تلك الحال ، صاح بالناس : « الحُرَمَ الحُرَمَ ! انصرفوا ، انصرفوا ! » فخرجوا . فقال له : « يا أمير المؤمنين ! وفود العرب تنتظر جلوسك ، وأنت تخرج إليهم على تلك الحال ؟ » فقال : « ثكلتك أمك ! أُدخل . » ودعا له برطلٍ . فحلف أنه ما ذاقه قط ، فقال : « والله لتشربن معى حتى أسكر » . ولم يزل يسقيه ، حتى مات سكراً وانصرف محمولا .

وما من شك فى أن أبا نواس كان يحفظ من أشعار الوليد ومن أخباره فى أديرة الشام فوق ما نعرف . فلا عجب إذا رأيناه فى عودته إلى العراق يتردد فى طول الطريق على الأديرة ، يروى بها لاعج غلّته إلى الخمر ، ويقول فيها ما يسمح به الخاطر من الشعر . وهذه الأديرة معظمها رومى قديم البناء ، وفى بعضها صور يونانية هى غاية فى محاسن التصوير وتناسب المقادير . ومن الأديرة التى زارها لما خرج من مصر « دير فيق » بفلسطين ، فى أرض الأردن قرب طبرية ، بين البحيرة وعقبة عالية مطلة عليها ، وهو من العقبة فى لِحْفِ[1] جبل متصل بها ومنقورٌ له فى الحجر . وهذا الدير عامر بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السُّيَّار . والنصارى يقصدونه ويعظمونه ، وهم يزعمون أن المسيح كان يأوى إلى ذلك الموضع الذى عُمل به الدير ويجلس إلى ذلك الحجر . ومن أجل ذلك كان كل من دخل من النصارى ذلك الموضع كَسر من ذلك الحجر تبركاً به . ولشاعرنا قصيدة يذكر فيها هذا الدير ويخاطب فيها غلاماً نصرانياً كان يهواه مناشداً له مستحلفاً إياه ، وقد تقدم بنا ذكرها ، وهى التى يقول فى مطلعها :

بعمودية الدِّين العتيق بِعَطرُ بُليطِها ، بالجاثليقِ

---

(١) اللحف : أصل الجبل .

ومنها

بحَجك قاصداً ماسَرْجسانا فدير النُّوبهارِ فديرَ فِيق

ولا شك فى أن النواسى اجتاز كذلك بدير الماطرون قرب دمشق ، فإنه ليستطيب ذكره والتغنى بما قيل فيه . يشهد بذلك قوله :

غَنّنى يا ابنَ أذين « ولَها بالماطرونِ »

وهى أبيات للخليفة يزيد بن معاوية يقول فيها :

ولها بالماطرون — إذا أكل النَملُ الذى جمعا -
خَرفةٌ ، حتى إذا ارتبعت سكنتْ من جِلّقٍ بِيَعَاً [(١)]
فى قِبابٍ حول دسكرةٍ بينهـا الزيتونُ قد يَنعا

وقد روى الرواة عن أبى نواس أنه لما انصرف عن مصر واجتاز بحمص رأى كثرة خماريها وجودة الشراب فيها ومجاهرة الشاربين لها بشربها ، فأعجبه ذلك ، ولا جرم يعجبه ويَرِد عليه منه ما يبهجه وتهش له نفسه بعد الذى كره من شراب مصر وتكتم الشاربين من أهلها ، فأقام بحمص مدةً مغتبقاً ومصطبحاً . وكان بها الخمار اليهودى (لاوى) ، ويروى أنه قال لأبى نواس ذات يوم وهو يشرب عنده : « كيف رأيت مدينتنا هذه وحالنا فيها ؟ » . فقال أبو نواس يترضاه ويتقرب إليه : « حدثنا جماعةٌ من رواتنا أن هذه هى الأرض المقدسة التى كتبها الله تعالى لبنى إسرائيل » . فقال الخمار : أيما أفضل عندك : هذه الأرض أم قطربل ؟ » فقال أبو نواس فى تلطفه ولباقته : « لولا صفاء شراب قطربل وركوبها كاهل دجلة ، ، ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها » . ولقد دعا فتى

---

(١) خرفة اسم المرة من خرف قال عمر : « إذا رأيت قوماً خرفوا فى حائطهم » أى أقاموا فيه وقت اختراف الثمار وهو الخريف . وارتبع بالمكان أقام فيه زمن الربيع .

من أدباء حمص شاعرنا النواسى إلى « دير ميماس » ودعا معه أشجع السلمى الشاعر ، فجلسوا يشربون فى الدير من يد ساقٍ ظريف ، وأبو نواس ينشدهم له ولغيره ، وقد طربوا لما كان ينشده من بدائع الشعر حتى أغناهم ذلك عن المطرب . وفى هذا يقول أشجع :

صَبَّحتُ وجه الصَّباح بالكاسِ ولم تَعقنى مقالةُ الناسِ
ونحن عند المُدامِ أربعةٌ أكرمُ صحبٍ وخيرُ جلّاس
نُدير حِمْصِيَّةً معتَّقةً على نسيم النِّسرين والآسِ
ولم نُرِدْ مُطْرِباً ومُنْشِدُنا أبو نواسٍ فى « دير ميماس »

وكذلك اجتاز بدير الرصافة ، وهى رصافة هشام بينها و بين الرَّقَّة مرحلة للحمالين أى أربعة فراسخ . ويقوم هذا الدير فى وسط البلد ، وهو بناء رومى قديم ومن عجائب الدنيا حسناً وعمارة ، وبه صهاريج عادية محكمة البناء يشرب منها رهبانه وسكانه ، ومن الصهاريج شرب أهل البلد جميعاً . وقد بات فيه أبو نواس وقضى فيه سحابة اليوم التالى ، فلما رحل عنه قال :

ليس كالدير بالرصافة ديرٌ فيه ما تشتهى النفوسُ وتَهوَى
بتُّه ليلةً فقضَّيتُ أوْطا راً،ويوماًملأتُ قُطْرَيْه لهواً[1]

ثم مر أبو نواس بعانة ، من أعمال الجزيرة بين الرقة وهيت ، وهى مشرفة على الفرات ، فسمع اصطخاب الماء فى الجداول فقال : « أذكرنى هذا قول الأخطل

من خمر عانةَ ينصاع الفؤادُ لها بجدول صَخِبِ الآذىِّ موّارِ »

وأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ، ثم قال : « لولا قُربُها من قطربل ، ومجاذبة

---

(١) القطر : الشق والناحية ، والمراد بقطرى اليوم الصباح والمساء .

الدواعى إليها ، لأقمت بها أكثر من ذلك » . ومضى فلما دخل الأنبار تسرع ، إلى بغداد ، ولكنه لم يتمالك حين بلغ ضاحية بغداد أن عدل إلى قطربل وهو يقول : « ما قضيت حق قطربل إن أنا لم أبطؤ بها » . فأقام ثلاثاً حتى أتلف فضلةً كانت معه من نفقته ، وباع رداءً مُعلماً من أردية مصر لعله مما أهداه له الخصيب من طرائف . وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ إلى قطربل فأتيتُها   بألفٍ من البيضِ الصِّحاحِ وعينِ
ثمانين ديناراً جِياداً أعدُّها   فأتلفتُها حتى شربتُ بدَين
رَهَنت قميصى للمُجونِ وجُبَّتى   وبعتُ إزاراً مُعلَمَ الطَّرَفين
وقد كنتُ فى قطربُلٍ إذ أتيتُها   أرى أننى من أيسر الثَّقَلين
فروَّحتُ منها مُعسراً غير مُوسرٍ   أقَرْطِسُ فى الإفلاس من مئتين
يقول لى الخمَّارُ عِند وَداعه   وقد ألبسَتْنى الرَّاحُ خُفَّ حُنين
«ألا رُح بزَينٍ» يومَ رحتُ مُودِّعاً   وقد رُحتُ منه يومَ رحتُ بَشين

واجتمع الخمارون عند منصرفه للسلام عليه ، فكان موقفهم معه وتعظيمهم له أشبه ما يكون بخاصة الرشيد عند تسليمهم على الخليفة فى يوم حفلٍ له .

الأقانيم الثلاثة

وقد عاد شاعرنا إلى العراق بعد هذه الرحلات يحمل للجزيرة وللشام فى نفسه أطيب الذكريات ، حتى لقد كانت تغلب عليه عند ذكرهما اللوعة لفراقهما :

رجعتُ إلى العراق برغم أنفى   وفارقتُ الجـزيرةَ والشآما
على شاطى البليخ وساكنيه   سـلامُ مسلِّمٍ لقِىَ الحِماما

وبديهى أن الذى عنانا فى هذه الأسفار إنما هو تسقّط ما هو مبثوثٌ فيها من الأخبار التى تتصل بصاحب الخمريات ، وما تجلوه لنا من أوصاف مفصلة حيناً ومجملة أحياناً لما كان يختلف عليه هنا وهناك من الدساكر وحوانيت الخمر ، وما كان يغشاه من الديارات وحاناتها . وهذه الأوصاف والأخبار جميعها متفقة على أن صاحبنا النواسى كان فى حله وترحاله لا يجرى وراء شىء غير لذته ، ثم هى متفقة جميعها على أن صاحبنا النواسى كان يتحرى ثلاثة أمور لا تتم بغيرها اللذة عنده : الشراب الجيد الرائق ، والنديم الظريف الموافق ، ومنظر الطبيعة الجميل الفائق . فالجمال والحب والسكر كانت عنده بمنزلة الأقانيم الثلاثة فى تميّز الصفات واتحاد الذات . ومن البديه أن السكر كان عنده أولها ومصدر سرها جميعاً كما نادى بذلك فى الخمريات :

اشربْ نديمى على العينين والراسِ كذاكِ، واستفتحِ اللّذاتِ بالكاسِ

الربيع والخمر

وقد أكثر الشاعر فى خمرياته هذه من التغنى بالربيع ، حتى ليكاد يتبادر إلى الفكر ، أن الربيع بما يُشيعه فى الطبيعة من الحياة ، وما يبعثه فى كل حىّ من دواعى الشوق ، وما تحدثه فى الحسّ سطعةُ نوره وصحو أديمه ورقة نسيمه هو الذى يحرّك شاعرنا إلى الشرب ، ويجعله يتطرب إلى السكر . ومن الشعراء ولا ريب من كان مثل شاعرنا أبى نواس متيقّظ الشعور لما يختلف على الدنيا حوله من المناظر باختلاف الفصول ، ومن كانت تهتز نفسه بعد الشتاء المتجهم لمقدم الربيع المتبسم ، فيجرى لسانه بالأشعار إثر الأشعار ، فى تحية الربيع وقد ردّ على الزمان الشباب وجدد منه الإهاب ، وخلع على الدنيا الحسنَ والنضارة وأرسل على وجهها أنفاسه الحارة ، فأذاب الثلوج على هام الجبال العالية ففاضت

العيون وسالت الأودية ، وأبرز الأرض غِبَّ سحائب الشتاء الماطرة جنةً أنفاسُها عاطرة ، تزوف رياضها فى أجمل وشى ، متبرجة فى أبهى الحلل وأنفس الحَلْى .
ولكننا لا نعلم بين الشعراء من اقترن الربيع والخمر فى شعره هذا الاقتران حتى لا تخلو من ذلك مقطوعة واحدة :

طابَ الزمانُ ، وأورقَ الأشجارُ ... ومضى الشتاء ، وقد أتى آذارُ [١]
وَكَسا الرّبيعُ الأرْضَ من أنوارِه ... وَشْياً تَحارُ لحسنه الأبصار
فَانْفِ الوَقارَ عن المجونِ بقهوةٍ ... حمراءَ خالطَ لونَها أقمار [٢]
واستَنْصِفِ الأيَّامَ من أحداثِها ... فلطالما لعبت بك الأقدار

واغْدُ على اللّهو غيرَ متَّئِدٍ ... عنه ، فهذا أوانُ مُقْتَبَلِهْ
أما ترى جِدَّة الزمان وما ... أبدعَ فيه الرَّبيعُ مِن عمله
قد أدركتهُ السحابُ تُرضِعُه ... دِرَّةَ وَبلٍ يَحيا على بَلَله
وافى وجوهَ الرِّياضِ عاريةً ... عند اقتراب الشتاء من أجله
فاحتَلَّ أرجاءَها وألبسها ... من زَهو نوَّاره ومن حُلَله
فاشربْ على جدّة الزَّمان فقد ... وافى بطيب الهواء مُعتدِله

أمَا رأيتَ وجوه الأرض قد نضَرت ... وألبسَتها الزّرابى نَثْرَةُ الأسدِ [٣]
حاكَ الرَّبيعُ بها وَشياً ، وجلَّلها ... بيانع الزّهر من مَثْنَى ومن وَحَد
واستوفَتِ الخمرُ أحوالاً مُجَرَّمةً ... وافترّ عيشكَ عن لذَّاتكَ الجُدُدِ [٤]

---

(١) آذار : الشهر الثالث من السنة الشمسية ويوافقه مارس من شهور الروم وفى الثانى عشر من آذار تحل الشمس برج الحمل فى قولهم وذلك أول فصل الربيع . (٢) أقمار كناية عن الحبب . (٣) الزرابى من النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة . نثرة الأسد ثلاثة كواكب متقاربة . يقال إذا طلعت النثرة قنأت البسرة أى اشتدت حمرتها . (٤) أحوالا مجرمة أى أعواماً كاملة .

فاشربْ ، وجُدْ بالذى تحوى يداكَ لها لا تذْخَر اليومَ شيئاً خوفَ فقرِ غَدِ

أما ترى الشَّمس حلَّتِ الحَمَلا وقام وزنُ الزَّمان واعتدلا [١]
وغنَّتِ الطَّيْرُ بعد عُجمتِها واستوفت الخمر حولها كَمَلا [٢]
واكتست الأرضُ من زَخارفها وَشْىَ نباتٍ تخاله حُللا
فاشربْ على جدَّة الزمان فقد أصبح وجه الزَّمان مُقتَبِلا

ولقد وردت فى كتب الأدب قطعة منسوبة إلى أبى نواس من النثر المسجوع ، وهى قطعة مطولة قدّم لها بمقدمة فى وصف الربيع . ولا بأس بإثبات هذا الوصف هنا لمناسبته ، وإن كنا نشك أعظم الشك فى أن الديباجة ديباجته ، قال :

[حججتُ مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا بأرض بنى فزارة فى أوان أيام الربيع ، نزلنا منزلاً بإزاء باديتهم ، ذا روضٍ أريض ، ونَبت غَريض ، وتُربٍ كترب الكافور ، حتى اكتست الأرض بجميم [٣] نبتها الزاهر ، واتّزرت بمحض عُشبها الناضر ، والتحفت بأنواع زُخرفها الباهر ، بما يقصر عنه النمارق [٤] المصفوفة ولا يُدانى زهرتها الزّرابى [٥] المبثوثة ، فراقت بنضرتها الأبصار وارتاحت لزِبرجها [٦] القلوب

---

(١) كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة . حلول الشمس برج الحمل إشارة إلى بدء الربيع كما تقدم . وفى الشطر الثانى إشارة إلى استواء الليل والنهار واعتدال الزمان بين الحر والبرد . (٢) قيل فى معنى قوله « استوفت الخمر حولها كملا » أن الهاء تعود على الشمس . والمراد أن الشمس دارت عليها دورة كاملة وقطعت الفلك المحيط بأبراجه الاثنى عشر من أوله إلى آخره . ويقال فى هذا الصدد إن الكرم أول ما يعقد ويخرج من العدم إلى الوجود إنما هو فى شمس الحمل (مارس) . ثم إن الخمر إنما يكمل طيبها ونضجها وتعصر فى أول السنبلة (أغسطس) ، ثم إنها تبقى فى الدنان والأوعية إلى أن تشرب ، فإذا شربت فى أول حلول الشمس برج الحمل فقد استوفت سنة بهذا الاعتبار . وقيل إنما المراد « بحولها » حول الخمر ، أى قوتها من الحول وهو القوة .

(٣) الجميم : الكثير يغطى الأرض . (٤) النمارق : الوسائد .

(٥) الزرابى : البسط العراض . (٦) الزبرج : الزينة .

واشتاقت إلى نسيمها الصدور وابتهجت ببهائها النفوس ، فما لبثنا أن أقبلت السماء فأشْفَت بِرَبَابِها[١] وتدانى من الأرض رُكامٍ[٢] ، حتى إذا كان كما قال عبيد ابن الأبرص :

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيق الأرض هيدبُه يكادُ يدفعُه من قام بالرّاحِ[٣]

هَمَت السماء بِرَذاذٍ ثم بِطَشٍّ ثم بِرَشٍّ ثم بوابل ثم هَتَنَت[٤] ، حتى إذا تركت الرُّبى كالوِهاد[٥] ريًّا تقشَّعت فأقلعت ، وقد عادت الغدران مُترعة تَدفقُ ، والقيعان[٦] ناضرة تألق ، تحدق بحدائق مونقة ورياض رائقة ، وغياضٍ[٧] من عَرفها فائحة ، تَتحاكَ بأنواع النَّوْر الغضّ الذى إذا هَممْتَ بتشبيهه بشىء حسن اضطرّك حسنه إلى ردّه إليه ، فإذا تُقْتَ إلى تضوُّع طيبٍ لم تجد مُعوّلاً فى الذّكاء إلاّ عليه . فسرّحت طَرْفى رامقاً فى أحسن منظر ، واستنشقت من ريّاها أطيبَ من المسك الأذفر .]

الكروم والنخيل

ولعل أطيب البقاع عند أبى نواس وأنزهها ، وأقرّها جميعاً لعينه ، وأحبها إلى قلبه ، وأبهجها موقعاً فى حسه ، وأشدها تحريكاً لنفسه ، هى البقاع التى تكثر فيها الكروم متكاثفة متتابعة ، وقد نُصبت لتعريشها القوائم وعُرضت العوارض

---

(١) الرباب : السحاب الأبيض . أشفى : اقترب .

(٢) الركام : السحاب المتراكم .

(٣) المسف : الدانى من الأرض . الهيدب : السحاب المتدلى عند انصباب المطر يرى كأنه خيوط.

(٤) همت السماء : سالت . الرذاذ : المطر الضعيف الصغار القطر . الطش المطر الضعيف فوق الرذاذ . الرش : المطر القليل . الوابل : المطر الشديد . الهتن : المطر المتتابع الصبيب .

(٥) الربى : ما ارتفع من الأرض . والوهاد : ما انخفض منها .

(٦) القيعان : جمع قاع ، الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٧) الغياض : جمع غيضة ، الأجمة أو مجتمع الشجر فى مجرى الماء .

فجَرَتْ على عِراشها قضبانُ الكرم الخشبية الألياف وهى طوالٌ دقاقٌ لدانٌ ملتفة كالأفاعى ، وتعلقت حَبَلات[١] أخرى بمحالقها الملتوية إلى قوائم العريش ترقى فيها حتى تستقلّ إلى أعاليه فتعترش . وقد تحركت الكروم للإيراق فاكتست رِطابُ سُرُوعِها[٢] وحُمرُ زَرَجونها[٣] بالورق مُخشوشِنَ الصفحات مُشَرَّف الأطراف وآذنت بالإثمار فأخرجت نواميها[٤] العناقيد مبشرةً بأطيب القطافِ .

وإن منظر هذه الكروم تغطى بلاداً شاسعاتٍ ، وتنبسط رقعتها مسافاتٍ ، ويتصل سوادها ويمتد امتداد البصر ، ليملأ من شاعرنا ناظره ، ويزدهى خاطره :

مسارحُها الغربىُّ من نهر صَرْصَرٍ فقطربُّلٌ ، فالصالحية ، فالعقرُ

والكرمة إذا همّت بالإثمار مرّت بها عدة أدوار ، فترى أغصانها فى أول أمرها وقد صار فى أُبَنها[٥] — التى تخرج منها العناقيد — مثل الزَّغَب ، ثم تبدو رءوس حبّ العنب مثل الذرّ ، ثم يتبين حبها ويصير كحبّ السمسم ويأخذ بعضه ببعض ، ثم يكبر حب العنقود ويتفرّق بعد اجتماعه إلى أن يعقد الحب حصرماً ، ثم يكبر الحصرم ويُرى الماء فى الحب وتلين هَبْرَته ويأخذ فى التلوّن حتى يبلغ غايةَ النضج فيحين القطاف .

ولقد كان شاعرنا لا تكاد تأخذ عينه فى الكرم أولى هذه الأدوار فى طريق الإثمار ، حتى يشب خياله ويثب به خاطره ، فيجتازها جميعاً فى طفرة ، فإذا به فى آخر المطاف ، وقد جاوز القطاف إلى ما بعد القطاف . وهذا هو يرى الحصرم على القضبان ، فيتمثله لوقته وساعته دماً فى جوف الدنان :

مررتُ على عُنقودِ كَرمٍ مُعَرَّشٍ بقطربّلَ يوماً وقد صار حِصرما

---

(١) الحبلات : جمع حبلة وهى ساق شجرة العنب . (٢) السروع : جمع سرع وهو قضيب الكرم الغض . (٣) الزرجون : قضبان الكرم والواحدة زرجونة .

(٤) النوامى : جمع نامية وهو القضيب الذى تكون عليه العناقيد .

(٥) الأبن : جمع أبنة وهى العقدة .

فقلتُ أرانى اللهُ وجهكَ أسوداً ... وسُقِّيتُ يا عُنقودُ من جوفك الدّما

كذلك لم يكن روض من الرياض ليخلو من النخل . وكيف يخلو منها وهى التى يتسم الشرق العربى بها قبل غيرها من أنواع الشجر . وظاهر فى شعر النوامى إعجابه بالنخيل . وهى ولا ريب قمينة بالإعجاب عند النظر إلى منظرها الزُخرفى بجذوعها الطوال السامقة ، وما يدور حول جذوعها من كرانيف[1] بعضها فوق بعض ، وما يعلوها فى الذروة من تلك الجُمّة الخضراء المنفوشة من السعف وكأنه فى اتساقه وتفرجه مروحة من ريش النعام عظيمة الأحجام . كما أن النخيل أظهر الأمثلة على عجائب التلقيح . ولقد وصف الشاعر لنا فى مستهل قصيدته كيف يفتضّ الآبِرُ كوافيرَ الأنثى من النخل ومعه طلع الفُحّال فينفض غبارَ شماريخه فى كوافير النخلة فتلقَح[2] . ثم يستأنف الشاعر وصفها لنا بعد اللقاح كيف أرخت عقائصها وقد عظم خَلالها[3] حتى إذا أخذ البُسْر الأخضر فى الطول وجعل يتلون إلى الحمرة أو الصفرة افتتن الشاعر بهذه الكبائس[4] من الزهو[5] المنضد فى عراجينه[6] كأنه عقود اليواقيت :

لا أنعتُ الرّوضَ إلاّ ما رأيتُ به ... قصراً مُنيفاً عليه النَّخلُ مُشتمِلُ
يَفتضُّها فطِنٌ عِلجٌ ، بها خَبِرٌ ... فضّ العَذارَى حُلاها الرّيطُ والحُلَلُ
فافتَضّ أوّلها منها وآخِرَها ... فأصبحتْ وبها من فَحْلِها حبَلَ

---

(١) الكرانيف : أصول سعف النخل تبقى فى الجذع بعد قطع السعف من النخلة .
(٢) الآبر : من أبر الزرع أصلحه وألقحه ، والكوافير طلع النخل المفرد كافور ، والفحال ذكر النخل ، والشماريخ : جمع شمروخ وهو العذق عليه بسر . والعذق من النخل كالعنقود من العنب . (٣) العقائص : ضفائر الشعر ، والخلال البلح . (٤) الكبائس جمع كباسة وهى العذق . (٥) الزهو : البسر الملون . (٦) العراجين : جمع عرجون وهو أصل العذق الذى يبقى على النخل بعد أن تقطع عنه الشماريخ .

حتى إذا لقحت أرخَتْ عقائصَها فمال مُنتَثِراً عُرجونُها الرَّجِل (١)

فبينما هى والأرواحُ تنفَحُها شهرين بارحةً وهناً وتنتحل

أرخَت عقوداً من الياقوت مُدمَجةً صُفراً وحُمراً بها كالجمر يشتعِل

فلم تزلْ بمدُودِ الليـــل ترُضعُه حتى تمكَّن من أوصالها العسل

يا طيبَ تلكَ عروساً فى مجاسدها لو كان يصلح منها الشمُّ والقُبَل (٢)

خلالها شجرٌ ، فى فَيئِه نَقَدٌ لا يرهبُ الذِّئبَ فيها الكَبشُ والحمل (٣)

إن جئتَ زائرَها ، غنَّاكَ طائرُها برجْعِ ألحَنةٍ فى صَوتِها هَدَل

من بلبلٍ غردٍ ، ناداك من غُصُنٍ يبكى لبُلبلةٍ أودَى بها خَتَل (٤)

حرب الأزهار

ثم إن شاعرنا كثيراً ما يذكر فى خمرياته الأزهار ، فيسميها بأسمائها وينعتها بسماتها ، وهى ، عامةً ، فى موضع عشق منه ، إلا أن بعضها كان مع ذلك أحب إليه وأحظى بأنسه ، مما يدل على دقة حسه ويشهد له بالخصوصية فى ذوقه . وهنا أيضاً نرى أبا نواس فى حبه للزهر ، يشرب عليه الخمر . فنراه يشرب على الورد والنرجس والنسرين والآس والخيريّ وغيرها من أنواع الريحان ، مع التفات إلى المؤتلف والمختلف بينها وبين الخمر فى الأصباغ والألوان ، وأخص هذه الأزهار بالذكر عنده الورد والنرجس :

اشرَبْ على الورد فى نيسانَ مُصطبحاً من خمرقطربلٍ حمراء كالكاذى (٥)

---

(١) الرجل من الشعر ما بين الجعودة والاسترسال .

(٢) المجاسد : جمع مجسد ، القميص الذى يلى البدن .

(٣) النقد : جنس من الغنم . (٤) الختل : الخداع ، والحركة لضرورة الشعر .

(٥) الكاذى : شجر كالنخلة له ورد .

لا تبكِ ليلى ولا تطرَب إلى هندِ   واشرَبْ على الورد من حمراءَ كالوردِ

لا تحفِلَنَّ بقول الزَّاجر اللاَّحى   واشرَبْ على الورد من مَشمولَة الرّاحِ

فسقيناهُ على الور   د شراباً ذهبيًّا

ألا فاسقنى مِسكيَّةَ العَرْفِ مُزَّةً   على نرجسٍ تُعطيك أنفاسَه الخمرُ
عيونٌ إذا عايَنتَها فكأنَّما   دموع النَّدى من فوق أجفانها دُرّ
مَناصبُها بيضٌ ، وأجفانُها خضرُ   وأحداقها صفرٌ ، وأنفاسها عِطر [(١)]

وذى حَلِفٍ فى الرَّاحِ ، قلتُ له « اتَّئد   فليس على أمثالِ تلك يمينُ [(٢)]
تُراثُ أُناسٍ عن أناسٍ تخرَّموا   توارثَها بعد البنين بَنون [(٣)]
فأدرَكَ منها الشاربون حشاشةً   لها نزَوانٌ مَرَّةً ، وسكون
على نرجسٍ غضِّ القطافِ كأنَّه   — إذا ما مَنَحْناه العيونَ — عيون
مُخالِفَةٌ ألوانهنَّ ، فصُفْرةٌ   مكانَ سوادٍ ، والبياضُ جفون

فالشاعر — كما شهدنا — موزع القلب فى مجلس شرابه بين النرجس والورد . وفيهما يتمثل له اللونان الحبيبان إليه : الصفرة والحمرة . فإذا قامت يوماً بينهما المناظرة ، وتحتم التقديم ووجبت المفاضلة ، فلا معدى يومئذ من أن يحرز النصر ما كان منهما أشبه لوناً بالخمر . ولقد تمثل أبو نواس هذه المعركة الطريفة ، فجاءنا فى مقطوعة له بصورة عجيبة الخيال ، لميدان القتال ، فى رياض « باطَرُنجى » بالقرب من بغداد ، وقد دعاه النرجس أن يشرب عنده معتقة العقار ، وعارضه

---

(١) المناصب مفردها منصب ما تنصب عليه القدر ، والمراد بياض العين الذى تنصب عليه الحدقة .
(٢) ذى حلف فى الراح : هو الذى أقسم ألا يشربها .   (٣) تخرموا : ماتوا .

فى الدعوة الورد وأصرّ على أن يكون هو المختص بهذا الإيثار . فاستنجد النرجس بالبهار ، وانتصر للورد الجلّنار . ولم يقف الأمر عند استجاشة الأزهار ، بل تعدى إلى الاستعانة بالأثمار ، فانضم الأترج إلى « الصُّفر » ، وانحـاز التفاح إلى جانب « الحمر » ولقحت الحرب إذ ذاك ، وحَمِيَ وطيسها بين العسكرين فكانت الغلبة فى آخر الأمر لعسكر الحمر وفى طليعته الورد :

« باطَرُنْجِىٰ » بها ثَويتُ ، ولى فيـ   ـها إذا دارت الكؤوسُ اعتبارُ
مِن حديثى أنّى مررتُ بها يو   ماً ، وقلبى من الهوىٰ مُستطار
فإذا نرجسٌ ينادى غلامى :   « قفْ ! فقد أدركتْ لدينا العقار »
فانثنينا إلى رياضٍ عيونٍ   ناظراتٍ ما إن بهنّ اخوِرار
ومكان الجفون منها ابيضاضٌ   ومكانُ الأحداق منها اصفرار
بينما نحن عندها ، صرخ الور   دُ إلينا « يا أيُّها الشُّطَّار ![1]
عندنا قهوةٌ تغافلَ عنها   دهرُها ، فالوُجودُ منها ضِمار »[2]
فانثنينا للورد من غير أن تَنْـ   أى عن النرجس المضاعفِ دار
فرأى النرجسُ الذى صنع الور   دُ ، فنادى مُستصرخاً «يابهار»[3]
ورأى الوردُ عَسكرَيْنِ من الصُّفـ   ـرِ ، فنادى فجاءه الجُلَّنار[4]
واستجاشَ تُفّاحَ لُبنانَ لمّا   حَمِيت من وَطيسها الأوتار[5]
واستجاش البهار جيشاً من الأتْـ   ـرُجّ فيه صغارُهُ والكبار[6]

(١) الشطار : جمع شاطر وهو المتصف بالدهاء والخباثة . (٢) الضمار : خلاف العيان
(٣) مستصرخاً : مستغيثاً . البهار : نبت له زهر أصفر طيب الرائحة .
(٤) الجلنار : زهر الرمان وهو أحمر .
(٥) استجاش الجيش جمعه : واستجاش القوم : حرضهم على الإعانة . الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .
(٦) الأترج : الترنج وهو من جنس الليمون .

فرأيتُ الرَّبيعَ فى عسكرِ الحمـ ـرِ ، وقلبى يَشِفُّه الاحمرار[1]
ليس إلاَّ لُحمرةٍ فى خدودٍ من أُناسٍ بغَوا عَلينا وجاروا

أمطار ربعية

وكذلك كان شاعرنا يشرب فى الربيع ، على القَطر من مطر رفيق ، تستهل شآبيبُه من غمام سارٍ رقيق ، فيحيى الموات ، ويَسِمُ الأرض بالنبات ، فتخضرّ الزروع ، ويرفّ الشجر نعمة وريّاً ، وقد سار الماء فى عيدانه ، فأورقت أغصانه ونورت أفنانه . كما كانت تحلوله المعاقرة عند مجتمع الميـاه وقد سالت بالأمطار الربعية الأودية والقيعان وطفحت الغدران واتصلت السواقى والجداول :

فى رياضٍ ربْعِيَّةٍ بَكرَ النَّو ءُ عليها بمُستهلٍّ الغمامِ[2]
فتوشَّت بكلِّ نَورٍ أنيقٍ من فُرادَى نباته وتُؤام[3]
فترى الشَّرب كالأهِلَّة فيها يتحسَّون خسرويَّ المُدام[4]
ولهم من جَناهُ آذَريونٌ وضَـعوه مواضعَ الأقلام[5]

وجداول مَوصولةٌ بجـداول من صَوبِ غاديةٍ ولمعِ بُروقِ[6]
تـكسو مدامعُه الرِّياضَ عرائساً من نرجسٍ متكاثفٍ وشقيق[7]
باكرتُها قبـل الصَّباحِ بسُحرةٍ قبل ابتِكار مَجرَّة العَيُّوق[8]

---

(١) يشفه بمعنى يشوقه ويؤثر فيه . (٢) الأصل فى النوء طلوع نجم على أثر سقوط نجم غارب ، وكانت العرب فى الجاهلية تزعم أنه لابد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح .

(٣) يقال جاءوا فرادى أى واحداً واحداً . وتؤام جمع توأم أى اثنين اثنين .

(٤) الشرب جماعة الشاربين . يتحسى الشراب يشربه شيئاً بعد شىء – خسروى مثل كسروى نسبة إلى ملوك فارس . (٥) آذريون زهر أصفر . وضعوه مواضع الأقلام : أى على آذانهم . (٦) الغادية السحابة ، الصوب المطر . (٧) الشقيق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سود . (٨) السحرة ما قبل انصداع الفجر ، العيوق : نجم يتلو الثريا .

من كفِّ أحورَ ذى عِذارٍ أخضرٍ   يَسبى القلوبَ بقدِّه المشوق
فكأنَّ ما فى الكأس من إبريقه   نارٌ تسلَّلُ من فم الإبريق[1]

وكان يوم الدجن والمطر من الأيام التى يستحب فيها شاعرنا وسائر أصحاب الخمر شرب الخمر . حكى غسان بن محمد الفدافرى ابن عم الحسين الخليع ، قال [خرجت إلى بغداد ، فنزلت على الحسين ، وقلت : « أحب أن تجمع بينى و بين أبى نواس » . قال : « انهض ! » . وسار بى إلى شارع العلاء الوصيف ، وأبو نواس ينزل فيه بحيال دار العلاء الوصيف فطرقنا بابه ، وقلنا لغلامه : « قل له الحسين الخليع » فخرج إلينا بنفسه ، فأدخلنا مجلسه . فما جلسنا حتى هطلت السماء ، فخاف علينا ألا نبرح . وأتانا بما حضر من طعام ، فطعمنا . وصرنا إلى مُسْتَمْطَرٍ له بحذاء منزل العلاء الوصيف ، وفيه مناظر إلى الشارع ، ففتحنا الشارع وجلسنا نشرب].

وروى أحمد بن العباس بن الحكم (وروى مثله سليمان بن أبى سهل) أن أبا نواس جاءه فى غداة يوم من أيام الربيع وقد طشَّت[2] السماء ساعة . فلما دخل عليه أنشأ يقول :

ما مثلُ هـــذا اليوم فى طيبه   عُطِّل من لهوٍ ولا ضُيِّعا
فما ترى فيــــه ؟ وماذا الَّذى   تحبُّ فى ذا اليوم أن تَصنعا ؟
هل لكَ أن تغدُو على قهوةٍ   تُسرع فى المرء إذا أسرعا ؟
ما وجدَ النَّـــاسُ ولا جرَّبوا   للهمِّ شيئاً مثلهـــا مَدْفعا !

---

(١) تسلل أى تتسلل . وهذه الأبيات أوردها البيهق فى كتابه المحاسن والمساوئ فى الصفحة ٨١ من الجزء الثانى .   (٢) الطشيش : المطر الضعيف .

فأجابه إلى ما اقترح قائلا : ما كان يسعدنى فى هذا اليوم غيرك . أقِمْ فهاهنا ما يصلحك » . فأقام عنده الشاعر يومه ذلك كله .

موسيقى طبيعية

كذلك كان أبو نواس فى وسط الرياض يشرب على تلك الموسيقى الطبيعية المجنحة التى يُطلق الربيع ألحانها وينبه أصداءها ، فترتفع بها عقائر الطير ، من شدو البلابل فى القمراء وزقزقة العصافير ملء الفضاء ، وهديل الحمائم فى سدفة الصبح أو غبش المساء ، بين تطريب بهيج وحنين شجىّ :

دعتِ الهمومَ إلى شغاف فؤادى   وحمتْ جوانبَ مقلتىَّ رقادى

وُرْقٌ بتفجعةٍ تنــوح أليفها   غَلَس الدُّجُنَّة فى ذرى الأعواد[1]

ولقد أُزيحُ الهمّ حين يَنُوبنى   والشَّوق يقدح فى الحشا بزِناد

بمدامةٍ وَرِث الزَّمان لُبابَها   عن ذى الأوائلِ من أكابر عاد

إن جئتَ زائرَها ، غنَّاك طائرها   برَجعِ ألحِنةٍ فى صوتها هَدَل[2]

من بلبلٍ غَرِدٍ ناداك من غصنٍ   يبكي لبلبلةٍ أودى بها ختَل

أما يسرُّك أن الأرض زَهراء   والخمر ممكنةٌ شمطاء عـذراء

بادِرْ فإنَّ جنانَ الكرخ مُونقةٌ   لم تَلْتقِفها يدٌ للحرب عسراء[3]

فيها من الطَّير أصنافٌ مشتَّتةٌ   ما بينهنَّ وبين النطق شحناء

---

(١) ورق : مفردها ورقاء وهى الحمامة . الدجنة : الليلة المظلمة . ذرى الأعواد : أعالى الأغصان

(٢) الهدل : الاسترخاء .

(٣) العسراء : يقال للذى يعمل بشماله أعسر ، ويقال يوم أعسر أى شديد أو شؤم .

إذا تفنَّيْنَ لا يُبقين جانحةً   إلاَّ بها طَرَبٌ يُشفَى به الداء
في مجلسٍ مُشرِفٍ على شجرٍ   يضحكُ تُفَّاحُه إلى الخيرى[١]
وطائرٌ واقعٌ على فننٍ   تُسعده ضجَّةُ العصافير
فلم نزل يومَنا وليلتنــا   نَقْراً على السَّطح بالطنابير
حتى رأينا السَّوادَ منحسراً   ودارت الشمسُ في المقاصير

من مظاهر النزعة إلى الحرية

وما من شك فى أن القارئ قد وقع فى نفسه من هذه الأوصاف لمجالس الشرب فى الرياض والمتنزهات ، وما سبق ذلك عند الكلام عن الأديرة والحانات من أوصاف مجالس الشرب فيما حولها من البساتين وما بسطوحها من المستشرفات — نقول إنه ما من شك فى أنه قد وقع فى نفس القارئ من هذه الأوصاف جميعاً مبلغُ ارتياح شاعرنا إلى الحياة فى الفضاء الطلق خارج حبسة السقوف والجدران ، وفى منأى عن زحمة المدن والعمران . وما نحسب هذه العبادة للحرية إلا ذات أثر فيما نرى من موقف أبى نواس من التكاليف الدينية والتقاليد الاجتماعية . على أننا نقف هنا عند ظاهر الأمر ، ونضيف إلى ما تقدم من الأوصاف أبياتاً من شعره ليس معناها بالمتأوَّل ولا المستور ، يشهد منطوقها فى نص صريح على شغفه بالحياة الطليقة خارج الدور ، وإن تكن الأبيات عند صاحب الوساطة الجرجانى من الأمثلة على « سخف اللفظ وسوء النظم وسقوط المعنى » :

قد غَنِينا عن الشِّتاء   وعن اللُّبسِ للفِراء
وعن الحشو والعما   مةِ والكِنِّ والصِّلاء[٢]

---

(١) الخيرى : المنثور الأصفر .

(٢) الكن : الستر . الصلاء : الدفء .

وعن الفَرْش والغطاء في بُيوتٍ بلا ـِكواء[1]
قدِم الصيفُ بالوِلا ية قُدّامهُ اللّواء
بالمناديلِ والغــلا لةِ والنعلِ والرِّداء[2]
بالطنــابيرِ والطّبو لِ وبالرّقصِ والغناء

فمن أجل هذه الحياة الطلقة كان كل هذا الحب الزاخر الفياض من شاعرنا للربيع . ولا بأس في كناية الشاعر عنه بـ « الصيف » فهو الربيع عند العرب[3]

على مدار الفصول والأيام

على أن هذا اللهج بالشرب في الربيع لم يكن من شأنه أن يصرف صاحب خمرٍ كأبي نواس عن الشرب في غير الربيع ، فهو معاقر للمدام في كل فصل من فصول العام ، لا يعدم لذلك سبباً إن كان لا بدّ من سبب . فإذا أدركه الصيف فهو يشربها ترويحاً للنفس من لفح السَّموم وحرّ الهموم :

لقد رَحَلَ الشتاءُ وحلّ صيفٌ وضاحك نَورُ أشجارٍ كروماً
فخذها قهوةً حمراءَ بكراً بأسيافِ السرور فَرَت هموماً[4]

وللقوم في تبريد الشراب في الصيف وسائلهم البدائية ، وقد يتخذون الثلج لتبريده كلما أمكن ذلك . وكان الرؤساء يرسلون في طلب الثلج من القمم العالية

---

(١) الكواء : جمع كوة . (٢) الغلالة : الشعار ، وهو القميص .
(٣) نهاية الأرب الجزء الأول ص ١٦٢ : (فأما فصل الربيع وهو عند العرب الصيف فطبعه حار رطب ، ودخوله عند دخول الشمس برج الحمل ، ويوافقه مارس من شهور الروم) .
(٤) فرى : قطع ومزق .

ويختزنونه مدفوناً أطول ما يستطاع . ولم يكن أحب إلى القوم منه فى أقداح الشراب . وهذا شاعرنا يورده فى معارض الغزل :

ومَجّ فوها فى فمى مَجَّةً كالراح إذ يُمزج بالثلجِ

ويعود إليه فى حواره مع الصهباء يراودها ويستنزلها من دنها بما يزينه لها ويحسّنه :

قالت : « فمَن خاطبى هذا؟ » فقلت « أنا » قالت : « فبعلىَ ؟ » قلت : « الماء إن عذُبا »
قالت : « لقاحِىَ ؟ » قلت : « الثَّلجُ أبرده » قالت : « فبيتى ؟ فما أستحسن الخشبا »
قلت : « القنانى والأقداح وَلّدها فرعون » قالت : « لقد هيَّجت َلى طربا »

وإذا مضى الصيف بوقدات قيظه ولفحات حروره ، وأقبل الخريف ، شاقه الشرب كذلك على ثماره اليانعة الجنية ، وأوراقه المصفرة الذهبية ، ونسماته الخصرة الندية :

مضى أيلول وارتفع الحرورُ وأخبتْ نارَها الشِّعرى العبورُ[1]
فقُومَا فالقحا خمراً بماء فإنّ نتاجَ بينهما السرور

وإذا كان الشتاء ، فقد حق له الاستظهار على برده ، وليس شىء عنده كالخمر يغنى عن الصلاء ويمنع القرّ .

ويوم من أيّام العجوز كأنما وجوه الموالى فيه بالثلج تُلطَحُ[2]
جعلنا صِلانا الرّاحَ ، فالتهبتْ بنا وأوقدت الأجواف فالجلد يرشح[3]

وكما كان يلذّ للنواسى الخمر أيا كان الأوان من فصول السنة ، كذلك كان يلذّ له النهل منها والعلّ أيا كانت الساعة من النهار أو الليل . فإذا مدّ الليل رواقه

---

(١) أيلول يوافقه من شهر الروم سبتمبر وهو آخر الصيف وبدء الخريف . الحرور حر الشمس والريح الحارة . أخبت أطفأت . الشعرى كوكب يطلع فى الجوزاء وطلوعه فى شدة الحر .

(٢) تلطح : تضرب . يكنى بذلك عن تساقط البرد وحصبه وجوههم .

(٣) الصلا النار .

على السكون ، وهدأت الحركة وانقطعت الجلبة وساد السكون ، وأذكت السماء مصابيحها من زُهْر النجوم ، حلاله الشرب على لمح النجوم تغمز له بعيونها ، وعلى ضوء الشموع والسرج يرقص له لهبها ، حتى لتحسبه يستكره المنادمة فى غير الغلس على حدّ قوله :

اسقنيهـــا يا نديمى بغَلَسْ　　لا بضوء الصُّبح ، بل ضوءِ القبَسْ

ولكنك لا تقلب من خمرياته صفحات ، إلا ألفيته صبًّا بالمعاقرة فى سائر الأوقات ، أيا كان موقع هذه الأوقات فى الليل أو فى النهار ، أو فيما بينهما من ساعات السدفة التى يختلط فيها النور بالظلمة :

بادِرِ الكأْسَ نَهارا　　واشرب الرَّاح العقارا

وفتيان صدقٍ قد صرفتُ مطيَّهم　　إلى بيت خمَّارٍ نزلنا به ظُهرا

أخِى قد مضى من ليلنا الثُّلُثانِ　　ونحنُ لنجمِ الصُّبح مُنتظرانِ

فصوِّب من الإبريق فى الكأس شَرْبةً　　يُعَلُّ بها قلبانِ مُختلِفانِ

عاطيتُه وضياءُ الصُّبح مُتَّصِل　　بظُلمة اللَّيل ، أوْ قد كاد يُضويها(١)

هذا قِناعُ اللَّيـل محْسورُ　　فاشربْ فقد لاح التَّباشير

وقهوةٍ باكرتُها سُحرةً　　والصُّبحُ قد أسفر فى لَوْحهِ

أزالَ اللَّيلَ سلطانُ الصَّباحِ　　فعاطِ أخاك سَلسالاً براحِ

يا إخوتى ! ذا الصَّباحُ فاصْطبِحوا　　فقد تغنَّت أطيارُه الفُصُحُ

هُبُّوا خُذوها فقد شكانا إلى الـ　　إبريق من طُول نَومنا القَدَح

(١) يضويها : يضعفها وينقصها .

ويتبين من هذا كله أن أبا نواس مع إيثاره فى المعاقرة أواناً على أوان وتقديمه مجلس شراب على مجلس شراب ، قد كان يشرب الخمر للخمر ، ويهون عليه فى جنبها كل أمر ، ويتسم صبره لكل مفقود ، إلا الصبر عن ابنة العنقود .

شهر الصيام

ومن ثمَّ شكوى شاعرنا المتململة المتكررة من شهر الصوم . وإنه ليرقب مقدمه من بين فصول السنة ، وكلما دنا وأزف ، انقبض لدنوه قلب الشاعر ووجف . فإذا لم يبق دونه غير ليالٍ زاد إقباله على الخمر يشربها ويفرط فى شربها كالعاشقِ المفتون يزعجه خاطر الفراق ، فهو يتودع منها ، مستهتراً متهالكاً عليها ، لا يبيت إلا ممتلئاً بها طافحاً ، ولا يُفيق من السكر إلا ليعاود الشرب . ولم يكن النواسى فى ذلك وحده ، بل كان ذلك دأبه ودأب الكثيرين غيره . فهذا معاصره أبو الهندى الشاعر يقدَم من الكوفة آخر ليلة من شعبان إلى حانة عون فى الحيرة، فلا يزال يشرب ليلته كلها حتى مطلع الفجر على أن اليوم يصبح يوم شك . فلما قيل له إنه من رمضان ، مضى فى شربها مصطبحاً وقال :

شربتُ الخمرَ فى رمضانَ حتى   رأيتُ البدر للشِّعْرى شَريكا

فقال أخى : « الدِّيوكُ مُنادياتٌ »   فقلتُ له : « وما يُدرى الدِّيوكا ؟ »

وكتب النميري إلى ابن المعتز فى آخر شعبان :

يا أبا العباسِ قد شمَّر شعبانُ إزارَهْ

ومضى يسعى فما يَلحَقُ إنسانٌ غُبارَهْ

فاغدُ نشربْ صفوةَ الدَّنِّ ونَسلُبْه وَقارَهْ

وكان أبو نواس إذا حلّ رمضان جعل يتبرّم به ، ويزعمه أطول من سائر الشهور . وذلك أن احتباس الخمر وتكلف الناس مجانبة السكر كرامة لهذا الشهر المبارك مما يثقل على نفسه ويجعل اليوم فى حسه شهراً ، ويجعل الدنيا من ضيقه بها حبساً ومن وحشته فيها قبراً :

منع الصَّومُ المُقارا وزَوَى اللَّهوَ فغارا[1]
وبَقِينا فى سجون الـ صَّوم للهمِّ أُسارى

وليت أبا نواس حين يشكو كان يشكو حرمانه اليوم كله، فإنه إنما كان يضيق من الحرمان ساعات معدودات من الإسحار إلى الإفطار ، أى سحابة النهار . ثم يعود إلى شربها فى الليل ، بدليل ماجاء فى مستأنف القول :

غـيرَ أنّا سنُدارِى فيه مَنْ ليس يُدارى[2]
نشربُ اللّيلَ إلى الصـ ـبح صِـغاراً وكبارا

وحتى فى النهار ، ما كان للصيام أن يمسكه عن المدام ، لو أسعده شريك ينادمه عليها . وقد روى أنه كان عند « محمد بن زهير » فى يوم من أيام شهر رمضان يتحدث — وكان محمدٌ شديد المحبة له — فتذاكرا الشرب ، فقال محمدٌ « يا أبا علىّ ، كيف صبرك عنه فى النهار ؟ » فقال : « صبرٌ ضعيف رثُّ القوى ، وإن كنتُ ليلاً استوفى ما يفوتنى نهاراً ، ولو أجدُ مسعداً ما فقدته فى ليلٍ ولا فى نهار » . ثم أنشأ يقول :

لو كان لى مسعدٌ فى الرّاح يُسعدنى لما انتظرتُ بشرب الرّاح إفطارا
الرّاحُ شىءٌ عجيبٌ أنتَ شارِبُهُ فاشرب ولو حمّلتكَ الرّاح أوزارا

---

(١) زواه : منعه وأبعده . (٢) من ليس يدارى هو الله سبحانه وتعالى .

يا مَنْ يلومُ على حمراء صافيةٍ   صِرْ فى الجِنان ، ودَعْنى أسكن النَّارا

وأيًّا كانت الحالة ، فصاحبنا لم يعدم الحيلة فى معالجة طول هذا الشهر المديد عنده وتقصير مدته . فهو زعيم — كما رأينا — بتقصير ليله فى معاقرة العقار ، فإذا كان النهار لم يشعر بطوله من غشية الُخمَار :

إذا طال شهرُ الصَّوم قصَّرتُ طولَه   بحمراء يحكى الجُلنارَ احمرارُها
يُقصِّر عمرَ اللَّيل إن طال شُربُها   ويعملُ فى عُمر النَّهار خُمارُها[١]

ونحن حين نتصور مقدار هذا الذى يكابده أبو نواس من جهة الحرمان كله أو بعضه فى شهر رمضان، ندرك مقدار شماتته وهو ينظر إلى قمر الصوم فى أخريات لياليه ، وقد تناقص هلاله واستمرَّ هزاله ودقَّ خياله :

لقد سرَّنى أنَّ الهــلالَ غُدَيَّةً   بدا وهُو مَمشوقُ الخيالِ دقيقُ[٢]
أضرَّت به الأيَّامُ حتى كأنه   عِنانٌ لَواهُ باليَدَيْن رَفيق
وقفتُ أُعزِّيه وقد دقَّ عظمُه   وقد حان من شمس النهار شروق :
« لِيَهْنِ ولاةَ اللهو أنَّكَ هالِكٌ   فأنت بما يَجرى عليكَ حقيق »
وإنى بشهر الصوم إذْ بانَ شامتٌ   وإنك يا شوَّالُ لى لَصَدِيق
فقد عاوَدَتْ نفسى الصَّبابة والهوى   وحان صَبوحٌ باكرٌ وغَبوق

والسكيرون كلما ضاق من شهر الصيام صدرهم وذهب صبرهم ، جعلوا يُحْصون ما بقى من أيامه ، ويرصدون بعد النصف قمره يشمتون فى نقصانه . وكلهم من شدة النقمة مبيِّت النية على مضاعفة السكر بعد الفطر مدَّة شوال كله ، على حدّ قول بشار :

---

(١) يعمل فيه: يؤثر فيه وينقصه

(٢) الغدية تصغير الغداة وهى البكرة أو ما بين الفجر وطلوع الشمس .

قُل لشهر الصِّيام «أنحلتَ جسمى   إنّ ميقاتَنا طلوعُ الهلالِ
إجهَدِ الآنَ كلَّ جهْدِكَ فينا   سترى ما يكونُ فى شوَّال ! »

ولقد صور لنا أبو نواس حاله فى المسجد ينتظر نافذ الصبر تأذين الإمام فى مغرب آخر يوم من أيام رمضان ، وما كان من طوافه وقد عاودته خفة مراحه متنقلاً فى صحن الجامع من سارية إلى سارية وسط الزحام يعانق ويقبّل من شاء فى غير احتشام :

أبا العبَّاسِ ، كُفَّ عن الملام   ودَعْ عنك التَّعمُّقَ فى الكلام
فقد — وحياةِ من أهوىَ وتَهوىَ —   أقامَ قِيامتى شهرُ الصيام
أماتَ مَجانَتى ، وأباد لَهوى ،   وعطَّلَ راحتىْ مِن المُدام
ولو أبصرْتَنى عند السوارى   أُطوِّفُ عند تأذين الإمام
علمتَ بأننى عذَّبتُ نفساً   لها عادٌ ورسمٌ فى الحرَام
فكَم لِى ، ثَمَّ ، من تَقبيلِ خدٍّ   ومن عضٍّ ورَشفٍ والْتِثام

وقد رئى أبو نواس — فيمن رئى فى شوال — وهو محتفل بالشراب متوفرٌ على شربه . يصل الليل بالنهار طولَ مدّته ، مضاعفاً من الخمر العقار حصته ، يستبدل بالسَّكْرة سكرتين ، ليجعل الشهر من ذلك عِدْلَ شهرين . فلا ينقضى شوال حتى يكون أبو نواس قد تعوض ماضاع فى رمضان من عمرٍ وفات من لذةٍ ، بما أصلح من حساب الأيام ، واستوفى من المدام :

إستعذْ من رمضانِ   بسُلافات الدِّنان
واطْوِ شَوّالاً على القَصْـ   ـفِ وتغريدِ القِيان
ولتكُنْ فى كل يوم   لكَ فيه سَكرتان

تأهَّبْ يومَ فِطرك للمعاصى ... وخذ شوّالَ — وَيحك — بالقِصاصِ
وصِلْ أيامَه باللَّيـــل حتى ... ترى الستّين ليس بذى انتِقاص

وتلك أبيات تدخل فى باب المجون ، وهى به أحرى وأليق ، وليست عندنا شيئاً ، فلا نحب أن نقف عندها . فليستمع القارئ معنا إلى غيرها فى نفس الغرض ، ولكن يشفع لها على الأقل أنها أنطق بالعاطفة الجادة الصادقة ، يعلن شاعرنا فيها فرحته وقد انقضى الصوم وولّى رمضان ، وعادت حياة اللهو سيرتها محلولة العقال مرسلة العنان . و إن القارئ ليحس فى كل بيت من أبياته وكلة من كلماته بنشوة الفرح وهزة الطرب ، و يتمثل هذا المسكين العطشان إلى الخمر ، المشوق إلى اللهو ، قد غلبه الابتهاج ، فهو يميد بعِطفَيه و يصفّق بيديه ، وعقله مستطار ، وقلبه فى جوانحه يطفر و يرقص :

ولّى الصيامُ ، وجاء الفِطرُ بالفرحِ ... وأبدت الكأسُ ألواناً من المُلَح
وزارَكَ اللهوُ فى إبانِ دَولتهِ ... مُجَدَّدَ اللهو بين العُود والقدح
فليس يُسمَع إلا صوتُ غانيةٍ ... مجهودةٍ جدَّدت صوتاً لمقترِح
والخمرُ قد برَزَت فى ثوب زينتها ... فالناس ما بين مَخمورٍ ومُصطبح

دوافع إلى الشراب

ولم يكن شأن الشراب عند أبى نواس أنه كان يستطيبه كما يستطيبه الكثيرون، بل كان به للشراب سُعارَ لا يشبع وغُلةٌ لا تنقع . وهى حال تدعو إلى الوقوف عندها ، ومراجعة ملابسات حياته لعلنا من غير قصد إلى الاعتذار له نتبين الدوافع — أو ما يشبه أن يكون الدوافع — إلى إدمانه هذا الإدمان كله للشراب ومغالاته بالخمر ، وحبه إياها إلى حد العبادة :

لو عَبد الخمرَ قبلَنا أحــدٌ ممَّن مضى قبلنا عبــدناها

فالمأثور عن أبى نواس ، النحافة و بياض اللون وشحوبه ونعومة الجسم وقلة ضلاعة البنية. ولا جَرَم يستتبع شعورُه هذا بالوعكة والضعف ارتياحه إلى ماتورثه الخمر من الشعور بالعافية والقوة . فهى بمقتضى ما تشيعه من الحرارة كأنما ترمّ الجسم وتجبر العظم وتشد الظهر وتقوى الركن ، وهى بمقتضى ما تورثه من تخدير كأنما تذهب بالإعياء وتجدد النشاط فى العضل المجهود والعصب المشدود . و إنها ليظهر جميل أثرهاالعينه فى استبدالها بالصفار حمرةً مشرقةً فى لونه،كما أنه يجد نفسه بعد شربها أكثر ارتياحاً وأسرع إلى اللذات انبساطاً. فشاعرنا دائم الاحتجاج لها فى شعره بأنها العلاج للسقم والضمان للصحة :

لا تَذْهلنَّ عن ابنة الكَرْمِ فبها تمسُّكُ قوّةَ الجسمِ
لا تُخدعنَّ عن التى جُعلت سُقمَ الصَّحيح،وصحّةَ السّقم

قهوةٌ تترُكُ الصحيحَ سقيماً وتُعيرُ السقيمَ ثوبَ الصحيح

فتمشَّتْ فى مفــاصِلِهم كتمشِّى البُرء فى السَّقَمِ

ولقد نهاه الخليفة عن معاقرة الخمر وتوعده بالقتل إن هو عصاه فيها ، فقال فى ذلك شعراً تسمع منه فى بعض الأحيان أنين السقيم ذادوا عنه دواءه ، وحرموه ما يمسك ذماءه :

أعاذِلُ لاأموتُ بكفٍّ ساقٍ ولا آبَى على مَلكِ العِراقِ
هَجرتُ له التى عنها نهانى وكانت لى كَمُمْسِكَة الرَّماق

ولنذكر فوق هذا ما كان عليه النواسى منذ حداثة العمر من سوء الحال، وحرمانه حنان الأم بقية حياته وحياتها ، وما ابتُلِىَ به فى نفسه وعرضه من

صنوف الهوان ، ثم ما تعرّض له منذ بلغ مبالغ الرجال فى مواضع عشقه — وأخصها « جِنان جارية آل عبد الوهاب الثقفى » — من خيبة الأمل واستحكام اليأس[١] ، فضلاً على ما كانت تجرّه حرفة الأدب من تغاير وخصومات بين أهل الصناعة ، وما يلازمها من إساءة الفهم وغمط الحق من ذوى الرياسة . كل هذه الصدمات النفسية كانت ولا شك يضيق بها الشاعر ويضعف عنها احتماله ، ولو استسلم للتفكير فيها ، لبات عُمره نَجِىَّ وَسْواس ، حليفَ فكر ؛ فهو يلجأ إلى الخمر متخذاً من السكر سبيلا هينة ميسورة للفرار بنفسه من الحياة الواقعة ، والتشاغل عن مواجهة مشكلاتها ، والغيبة عن ذكرياتها :

أَدِرْها على الندمان نُوحيَّةَ العهدِ   وهاتِ لعلّى أن أُسكّن من وَجدى

قطربّلُ مَرْبعى ؛ ولى بقُرى الكَرْ   خ مَصيفٌ ، وأُمّىَ العنبُ

ترْضعنى دَرّها ، وتُلحفنى   بِظلها والهجير يلتهبُ

وانظرْ إذا هىَ قابلَتكَ تَهيؤاً   نظرَ اليتيم إلى يَدِ الأُمّ

فانفِ الوقارَ عن المجون بقهوةٍ   حمْراءَ خالطَ لونَها أقمارُ

واستنصف الأيامَ من أحداثها   فلطالما لعبتْ بك الأقدارُ

شرابٌ يَفْغمُ الشَّرْبَ   إذا ما ريحُــــهُ فاحا

ويَشفى من أذَى التَّهْـ   يامِ أبْداناً وأرْواحا

وإذا كانت الخمر قد تهيج الذكريات فى بعض الأحيان، فأكثر ما يكون ذلك والجروح قريبة الاندمال ينكؤها أيسر انفعال ، أو يكون الشارب منفرداً

---

(١) يراجع فصل الحب الأول والأخير من كتاب « أبو نواس : قصة حياته وشعره » للمؤلف فى كتاب الهلال الشهرى .

خالياً بنفسه ، لا منادم له يشغله عن حديث النفس ومناجاة الماضى البعيد أو القريب :

رَاحَ إلى الرّاحِ ليلهو بها ... ليلاً فهاجت ذِكرَهُ الخمرُ
حتى إذا الليلُ قضى نَحبَه ... وغابت الجوزاء والنّسر
وخرَّق الصبحُ قميصَ الدُّجى ... فلاحَ من جلبابه الفجر
وانتشرتْ للصبح فى عَسكرٍ ... ألويةٌ ألوانُها شُقر
بَكى إلى الصبح بِسَفّاحةٍ ... للدّمع لم يَبقَ لها شُفر[1]

ومثل هذه الواقعة لا موضع للمماراة فى وقوعها ، غير أنها إنما تقع لبعض الناس وفى بعض الأحيان وفى ظروف مخصوصة ، ويمنع من كثرة تكرارها اشتمال مجلس الشراب على كل ما من شأنه الفرجة والتلهى وتزيين اللذات الرخيصة والمتعة الحاضرة :

دَعْ عنكَ — ياصاحِ — الفِكَرْ ... فيمن تغيَّر أو هجرْ
واشربْ كُمَيتاً مُزَّةً ... عَنَست وأقعدها الكِبَر
من كفّ ظبيٍ ناعمٍ ... غَنِجٍ ، بمُقلته حَوَر
لم يصطبح منها النّديـ ... ـمُ ثلاثةً إلّا سكِر
طرَباً . وغنّى مُعلِناً ... والطّرفُ منه قد نَكِر
« يا مَن أضرَّ به السَّهرْ ... عندى من الحُبِّ الخبَر »

فالشاعر فيما يزعم لا يجد مندوحة من التداوى بالخمر قبل أن يقضى عليه من الغم ، مؤمناً أشد الإيمان بأن هذه هى الحكمة التى لا مثلها حكمة ، والنعمة التى ما بعدها نعمة ، فى خلق شجرة الكرم فى هذه الأرض التى ضرب علينا فيها العناء والشقاء .

---

(١) الشفر : أصل منبت شعر الجفن .

ولعلنا لا نكون عند القارئ من أهل الاستطراد وتصيد الكلام ، إذا نحن أوردنا أسطورة من الأساطير اليونانية مناسبة المقام . ولليونان — كما هو المعلوم — أساطير وثنية لتشخيص قوى الطبيعة وتعليل مظاهرها . وما برح شعراؤهم يتفننون بها و يتفننون فيها حتى بعد قيام المسيحية . ومن هؤلاء الشاعر نونوس Nonnus من الإغريق المسيحيين المقيمين فى مصر فى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد . ولهذا الشاعر المسيحى منظومة مطولة فى حياة أحد أرباب الوثنيين : ديونيسوس Dionysus . وقد روى الشاعر فيما روى فى منظومته أنه كان لهذا الرب من أرباب اليونان ، حبيب حدث السن ، بارع الحسن ، من بنى الإنسان ، اسمه امبيلوس Ampelos . فخرج الفتى للصيد على عادته ذات يوم ، فكان أن كرّ عليه ثور ، فهوى عن ظهر جواده فمات . فاشتد وجد الإله ديونيسوس على هذا الفتى من أبناء البشر الفانين ، حتى ود لو أنه لم يكن من الآلهة الخالدين ، فيلحق بالحبيب فى عالم الأشباح أسفل سافلين . وظل ديونيسوس على هذه الحال من الحزن المبرح المقيم . فأشفقت الآلهة عليه آخر الأمر ، فجعلت من جسد الفتى كَرْمَة عنب . وطابت بها نفس الإله الحزين ، فقد ابتدع منها الخمر فكانت ترياق الهم منذ ذلك اليوم .

وكذلك نتمثل شاعرنا المسكين الحزين — وقد زاد فى وطأة بؤسه تفزز أعصابه ورهافة حسه — هائماً مسلوب القرار ، خائر الجَلَد مشفقاً على نفسه من نفسه ، لا يقوى على دواعى الهم ، فيستعين عليها بابنة الكرم ، وهو لا يمل من التقرير وتوكيد الحجة وتكرار القول بأنها تَسُلّ الحزن ، وتنفى الغم ، وتطرد الوسواس وتنعم البال وتمنح فراغ النفس ، وتترك صاحبها قليل الشواغل خلى الذرع رخىّ الخاطر قرير العين :

هلاّ استعنتَ على الهموم صفراء من حَلَبِ الكروم

إذا خطرتْ منكَ الهمومُ فداوِها بكأسكَ حتى لا تكون همومُ

ينتعشُ القلبُ حين يذكرها ويحسر الطَّرف حين يعشاها(١)

ترحلُ عن صدره الهمومُ إذا قبّل فُوهُ بلذَّةٍ فاها

يحيا بروح الكروم لى جسدٌ أخنتْ عليه نوازعُ الهمِّ

تفعلُ فى الصَّدر بالهموم كما يفعل ضوء النّهارِ بالظُّلَمِ

قُم يا خليلى إلى المُدام لكى تطرُدَ عنّا عساكرَ الحزَنِ

نِعْمَ سلاحُ الفتى المُدام إذا ساوَرَه الهمُّ أو به جَمَحا

حَلبتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا بصهباءَ من ماءِ الكروم شمولِ(٢)

إذا ما أتت دونَ اللَّهاة من الفتى دعا همُّه من صدره برَحيلِ(٣)

لا تحزَنَنَّ لفُرقةِ الإخوانِ واقرِ الهمومَ بمُذهِب الأحزانِ(٤)

لا تبكِ بعدَ تفرُّق الخُلَطاء واكسِرْ بهائك سَوْرةَ الصَّهباء

ما استقرَّتْ فى فؤادِ فتى فدَرى ما لوعةُ الحَزَنِ

لا يصُدَّنَّك لاحٍ هو عن سُكرك صاحِ

ليس للهمِّ دواءٌ كاغتباقٍ واصطباحِ

(١) يحسر الطرف : يضعف ويكل ، يعشى : من عشى النار رآها ليلا .

(٢) الدرة : اللبن وكثرته . (٣) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم ، والمراد الحلق . (٤) قرى الضيف : أضافه .

فلَعَمرى لا يُداوَى الهمُّ بالماء القَراح

ثم هنالك فوق هذا وذاك ما تبعث الخمر عليه من الرضا عن النفس ، والثقة الذاتية فى قدرها ووفور فضلها . وقد يكون ذلك كله ذهاباً مع الوهم والخيال دون اعتبارٍ لحقيقة الواقع ، إلاّ أن فيه على كل حالٍ ما تحتاج إليه النفس من الفسح لها فى الأمل ومَدِّها فى الأمنية بما يُفضى إلى انبساطها واستبشارها ، والانشراح للدنيا والأنس بها . ثم إن الخمر وسيلة هينة « لقتل الوقت » عند من يطول عليهم الوقت من أهل البطالة والكسل . فتراهم فى مجالسهم وقد ركبهم الفتور وغلب عليهم الملل ، يستحثّون خَطْوَ الزمن المتثاقل باحتثاث كؤوس الخمر ، لما يكون من استفزازها لخامد الحس واهتياجها لحركات النفس فى أول الأمر ، كما أنها حين يكثرون منها ضمينةٌ لهم تقصير المتطاول من يومهم ، بما يرين عليهم بعد ذلك من السكر :

كَرخيّةٌ تترك الطويلَ من العيش قصيراً وتبسُطُ الأملا

تُهدى لقلب المستكين تخيُّلاً وتُلين قلبَ الباذخ المتخيِّلِ

لستُ أرى لذَّةً ولا فرَحا ولا نجاحاً حتى أرى القَدَحا

إسقنى — إن سَقيتنى — بالكبيرِ من لذيذ الشراب ، لا بالصغيرِ
قد تدانت لنا الأمورُ كما نَهْوَى وذَلّت لنا رِقابُ الدّهور

أديرا علىّ الكأسَ تنكَشف البلوى وتلتذّ عينى طِيبَ رائحة الدُّنيا

ولا يخفى أن التخدير الحاصل من السكر يمس مراكز الرقابة الخلقية العليا فى الشاربين مهما كان موضعهم من الفضيلة والعلم ، فيؤدى هذا إلى تحرير الغرائز الحيوانية الدنيا فيهم ، والتخلية عن هذه القوى المكبوتة الهوجاء لتجرى فى

مجرياتها ومتصرفاتها كيف تشاء ، فتطاوع النفس ما لم تكن تطاوعه من النزعات ، وتستجرئ على ترك التصوّن والعفة وإلقاء الوقار والحشمة ، فإذا هُم بعد هذه الطلاقة يستبِقون فى حلبة الفسوق والمجون ، ويجهرون بارتكاب القبائح ويتغنون بمحاسنها ، ويبلغون فى الإباحة والوقاحة وقلب الأوضاع والاستهتار بالعُرف أبعد الغايات وأنكرها :

إسقِنى حتى ترانى حَسَنٌ عندى القَبيحُ

لا تَلُمنى على التى فتَنَتْنى وأرتنى القبيحَ غير قبيحِ

إسقنى صِرْفاً حُمَيّا تتركُ الشيخَ صبيّا
وتُريه الغَىّ رُشداً وتُريه الرُّشدَ غيّا

طرِبتُ إلى الصَّنْج والمِزْهَرِ وشربِ المُدامة بالأكبرِ
وألقيتُ عنى ثيابَ الهدى وخضتُ بُحوراً من المنكَرِ

ولا يحسب القارئ بعد هذا يأخذه العجب ، إذا نحن زعمنا له أن أبا نواس كان به انقباض واستحياء . ونحن حين نزعم ذلك لا نعتمد على الاستنتاج وحده ، وإنما نستشهد بأبى نواس نفسه ؛ فقد شكا الشاعر ذلك فى شعره ، وامتدح من كانوا يتألفون نافرَه فى مجلسهم حتى تسكن الروعة ، وتزول الوحشة ، ويتوكد بينهم الأنس وتنبسط منه النفس :

فىّ انقباضٌ ووَحْشَةٌ ، فإذا صادفْتُ أهْلَ الوفاء والكرَمِ
أرْسَلْتُ نَفْسى على سَجِيّتها وقُلْتُ ماقُلْتُ غيْرَ مُحتشِمِ (١)

---

(١) رواهما لأبى نواس جامع ديوانه حمزة الأصبهانى فى مقدمته . وقد ورد البيتان فى الأغانى فى أخبار قلم الصالحية منسوبين إلى محمد بن كناسة .

ولما كان هذا الشعر قد يُتنازع فى نسبته ، مع رواية جامع ديوان أبى نواس له فى مقدمته ، فإننا نزيد عليه من الأخبار ما فيه التأييد لمعناه ، والتوكيد لدلالته على شيمة الوحشة والاستحياء المركَّبة فى طبع الشاعر ، المركوزة فى سليقته . فقد وصف الوزير الفضل بن الربيع أبا نواس للأمين عند ولايته . وأبو نواس كما نعلم كان من صنائع الوزير الذين اتصلوا بخدمته وانحازوا إلى حركته فى إسقاط حظوة البرامكة ونكبتهم . ولم يكن أبو نواس مجهولاً عند الأمين ، فقد عرفه أيام أبيه . فاستأذن له الوزير بعد أن ألح عليه فى ذلك، فلما دخل على الأمين فى قاعة العرش دهش وتتعتع وحار ، فلما مثل بين يديه امتنع القول وأُرْتِـج عليه ، ورام الإنشاد بكل طريق فلم يقدر على شىء ، فوقف مليًّا لا ينطق بشىء ، وجعل يلحظ الوزير لحَظانَ المرتجى لإسعافه ومعونته . ويحدّثنا أبو نواس حديث قصته فيقول :

[فسمعت الفضل بن الربيع يقول للأمين : «جلالة الخلافة ، وهيبة الإمامة ، وعظمة هذا المقام الشريف منعته من الكلام ، فيُجعل هذا يوم السلام» . وغمزنى الوزير بعينه فخرجت . ورجعت بعدها إلى الفضل وشكوت إليه ما نالنى ، فقال : «كذبت والله، تفضحنى !» ثم سألته أن يعيد الاستئذان ، ففعل بعد مدة . فلما دخلت على الأمين غمضت عينى ، فلما نظرت إليه رأيته يبتسم فأنشدته :

يا دارُ ما فَعَلَتْ بكِ الأيامُ ضامَتْكِ والأيامُ ليس تُضامُ

فجعل يتهلل وجه الفضل سروراً إلى أن فرغتُ وخرجتُ مسروراً .]

ولا ينبغى أن يخدعنا عن هذه الخليقة — خليقة الوحشة والاستحياء — ما نعرفه عن الرجل من المجاهرة بالاستهتار وخلع العذار . فإن فى جماعة المستهترين المجاهرين نفراً غير قليل من هؤلاء المبتلين بالانقباض والاستحياء المطبوعين على الشعور بأنفسهم ؛ وذلك أن تفكيرهم فيما عسى أن يكون رأى الناس فيهم ونقد الناس

لهم يركبهم ويرهقهم ، حتى يلتمسوا مخادعة أنفسهم والناس عن هذا الضعف ، بالثورة الظاهرة على العرف والمجاهرة بالاستهتار . وأبو نواس كان متبرماً بهذا الانقباض ، يضيق به ويشكو منه ؛ لأن الرجل لم يكن بالوحشى المحب للانفراد والعزلة ، بل كان فى طبعه التألف والتأنس . ولعله لم يكن بين الناس من هو أشد منه أُنساً بالناس . ولقد دفعه هذا — فيما كان يدفعه — إلى الشراب للخروج عن شعوره بنفسه واطّراح الانقباض والحشمة ، والامتزاج بالجلساء .

ظلَّتْ حُميّا الكأس تبسُطنا حتى تهتَّكَ بيننا السِّترُ

تأثير الخمر ودرجات السكر

ولقد سجل أبو نواس — فيما سجله عن الخمر — فعلها فى الشاربين فى جميع درجاته . ونحن نذكر أولى هذه الدرجات ، وهى التى ينشط فيها الجهاز الدَّوْرى من فعل الشراب ، فتشتد حركات القلب ، ويقوى النبض ويسرع ، ويتوارد الدم إلى ظاهر البدن ، فيتورّد منه الخدّان وقد تحمرّ العينان ، وينتشر عنه دفء فى الأطراف ، فيؤخذ هذا وذاك على أنه زيادةٌ فى الدم الجيد وإذكاء للحرارة الغريزية . ونذكر في أولى هذه الدرجات كذلك فعل الشراب فى زيادة التنبه فى المجموع العصبى ، فتنشبّ الحيوية وتتجدد القوى ، وتنبسط النفس وينفتح الذهن ويتوقد الوجدان ، فينبعث الجسم بهمة زائدة ، وتتفزز الأطراف بقوة فائضة ، ويتطلق الوجه وتبرق النظرة ، وينطلق اللسان حاضرَ الجواب مُفْتَنَّ البيان ، وتهتاج العواطف وتتحرك الغرائز . ونحن نذكر هذا جميعه ، لنذكر لشاعرنا أبى نواس تجليته عن هذه الحالات فى هذه الأبيات التى يجدها القارئ لشعره موزعةً فى الخمريات :

فمن قوله فى الخمر يتغنى بتحسينها اللون ، وقدحها لبريق العين ، وترطيبها البدن ، وتصفيتها للبشرة ، وتوريدها للخد ، وإظهارها الحمرة فى الجلد :

لِشربِ صافيةٍ من صَدْرِ خابيةٍ   تَغشى عيونَ نداماها بلألاء

مِن يَدَىْ ساقٍ ظريفٍ   يَكْتسى الحُسْنَ شِعارا
يَقترِى القَوْمَ بكأْسٍ   تُلبِسُ الخمرَ إزارا[1]
فإذا ما سَلْسَلُوها   أخَذ الخدُّ احْمِرارا

ظَلَّ يَسْقِينا مُداماً   حلّتِ الخِدْرَ سِنينا
تحسَبُ الوَرْدَ بخَدَّيْهِ يُناغِى الياسمينا

كأنما وَجْنَتَاه حين حَسَا   من يَدهِ الخمرَ ، ثم ثنَّاها
تُفاحةٌ فى يَمين ذِى كَلَفٍ   طَيَّبَها جاهِداً وطَرَّاها

كَأسٌ إذا انْحَدَرَتْ فى حَلْق شارِبها   أجْدَتْهُ حُمْرَتَها فى العين والخدِّ

ثم يقول فى تجديدها القوة ومناوبتها النشاط بعد الكسل ، كأنما تردّ الشيوخ فى طبائع الشبان ، وتردّ الشبان فى نشاط الصبيان :

كأسٌ إذا ما الشَّيخ وَالى بها   خَمْساً ، تَرَدَّى بِرِداء الغُلامْ

مِن قَهْوةٍ حَمْراء كَرْخيّةٍ   كأنّها الياقوتُ فى النَّعْتِ
تَتْرُكُ مَن يَشْربُها هائماً   يَقفِزُ من فوْقٍ ومن تَحْتِ

---

(١) يقترى القوم : يضيفهم .

ويقول فى إدخالها على النفس أريحيّة السرور وهزّة الطرب وانبساط الهوى وخفة الروح :

وندِيمى كلُّ خِرْقٍ زانَهُ حُسْنُ نِجارِه[1]
بَسَطَتْهُ سَوْرَةُ الكأ سِ لنا بَعْدَ ازْوِرارِه[2]

لم يَذُقْها قَطُّ شارِبُها فخلا من لاعِجِ الطَّرَبِ

ومُدامةٍ سَجَدَ المُلوكُ لها باكَرْتُها ، والدِّيكُ قد صَدَحا
صِرْفاً إذا اسْتَبطَنْتَ سَوْرَتَها أَهْدَتْ إلى مَعْقولِكَ الفرَحا[3]

صِرْفٌ إذا شَجَّها المِزاجُ بأَيْـ ـدِى شارِبِيها تَوَلَّد الفَرَحُ
حَتَّى تُرِيكَ الحليمَ ذا طرَبٍ يَهُزُّهُ فى مكانه المرح

ومما يخصه شاعرنا بالذكر نزوع الشارب كلّما شارف حدّ السكر إلى الدندنة، ثم الترنّم ، ثم ترديد الصوت ورفع العقيرة بالغناء . ولقد كان أبو نواس فى طويل خبرته يحبس الكأس عن نديمه إذا انطلق لسانه بالغناء مع ثقلته

فاصْغَوْا إلى صَوتٍ ونحن عِصابةٌ وفينا فتًى من سُكْرِه يترنَّمُ

وفتًى كأطْوَعِ من رأيتُ ،إذا انْتَشى غنَّى بحُسنِ لبـاقةٍ وحَياء

وما زال يَسْقِينا ويَشْرَبُ دائباً إلى أن تغنى حين مالَتْ بهِ سُكْرا

صَرَفتُ الكأسَ عنه حين غنَّى وإنَّ لسانَه منهـا ثقيلُ

---

(١) الخرق : الكريم السخى ، النجار : الأصل والحسب .

(٢) الازورار : الانحراف . (٣) المعقول : العقل .

ولشاعرنا — مثل ما لسائر الشعراء — قول كثير في تحريك الخمر للأريحية ، وتزيينها للشحيح السماحةَ والتوسع في النفقة ، وبعثها على التطوّع للجود والبذل فوق المجهود . وليس يصحّ من هذه الأريحية للخمر فضيلةٌ . فإنما يصدرُ هذا من طريق استلابها إرادة الشارب ، فهي في تأثيرها كأنما تغازل العقل وتداعبه ، وتخاتله وتخادعه ، وتهازله وتغانجه ، كما تفعل المرأة الحلوك اللعوب بالرجل الرشيد ، فتستنزله على ما تريد وما يريد مَن حولها من المفاسيد :

وَحَمْراءَ كالياقوتِ بِتُّ أَشُجُّها ... وكادَتْ لكَفِّي في الزُّجاجةِ أن تُدْمِي
فأَحْسِنْ بها شَيْخُوخَةً في إنائِها ... وأَلْطِفْ بها بين المفاصِلِ والعَظْمِ
تغازِلُ عَقْلَ المرءِ قبلَ ابتِسامِهِ ... وَتَخْدَعُهُ عن لُبِّهِ وَعن الْحِلْمِ
وعنه يَسيلُ الهمُّ أوّلَ أوّلاً ... وَإنْ كانَ مَسْجورَ الجوانِحِ بالهَمِّ[1]
وَيَنْساقُ لِلجَدْوَى وَإنْ كانَ مُمْسِكاً ... وَيُظْهِرُ إكْثاراً وَإن كان ذَا عُدْمِ

أخي لِي — يا صَاحِ ! — رُوحِي ... بِغَبُوقٍ وَصَبُوحِ
قَهْوَةٌ صَهْبَاءُ بِكْرٌ ... غُرِسَتْ أَزْمانَ نُوحِ
تُشْخِصُ الهَمَّ ، وتَهْتَزُّ ... لها نفسُ الشَّحيحِ[2]
يَجْنَحُ القَلْبُ إليها ... في الهَوَى أيَّ جُنُوحِ
تِلْكَ لا أَعْدَمْنِيها ! ... لله رُوحِي دُونَ رُوحِي

---

(١) مسجور : من سجر التنور ملأه وقوداً وأحماه .

(٢) تشخص الهم : تذهب به .

ومع الإكثار من الشراب يتصعّد الدم بقوةٍ إلى الدماغ ، فيملأ الأوعية المخية ويمدِّدها ويتحيز فيها ، فيؤدى الاحتقان الضاغط على المراكز العصبية فى النصفين الكرِيَّيْن للدماغ إلى تفتير الحواس . وهذا الفُتَار ابتداء النشوة ، ويَكنون عنه فى اصطلاحهم بالدبيب ، فيقال دبّت الخمر ، إذا بدأت تأخذ فى شاربها . فإذا تجاوزت فى الأخذ قيل تمشَّتْ فى مفاصله . فإذا طارت فى رأسه قيل سارت ، ومنه سَوْرة الخمر . والتختير أشد من التفتير ، والثَّمَل أشدّ من التختير . ثم تشتد بالشارب سورة الشراب ، فيُدار به ، ويعقب الدُّوارَ بالرأس ثقلةٌ كثقلة النعاس :

دَبَّابةٌ فى عِظامِ الرَّأسِ ساطِعَةٌ   لا تَسْتَكِينُ لِأنسىّ ولا جانِ

سَوْرَتُها فى الرُّءوسِ صاعِدةٌ   ولِينُها فى المذاقِ كالدُّهنِ

يُسقَوْنَ من قَهْوةٍ مُعتَّقةٍ   لهَا دَبيبٌ فى المُخِّ يَستَبِقُ

تَدبُّ دَبيباً فى العِظَامِ كأنّهُ   دَبيبُ نِمالٍ فى نَقاً يَتهيَّلُ [(1)]

فدَبّتِ الرَّاحُ فى مفاصِلِه   ورَنَّقتْ فيه فَتْرَةُ الوَسَنِ [(2)]

حَتَّى إذا دَرَجتْ فى القَوْمِ وَانتَشرَتْ   هَمَّتْ عُيُونُهمُ منها بِإغْفاء

يا نائمَ الطَّرفِ من سُكرٍ تَرادفَه   فى كفِّه الكأسُ يَهواها ويَخشاها
وغَيرَ مُنتَبِهٍ أغفَتْ لواحِظُهُ   لا يمنعنَّك سُكرٌ أن تحسّاها [(3)]

---

(١) النقا : القطعة المحدودبة من الرمل . يتهيل : ينساب وينصب .
(٢) رنق النوم فى عينيه : غشيهما .   (٣) أن تحساها : أن تتحساها .

وهنا فى هذه المرحلة تظهر لنا خاصَّةُ التخدير فى الخمر ، وهى خاصة لا خلاف عليها . بل يذهب الكثيرون من أهل البحوث الطبية إلى أن التنبيه القصير الأمد فى المرحلة الأولى مردُّه إلى تخدير الخمر تخديراً يشلّ نوعاً من الشلل المراكزَ العصبية الكابحة الموكول إليها ضبطُ حركات القلب وقبضُ الأوعية ، فيقلّل هذا التخدير من الشعور بالتعب والإعياء ووطأة الشواغل والهموم ، ويحصل من شلل الضوابط وتراخيها سرعةُ النبض وكثرةُ توارد الدم فى الشرايين الصغيرة إلى الأطراف وظاهر الجلد .

وأيًّا كانت الحال ، فإن الخمر التى رأينا فى البداية كيف كان تنشيطها لا تلبث مع الإكثار أن ينعكس أثرها ، فيحصل عنها التوهين للقوة العضلية والاعتياق للقدرة على ممارستها وتصريفها ، فتَتَخْدَر الأطراف كأنْ قد ألمّ بها فالجٌ خفيف . وبخاصة الأطراف السفلى .

ولها دبيبٌ فى العِظام كأنّهُ قَبضُ النُّعاس وأخذُهُ بالمَفصِلِ

نشربُها صفراء مشمولةً تَرْمِى صحيحَ القوم بالنِّقْرِسِ

وكذلك يظهر سوء فعل الشراب فى المخيخ — وهو المنطوى على مراكز ضبط حركات المجموع العضلى — فى هذا الذى نشاهد فى السُّكارى من تخاذل المفاصل وعدم تماسكها ، واضطراب نظام حركتها وضعف توافقها ، وما يعترى الأعضاء والأطراف من رعاش وارتجاف .

فترى السَّكران — وقد ثقُل منه اللسان وعَسُر عليه خروج الكلام — يردد الكلمة فى فيه ، ولا ينطلق بالعبارة بعضها فى إثر بعض ، وإنما كلامه لجلجةٌ ونعتعة وتمتمة وفأفأة ، حتى لا يكاد يُبين من اعتقال آلة النطق ، وقد يتطرّق إلى منطقه كذلك الغُنَّة والخنخنة :

ما زلتُ أشربُها وأسقي صاحبي حتَّى رأيتُ لسانَه مَكسورا

متى يَرُمْ فى سُكرِه مَنطِقاً تَقُلْ به خَطرَةُ وَسْواسِ
حتى انثنى مثلَ صريع الهوى والنَّومُ قد عانق جُلَّاسى

ومُهَفْهَفٍ نبَّهـتُه لمَّا هدا وتغلَّقَتْ عينـاه بالإغفاء
فشكا إلىّ لسانُه من سُكره بتَلَجْلُجٍ كتَلَجْلُج الفأفاء

ناديتُه ، والظَّلامُ مُنسَدِلٌ وغُرّةُ الصُّبح بَعْدُ لم تَبِنِ
« قُم — يا خَليلي — إلى المُدام لكي تطرُدَ عنَّا عساكِرَ الحزَن »
فلم يُجِبنى إلا بلَجْلَجَةٍ تـكادُ تَخْفَى على الفَتى الفَطِن

والغالب إلى ذلك فى السَّكران أن تكثر فى وجهه المنتفخ حركة الأسارير وتشتد أمارات التعبير ، ولكنها أماراتٌ ملتاثة وحركاتٌ غامضة ، وربما زاد فى مسخها وغرابة شكلها تكلّفه للسَّمْت والركانة ووقار الهيئة :

ووَقِّرِ الـكأسَ عن سَفيهٍ فإنّ حقًّا لهـا الوقارُ

ويظهر أثر الخمر فى وظائف الحركة أشدّ الظهور فى مشية السكران ، فتراه تختلف منه عند المشى الرِّجْلان ، مُنْكبًّا برأسه إلى الأمام ظاهر المَيلان ، وترى سائر حركته فى المشى مختلة الوزن معدومة النَّسق ، فيها خبال وتخبّط واختلاج . ولعل أصدق ما يوصف به مشيه أنه دَفَعَاتٌ متتاليات من خُطاً عدةٍ فى اتجاهٍ منحرف ، ويكاد يخيّل للرائى أنها يُقصد بها إلى اتقاء الانكباب والسقطة أكثر مما يقصد بها إلى الانتقال والسعى . ثم لا يقتصر الأمر بعد ذلك على تعذّر المشى

بقدم ثابتة ، بل يتجاوزه إلى تعذُّر الاستمساك فى الوقوف منتصبَ مقامة مستوياً وقد يُعييه مطلقُ القيام فيحبو على الأرض زَحْفاً.

قال جحظة :

يريدُ انتصاباً للمقام بزَعْمِه ... ويُرْعِشُه الإدمانُ فهو يَميلُ

وقال إسماعيل بن عمّار الأسدى :

نُسقَى شراباً كلَونِ النّار عتّقَهُ ... يُمسى الأصحَاه منهُ كالمجانين

إذا ذَكَرنا صلاةً بعد ما فرَطَتْ ... قُمنا إليها بلا عقلٍ ولا دين

نمشى إليها بطاءً ، لا حَراكَ بنا ، ... كأنّ أرجُلَنا يُقلَعْن من طين

نمشى ، وأرجلُنا عُوجٌ مَواقِعُها ... مَشْىَ الإوَزِّ اتى تأتى من الصِّين

أو مَشْىَ عُميانِ دَيْرٍ ، لا دَليلَ لهم ... سِوى العِصىّ إلى عِيد السَّعانين

ومن قول شاعرنا النواسى :

وشاطرٍ ماجنٍ أخِى خَنَثٍ ... مُسْتَعْطِفٍ كالقَضيبِ فى مَيَلِهْ

كأنّ تُفّاحتَين نُضّدَتا ... له على وَجْنَتَيه من خَجله

ما زال مِن رَاحَتَيه يَمزُجُ لى الـ ... رّاحَ من طَرفِهِ ومن قُبَله

حتى مشتْ فى عُروقِه ، وبَدَتْ ... فيه ، ومال الغَزالُ من ثَمله

فكلّما رامَ أن يقومَ ثناهُ الـ ... شُكرُ ، فارتَدّ مَيلُ مُعتدِله

ومُتّصلٍ بأسباب المعانى ... له فى كلّ مَكرُمةٍ حَميمُ

رفعتُ له النّداءَ بقُمْ فَخُذْها ، ... وقد أخَذتْ مَطالِعَها النُّجوم

فقام وقمتُ من أخَوَينِ قاما ... على طرَبٍ ، وليلُهما بَهيم

أجُرُّ الزِّقَّ ، وهْو يجرُّ رِجْلاً يجورُ بهـا النُّعاس ويَستقيمُ

وحاوَلَ نحو الـكأسِ مَشياً ، فلم يُطِقْ من الضَّعفِ ، حتى جاء مُختَبِطاً يحبو

وليس يخلو مدمنٌ للخمر من ارتجاف الأطراف ، وبخاصةٍ ارتعاش اليدين . ويعمِد المصابون بالرعاش فى اليدين إلى المباعدة بين أصابعهما للاستعانة بهذا الاستعراض على الاحتفاظ بشىء من مظهر ثباتهما :

أرْعَشَتْنى الخمرُ من إدمانِها ولقد أُرعِشْتُ من غيرِ كِبَرْ

إذا هو لَقَّى الـكأسَ يُمناه خانَه أماويتُ فيها وأُرتعاشُ بَنـانِ

وإذا علمنا أن ظاهرة الرعاش هذه أظهر آثار الخمر فى وظائف الحركة لم نتعجب من كثرة إشارات أبى نواس إليها .

ولقد كان القوم يداوون ما يعرض عن الخمر بالخمر ، على حد قول الأعشى شيخ شعرائها الأقدمين :

وكأسٍ شرِبتُ على لذَّةٍ وأُخرى تداوَيت منها بها

وقول شاعرنا أمير شعرائها المولَّدين :

دَعْ عنك لَوْمى فإنّ اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الدّاء

والشواهد على ذلك فى شعر أبى نواس كثيرة ، منها :

وإذا رامَ نديمٌ عَرْبَدَهْ فاقْرَعَنْ بالصِّرفِ منها كبِدَهْ

كَرِّرِ الخمرَ عليـه بحْتَةً كى تُقيمَ الخمرُ منهُ أوَدَه

وندمانِ صدقٍ باكرَ الرّاحَ سُحرةً فأضحى وما منه اللِّسانُ ولا القلبُ

تأنيتُه كيما يُفيق ، فلم يُفِقْ إلى أن رأيتُ الشَّمس قد حازَها الغَرب [١]

فقام يَخالُ الشَّمسَ لمَّا ترحَّلتْ ، فنادى «صَبُوحاً» وهْيَ قد كَرَبَتْ تخبو [٢]

وحاولَ نحو الكأسِ مشياً فلم يُطق منَ الضَّعف ، حتى جاء مُختَبِطًا يحبو

فقلتُ لساقِينا « أسْقِهِ ! » فانبرَى له رفيقٌ بما يُمناه من عَمَلٍ ، نَدْب

فناوله كأساً جلَتْ عن خُماره وأتْبَعَها أُخرى ، فثَاب له لُبّ

إذا ارتَعَشَت يُمناهُ بالكأس رَقَّصَتْ به ساعةً ، حتى يُسَكِّنَها الشُّرب

فغَنَّى وما دارت له الكأسُ ثالثاً « تعزَّى بصَبرٍ بعد فاطِمةَ القلب »

وهذا بعينه ما يقرره المُحْدَثون من أصحاب البحوث الطبية فى الخمر وتأثيرها . فقد ثبت لهم أن ظاهرة ارتعاش اليدين عند المدمنين تكون على أشدها فى الصباح وأنها تسكن بعد ذلك بعض الوقت إذا اصطبحوا من الخمر بالقدر اليسير :

إذا المخمورُ بادرَها صباحاً تَطايرَ عَن مفاصِله الخُمارُ

على أن هذه المداواة غير مستديمة الأثر ، وهى سبيل للمعاودة مستفحل الخطر :

ونَدمانٍ تَرادفَه خُمارٌ فأورثَ فى أنامِله ارتِعادا

فليس بمُستَقِلٍّ الكأس ما لم تكُنْ يُسراه لليُمنى عمادا

رفعتُ له يدى — وَهْناً — بكأسٍ بها منها تزيَّد فاستعادا

وقال « ألستَ مُتبِعَها بأخرى تُوَقِّرُنى ، فإنَّ بىَ ازديادا ؟ »

فقلتُ له « بلَى ! وبأخريات ، على أنّى سأجعَلُها جِيادا »

---

(١) تأنيته : لم أعجله . (٢) كربت الشمس : دنت للغروب .

فذلكَ دأبُه — أبداً — ودأبى إذا ما زِدتُه منهـا استَزادا
إلى أن خَرَّ ، ما يَدرى أأرضاً توَسَّدَ عند ذلك أم وِسـادا

وهكذا استوفى أبو نواس وصفَ نداماه فى حال السكر ، بعد الذى كانوا عليه فى حالهم الأولى من النشاط والانبساط . ولا نعرف شاعراً مثل أبى نواس يطالعنا بمثل ما طالعنا به من صورة بعد صورة للنديم السكران وقد كظَّه الشرب واشتدَّ به أَخْذُ الخمر ، فبات لا تؤاتيه يده على تناول المدام إلّا ترقّصت كأسه وتدفقت ، ولا يدير لسانه بالكلام إلا تعتع وتلجلج ، ولا تطاوعه رجله على القيام إلّا تطرَّح وترنَّح . ونحن نجتزئ عن هذه الحال الثانية بما أوردناه ، لننتقل إلى الحال الأخيرة فالسكران لا يزال كلما اشتد به السكر تتضَعْضَع حواســه ، وتخفّ رجاحةُ رأسه حسًّا ومعـنًى . وكأنما تغيم غشاوةٌ بعد غشاوة على قوة إبصاره ، فيختلّ ضبطها للمرئيات ، فلا يحقِّق الأشياء ، ولا يثبت شىء عنده على صورة أو وضع ، وقد يرى الشىء الواحد شيئين . كذلك تختلط المسموعات على سمعه اختـلاط المنظورات على نظره . ويكثر لغوُه ويبطل حكمه ، ويرتفع لغطه وصخبه ، وتستشرى عربدته وشغَبه . ثم لا يلبث أن يرشح بالعرق الغزير جسمه ، ويتباطأ تنفّسه ونبضه ، وتنقبض حدقتاه أو تنتشرا . ثم إذا بالمسكين ينجدل على الأرض صريعاً لا حراك به كما يسقط الجذع اليابس ، مستغرقاً فى سُبات أقرب ما يكون إلى سبات الأموات :

أظلُّ منها على شَفا سَدَرٍ[1] يأخذ من مَفرِقى إلى القدَمِ

---

(١) السدر : حالة يجد معها الإنسان دواراً فى رأسه وظلمة فى عينيه ، وإذا قام كاد يسقط كالمصروع .

ومائلِ الرأسِ، نشوانٍ، شدوتُ له « ودِّعْ لَميسَ وَداعَ الصارمِ اللاحى»
فعالجَ النفسَ كى يحيـا ليَفهمه وقال « أحْسَنتَ » قولاً غيرَ إفصاح
فـكاد أو لم يكَد أن يَستَفيقَ له والنفسُ فى بحرِ سُكرٍ عَبَّ طفّاح [1]

حتى إذا اصطفَّت الأقداحُ ،وانتظَمتْ بيضُ القواريرِ من أعيانِ كيوانِ [2]
خِلنا الظَّليمَ بعيراً عند نَهضتِنا والتَّلَّ منبطحاً فى قدِّ ثَهلانِ [3]

واسـقِنى حتى ترانى أحسِبُ الدِّيكَ حِمارا [4]

إشْرَبْ — فديتُك — واسقِنى حتى أنامَ مَـكانيَـه

ونديمٍ لم يزَل ساقِينَا وعلى الصُّبح من اللّيل إزارُ
فاحتسى حَتى تولَّى ليـلُه وكساهُ الصُّبح ثوباً ما يُعار
فتغَشَّاه كَراهُ فهَـذَى ساعةً ، ثم تغشّاه الخُمار
فاستوى — كالصَّقر— من رقدته ينفضُ الرَّأسَ وما فيه غُبار

ومُستَطيلٍ على الصَّهباء باكَرَها بفتيةٍ باصطِباحِ الرَّاحِ حُذَّاقِ
فـكلُّ كفٍ رآها ظنَّها قدحاً وكلُّ شخصٍ رآه ظنَّه السَّاقى
حتى حساها ، فلم يَلبثْ وما لَبِثت أن خرَّ مَيْتاً صريعاً ما له راق

كأنما الشَّرْبُ بعـد هَدْء صَرْعَى تمادى بهم كَلالُ [5]

---

(١) عب البحر : كثر موجه وارتفع . (٢) كيوان : زحل (فارسية) .
(٣) الظليم : ذكر النعام . ثهلان : جبل فى نجد . (٤) قال الأعشى :
شربت الراح بالقلتين حتى حسبت دجاجة مرت حمارا
(٥) الهدء : الهزيع من الليل .

فلم نزلْ والصَّبوحُ يأخذُنا والكأسُ تجرى هُناك مَجْراها
حتى رأيتُ الغزالَ مُنجدِلاً تَصُكُّ يُمنى يَدَيه يُسراها

ونَديمٍ مُساعدٍ غيرِ نِكْسٍ حيثُ مامِلتَ مالَ مَعْكَ مَمِيلا[١]
رنَّحتْهُ الكؤوسُ بالصِّرفِ حتى خرَّ منها على الجبين تَليلا[٢]

صَهباءُ تفترِس النُّفوسَ فما ترى منها بهنَّ سوى السُّباتِ جراحا

دعْ ذا — عدِمتُك — واشربنْها مُعتَّقةً صفراءَ تَفرِقُ بين الرُّوح والبَدنِ

فأسقيهِ إلى أن ماتَ سُكراً ولم يُدْفَنْ — وعَيشِكَ — فى ضريحِ

والقارئُ لهذا الشعر ، فى وصف ما يعرض للسكارى من أحوال السكر ، يخرج ولا ريب بأن الشاعر من الوصافين المحقِّقين ، ينقل الواقع فلا يخرم منه حرفاً ولا يخلّ بدقيقةٍ . بيد أن القارئ لايلبث كذلك أن يقع فى ذهنه ويَهجس فى صدره أن شاعرنا — وهو غير متَّهَم فى صدق وصفه — متَّهَم فى هوى نفسه ؛ فهو يفيض على تصويره للسكارى من عطفه عليهم ، ومشاركة شعوره لهم وحبه لحالهم ، ما يجعل المنظر غير مستكرهٍ ولا مستنكر بالقَدْر الذى كان به حَرِيًّا . بل أكبر الظن أن القارئ لو سَها عن إرادته ، ومقتضياتِ خُلقه ومُواضعاتِ بيئته ، لوجد للمنظر الموصوف فى قلبه خفَّةً ولطافةً وأنساً .

ولقد أراد الرّواة أن يمثِّلوا لنا كثرة إدمان أبى نواس للشراب والسكر ، فزعموا أنه رأى رجلاً سكران ، فصار يَعجب منه ويضحك . فقيل له :

---

(١) النكس : الجبان . المميل : الميل . (٢) تليلا : صريعاً .

«ما يضحكك وأنت كلَّ يوم مثله ؟! » . قال : « ما رأيت سكرانَ قطّ » . قيل له : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « لأنى أسكر قبل الناس ولا أُفيق إلاّ بعدهم ، فلا أعلم حال السكارى بعدى » .

وليس عندنا أدلّ على المبالغة فى هذه الرواية من كثرة ما أوردنا له من وصف للسكارى ، وهو قليل بالقياس إلى ما فى ديوانه ، بل إننا لنجده لكثرة مَن عرف منهم ، وما عاين من حال سكرهم ، يبذل النصيحة أحياناً للزملاء الكرام من شاربى المدام ، ينبههم لما يرى فيه رشدهم ، و يبصّرهم عواقب أمرهم :

إحذرْ — فُديتَ — كثيرَهُ ، فكثيرُه   مَرْجٌ عليك لمَرْكَب الشَّيطانِ

إنى بعينى أن أراك جَنيبةً   بعــــد العشاء تُقاد بالأشْطان

وأراكَ قُدَّامَ الصِّغار كبُومةٍ   عمياءَ وَسْطَ جماعة الغِرْبان

سكرانُ يُنشِدُ فى الطَّريق « ألاَ ألاَ   غَلَبَ الغرامُ وبُحْتُ بالكتمان »

وما من شك فى أن أبا نواس كان من أشد الشار بين احتمالاً للشرب ، حتى كان يمضى فيه بعد إمساكهم ، وكانت تمتد يده بعد اشتفاف كأسه إلى كاساتهم ، ليظهر لهم مبلغ احتماله ، و يظفر منهم بالإعجاب والتحية :

ما زلتُ أشرَبُ كأسَهم من بَينهم   عَمداً ، وما بى عَجْزَةُ النَّشْوانِ

لأنالَ منهم عنــدَ ذاك تحيةً   إمَّا بوجْــهٍ أو بطرْف بَنَان

وهو يشير فى أكثر قصائده إلى مصارعهم حوله ، وكيف أنه كان يحركهم و يجهد ما استطاع فى تنبيههم ، و يَبذل الوسادة لمن أعياه تنبيههُ منهم . بل كثيراً ما يتعدَّى هذا الماجن الفاتك حدَّ الأدب ، إلى الجهر بما يكون بينه و بين صرعى

السكر من الغلمان والجوارى الحسان ، وقد أمكنته الفرصة منهم على هذه الحال، كأنها غير ممكنة مع أمثالهم فى جميع أحوالهم :

ومُعتَدٍ بالذى تحوى أناملُه من كأسِ مُنتخِبٍ لم يَثنه المَلَلُ
لكنْ تَحاجَزَ عنها أن تُعجِّزَه بين النَّدامى فلا عُذْرٌ ولا عِلَل
نبَّهتُه بعد ما حلَّ الرُّقادُ له عَقداً من السُّكر ، إلّا أنَّه ثمِل
فقلتُ : « كأسَك خُذْها» قال مُحتجزاً « حَسْبى الذى أنا فيه أيها الرَّجُل »
ثم استدارَ به سُكرٌ فمال به فقمتُ أسعى إليه وهو مُنجدِل
قد دبَّتِ الخمرُ سِرًّا فى مفاصِله فمات سُكراً ، ولكن حاطهُ الأجل
فلم أزَل أتفدّاه وأرفعُه عن وَهْدة الأرض ، والنَّشوانُ مُحْتمل
حتَّى أفاقَ ، وثوبُ الليل مُنخرِقٌ وغارَ نجمُ الثُّريَّا واعْتلى زُحَل

ومترَّفٍ عَقَل العُقارُ لِسانَه فكلامُه بالوَحْىِ والإيماء[1]
لمَّا نظرتُ إلى الكَرى فى عينهِ قد عَقَّد الجفنين بالإغفاء
حرَّكتُه بيدى، وقلتُ له «انتبهْ يا سيِّدَ الخُلطاء والنُّدَماء
حتَّى أُزيحَ الهمَّ عنكَ بشربةٍ تسمُو بصاحبها إلى العَلياء »
فأجابَنى ــ والسُّكرُ يَخفِضُ صوتَه والصُّبح يَدْفَعُ فى قَفا الظَّلماء ــ
« إنِّى لأفهَمُ ما تقولُ ، وإنما ردَّ التَّعافى سَوْرَةُ الصَّهباء »

ولم أزَلْ بالرُّقَى أُعَلِّلُه حتَّى انجلى عنه عارِضُ الوَسَن

---

(١) المترف : المتنعم .

وغزالٍ عاطيتُه الكأسَ حتّى   فترَتْ منه مُقلةً ولسانا
قال : « لا تُسكِرَنّني بحياتى »   قلتُ : « لا بُدّ أن ترى سكرانا
إنّ لى حاجةً إليكَ إذا نِمْـ   تَ ، فإن شئتَ فاقضِها يقظانا »

ناوِلْ نديمى يُوسُفا   خمراً عُقاراً قَرْقفا(١)
غُصْناً تثنّى أهْيفا   أنحَلَ جسمى دَنَفا(٢)
كغُرّةِ الشّهرِ إذا الـ   شّهرُ بدا مُنَصّفا
حتّى إذا دارَ الكَرى   فى مُقلَتَيه وغَفا
قبّلتُه عَشْراً على   عَشرٍ ، وعشْراً سَلَفا

شاعر الخمريات

ولقد تفنن شاعرنا أبو نواس فى نعت الخمر حتى افتتن بنعته لها من يعاقرها، ومن لا يعاقرها . ولم يكن شاعرٌ فى عصره إلّا يحسده . وكان شانئوه يتعرضون لكل معنى من معانيه بالتزييف والتسخيف ، وإلا فبالتفسيق والتكفير ، وإلا يكن هذا ولاذاك فبالقول بانتحاله وسرقته ؛ كما تجاوز بعضهم المعنى إلى المبنى، فأكثروا من تلحينه . ولو أنصفوا لقالوا مقالة ابن قتيبة : « وقد كان يلحن فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلّا على حُجّةٍ من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو » . على أن جُلّ علماء اللغة والأدب مع تعصبهم للمتقدمين كانوا يرفعونه إلى مواضعهم فى نعت الخمر ، لإجادته وبلوغه غاية الإحسان فى ذلك . فكان أبو عمرو إسحق الشيبانى يقول : « أشعر الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس» . وكان بعضهم مع ذلك لا يملك من شدة رسوخ العصَبيّة للأوائل الذين

---

(١) القرقف : من أسماء الخمر .   (٢) الدنف : المرض المخامر .

سبقوا وتقدمت بهم أزمانهم، إلا أن يظهر أسفه مخلصاً أن أبا نواس الذى يجاريهم ولا ينحط عن درجتهم لم يتقدم به زمنُه ليكون منهم . وقد قال كلثوم العتابى لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : « والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فضل عليه أحد » . وكان أبو عبيدة يقول : « أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين » . ثم يعود إلى ذلك بالتوضيح والتفصيل فيقول : « ذهبت اليمن بجدِّ الشعر وهزله : امرؤ القَيس بجدّه، وأبو نواس بهزله » . ويروى أن بعض المتأدبين لحظوا على ابن الأعرابى اللغوى فى بعض زياراته أنه يحمل فى كمّه صحيفةً لا تفارقه، فأحبوا أن يقفوا عليها . فدخل يوماً إلى المتهيَّأ وترك صحيفته تلك فى مجلسه . فنظروا فيها فإذا بها كثير من شعر أبى نواس فى الخمر، وكانوا إذا ذكروا أبا نواس بحضرته استخف به وبذكره . فلما عاد إلى المجلس أعادوا عليه ذكره — وعرف ابن الأعرابى فى وجوههم وقوفهم على ما فى الصحيفة — فقال : « أوَ قرأتم الصحيفة ؟ » قالوا : « أجلْ ! وعجبنا من إزرائك بأبى نواس مع تدوينك شعره » . فقال : « إنه من أشعر الناس . وما يمنعنا من رواية شعره إلّا تبذّلُه » .

ولا يخدعننا هذا القول من ابن الأعرابى ، فإن هذا التبذل فى شعر النواسى كان من الأسباب التى حبّبته إلى نفوس القوم ، وبخاصة أهل الجد منهم ، لما فيه من الترويح عنهم ، وإن كره بعضُهم أن يظهر للناس بذلك . وقد روى عن الرياشى البصرى أنه حين خلا مجلسه ذات يوم قال للحسن بن على الرياحىّ : « أنشدنى قصيدة أبى نواس التى أولها (أيَا دَارِها بالماء حتى تلينَها) » . فقال الرياحى : « ما أحفظها » . فقال الرياشى : « ويحك ! بصرىٌّ ، شابٌّ ، متأدِّبٌ ، متغزلٌ ، يُسأل عن شعر شاعرِ مِصْرِه ، ورئيس عصره ، فيذهب عنه ! والله إنى لفى سِنّ جدّك ، وإنى لأفكّه نفسى فى اليوم مرّاتٍ بها وبأشباهها من شعره » .

ولقد كان الشاعر نفسه مدركاً لمكان القوة فى شعره . سأله سليمان بن أبى سهل بن نوبخت : «ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟» . قال : «أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى ، إن لم يزاحم غزلى ما قلتهُ فى الطّرد» . يُضاف إلى ذلك ما جاء فى ردّه على سؤالٍ لأبى حاتم سهل السجستانى عن شعره أيضاً ، إذ يقول فى ختام رده : «فأما الذى أفتنّ فيه وحدى وكله جدٌّ ، فإذا وصفتُ الخمر» .

وكان أبو نواس يُجيد الشعر — على حدّ قوله — حين تكون نفسُه طيّبةً ، كأَنْ يكون فى بستانٍ مونق ، أو على حالٍ يرتضيها من صلةٍ يُوصَل بها أو وعدٍ بصلة . وشاعرنا يُقرّ على نفسه أنه قال وهو على غير هذه الحال أشعاراً لا يرضاها . ولم يكن أبو نواس فى الشعر بالبطىء ولا بالسريع ، بل كان فى منزلة وُسْطى . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيُسقط كثيراً منها ، ويترك صافيها ، ولا يسرّه كلُّ ما يقذف به خاطرُه ، وكان يهمّه الشعر فى الخمر ، فلا يعمله إلّا فى وقت نشاطه .

ولعله قد اجتمع فى شعر أبى نواس من أوصاف الخمر جملة ما يَرِد على الخاطر فيها من الأخيلة والمعانى ، ومنها — ولا مراء — ماسبق إليه المتقدّمون عليه ، وبخاصةٍ الوليد بن يزيد الأمويّ إمام شعراء هذه الطريقة فى الخلاعة والاستهتار باللذات والخمر ، والظهور بالزندقة والكفر ، والمجاهرة بهذا جميعه فى الشعر ، ثم منها ما وقع لغيره من المحدَثين ، ومنها ما لم يسبقه إليه أحد .

ولقد جرى نُقّاد العرب فى استقراء معانيه واستقصاء مآتيها والرجوع بها إلى أصولها الأولى مجراهم مع غيره . وكان الغالب على الناقد من أهل زمانه أن يتسهّل ويتشدّد على قدر مودته للشاعر وانعطافه إليه ومبلغ اشتراكه فى المذهب والطريقة

معه ، ثم قد يكون ذلك فى بعض الأوقات تبعاً لوَحْى الساعة من جهة انبساط النفس أو انقباضها وصفاء الخاطر أو تكدّره ، وكثيرًا ما يكون ذلك منه تحرّياً لهوى السادة فى مجالسهم ، ونزولًا على ملابسات الحال ومقتضى المصلحة .

وأمثال هؤلاء النُقَّاد لا يُحصون كثرةً فى كل زمان ومكان . نكتفى منهم بذكر كلثوم بن عمرو العتّابى الأديب الكاتب الشاعر — وكان منقطعاً للبرامكة أيامَ عزّهم ، ووُصف للرشيد و بلغ عنده كلّ مبلغٍ وعظمت فوائده منه ، ثم فسدت حاله معه بعد ذلك . و إلى القارئ حديثين عن موقفه من شعر أبى نواس .

حدّث عبدون الحرّانى قال : دخلت على طوق بن مالك ، وعنده العتّابى وعليه جبةُ صوف وكساء صوف ، وفى يده دفتر . فرفع رأسه إلىّ فقال : « قاتله الله ، ما أشعره ! » . قلت « مَن يا أبا عمرو ؟ ؟ » . قال الذى يقول :

إذا نَحْنُ أثْنَيْنا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ   فَأَنْتَ كما نُثْنِى وفَوْقَ الّذى نُثْنِى

و إن جَرَتِ الأَلفاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ   لغَيْرِكَ إنْسَاناً فأنْتَ الّذى نَعْنِى

قلتُ : « من هو يا أبا عمرو ؟ » . قال « أوَ ما تعرفه ! » . قلت « لا » . قال « الذى يقول . . . » وأنشد أبياتاً أخرى . ثم تكرّر إنشاد الشعر والسؤال عن الشاعر حتى عرّفه آخر الأمر أن الشاعر الذى يتغنَّى بقوله و يلهج بفضله هو أبو نواس .

وحدَّث الجاحظ قال :

كان كلثوم العتَّابى يضع من قدر أبى نواس ، فقال له راوية أبى نُواس يوماً : كيف تضع من قدر أبى نواس وهو الذى يقول :

إذا نحنُ أثْنَيْنا عليك بصالح   فأنت كما نُثنى وفوق الذى نُثنى

وإن جرَتِ الألفاظُ منّا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنت الذى نعنى

فقال العتّابى : « هذا سرقهُ » . قال الراوية : « ممّن ؟ » . قال . « من أبى الهذيل الجمحى» . قال الراوية : « حيث يقول ماذا ؟ » قال : « حيث يقول :

وإذ يُقالُ لِبَعْضِهِمْ نِعْمَ الفَتَى فابنُ المُغيرة ذلكَ النِّعْمُ

عَقِمِ النِّساء فَلَا يَجِئْن بِمِثلِه إن النِّساء بِمثلِه عُقْم »

قال الراوية : « فقد أحسن فى قوله ينعت الخمر :

فتَمَشَّتْ فى مفاصِلِهم كتمشّى البُرء فى السَّقمِ »

قال : « سرقهُ أيضاً » . قال له : « وممن ؟» . قال : « من شوشة الفقعسى ». قال : « حيث يقول ماذا ؟ » . قال : « حيث يقول :

إذا ما السَّقيم حلّ عنها وكاءها تَصَعَّدَ فيه بُرؤها وتَصوَّبا »

وبقيا برهة يتناظران ، حتى سكت الراوية . قال الجاحظ « ولو أتى بشعره كله لقال له سرقه » .

وقد كان شعراء العصر يتناشدون أشعارهم ، ويتناولونها فيما بينهم أحياناً بالنقد ، ويتلاحون على مواضع الإحسان والإساءة فيها . ولم يكن كلامهم فى ذلك ملازماً للقصد والسداد كله ، بل كانوا — بما جُبل عليه الشعراء من غلبة الحماسة على طباعهم وسرعة الاهتياج إلى شعورهم — لا يَخلون من الاعتساف والغلوّ فى حالَىِ الإنكار والإعجاب .

حدَّث ميمون بن هارون الكاتب :

اجتمع أبو نواس ومسلم بن الوليد يوماً . فقال له مسلم : « ما أعلم لك بيتاً

إلّا مدخولًا مُغثًا ساقطاً . فأنشدْنى أى بيت من شعرك » فأنشد أبو نواس إنشاد المُدِلّ :

ذَكَرَ الصَّبوحَ بسُحْرةٍ فارْتاحا وأمَلَّهُ ديكُ الصَّباحِ صِياحا

فقال له مسلم : قفْ عند حُجتك . لِمَ أمَلَّه صياحاً ، وهو الذى بَشّره بالصَّبوحِ الذى ارتاح له ؟ » . فانقطع أبو نواس انقطاعاً بيِّناً ، فجعل الجواب له معارضةً فقال : « أنشد أنت ما أحببتَ من شعرك . فأنشده مسلم :

عاصَى الشَّبابَ ، فَراحَ غيْرَ مُفنَّدِ وأقام بَيْن عَزيمةٍ وتجلُّدِ

فقال أبو نواس : « حَسْبُك حيثُ بلغتَ . ذكرت أنه راح ، والرواح لا يكون إلّا بالانتقال من مكان إلى مكان . ثم قلت ، وأقام بين عزيمة وتجلد ، فجعلته منتقلًا مقيماً . وقلت عاصى الشباب ثم قلت وأقام بين عزيمة وتجلد ، فكيف يكون ذلك مع المعاصاة ؟ » فانقطع مسلم . وتشاغبا وافترقا . قال ميمون « والبيتان جيدان بديعان ، ولكن كلّ من طلب عيباً وَجَدَه » .

وحدَّث رزين الكاتب :

كان الأدب يجمعنا كثيراً ، فيؤنسنا التناشد والمذاكرة . فاجتمعنا يوماً عند أبى نواس ، وهو إذ ذاك فى رهج الأمين محمد بن زبيدة ، وفينا دعبل بن علىّ ومسلم بن الوليد وأبو الشيص . فلما كادت الكؤوس أن تغلب العقول ، قال أبو نواس : « قد اتفق اجتماعنا، فَلِمَ لا نتمم يومنابما يذكرنا به المتأدبون؟». قلناله : « إنه ليومُ ذاك » . فالتفت إلى مسلم فقال : « هات ، فلله إحسانك فى الإجابة إذا نوديت . فاخترْ مِن شعرك ما شئت ، فليس من شاعرٍ إلّا هو يعرف حَبَّة

القلادة من شعره » . فاستوى مسلم جالساً وقال : « ليست بك حاجة إلى مكاثرتنا ، فقد علمنا أن معك من الكلام دُرَّهُ وخالصَ جوهره . وإنما أردتَ إقرارنا لك بذلك ، فقد سلمنا لك » . فقال أبو نواس : « ما لهذا قصدتُ ، ولكنك تريد أن تتعالى علينا بجودة شعرك ، فامض لما اجتمعنا عليه ، فلن ندع مشاركتك فى ذلك » . فابتدأ مسلم فى قوله .

أجرَرْتُ حبلَ خليعٍ فى الصبا غَزِلِ وشمَّرَتْ هِمَمُ العذَّال فى عَذَلى

فلما انتهى إلى قوله

مُوفٍ على مُهَجٍ فِي يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجَلٌ يسعى إلى أمل

قال أبو نواس : « ما أراه يجىء بعد هذا الكلام ما يفى بوزنه » . ثم التفت إلى دعبل مازحاً فقال : « هات الآن ، فكأنى بك قد جئتَ بسَقَط شعرك :

[ضحك المشيبُ برأسه فبكى(1)]

قال دعبل : « هو ذلك ، فتجاوزْنى إلى غيرى » . فقال : « كلا ، فأين استلذاذ السمع بعذوبة جيد الكلام » . فجاء بها إلى آخر بيت . فقال أبو نواس : « أحسنتَ ملء فيك » . ثم التفت إلى أبى الشيص فقال : الضاديّة الضادية ! فما خطر بخَلَدى قطّ قولك :

[ليس المُقِلُّ عن الزمان بِراضِ(2)]

إلا حرَّكَ منى ساكناً ، وإنما اخترتُها استحساناً لها » . فقال أبو الشيص :

---

(١) البيت : لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(٢) البيت : لا تنكرى صدى ولا إعراضى ليس المقل عن الزمان براض

« لا أفعل ، فليست عندى عِقد دُرٍّ مفصَّل ، ولكن أ كاثر بغيرها من قولى » ، وأنشد :

وَقَفَ الهوى بى حيث أنتِ فليس لى مُتأخَّرٌ عنـــه ولا متقدَّمُ

وذكر الأبيات . فقال أبو نواس : « أردتُ صرفَك عنها فأبيتَ إلاَّ أن تخلى سبيلك » . قال « فكيف ترى هذا الطراز » . قال « أراه نمطاً حَسناً » . والتفتوا إلىّ (إلى رزين الكاتب) لأسمعهم ، فأبيتُ وكنت أصغر القوم سناً ودونهم فى الشعر . ثم أقبلنا على أبى نواس نقول : « هيا يا أبا علىّ ، وقد انقدْنا لك فى الطاعة » . فقال : « هو حقكم ، ولم تدخلوا فى شىء إلاّ وأنا شريككم فيه » ؛ ثم احتبى بمنديل وأنشد :

لا تبكِ ليلى ولا تَطرَبْ إلى هِندِ واشربْ على الوردِ من حَمراءَ كالوردِ

كأساً إذا انحدرت فى حَلق شارِبها أجدتْهُ حُمرتهـا فى العين والخدّ

فالخمرُ ياقوتةٌ ، والكأسُ لؤلؤةٌ فى كفّ جاريةٍ ممشوقةِ القدّ

تَسقيكَ من عَينها خمراً ، ومن يدها خمراً فمالَكَ من سُكرين من بُدّ

لى نَشوتانِ ، وللنّدمانِ واحدةٌ شىءٌ خُصصتُ به من بينهم وَحْدى

فلم نملك من الطرب أنفسنا ، فقمنا فسجدنا له . فقال : « أعملتموها أعجمية ! ألا والله لا أ كلمكم ثلاثاً ، وثلاثاً ، وثلاثاً » . ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه وقال « تسعة أيام فى مهاجرة الأخلاّء والله كثير » . ثم التفت فقال : « أعلمتم أن حكيماً عتب على حكيم ، فكتب المعتوب إليه إلى العاتب : يا أخى . إن أيام العمر أقلّ من أن تحتمل الهجر » .

وكان من فحول شعراء العصر حسين بن الضحاك الخليع . ويُذكر عنه أن له

معانىَ فى صفة الخمر أبدع فيها وسَبق إليها فاستعارها أبو نواس ، وأن له شعراً نادراً فى نعتها نَسَبه الناس إلى أبى نواس . ومما حدَّث به حسين بن الضحاك فى هذا الشأن قوله : [أنشدتُ أبا نواس لمَّا حججتُ قصيدتى فى الخمر التى مطلعها :

بُدِّلتَ من نفحات الورد بالآء ومن صَبوحك دَرَّ الإبْل والشاء (١)

فلما انتهيت منها إلى قولى :

حَتَّى إذا أُسنِدَت فى البيت واحتُضِرتْ عنــد الصَّبوح بِبَسَّامينَ أكْفاء
فُضَّت خواتمُهــا ـ فى نَعْت واصفِهاـ عن مثل رَقراقةٍ فى جَفن مَرْهاء

رأيت أبا نواس صُعق صعقةً أفزَعَتْنى ، وقال: « أحسنت والله يا أشقر ! » . فقلت : « ويلك يا حَسَن ! إنك أفْزَعْتَنى والله » . فقال : « بلى والله ، أنت أفزعتنى ورُعتنى ، هذا معنى من المعانى الذى كان فكرى لا بدَّ أن ينتهى إليها أو أغوص عليها وأقولها ، فسبقتَنى إليه واختلسته منى ، وستعلم لمن يُرْوَى ، لى أمْ لك » . فكان والله كما قال ، سمعتُ من لا يعلم يرويها له ، ورأيتها فى دفاتر الناس فى أول أشعاره] .

وشبيه بذلك ما يزعمه عبد الرحمن بن أبى المداهد الشاعر . فقد أنشد لنفسه هذه الأبيات :

وشاطرٍ ماجنِ الشَّمائلِ قد خالَطَ منه المُجونُ تخنيثا
يميلُ للمشى فى مُعَصْفَرَةٍ تحكى لنا الجُلَّنار والتُّوثا
أغرَّ يحكى بحُسن مَنطِقِه دُرًّا بقطعِ الجُمان مَبثوثا

(١) الآء : من الشجر الدفلى وهو نبت زهره اعتيادياً كالورد الأحمر .

خُصٌّ بردفٍ كأنَّ مئزرَه على رُكامٍ من النَّقا ليثا
ألثغُ، إن قلتُ: «يافديتك قل: موسى» يَقلْ في رطانة «موثى»
ما زال حتَّى الصَّباحِ مُغتبقي مُطارِحي في الدُّجى الأحاديثا

فقيل له : « إنهم يزعمون أنها لأبي نواس » . فقال : « فأبو نواس بيني و بينكم . فوالله ما غلبني على غير شعرٍ ، وما يدَّعيه ، ولكنه قد حظي أن يُنسب إليه كلُّ إجادة وملاحة » .

ونسبة هذا أو غيره من الخمريات والمجون إلى أبي نواس إن دلَّت على شيء فإنما تدل على غلبة شهرته وعلى أن هذه الأشعار لا تعلو على طبقته ، فهي لا تقدِّم ولا تؤخِّر من موضعه .

وأما الإشارة إلى أنه في هذا البيت أو ذاك من شعره ، قد ألمَّ ببيت فلانٍ ، ونظر إلى قول فلان ، وأخذ المعنى من فلان ، فهذا — على حد ما يقرره صاحب العمدة وسائر النقاد — باب متسع جدًّا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدَّعي السلامة منه .

ذكر حسين بن الضَّحاك أنه حجَّ فلقي أبا نواس — بعد منصرفه من عند الخصيب أمير مصر — بمكة المكرمة وهو يطوف . فسأله النواسي عما أحدث بعده ؛ فأنشده ابن الضحاك :

وشاطريّ اللّسان ، مختلق الـ ـتَّكريه ، شاب المجونَ بالنُّسُكِ
كأنما نُصْبَ كأسه قمرٌ يَكرعُ في بعض أنجم الفَلَكِ

فلم تمض أيام حتى أنشده أبو نواس في قصيدة مستحدثة من خمرياته :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خلته يقبِّل في داجٍ من الليل كوكبا

فقال له ابن الضحاك وقد ساءه أن يُغار على معناه : « يا أبا عليّ ، هذه مُصالتة [1] » . فقال النواميّ ضاحكا : « أتظن أنه يروى لك فى الخمر معنى جيد وأنا حيّ ! » .

ولقد تداول الناس من بعدهما المعنى ، ومنهم ابن الرومى فى قوله :

فكأنّها وكأنّ شاربَها ... قمرٌ يقبّل عارضَ الشّمس

ولقد قيل : إذا كان اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجزاً ، فإن تركه كل معنى سُبق إليه أفَنٌ وجهلٌ ، ما دام يتصرّف فى لفظه ويزيد فى معناه . ومن كلام ابن قتيبة فى مقدمة الشعر والشعراء : « كان الناس يستجيدون قول الأعشى

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ ... وأُخرى تداويتُ منها بها

إلى أن قال أبو نواس

دع عنك لومى ، فإن اللّوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الدّاء

فزاد فيه معنًى ، اجتمع له به الحسن فى صدره وفى عَجُزه . فللأعشى فضل السَّبْق إليه ، ولأبى نواس فضل الزيادة عليه » .

وقال عليّ بن العباس الكوفى الشاعر [كنت عند أبى جعفر محمد بن حبيب ، فجرى ذكر الشعراء ، فذكر الناس شعراء الجاهلية : امرأ القيس وطرفة والأعشى ، فجعلوا يقدّمونهم، وذكروا شعراء الإسلام فقدّموا جريراً والفرزدق،وأنا ساكت. فقال لى : « يا أبا الحسن ، لِمَ لا تتكلم ؟ » . فقلت : « أذكُرُ لكم رجلاً

---

(١) المصالتة : أن يأخذ الشاعر بيتاً لغيره بلفظه ومعناه .

أشعر من هؤلاء ؟ » فقالوا : « من هو ؟ » . فقلت : « أبو نواس » . فقالوا : « أولئك جاءوا إلى المعادن فاقتلعوها » . فقلت لهم : « فأيّما أشعر ، مَن جاء إلى المعادن فاقتلعها بتُربها وتِبرها ، أو مَن خلّصها وخلّص التبر من التراب ؟ ! »]

ومما يؤثر فى هذا الشأن قول الجاحظ : « نظرنا فى الشعر القديم والحديث ، فوجدنا المعانى تُقلب ، وبعضاً يأخذ من بعض . وقلّ معنًى من معانى الشعر القديم تفرّد بإبداعه شاعر إلا رأيت من الشعراء من زاحمه فيه واشتق منه شيئاً » . ولم يستثن الجاحظ إلا القليل النادر من أقوال المتقدمين والمحدَثين . وقد ضرب لذلك مثلا من شعر عنترة ، ومثلاً من شعر أبى نواس . والأبيات التى اختارها الجاحظ لأبى نواس فى الطبقة الأولى من غُرَر الشعر العربى ، وعلى ذلك اجتمع رأى نقادهم أجمعين . وكان الشاعر قد مرّ بالمدائن ، دار ملوك الفرس الساسانيين، وفيها إيوان كسرى ، فعدل وصحبه إلى ساباط يشربون فى مكانٍ حسن ، وكان فيه آثار تدلّ على اجتماعٍ لقوم من الفرس قبلهم . فأقاموا خمسةَ أيامٍ يشربون هناك بين آثارهم على مشهد من أطلال الإيوان العظيم الشاهد على عظمة الأكاسرة وحضارة فارس . وفى صفة هذه الحال قال الشاعر أبياته :

ودارِ نَدامَى عَطَّلوها وأدلَجوا ... بهــا أثرٌ منهم جَديدٌ ودارسُ

مَساحِبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرى ... وأضغاثُ رَيحانٍ جَنِىٌّ ويابس (١)

حَبَستُ بها صَحْبى فجَدَّدتُ عهدَهم ... وإنى على أمثال تلك لَحابِسُ

ولم أدرِ مَن هُم غيرَ ما شهِدَتْ به ... ـبشرقىّ ساباطَ ـالديارُ البسابس (٢)

أقمنا بها يوماً ، ويَوْمَيْن بعدَه ، ... ويوماً له يومُ الترَّحُّل خامس

---

(١) أضغاث : جمع ضغث ، قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس .

(٢) البسابس : جمع بسبس ، القفر الخالى .

تُدار علينا الرّاحُ فى عَسجديةٍ حَبَتها بأنواع التَّصاوير فارس

قَرارتُها كِسرى ، وفى جنباتها مَهًى تَدَّريها بالقِسىِّ الفَوارس (١)

فللخمر ما زُرّت عليه جُيوبُها وللماء ما دارت عليه القلانس (٢)

وقبل أن ندع مشكلة المعانى وأصحاب عُذْرَتها وما يقال فى حقّ انتحالها وحقيقة نسبتها نقول إن الناقد يعدو مفصل الصواب إذا هو نَسب هذا كله إلى تعمّد الشعراء لانتحال المعانى بعضهم من بعض . فإن الأمر — مع ما قيل فيه من الرُّخْصة والتجويز — قد يكون أعمق من هذا أحياناً وأفسح . فاشتراك المعانى قد يكون مردُّه فى بعض الأحوال وحْدَة الشعور الإنسانى ، كما يتبين ذلك من دراسة الأدب المقارَن فى شتى اللغات ، لمختلف الأمم ، فى سائر الزمان والمكان

خمريات وخمريات : « النواسى والخيام »

وليس يسع الكاتب فى هذا المقام إلّا أن يستطرد به الكلام إلى مقابلة موجزة بين خمريات شاعر العراق أبى نواس وخمريات شاعر الفرس عمر الخيَّام .

والقارئ لخمريات الشاعرين يجدهما صادرين عن شعور واحدٍ ، ظلّ وسواس نفسهما ، ملازماً طوال الحياة لهما ، قد ملك مذاهب الشعور والتفكير من جميع أقطارها عليهما : وذلك شعورهما بالموت ، بالموت غاية كل سعى ، وهالة كل مجد ، ومآل كل حُسن ، ونهاية كل حىّ .

وحسبنا من أبى نواس أبياته هذه المشهورات ، فإننا لا نعاود قراءتها ، حتى

---

(١) يدرى : يختل على غرة وتحين غفلة . ومعناه أن كسرى مصور فى أسفل الكأس وقرارتها ، وفى جوانبها صور الفوارس . (٢) معناه أنهم صبوا الخمر فى الكأس صرفاً إلى مواضع النحر من الفوارس المصورة ، وصبوا الماء فى مزجها حتى علا رءوسها .

نلمس مبلغ شعوره الأليم بحكم الفناء المسلط على الأحياء من هذا التكرار الفاجع لكلمة « فى التراب » مرات متتاليات :

أيا رُبَّ وَجهٍ — فى التُّرابِ — عَتيقٍ ... ويا رُبَّ حُسنٍ — فى التراب — رَقيقِ
ويارُب حَزْمٍ — فى التراب — ونَجدةٍ ... ويا رب رأيٍ — فى التراب — وَثيق
ألَا كلُّ حَيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ ... وذو نَسَبٍ فى الهالكين عَريق
فقُلْ لقريبِ الدَّارِ إنَّكَ ظاعِنٌ ... إلى مَنزِلٍ نائى المحلِّ سَحيق
إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... له عن عدُوٍّ فى ثِياب صَديق

ولعُمَرَ الخيّام فى مثل هذا المعنى رباعيات كثيرة ، ولكننا نؤثر عليها هذا الرُّباعىَّ ، يخاطبنا فيه خطاب الشاعر الفلكىّ ، وهذه ترجمتنا له :

أصْعَدتُ فى الفَلكِ الأعلى ولَمْ أزَلِ ... وجُزتُ أطباقَه حتى ذُرىٰ زُحَلِ
وكَمْ حللتُ لَدى المِعراجِ من عُقَدٍ ... أعيا بها الفِكرُ ، إلَّا عُقدة الأجَل

والقول بأن الحياة وشيكة الزوال دانية الأجل ، وأن الدنيا — على حد تعبير سليمان الحكيم — قَبْض الريح وباطل الأباطيل ، قولٌ لا اختلاف عليه ، وإن تفاوتَ الناسُ فى الشعور به قوةً وضعفاً . وقد يختلف الناس فى كل شىء إلا أن الموت حق . فتلك أولى الحقائق القائمة فى بدائه العقول لوقوع المشاهدة عليها كل ساعة منذ أول الخلق . وإنما يرد الخلاف على الناس فى المسلك حيال هذه الحقيقة . والناس فى ذلك فريقان، يتصرّف كل فريق على مقتضى غرائزه وطبيعة مزاجه وتركيب بنيته وملابسات حاله .

فثمة فريق يرفضون هذه الدنيا الباطلة الزائلة، ويعرضون عن زخرفها وزينتها، ويزهدون فى متاعها ولذاتها . وفى هذا الرفض نفسه يقول زعيمهم أبو العلاء المعرى :

ولم أُعرِضْ عن اللَّذات إلَّا   لِأنَّ خِيارَها عنى خَنَسْنَه

والفريق الآخر يرون الإفادة من الموجود ، ومبادرة المتعة به قبل أن يغيبوا فى الملحود . ومن هؤلاء من تبلغ بهم ملازمة الشعور بالموت الراصد للحياة أن يقولوا فى وصفهم متاعاً من المُتَع قولَ ابن الرّومى فى ختام وصفه للعنب الرّازِقىّ ومغالاته بحسنه وطيبه :

تَعِلّةٌ من يومنا المَنظورِ   ومُتْعَةٌ من مُتَع الغُرورِ

وفى طليعة هذا الفريق الأبيقورىّ وعلى رأسهم غير مُدافَع شاعر العراق أبو نواس ، وفى الرعيل الأول منهم شاعر فارس عمر الخيَّام .

ويتلخص موقف النواسى فى قوله :

أمرُ غدٍ أنتَ منه فى لَبْسٍ   وأمس قد فات ، فالْهُ عن أمْسِ

فإنّما العيشُ عيشُ يومِكَ ذَا   فباكِرِ الشمسَ بابنةِ الشَّمْسِ

رأيتُ اللَّيالى مُرْصَدَاتٍ لِمُدَّتى   فبادَرْتُ لَذَّاتِى مُبادَرةَ الدَّهْرِ

ومثله قول الخيام فى أكثر من رباعية ما ترجمته :

إيه دَعْنى أغْتَنِمْ هــــذا المَدى   قبل أن يُطوى تُرابى فى الثّرىٰ

حيثُ لا خمرٌ، ولا شَدْوٌ، ولا   قَيْنَةٌ ، كلاًّ ، ولا مِن مُنتَهى ![1]

ومع هذا الاتفاق فى موقف الشاعرين من التهافت على اغتنام فرص الحياة ومبادرة اللذات ، فإن القارئ حين يقرؤها لا يخطئ أن يُحسّ بفارقٍ بين خمريات وخمريات .

فنحن فى خمريات أبى نواس نَلقى صاحب خمر يشرب الخمر للخمر : ولا شك فى أنه قد لقى من ظروف نشأته وملابسات حياته ما قد يحفز إلى طلب الشراب

---

(١) الترجمة للأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى عن الترجمة الإنجليزية لفتزجيرالد .

ونشدان سكرته ، ولكن أبا نواس كان مع ذلك أقرب ما يكون إلى السكير بمولده وطبيعته . ولسنا فى حاجة إلى القول إنه لم يكن من السكارى الغلاظ الحس ، الجامدى الطبع ؛ فهو على النقيض من ذلك معروف مشهور بأنه من ألطف الخلق ظلاً ، وأخفهم روحاً ، وأذكاهم فؤاداً ، وألمعهم ذهناً ، وأرقهم حسًّا .

وأما خمريات الخيَّام فنتمثل من قراءتها الرجل الذى أخـذ على نفسه تحصيل العـلوم من رياضيات وطبيعيات وفلسفة ونجوم ، وشقّ على نفسه فى استقصاء أطرافها والإحاطة بأصولها وفروعها . فلما تم له ذلك كله ، أراد أن يواجه المسائل الكونية الكبرى على هَدْيها ، فخاب أمله فيها ولم تُغن فتيلًا . فهو حين يعاقر الخمر ويتغنَّى بهـا كمن يحاول تسكين ثورة النفس عن طريق إشباع شهوات الحس . والقارئ له لا يخطئ أن يلمس وراء منادمته وسكره يأس الفكر وعربدة الفكر :

خُضتُ فى عهدى غِمارَ الجدَلِ ... وسمعتُ الشَّيخَ والقطبَ الوَلِى
غيْرَ أنِّى كُنتُ ألفِي أبدًا ... مَخْرَجى — بعد عنائى — مَدْخلى

كم بذَرنا حِكمةَ العقل سَواء ... وتعهَّـــدتُ بكَفِّىَ النَّماء
فتأمَّلْ ! ها حَصادى كله : ... جئتُ كالماء وأمضى كالهواء

يا أخِلَّاىَ لقد كنتمْ شُهودى ... حين دار القَصْفُ فى عُرْسى الجديدِ
طُلِّقَ العقــلُ عقيماً وغَدَتْ ... بنتُ هذا الكَرْم زَوجى وعَقيدى [1]

وليس يخلو شعر أبى نواس مما يجده قارئ الخيام من ذلك المزاج العجيب من

(١) الترجمة للأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى عن الترجمة الإنجليزية لفتزجيرالد .

الشك والسخر ، ولا من تلك اللمحات الخاطفات هنا وهناك من الإنكار المر ، ولكن ذلك أظهر فى الخيام ، بل هو طابع رباعياته . وقد ساعد بنيان الرباعية المحدود المتبلور على إظهار هذا الطابع وإبراز معالمه .

والرأى عندنا بعد ذلك فى الخمريات عموماً أن شعراء العربية وعلى رأسهم أبو نواس لم يُدرك شأوهم ولم يبلغ مبالغهم شاعرٌ سابق أو لاحق فى أية لغة ، ولا يُظن أنه يوجد لهم نظير فى مستأنف الدهر .

طرفان متضادان : « النواسى والمعرى »

وإذا كنا قد وجدنا لأبى نواس شبيهاً فى عمر الخيام من بعض الوجوه ، فإنه من تمام البيان أن نقابل بينه وبين نقيض له من جميع الوجوه ، جرياً على الحكمة القائلة « وبضدها تتميز الأشياء » . ومن ذا يكون هذا النقيض لأبى نواس غير شاعرنا الفيلسوف أبى العلاء ؟

فعلى قدر تهافت النواسى على الحياة كان ضجر المعرى منها . وعلى قدر شكوى النواسى من قصر الأجل كان المعرى يشكو تطاوله :

رَبِّ ! متى أَرْحَلُ عن هذه الـ ـدُّنيا ، فإنِّى قد أَطالَ المُقامْ

والعيشُ سُقمٌ للفتى مُنصِبٌ والموتُ يأتى بشفاء السَّقام

وقد كثر من أبى نواس التبرم بهذه الحال أو تلك من ملابسات الحياة . أما أبو العلاء فكان تبرمه بالحياة نفسها ، فهو يتعجل مَقْدم الموت ويتطلع إليه كما يتطلع العانى إلى المخلِّص الحبيب ، وإنه ليقسم لو بقى له حس ساعة الموت لاستعذبه :

ولو كان يَبقى الحِسُّ فى فَمِ مَيِّتٍ لَآلَيتُ أنَّ الموت فى الفمِ أعذَبُ

وقد كان أبونواس يفكر فى الموت إشفاقاً منه على نفسه ، وأما أبو العلاء فكان مستغرقاً بشعوره وتفكيره فى الفناء الشامل الذى يتناول كل شىء

زُحَلٌ أشرفُ الكواكب داراً   من لقاء الرّدى على ميعادِ
ولنارِ المرّيخ من حَدَثان الـ   ـدَّهر مُطفٍ وإن عَلَت فى اتّقاد
والثُّريّا رَهينـةٌ بافتراقِ الـ   شَّملِ حتّى تُعَدَّ فى الأفراد

وأعظم من هـذا جميعه خطراً وأخص معنى أن هذى الحياة التى كان يجدها النواسى نعمة كان أبو العلاء يجدها نقمه وأى نقمة ، ويعدها شرّاً وأى شر. وليس شرّها بالعَرَض العارض ، بل هو شر فى الصميم والجوهر . وتظهر هـذه الحقيقة عارية فى حيثما صرحت الطبيعة واختفى الرياء . وهى من أجل ذلك أظهر ما تكون فى الغابة . فإذا تأملنا شريعة الغابة فقد كشفنا القناع عن شريعة الحياة . وهنا يضرب لنا الشاعر هـذا المثل بالذئاب تفترس الشاء ، ليقرر لنا فى غير خفاء أنه لا معدى للذئاب الجائعة من ذلك إذا أرادت البقاء ، وأن كلا الاثنين شقىٌّ معذب قمين بالرثاء :

ولو علمتم بداء الذئب من سغَبٍ   إذاً لسامحتُمُ بالشاة للذيبِ

وهـذه العقيدة الراسخة بأن الشر موجود ضرورةً فى طبيعة الأشياء ، تجعل الشاعر الفيلسوف يائساً كل اليأس من صلاح العالم وتقدمه . فالرجل متشائم ولا خلاف على تشاؤمه . ولو أن العيب الذى ينعاه كان فى هذا النظام أو ذاك من النظم الاجتماعية أو غيرها من المواضعات لكان الرجل أقل تشاؤماً . ولكنها طبيعة الحياة التى لا تبديل لها . فالعالم داؤه فى رأى هـذا المتشائم العظيم داء عياء ، وليس يصح أن يتعلق باستصلاحه رجاء ، ولا لوم من هـذا يلحق بالأحياء :

والشرُّ طَبعٌ ، وقد بُثَّتْ غرِيزَتهُ مَقسومَة بين أنواعٍ وأجناس

وجبِلّةُ الناس الفسادُ فَضَلَّ مَن يسمو بحِكمته إلى تهذيبهـا

ولقد كان أبو نواس ينتهز فرص الحياة فيبتدر لذته ، قبل أن يستوفى من الحياة مدّته . وقد كان يصح لأبى العلاء كذلك أن يتعلل فى هـذه العاجلة باللذات شأن الكثيرين مثله من المتشائمين . والتشاؤم غير مانع من ذلك من حيث هو مذهب فكرى لا مسلك خلقى . ولكن أبت ذلك على الرجل كبرياؤه وأنفته ، فما تعدو لذات الدنيا عند عامة الناس شهوة المَطْعم والمنكح ، وهى لذات غير جديرة أن يحيا مثله من أجلها :

أُفٍّ لها ، جُلُّ ما يُفيد بها مَن فازَ فيها : الطَّعامُ والباهْ

وأما « خيار اللذات » التى سبقت إليها إشارته ، وهى اللذات الروحية العالية التى كان ربما وجد العزاء فيها ، فقد خذلته ، أو على حد قوله « خنسنه » . وأبو العلاء كان جديراً بالأنس بالناس والاستمتاع بلذة الحديث إليهم ومطارحتهم والمحاورة لهم ، وهى لذة لا تعدلها عند أهل الفكر لذة . ولكنه جاء متقدماً على عصره ، فلم تقع بينه و بين أهل زمانه ألفة فى التفكير والشعور ، حتى احتاج أن يصطنع فى خطابهم المجاز والمداراة أخذاً بالتقية وحذراً من الوشاية وتوقياً للأذى . وكان كلما تقدم به العمر فاكتملت تجربته ورسخت فكرته وانعقدت مقومات شخصيته ، زادت الهوة سعة بينه و بين الناس ، حتى اضطر إلى طلب الانفراد و إيثار العزلة ، فتسمى « رهن المحبسين » :

لقاء النَّاس ألجأنى برَغمى إلى حُسن التجمّل والنِّفاقِ

بوَحدانيَّة العَـلَّام دِنَّا فدَعْنى أقطعُ الأيَّامَ وَحْدى

وكما خاب ظن أبي العلاء في الناس خاب ظنه كذلك في المعرفة . فإنه — من بعد طول المعاناة والسهر في طلب الحقائق والانقطاع لنشدانها وتحرى مظانّها — ألفى نفسه في النهاية كما كان في البداية :

وعالِمُنا المنتهى كالصبىّ   قِيلَ له في ابتداء تَهَجّ

وإذا كان هذا المتشكك العظيم قد صح عنده شيء ، فهذا الشيء الذى كان منه على يقين جازم هو أن حقيقة الحياة « الألم » ولا حقيقة غير الألم . فالألم وحده له وجود إيجابي . أما ما يسمونه « لذة » أو « سروراً » فهما غيبة الألم ووجودهما سلبي . وفي ذلك يقول :

أعِنْ باكياً لَجَّ في حُزنه   وسَلْ ضاحِكَ القوم : ممَّ ابتَهَجْ

تَسَمَّى « سُروراً » جاهلٌ مُتَخَرِّصٌ   بفيه البَرى ! هل في الزَّمان سُرورُ ؟[1]

وفي مثل هذه الحالة النفسية الأليمة كان المعرى لا محالة أحوج من سائر الناس ، لا من أبي نواس وحده ، إلى التماس الخمر تذهله عن نفسه وتخفف من وطأة ألمه ويأسه . ولكنه لم يفعل ، صوناً لكرامته ، واحتفاظاً بوقاره ، وإشفاقاً على رجاحة عقله :

أيأتى نبىٌّ يجعلُ الخمرَ طِلقةً   فتحملَ ثِقلاً من همومى وأحزانى

وهيهاتَ ، لوحَلّتْ لما كنتُ شاربا   مُخففةً في الحِلمِ كِفَّةَ ميزانى

فلا جرم تكون الصورة التى نتمثلها لأبي نواس متطلق الوجه للحياة مشبوب الشهوة لأنواع الملذات شديد الإيمان بنفسه مع الاقتناع بعلمه ، يقابلها

---

(١) البرى : التراب .

فى الطرف المقابل صورة أبى العلاء المفكر ، وقد قتل فى قلبه بإمعان التحليل كل عاطفة ، وأبطل فى ذهنه بإمعان التحقيق كل دعوى للمعرفة ، كما كبت بإمعان التقشف فى نفسه الإرادة والرغبة ، فذهبت عن مفاتن الدنيا كل غواية وفتنة .

وخلاصة القول أن أبا نواس كان على رأس المتفائلين ، انتهب لذات الدنيا انتهاباً ، فلم تفته منها لذة واحدة ، وهو إلى ذلك متطلع إلى نعيم الجنة بما يطمع فيه من مغفرة . وأما أبو العلاء فكان على رأس المتشائمين جميعاً ، يئس اليأس كله من الدنيا ، ولا يبعد أن يكون يأسه قد تعدى إلى الآخرة .

الخمر بين الصوفية والحسية

ولقد حدث فى الفارسية والعربية شعر فى الخمر يحملونه على محمل المجاز وينسبونه إلى جهة التصوف ، فيجعلون فيه الخمر والقدح والساقى جميعاً إشارات رمزية إلى ما شاءوا من المعانى المجردة الروحانية . فإذا الخمر هى المعرفة الإلهية ، والقدح قلب الإنسان ، والساقى هو الله تعالى ، والسكر غيبة الحس عن الوجود للاتحاد بروح الوجود ، والفناء فى الحق سبحانه ، وإذا الحان مجتمع الإخوان فى الطريقة الصوفية ، وما أشبه ذلك من التأويلات مع بعض الاختلافات والمزيد من التلوينات .

ومن الخمريات التى تناولها من تناولها من متأخرى الصوفية ، فنقلوها إلى طريقتهم وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم على أنها رمزية ومعانيها صوفية ، خمريات عمر الخيام . وسواء أكانت خمر الخيام روحية أم غير روحية ، فإن الذى لا خلاف عليه ولا يمكن أن يكون عليه خلاف أن شاعرنا النواسى فيما لهج به من ذكر الخمر لا يقصد إلى رمز ، وإنما يعنى الخمر ذاتها ولا يعنى شيئاً سواها . بيد أنه على الرغم من أن هذه الخمريات التى نحن بسبيلها نظمها الشاعر فى خمر حسية ،

فإن فى شعره فيها ما يرد على السمع كأنه صلاة روحية وترتيلة من التراتيل الدينية ، مثل هذا المطلع :

إثْنِ على الخمر بآلائِهَا وسَمِّها أحسنَ أسمائِها

ثم هذه التلويحات النورانية لما ينبعث عنها من شعاع :

تَرَى حيثُما كانت من البيت مَشرِقاً وما لم تكُن فيه من البيت مَغرِبا

فَعلَتْ فى البيت إذْ مُزِجَتْ مثلَ فعلِ الصُّبح فى الظُّلَمِ
فاهْتَدى سارى الظَّلام بِها كاهتِداءِ السَّفْرِ بالعَلَمِ

لا ينزلُ اللّيلُ حيث حلّت فدَهرُ شُرّابِها نهارُ
حتّى لو استُودِعَت سِراراً لم يَخْفَ فى ضَوئِها السِّرار[1]

ثم هذه المعانى المثالية التى لم يزد المتصوفة عليها شيئاً فى أوصاف خمرهم الروحية وأشواقهم الغيبية :

تحيَّرتِ الأوهامُ دون صفاتِها وجَلَّتْ صِفاتُ عن شبيهٍ وعن نِدِّ

من ذَاقها مرّةً لم يَنسَها أبداً حتّى يُغَيَّبَ فى الأكفانِ والتُّربِ

وإذا كان مريدو شاعر الصوفية الأشهر الإمام شرف الدين عمر بن الفارض يطيب لهم أن يرددوا لشاعرهم — قدس الله سره — هذه الأبيات :

ولو قرّبوا من حانِها مُقْعَدًا مشى ويَنطِقُ من ذِكرى مَذاقتِها البُكْمُ

---

(١) السرار : استسرار القمر ليلة الثلاثين . ويعنى الشاعر أنها من صفائها لو استودعت ما هو خفى لم يخف فى ضوئها .

ولو جُلِيَت سِرًّا على أكْمَهٍ غدا　　بصيراً ، ومن راووقِها تَسمعُ الصُّمّ

فليذكروا أمثالها لشعراء لم يقرن باسمهم قط تقديس مثل قولهم :

ومُقعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا　　وأعمى سَقَيْناه ثلاثاً فأبصَرا

وأخرَسَ لم يَنطِقْ ثلاثينَ حِجَّةً　　أدَرْناعليهالكأسَ يوماً فهَمَّرا[١]

وهكذا كانت الخمر الحسية عند أبى نواس وأمثاله يجتمع لهم فيها أحياناً من فرط الوله بها عوالم المعانى والحس ، والغيب والشهادة ، والواقع والمثال .

أوصاف الخمر

على أن هذه المعانى المثالية قليلة الأشباه والنظائر فى خمريات أبى نواس بعد هذا الذى قدمناه منها . ولا غرابة فى ذلك ، فما كان أبو نواس ليتغنى بغير الواقع أو يعتمد على غير الحس . فمدركاته كلها حسية ، ولذاته جميعها جسدية ، ونظرته للحياة فى عامة الأحوال واقعية . وهو فى شعره الوصفى يتناول الأشياء كما تقع فى الحواس الظاهرة فيستوعبها و يجلوها لنا فى أجمل صورة وأبهى معرض . فلا جرم تظهر أخص خصائصه هذه فى الخمر أحب الأشياء إليه وآثرها عنده ، فلا يدع شاردة ولا واردة إلا التفت إليها وأحاط بها وأثبتها ، مستقصياً كل ما يتعلق بمنظورها ومشمومها ومذاقها وتأثيرها فى الحس ، استقصاء انفرد به ولم يقع لغيره . و إلى القارئ تفصيل ما أشرنا إليه .

ألوان و نيران

يعرض أبو نواس الشاعر لأوصاف الخمر فى رأى العين . ولم يكن كمنظر الخمر

---

(١) همر : أكثر فى الكلام . والبيتان لأبى نواس فى حلبة الكميت ، والبيت الأول من قصيدة للأقيشر فى الأغانى .

منظر في عينه . فكان أول همه إذا تناول الكأس أن يتأملها و يديم النظر إليها، فلا يرفعها إلى فمه يحتسيها و يفرغ فى جوفه ما فيها حتى يكون قد ملأ منها عينيه جميعاً . ولو أنك شهدته يرنو لكأسه و يرمقها بمجامع ناظريه و يتوسمها و يتفرس فى قرارتها و يدير الطرف فى نواحيها ، لخيل إليك أنه عاشق وأن معشوقه فيها :

قد أَدمَن النَّظرةَ فى كاسِهِ ⠀⠀⠀ كأنَّ من يهواه فى كاسِهِ
فهْوَ إذا شاء رأتْ عينُه ⠀⠀⠀ ما لا ترى أعينُ جُلّاسه

وقد زعم لنا أبو نواس فى تصويره لما يرد على نفسه من منظر الخمر ، أنها حين تطلع عليه فى كأسها ، يبلغ من شعوره حيالها بما انفردت به من روعة جمالها فى عينه ، أن يتملكه الإشفاق عليها من العين أن تصيبها ، فلا يزال ينفث فيها و يعوذها و يرقيها :

لم تَنظُرِ العَيْنُ إلى منظرٍ ⠀⠀⠀ فى الحسن والظَّرفِ يُدانيها
ما زِلتُ خوفَ العَيْنِ لمّا بدت ⠀⠀⠀ أنفُثُ فى كأسى وأرقيها

وندع هذا الإجمال الزاخر ببدائع الخيال فى نعت منظر الخمر إلى التفصيل ، وهو تفصيل بطبيعته وحكم موضوعه ضافى الذيول ، ولكنه فيما نعتقد قليل الفضول .

ولتكن بداية القول هنا ما قاله الشاعر فى الخمر من حيث تفصيل ألوانها .

والذى اتفق القوم على امتداحه من الأشربة هو الشراب الأحمر . وقد جرى الشعراء منهم على تمثيل لونه بلون الدم . ثم أرادوا إلى التجميل فقالوا دماء ظباء، كأنما هى دماء لا كالدماء . وفى ذلك قول شاعرنا أبى نواس :

ومُزَنَّر قد صَبَّ فى قارورةٍ ⠀⠀⠀ رِيْقَ السَّحابِ على النَّجيعِ القانى[1]

(١) ريق السحاب : ماؤه ، سمى كذلك للمعانه .

كأنها والمِزاجُ يَقرَعُها ... في قمر كأسٍ نجيعُ أجوافِ

كَدَمِ الجوفِ إذا ما ذاقَها ... شاربٌ قَطَّب منهــا وعَبَسْ

نازعتُهُ في الزُّجاج مثلَ دَمِ الـ ... شَّادِنِ تَنفى طوارِقَ الحزَنِ

مثل دَمِ الشَّادِنِ الذَّبيحِ إذا انْـ ... سابَ عَ الأرضِ منهُ أو قَطَرا

فَدمُ الشادنِ الذَّبيح ، وما يَجـ ... ـتَلِبُ السَّاقياتُ منها ، سَواء

على أن الأمر عند شاعرنا كان أقوى من أن يكون تشبيهاً ؛ فلقد ذهب به شعوره القوى الخفى بأن الخمر دم العناقيد الحى ، أن تمنى — فى بعض ماتمنى — لو يكون دمه هو المسفوح دون الخمر ، وأن تكون الخمر فى مهجته وعروقه خلَفاً صالحاً من دمه :

قُلتُ لِدَنٍّ نَجَّ أوداجُه ... ليتَ دَمِي دونَكَ مَسفوحُ[1]
وكنتَ منهُ خلَفاً صالحاً ... فى مُهجتى تحيا بِكَ الرُّوح

ثم كان الشاعر يتمثل الخمر فى حمرتها « ياقوتة » أحياناً ، وأحياناً « عقيقة » ، وتارة « كعين الديك يعلوها احمرار » ، وتارة أخرى « كالعندم القانى » وكالجلنار . وأخيراً كالورد فى قوله :

لا تبكِ ليلى ، ولا تطربْ إلى هِندِ ... واشرَبْ على الورد من حمراءَ كالوَردِ

وقهوةٍ كجَنىِّ الوردِ خالصــةٍ ... قد أذهبَ العتقُ فيها الذَّامَ والرَّنقا[2]

---

(١) نج : سال . (٢) الرنق : الكدرة والقذى فى الماء .

وهذه الخمر الصرف الحمراء ، يدخلها من مزاجها بالماء كيمياء ، فإذا اللون لونان حين تستحيل الحمرة الأصيلة إلى صفرة منقولة :

ولَوْنانِ لونٌ لهــا أحمرٌ ولونٌ على الماء كالعُصفرِ (١)

وحمراءَ قبل المَزْجِ ، صفراءَ بعدَه غدَتْ بين ثَوْبَىْ نرجسٍ وشقائقِ
حَكَتْ حُمرةَ المعشوق صِرفاً ، فسلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتَسَت لونَ عاشق

وقد تنتهي الحال بشاعرنا أن يرى بها الألوان كلها :

أخذَتْ من كُلِّ شيءٍ لونَها فهْىَ فى ناجُودِها قوسُ قزَحْ (٢)

والخمر الحمراء تسمى لحمرتها « الجِرْيال » وهو صبغ أحمر . وتسمى « المدمَّاة » لما تقدم من محاكاتها لون الدم . فإذا كانت حمرتها إلى الكُلْفة سميت « الكُمَيْت » . فإذا اشتدت حمرتها حتى تضرب إلى السواد فهى « الكلفاء » . وإذا قَنَأَتْ حمرتها فهى « الأرجوانية » . فإذا رقَّت قليلاً فكانت فى لون الورد الأحمر فهى « وردة » فإذا رقت كثيراً فلم تر إلا يسيراً فهى « صهباء » . فإن كان بياضها يضرب إلى الزرقة قيل عن شرابها « الأمهق » .

صفراءُ ما تُرِكَتْ ، زرقاءُ ما مُزِجَتْ تسمو بحَظَّيْنِ من حُسنٍ ولألاءِ

وجملة القول أن ألوان الخمر تنتظم جميع الألوان من الحمرة الداكنة التى تشبه أن تكون سواداً ، إلى الصفرة أو الزرقة الباهتة التى تشبه أن تكون بياضاً .

ولشاعرنا نعوت كثيرة فى الخمر الصفراء . فهى تارة الخَلُوق وتارة الزعفران والورس ، ثم بعد هذا كله وقبل هذا كله هى عنده الذهب الذى لا يعدله ذهب :

---

(١) العصفر : صبغ أصفر اللون . (٢) الناجود : إناء الخمر .

يا خاطِبَ القوةِ الصَّهباء يَمهرُها   بالرِّطل يأخُذ منها مِلأه ، ذَهَبا
قصَّرتَ بالرَّاح ، فاحذَرْ أن تُسمِّعَها   فيَحلِفَ الكَرمُ ألاَّ يحمِلَ العِنبا

كأنَّ صُغرَى وكُبرى من فَواقعها   حَصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهبِ

وهى تكسُو كفَّ شاربِها   دَسْتَبانَاتٍ من الذَّهَب

فجاء بِهـــا زَيْنيَّةً ذَهَبيَّةً   فلم نَستَطِـعْ دون السُّجودِ لهـا صَبرا

ذهبيَّةٌ يختالُ فى جَنباتِها   كالدُّرِّ ألَّفهُ نظامُ الفاتِقِ

وكأنَّما الذَّهبُ المَذوبُ بكأسِها   بَحرٌ يَجيشُ بأعيُنِ الحيتانِ

صفراءُ تحكى التِّبرَ ، فى حافاتِها   عُقَدُ الحبابِ كلُؤلُؤٍ مُتبدِّدِ

على أن أحب نعوتها الشعرية إلى الشاعر مجانستها النار . وهى مجانسة جامعة للون والشعاع والحركة جميعاً :

لم يَبقَ لى فى غيرِها لَذَّةٌ   كَرْخيَّةً فى الكأسِ كالنَّارِ

وَخَنْدَرِيسٍ لهـا شُعاعٌ   يَلمعُ فى الكأسِ كالضِّرامِ

صبَّها الشَّادنُ فى كاساتِها   فترامَتْ بِشَرارٍ كالقبَسِ

كأنَّهـا والمِزاجُ يَقرَعُهـا   شِهابُ نارٍ فى الجوِّ يَحتَرِقُ

كأنَّ ناراً بها مُحرَّشةً   نَهابُهـا تارةً ونَغشـاهـا

تَلتَهِبُ الكفُّ من تَلهُّبِها ... وتَحسِرُ العينُ أن تَقصَّاها

وكأنَّ شاربَها لفَرطِ شُعاعِها ... بالَّليلِ يَكرَعُ فى سنا مِقباسِ

لو تَرى الشَّرْبَ حَوْلَها من بعيدٍ ... قلتَ قومٌ من قِرَّةٍ يَصطَلُونا[١]

ومَقرورٍ مَزَجْتُ له شَمولاً ... بماء ، والدُّجى صعبُ الجنابِ

فلمّا أن رفعتُ يدى فلاحتْ ... بوارقُ نُورها بعد اضطِراب

تزاحَفَ ثمّ مدّ يديه يَرجو ... دِفاءً حين جارت بالتهاب[٢]

ولعل أعجب أوصافه لها ، وأذهبَها مع التوهم والخيال ، صورة هذه القافلة يلمح الشاعرُ فى آخر الأفق شبحَها ، وقد أضلَّها فى البادية حلَكُ الليل عن قَصْد السبيل . والشاعر وندمانه يشربون فى الناحية الأخرى على حد العمار . والذى يزعُمه لنا الشاعر فى هذه الأبيات أنه وندمانه كانوا كلما رفعوا كؤوس المدام ليحتسوها ، بدا فى الظلمة شعاعُها كالضرام ، فإذا بالركب السارى يهتدى بها ويقبل نحوهم ميمماً . فإذا هم حسَوْها وأفرغوها فى أجوافهم ، غاب الشعاع فعمى الرّكبُ عن وجهه ، وأقام مكانه ، فإذا عادوا ثانية فأترعوا الكؤوس بالشراب ، عاد أهل السيارة يحثون إليهم الركاب :

وسيّارةٍ ضلَّتْ عن القَصْدِ بعد ما ... بدا دُونهم أُفقٌ من اللَّيلِ مُظلمُ[٣]

فَلاحت لهم منّا على البُعد قَهوةٌ ... كأنَّ سناها ضوءُ نارٍ تَضَرَّم

إذا ما حَسَوْناها أقامُوا مَكانَهم ، ... وإن أُظهِرَت حَثّوا الركابَ ويَمّموا

وهذه الخمر حمراء كانت أو صفراء ، لم يكن يرى الشاعر شعاعَها فى الكأس

---

(١) القرة : البرد . (٢) الدفاء : كل ما يستدفأ به من الثياب وغيرها .
(٣) السيارة : القافلة .

حتى يتمثلها المصباح الوضئ ، أو الكوكب الدرى ، أو الشمس المتوقدة :

قال « ابغنى المِصباحَ » قلتُ له« اتَّئِدْ حَسْبِى وحسبُكَ ضوءها مِصباحا »
فسكَبتُ منها فى الزُّجاجة شَرْبةً كانت لنا حتى الصَّباحِ صباحا

أذكَى مِراجاً ، وساقى القوم يَمزُجُها فلاح فى البيت كالمِصباح مِصباحُ
كِدْنا على علمنا — للشَّكِّ — نسأله « أراحُنا نارُنا ، أم نارُنا الرَّاح ؟ »

فأصبحَتْ فى جَوفِ مُحْدَوْدِبٍ كالكوكبِ الدُّرىِّ فى الحِندسِ

إذا عَبَّ فيها شاربُ القومِ خِلته يُقبِّل فى داجٍ من اللَّيل كَوْكبا

فى كؤوسٍ كأنَّهنَّ نجومٌ جارياتٌ ، بُروجُها أيدينا
طالِعاتٌ مع السُّقاة علينا فإذا ما غرَبْنَ يغرُبْن فينا

بمَشْمولةٍ كالشَّمسِ يَغشاكَ نورُها إذا ما تَبدَّت من نواحِى المشارِقِ

واشرَبِ الخمرَ على تحريمها إنَّما دُنياك دارٌ فانيهْ
من عُقارٍ مَن رآها قال لى : « صِيدَتِ الشَّمسُ لنا فى باطِيَه »[1]

كأنَّما الشَّمسُ فى مَطالِعها تَغْرُبُ فى جَوْفِ مَن تَحَسَّاها

وتطلُعُ شمسُها فى صَحْنِ كأسٍ وتغرُب حين تغربُ فى النَّديمِ

ويبلغ فى عين الشاعر لمعان الخمر فى الكأس وشدة شعاعها أن يمدّ من أجفانه من خوف نورها أن يخطف بصره ويودى بنور إبصاره :

---

(١) الباطية : إناء زجاج للشراب .

تكاد تخطَفُ أبصاراً إذا مُزِجَت … بالماء واجتُلِيَت فى لَونِها الجالى (١)

فكأنَّما أجفانُ شاربِها … مَطرُوفَةٌ بتلألُؤِ النَّجمِ

ترى العينَ تَستَعفيكَ من لَمعَانِها … وتَحسِرُ حتَّى ما تُقِلّ جُفونَها

وقهوةٍ عُتِّقت فى بيت شَمَّاسِ … تفترُّ فى كأسِها عن ضَوءِ مِقباسِ
لو لا مُداراةُ حاسيها إذا اقترَبتْ … من فِيه، لانتَهبتْ من مُقلَةِ الحاسى

عُقارٌ كأنّ البَرْقَ فى لَمعانِها … تَجلّى لأبصارٍ فكادَتْ له تَعْمَى

أشَمساً أعرتَ الكأسَ ، أمْ هى لَمعَةٌ … من البَرْقِ ، أمْ أقبَلْتَ بالكوكبِ السَّعْدِ
مَدَدْتُ لها الأجفانَ من خَوفِ نُورها … على بَصَرٍ قد كاد حين بدَتْ يُودِى

وينتهى الشاعر من وصف الخمر وصفرتها إلى وصف ما يصير إليه الشراب الأصفر حين يمزج بالماء البارد فيرق لونه حتى يبدو أبيض ، أو على أصح القولين لا لون له :

وصفراءُ قبل المَزجِ ، بيضاءُ بعده … كأنّ شُعاعَ الشَّمس يَلقاكَ دُونَها

بلونٍ رقَّ حتى كاد يَخفَى … على عَينى ، وطاب على المَذاقِ

وهذه الخمر فى انعدام اللون والنقاء ، أشبه ما تكون بالماء ، ولكنها حارة كالدمع دمع الحسناء المحزونة المرهاء .

أتى بها قهوة كالمِسك صافيةً … كدمعةٍ مَنَحتْها الخدَّ مَرْهاءُ

(١) الجالى : الظاهر الواضح .

كأنّهـا دمعةٌ فى عين غانيةٍ   مرهاء رقرقها ذِكرُ المُصيبات

كرْخيّةٌ كصفاء دمعٍ مَشُوقةٍ   مرهاء ترغبُ عن سَوادِ الإثْمِدِ[1]

حَنَتْ مُكاتمةً ، فبينَ جُفونِها   رَقراقُ دمعٍ فاض أو فكأنْ قَدِ

وتخافُ تحذِرُه ، فترفَع جفنهـا   فالدَّمعُ بين تحدُّرٍ وتَصَعُّدِ

بل هى عنده أرق من الماء كله فى النقاء ، وأشبه بشفيف الضياء :

رقّتْ عن المـاء حتى ما يُلائمها   لطافةً ، وجفا عن شكلها الماء

فلو مَزَجْتَ بهـا نُوراً لمازَجَها   كما تمازَجُ أنوارٌ وأضـواء

أتتْ دونَها الأوهامُ حتى كأنَّها   تَفَتُّقُ نُورٍ من فُتوقِ سماء

ثورة فى قدح

وكان أبو نواس يحتسى الشراب أحياناً صرفاً غير ممزوج ، ويزعم أن مزج الشراب امتهان له وانتهاك لحرمته وتدنيس لقدسيته :

إسقنى صهباء صرفاً   لم تدنَّس بمزاجِ

بين المُدام وبين المـاء شَحناء   تنقدّ غَيْظاً إذا ما مسَّها الماء

حتى ترَى فى نجوم الماء أعيُنهـا   بيضاً وليس بهـا من علّةٍ داء

توارتْ عن الأبصارِ من عهد آدمٍ   حِذارَ يكونُ الماء يوماً قرينَهـا

وقد سَمِعَتْ أُذْناكَ عند مِزاجها   أنيناً وألحاناً تجيبُ أنينها

فصُنْها عن الماء القَراحِ ، وهاتِها   فإنك إن لم تَسقنى مِتُّ دونهـا

---

(١) الإثمد : ما يكتحل به .

ولكنه لم يكن يطاوع نفسه فى شربها صرفاً وهو الخبير بها و بمبلغ غَولها وسطوتها وشدة أخذها ، وما تحدث من سدرٍ ودوران إذا لم تعالج بالمزاج القليل أو الكثير حتى يفعل فعله فى ذهاب حدّتها وانكسار قوتها . ومن نثر أبى نواس « الخمر شقيقة الروح وصديقة النفس ما ارتُضعت ممزوجة . وصرفها غير مأمون على نهك البدن بعاجل الألم وآجل السقم ، مع غرسٍ وَصَبٍ يؤدى إلى عطب » . ولهذا كان فى أكثر الأحيان يمزجها تخفيفاً لها وتليينا لقسوتها عليه :

أشرَبُها صِرفاً فإنْ هى قَست ... زوَّجْتُها بالماء حتى تَلينْ

هى العَروسُ إذا داريتَ مِزْجَتَها ... وإنْ عَنُفْتَ عليها أختُ شَيْطانِ

وكان أحب منظر إلى أبى نواس منظر الخمر حين يشجها الماء فتثور وتشغب وتعلوها فقاقيع الحبَب وله فى ذلك بدائع أوصاف لا آخر لها :

ترى كأسها عند المِزاج كأنَّما ... نثرتَ عليها حَلْىَ رأسِ عَروسِ

ساعٍ بكأسٍ ، إلى ناشٍ على طَرَبِ ... كلاهُما عَجَبٌ فى منظرٍ عَجَبِ[١]

قامت تُريني ، وأمرُ اللَّيلِ مُجْتمعٌ ... صُبحاً تولَّدَ بين الماء والعِنَب

كأنَّ كُبرى وصُغرى من فواقِعِها ... حَصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهب

كأنَّ تَرْكاً صُفوفاً فى جوانبها ... تُواتِرُ الرَّمىَ بالنشّاب من كَثَب[٢]

كأنّها بزُلال المُزْن إذْ مُزِجت ... شِباكُ درٍّ على دِيباج ياقوتِ

تضحكُ عن لُؤلُؤٍ شَتيتٍ ... ألفَهُ الماء فى نظـــامِ

حتى إذا مُزِجَت بالماء واختلَطت ... حاكَ المِزاجُ لها من لُؤلؤٍ فلَكا

---

(١) ناش : نشوان أى ثمل من السكر . (٢) تواتر : تتابع ، النشاب : السهام .

تَفترّ فى الـكأس ـ حين نمزُجُها بماء مُزنٍ ـ عن دُرِّ أصدافِ (١)
مُنتظماتٍ وغيرِ مُنتظمٍ تغورُ فيها ، وبعضُها طَاف

إذا ما عَلاها الماء خِلتَ حَبابَها تَفارِيقَ درٍّ فى جوانبها شَتّى

ثم شُجَّتْ ، فاستَضحكَتْ عن لآلٍ لو تَجَمَّعنَ فى يدٍ لاقتُنِينا

صفراء تضحك عندالمزج من شَغَبٍ كأنّ أعيُنَها أنصافُ أجْراسِ

كأنّ يواقيتاً رَواكِدَ حولها وزُرقَ سنانيرٍ تُديرِ عُيونَها (٢)

كأنّ أحداقها والماء يقرَعُها فى ساحة الكأس أحداق اليَعاسيبِ (٣)

ثمّ شُجَّتْ فأدارتْ حولَنا مِثلَ العُيونِ (٤)
حَدَقاً ترنُو إلينا لم تُحجَّرْ بِجُفُونِ (٥)

شُجَّتْ فعالَتْ فوقها حَبَباً مُتراصِفاً كتراصُفِ النَّظمِ
ثم انفرَتْ لكَ عن مَدَبٍّ دَبًى عَجلانَ صعَّدَ فى ذُرى أُكُمِ (٦)
وكأنّما يتلو طرائدَها نجمٌ تواترَ فى قفا نَجمِ

حمراء علّقها بالماء شارِبُها نَفتضُّ عُذْرَتها فى بطن رَحْراحِ
ويُثبِتُ الماء فى حافاتها حَبباً كالقَطْرِ يثبُتُ فى حافاتِ ضحضاحِ

تنزُو فواقعها فى وجه شاربها مِثلَ الدَّبى هاجَهُ طَشٌّ بقيعانِ (٧)

---

(١) المزن : السحاب (٢) السنانير : جمع سنور وهو الهر.
(٣) اليعاسيب : جمع يعسوب : ذكر النحل . (٤) شج الشراب بالماء : مزجه .
(٥) أى لا جفون حولها . (٦) المدب : المجرى ؛ يقال مدب السيل ومدب النمل .
الدبى : النمل أو أصغر الجراد . أكم : جمع أكمة وهى التل . (٧) الطش : المطر الضعيف .

ويُبدى لنا من جوفها مَسُّ مزجِها كألسِنةِ الحيّات تبدو من الذُّعرِ

فإذا علاها الماء ألبسها حَبباً كمثل جَلاجِلِ الحِجْلِ (١)
حتى إذا سكنتْ جوامحُها كَتَبتْ بمثل أكارع النَّملِ (٢)
سَطرينْ مِن شتّى ومُجْتَمعٍ غُفْلٍ من الإعجام والشكلِ (٣)

كَتَبَ المزاجُ على مُقَدَّم تاجِها سَطرين مثلَ كِتابة العَشْراء

كأنَّ سُطوراً فوقها حِمْيريَّةً تكاد وإن طال الزّمانُ تبينُ

صفراء سِلْكُ جُمانٍ لُؤلُؤها ألِفَاتُ كاتبِ سيِّدِ الفُرْسِ

وتكتَسى لُؤلُؤاتٍ من تَعَطُّفها - عند المزاج - شبيهاتٍ بواواتِ

كأنَّ منظرَها والماء يَقرَعُها ديباجُ غانيةٍ أو رَقْمُ وشّاء (٤)

كأنها ولسانُ الماء يقرعها نارٌ تأجَّجُ فى آجام قَصْباء
كأنَّ مازِجَها بالماء طوَّقَها مَنزُوعَ جِلْدَةِ ثُعبانٍ وأفعاء
لها مِنَ المَزْج فى كاساتِها حَدَقٌ ترنو إلى شَرْبِها من بَعْدِ إغضاء
تَنزُو فواقعها مِنْها إذا مُزِجَتْ نَزْوَ الجنادِبِ مِن مَرْجٍ وأفياء (٥)
لها ذُيولٌ مِن العِقْيانِ تَتْبَعُها فى الشرق والغَرْب من نُورٍ وظَلْماء (٦)

روائع الجنان

وإذا كان أبو نواس قد بسط القولَ فى منظر الخمر، فجلاها للعين أبدع جلوة لوناً وشعاعاً، وشَغَباً عند المزج وحبَباً، وتصرَّف ما شاء فى التشبيه، وتفنن فى

(١) الحجل : الخلخال . (٢) الأكارع : جمع كراع وهو مادون الكعب .
(٣) أعجم الكتابة : وضع نقطها وحركاتها . (٤) الرقم : التخطيط والوشى .
(٥) الجنادب : ضرب من الجراد . (٦) العقيان : الذهب الخالص .

الغوص على المعانى ، مع صدق الوصف وحسن التخريج ، فإنه لم يغفل لحظةً عن شميمها والتفطن إلى ما يبادر أنفه منها من البَنَّة[1] الطيّبة والعَرف الذكى . فكثر ذكره فى خمرياته لطيب ريحها مع الإشارة الدالة إلى ما تتنفس عنه أنواع الأشربة من صنوف الأرابيح وشتّى الأعطار :

فإذا ما الكؤوسُ دارتْ علينا ... قذفتْ فى أنوفنا بالعبيرِ
كأسٌ من الرّاحِ العتيقِ لريحها ... — قبلَ المذاقةِ — فى الرُّءوسِ سُرُورُ
فجاء بها شعثاءَ مشدودةَ القرا[2] ... على رأسها تاجٌ ، ملاحفُها عُفْرُ
فلمّا توجّى خضرَها ، فاحَ ريحها ... فقلتُ «أذا عطرٌ ؟» فقال «هُوَ العطرُ»
شَيَّعَ ريحُ الوردِ أرواحَها ... وريحها أطيبُ من ريحِهِ
فالرِّيحُ عنبرةٌ ، والطَّعْمُ فُلْفُلَةٌ ... والكأسُ من ذهبٍ ، واللَّوْنُ من نورِ
عَبقتْ أكفُّهُمُ بها فكأنَّما ... يتنازعونَ بها سخابَ قرنفلِ[3]
كأنَّ أكفَّ القومِ والآلةَ التى ... يُديرونَ فيها أمرَها ضُمِّخَتْ مِسْكا
لها من ذكىِّ المسكِ ريحٌ ذكيَّةٌ ... ومن طيبِ ريحِ الزَّعفرانِ نسيمُ

بيد أن شاعرنا أدقُّ شمياً للخمر من أن يقف عند هذه التشابيه بالطيوب والعطور ، فهو يشير فى أكثر من مكان إلى ما يخالط ريح الخمر أحياناً من رائحة أشبه ما تكون برائحة التفاح ، تفاح لبنان :

يُؤْتَى بها كالخَلُوقِ فى قَدَحٍ ... خالطَ ريحُ الخلوقِ تُفَّاحا[4]
تنفّستْ فى وُجوهِ القومِ ضاحِكَةً ... تنفُّسَ المسكِ فى تفليحِ تفَّاحِ
سُلافُ دَنٍّ إذا ما الماءُ خالطَها ... فاحت كما فاحَ تُفاحٌ بِلُبْنانِ

---

(١) البنة : الرائحة . (٢) القرا : الظهر . (٣) السخاب : القلادة .
(٤) الخلوق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

وللشاعر نعتٌ مفردٌ في وصف الخمر ، تجمّع لها منه اللونُ في أبهج زهوته ، والعطر في أذكى سطعته ، وذلك في تسميته لها وتكنيته عنها بـ «ريحانة الكأس» :

يا عَاذِلي ، عن مَلامِ مُرَّ بالياسِ   فلَسْتُ أُقْلعُ عَنْ رَيْحانَةِ الـكَاسِ

شهادة اللسان

ولم يبق بعد هذا التمهيد بالمنظر والرائحة إلا المذاق ، ليشهد اللسان وهو جارحة الذوق والـكلام إن كان قد صدق الخبرَ الخُبْرُ .

صفراء ، زان رُواءها مَخْبُورُها   فلها المُهذَّبُ من ثَناء الحاسى

والشراب من جهة الطعم أقسام كثيرة عند القوم ، فمنه الحلو والعَفْصُ والقابض ومنه الجامع بين الحلاوة والمرارة والقبض جميعاً .

ويتلخص وصف الشاعر لمذاق خمره المستطابة أنها مُزَّة الطعم تحذى اللسان وأن في مذاقها مثل قَرْص الفلفل . ثم هو يشير إلى أنها من غير مزج صعبة محرقة في الحلق ، قد يعبس لها معاقرها وقد تغرغر عينهُ ، على أن الثقيل منها إنما هو القدح الأول ، ثم يكون ما لَحِقَ أطيبَ مما سبق :

مشمولةٌ مُزَّةٌ ، كالمسكِ قَرْقَفَةٌ   تُطيِّرُ الهمَّ عن حَيْزُومِ حَرّانِ [1]

سَلْسالةُ الطَّعم ، إسْفَنْطٌ مُعتَّقةٌ   بشُربِها قيِّمُ الحانوتِ أوْصاني

وأبرزَ بِكراً مُزَّة الطّعم قَرْقَفاً   صَنيعةَ دَهْقانٍ تراخى له العُمُرُ

---

(١) الحيزوم : وسط الصدر .

مِمَّا تخيَّرها التِّجارُ ترى لها طَعماً إذا ذِيقَتْ كَقَرْصِ الفُلْفُلِ

كَدَمِ الجَوْفِ ، إذا ما ذاقها شاربٌ قطَّب منها وعَبَسْ

مِزاجُها دمعُ حاسيها ، فأَىُّ فَتىً لم يَبْكِ إذ ذاقها من حُرقَةِ الكاسِ

سلمٌ ، ولكنَّها حَربٌ لذائقِها يا حبَّذا بأسُها ما كان من باس

ولما كان الشراب يختلف قوامه بين الكثافة والغلاظة و بين اللطافة والرقة ، فقد عُنِيَ شاعرنا بالإشارة إلى ما يستحب :

من شرابٍ أَلَذَّ من نظر المعـ شوقِ فى وجه عاشِقٍ بابتسامِ

لا غَليظٍ تَنبُو الطَّبيعةُ عنه نَبْوَةَ السَّمع عن شنيع الكلام

بِنْت عَشْرٍ صَفَتْ ورقَّتْ فلو صُـ بَّتْ على اللَّيْلِ رَاحَ كلُّ ظَلَام

و إليك بعد هذا وصيته لشاربها :

و إذا شربتَ فكُنْ لها مُتَمَطِّقاً حتَّى تَبَيَّنَ طيِّبَ الطَّعْمِ (١)

وتُمتِّع اللَّهَواتِ منكَ بطيبها والمِنْخَرَيْنِ بِكثرةِ الشَّمِّ (٢)

الفضل للمتأخر

ومعلوم أن جميع هذه المزايا التى يحمدها أصحاب الخمر فى الخمر من منظرٍ ورائحةٍ وطعم يتعلق معظم الفضل فيها بإحكام الاختمار ومبلغ القدم والعتق .

وليس أكثر من تشابيه شاعرنا ومبالغاته فى نعت الخمر بالعتق والقدم . وأوصافه لا تخلو مع وحدة الغرض من تنويع . ونحن نوردها هنا فى نظمٍ منضّدٍ

---

(١) تمطق الطعام : تذوقه . (٢) اللهوات بمعنى الحلوق .

من المبالغة يتعالى طبقاً على طبق ، ثم نتوّجُها جميعاً بآية من آيات شعره فى المعنى نفسه :

كريمةٌ أصغرُ آبائِها إن نُسِبَتْ كِسرى وسابورُ

أدِرْها علينا مُزَّةً بابِلِيَّةً تخيَّرها الجانى على عهد قَيْصرا

فقلت لها : « ياخمرُ ! كم لكِ حِجةً ؟ » فقالت . « سكنتَ الدنَّ دهراً من الدهرِ »

فقلت : لها « كسرى حواكِ ؟ » فعبَّست وقالت : « لقد قصَّرتَ فى قلة الصبر »

سمعتُ بذى القرنين قبل خروجه وأدركت موسى قبل صاحبه الخِضْر »

شهدتُ ثموداً حين حلَّ بها البِلى وأدركتُ أيّاماً لعَمرو بنِ عامرِ

بمدامةٍ ورِثَ الزَّمانُ لُبابَها عن ذى الأوائلِ من أكابرِ عادِ

قهوةٌ لو أنَّهـا نَطقتْ ذكَرَتْ ساماً أبا العَرَبِ

ذخيرةُ نوحٍ فى الزّمان الذى اجْتنى فأَدخَلَها فى الفُلكِ إذ رَكِبَ الفُلْكا(١)

كانت على عهـد نُوحٍ فى سَفينتهِ من حُرِّ شِحْنتِها والأرضُ طُوفانُ(٢)

رأتْ نوحاً وقد شمِطت وشابتْ وقد شهِدت قرونا قبـل نُوحِ

شمطاء تذكُرُ آدَماً مَعْ شِيثهِ وتُخَبِّرُ الأخبـارَ عن حَوّاء

ذُخِرَتْ لآدَمَ قبل خلْقَته فتقدَّمَتـهُ بخَطْوةِ القَبْلِ

---

(١) جاء فى سفر التكوين فى الأصحاح التاسع فى خبر نوح بعد خروجه من الفلك « وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر » . (٢) الشحنة : ما تشحنه السفينة .

إسقنيها سُلافةً سَبَقت خَلق آدما
فَهْىَ كانت ولم يَكُنْ ما خَلا الأرض والسّما
رأتِ الدّهرَ ناشِئاً وكبيراً مُهرّما

تَخُيِّرتْ والنُّجُومُ وَقْفٌ لم يتمكّنْ بها المَدارُ

من عُقارٍ بَلغَتْ فى الـ ـدّنّ أقصى مُستَزادِ
رَضَعتْ والدّهرَ ثَدْياً وتَلتْـه فى الوِلاد

فَهْىَ لليوم الذى بُزِلَتْ وهى تِرْبُ الدّهرِ فى القِدَم
عُتّقت حتّى لو اتّصلتْ بلِســانٍ ناطقٍ وفَم
لاحْتَبَت فى القوم ماثِلةً ثمّ قَصّت قِصّـةَ الأُمم

المحجوبة المخطوبة

والشاعر فى شغفه بالخمر وعكوفه عليها ، ينتهى به الحال أن يخلع عليها الحياة ويتمثلها كائناً حيًّا مدركًا مُحِسًّا ، فهو يزعمها هنا أميرة محبوبة محجوبة :

ثم اصطَبِحْ من أميرةٍ حُجِبَتْ عن كلِّ عَينٍ بالصّونِ والرّصَدِ
لم يَرَها خاطِبٌ فيَمْنَعَهـا ولا دعاه لهـا أخُو فَنَد

وهـذه العروس المخدَّرة من بنات الكروم ، توصف بأنها بكر إذا هى جليت على الشار بين صِرفاً ، فإذا مازجها المـاء لم تعد فى رأى صاحبنا عذراء ، فالمزاج هو الزواج :

وخُذها — إن شربتَ — وَميضَ جمرٍ ... بماء المُزنِ من نُطَفِ الغيوم[1]
فتجعل هذه عِرساً لهذا ... فإنّ القَطرَ بَعلٌ للكُروم

فخذها من بناتِ الكَرْمِ صِرْفاً ... كعينِ الديكِ يعلوها احمِرارُ
شراباً إنْ تُزاوِجْهُ بماء ... تَولَّدَ منهما دُرَرٌ كِبارُ

فقُوما فالقِحَا خمراً بماء ... فإنّ نِتاجَ بينهما السُّرورُ

وقهوةٍ كالعقيقِ صافيةٍ ... يطيرُ من كأسِ لها شَرَرُ
زوَّجتُها الماءَ كى تذِلّ به ... فامتعضَتْ حين مسَّها الذَّكَرُ
كذلك البِكرُ عند جَلوتِها ... يَظهرُ منها الحَياءُ والخَفَرُ

إلهَ عمَّا أنتَ طالبُه ... من جوابِ النُّؤْىِ والطَّلَلِ
ببناتِ الشَّمسِ، لو مَنَعتْ ... نفسَها عن كفِّ مُبتذِلِ
وإذا ما الماءُ واقعَها ، ... أظهرَتْ شَكلاً من الغزَلِ[2]
فإذا ما المرءُ قبَّلها ... أسْكرَتْهُ لَذةُ القُبَلِ

إنّ المزاجَ لَها إلفٌ يُعانِقُها ... وفيه طَعْمٌ يُحاكِى قُبلَةَ الحَاسى

على أن الشاعر يعود للخمر وكأنما أدركته الغيرة ، فيبدل فى التشبيه ويعدّله . فهى كما شاء بِكرٌ عذراء ، الكرم أمها ، وأبوها الماء ، وهو خاطبها . ولا يبرح الشاعر يكرر هذا المعنى كأنما يؤكده :

---

(١) النطف : جمع نطفة وهى الماء الصافى . (٢) الشكل : دلال المرأة وغنجها .

حَطَطَنا على خمَّارها جُنْحَ ليـلةٍ فلاحَ لنا فَجرٌ ، ولم يَطلُعِ الفجرُ
وأبرز بِكراً مُزَّةَ الطَّعم قرْقفاً صَنِيعة دهقانٍ تراخى له العُمر [١]
فقال « عَروسٌ كان ِكسرى رَبيبها معتقةٌ من دونها البابُ والسِّتر »
فقُلتُ « أدِلْ منها العنانَ ، فإنّني لها كُفءُ صِدْقٍ ليس من شِيمَتي الغَدر » [٢]

ابنـــةُ عَشرٍ قال خُطَّابُها « زُفّوا بها لَيلًا إلى المُعْرِسِ »

خَطبنا إلى الدِّهقان بَعْضَ بَناتهِ فزوَّجنا مِنهنَّ فى خِدرهِ الكُبرى
وما زال يُغلى مَهرَها ويَزيدُه إلى أن بَلغنا منه غايتَه القُصْوى
رَحيقٌ أبوها الماء ، والكرمُ أُمها وحاضِنُها حَرُّ الهجير إذا يَحْمى

عقارٌ أبوها الماء ، والكَرْمُ أُمها وفى كأسها تحكى المُلاءَ المُزَعْفَرا

على أن هذه البكر عانسٌ شمطاء ، قد هرِمت من التعتيق فى الدن ، وعلاها من الرغوة مثل الشَّيب . ولكنها حين تندلع من غيابة دنّها إلى الكأس يستجدّ لها عُرامٌ كعرام الشباب وفورة كفورته .

تَفتضُّ بِكراً عَجوزاً زانها ِكبرٌ فى زىٍّ جاريةٍ فى اللّهوِ مِلْحاحِ

فافترَعْنا مُزّةَ الطَّعم ، فيها نزَقُ البِكرِ ولِينُ العَوانِ

أجناس الأشربة

والخمور معروفة للإنسان منذ أقدم العصور . وقد ورد فى أخبار التوراة فى سفر التكوين أن نوحاً بعد خروجه من الفلك (أخذ يفلح الأرض ، وغرس كرماً ،

---

(١) القرقف من أسماء الخمر . (٢) أدل منها العنان : اجعل أمرها إلى .

وشرب من الخمر فسكر) . وقد أدَّى هـذا إلى القول بأن نوحاً أول من غرس الـكرم ، مع أن الخبر لا يمنع أن يكون نوح قد استأنف ما كان معروفاً قبل الطوفان . ولعل هذا هو الذى حدا الدميرى إلى القول بأن أول استنبات الـكرم كان على يد آدم نفسه ، وإلى قولهم إن إبليس أول من عصرها لقابيل وأولاده .

والثابت من نقوش الفراعنة وأقوال المؤرخين الأولين أن قدماء المصريين كانوا يتخذون الخمر من العنب وكان لها عندهم المقام الأول ، وأنهم عرفوا خمر النخل وخمر البلح . ويروى العالم الطبيعى الرومانى بلينى الأكبر اتخاذهم نوعاً من الخمر من نبات المُخَيِّط ، ثم استحداثهم خمر الرمَّان ، وهذا فضلاً عن شيوع الجعَة من الشعير بين العامة .

كذلك عرف العرب منذ جاهليتهم الأولى أجناساً من الخمر : الصهباء من العنب ، والنبيذ من الزبيب ، والفَضيخ من البُسر ، والسَّكَر من التمر ، والقِنْديد من القَنْد ، والبِتْع من العسل ، والجعة من الشعير ، والسُّكُركَة والمِزْرة من الذرة . والمأثور عن مواطن الأشربة فى الدولة الإسلامية أن الصهباء خمر فارس والطائف ، والفضيخ فى المدينة ، والبتع فى اليمن ، والسكركة فى الحبشة .

وقد عرض أبو نواس لمعظم هذه الأجناس ولم يقصر شعره كله على خمر العنب ومن إشاراته إلى الخمر المتخذة من البلح والعسل والزبيب قوله :

لنـا خمرٌ ، وليس بخمر نخلٍ ولـكن من نتاج الباسقاتِ

ليستْ إلى النَّخْلِ والأعنابِ نِسبتُها لـكنْ إلى العَسَلِ الماذِيِّ والماء

تركتُ الطِّلا ، أولستُ أقرَبُ شُربَه وما راحتى فى أن أُسَرَّ الأعادِيا

أخو الخمرِ من عُنقودِها ، غير أنهم إذا قطعوه جَفّفوه لياليـــا

على أن شاعرنا الخِمِّير أعرف بالأشربة وأخبر بحال كل شراب ومزيته من أن يعدل بخمر العنب شيئاً :

ليست كمثلِ نبيذِ التَّمر أو عَسَلٍ أو الزَّبيبِ — من المُسْتكْنَه القانى

الكرمة المكرمة

وما برحت الكرمة الشجرة المكرمة منذ القدم . وقد ذهب قدماء المصريين فى تمجيد الكرمة إلى أن أوزيريس أول من التفت إلى شجرتها وعنى بثمرتها ، وأنه أول من استنبط عصرها ولقن الناس الطريقة التى درجوا عليها ، كما علَّمهم استنبات الكرمة وتعهدها . وكذلك كان شأن الإغريق والرومان ، فقد جعلوا فضل اتخاذ الخمرمن الكرم للإله باخوس، ولولا كرامة الخمرعند القوم ما اتخذوها زلفى يتقربون بها على مذابح أربابهم .

ويظهر تكريم هذه الشجرة عند العرب من هذا التأنق فى صفتهم لها : « فهى الشريفة العنصر ، تضحك عن ثمرحلوالمخبر ، كأنه شماريخ الجوهر ، وكبائس الشذر المعنبر . استخرجته الأيام ، من الغمام . ونقلته الأزمان ، إلى ضمائر الأغصان . فصار غذاء يراه العيان ، بعد أن كان هواء خفىّ المكان . ثم عاد ماء لطيف المنظر ، جميل المصوَّر ، كالزعفران ، وكعصارة المرجان » .

وليست تخلو الأساطير التى نقلها العرب — وهى فى كل أمة ترجمانها الصادق ولسان حالها الناطق — من الإشادة بالكرمة والتعظيم لشأنها . ومن ذلك ما يروونه عن أول عهد السريان بزراعة الكرم . والقراء لا شك يذكرون فيما طالعوه من تواريخ الأولين أن العنب كان من أهم غلَّات سوريا القديمة ، ومن أجلِّ

مرافقها الأولى ، وأن خمره كانت من المتاجر الرابحة التي كان يحملها الفينيقيون إلى الآفاق . و إلى القارئ الأسطورة كما يرويها المسعودى فى مروج الذهب فى كلامه عن الملوك السريانيين ، قال :

[ثم ملك بعد ذلك آزور وخلنجاس ، و يقال إنهما كانا أخوين ، فأحسنا السيرة وتعاضدا على الملك . و يقال إن أحد هذين الملكين كان ذات يوم جالساً إذ نظر فى أعلى قصره إلى طائر كان قد فرّخ هنالك وهو يضرب بجناحيه و يصيح، فتأمل الملك ذلك ، فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر . فدعا الملك بقوس ، فرمى به الحية فصرعها ، وسلمت الفراخ . وجاء الطائر بعد هنيهة فصفق بجناحيه ، وفى منقاره حبة وفى مخالبه حبتان ووازى الملك فألقى ما كان فى منقاره ومخاليبه ، والملك يرمقه . فوقع الحب بين يدى الملك ، فتأمله وقال : « لأمرٍ ما ألقى هذا الطائر ما ألقى . لا شك أنه أراد مكافأتنا على ما فعلنا به » . فأخذها ولم يعرف مثلها فى إقليمه . فقال له حكيم من جلسائه لما نظر إلى حيرته فى الحب : « أيها الملك ! ينبغى أن يودع هذا النبات أرحام الأرض ، فإنها تخرج كُنه ما فيه ، و يوقف على الغاية منه ، وأداء ما فى مخزونه ومكنونه » . فدعا بالأكَرَة[1] ، وأمرهم بزراعة الحب ومراعاة ما يكون فيه . فزرع وأقبل يلتف بالشجر ، ثم حصرم وأعنب . وهم يرمقونه والملك يراعيه ، إلى أن تناهى فى البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً . فأمر الملك بعصر مائه وأن يودع الآنية بعد إفراد الحب منه ، ومنه ما ترك على حالته . فلما صار فى الآنية عصيراً ، وقذف بالزبد ، وفاحت له روائح عبقة ، قال الملك : « علىّ بشيخ كبير فان » . فأتى به . فجعل له من ذلك فى إناء ، فرأى لوناً ياقوتياً أحمر شعاعياً، ومنظراً كاملا

---

(١) الأكرة : جمع أكار وهو الحراث .

عجيباً . ثم سقوه الشيخ . فما شرب ثلاثاً حتى صال ، وأرخى من مئزره الفضول ، وصفق بيديه وحرك رأسه وأوقع برجليه على الأرض ، وطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك : « هذا الشراب يذهب بالعقل ، وأخلق به أن يكون قاتلاً . ألا ترون الشيخ كيف عاد إلى حال الصبا ، وسلطان الدم ، وقوة الزيادة والشباب ؟ ». ثم أمر الملك به فرُقِد . فسكن الشيخ ونام . فقال الملك : « هلك » . ثم إن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال : لقد شربته فكشف عنى الغموم ، وأزال عن ساحتى الأحزان ، وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف » . فقال الملك : « هذا أشرف شراب الرجال » . وذلك أنه رأى الشيخ قد حسن لونه ، وانبسط فى نفسه ، وطرب فى حالِ طبيعية الحزن وسلطان البلغم ، وجاد هضمه ، وجاءه النوم ، واعترته أريحية . وأمر الملك أن يكثر من غرس الكرم . فكثر الغرس للكرم . وأمر بمنع العامة من ذلك ، وقال : « هذا شراب الملوك . وأنا كنت السبب فى كونه ، فلا يشرب به غيرى » فاستعمله الملك بقية أيامه . ثم نما فى أيدى الناس فاستعملوه] .

و بديهى أن يكون أبو نواس أشد هؤلاء أجمعين تكريماً للكرمة وتعظيما لشأنها. و إننا لنراه حين يذكرها ، يهون عليه كل شىء فى الدنيا إلى جانبها :

مالى ودارًا دَرَسَتْ إستَوْحَشَتْ أم أنِسَتْ
وما ادِّكارى دِمَنًا وَسْطَ عِراصٍ رُمست[1]
وأتركُ الكَرمةَ لا أبكى لهــا إذ يَبِسَت
لو أنَّ عيناً عَمِيَت من البُــكا فانْطَمَست
لانطمسَتْ عَينى على آثار كرَمٍ دَرَسَت

---

(١) الدمن : آثار الديار . العراص : جمع عرصة ، ساحة الدار .

لو طار قَلبٌ فَرَحاً أو أنَّ نَفساً خُلِسَت
لَطارَ قلبى إذ رأى عِيدانَ كرمٍ غُرِست
لأنَّها من نِعَمِ الدُّ نيا إذا ما أُسِّست
ونِعْمَ كَنْزُ المُقْتَنِى الـ راحُ إذا ما التُمِسَت

الحلال والحرام

ولقد وردت فى القرآن الكريم فى شأن الخمر آيات أربع . فأول ما نزل فيها بمكة « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » ، فكان المسلمون يشربونها يومئذ وهى حلال لهم . ثم كان ما دعا عمر بن الخطاب ونفراً من الأنصار أن يتقدموا إلى النبى عليه الصلاة والسلام يسألونه الفتوى فى الخمر والميسر فإنهما للعقل مَذْهبةٌ وللمال مَسْلَبةٌ ، فنزلت الآية « ويسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما» . فترك الخمر قومٌ للإثم الكبير، وشربها قومٌ لما فيها من منافع للناس . ثم كان أن صنع كبير من أكابر الصحابة ، عبد الرحمن بن عوف ، طعاماً ، فدعا ناساً من أصحاب النبى ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا ، وحضرت صلاة المغرب فقدّموا بعضهم ليصلى بهم، فعرضت له من السكر سقطة فى القراءة ، فنزلت الآية بتحريم السكر فى أوقات الصلاة : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » . فرأى قوم أنه لا خير فى شىء يحول بينهم و بين الصلاة فتركوا الخمر إطلاقاً ، ومضى قوم على شربها فى غير وقت الصلاة . ولكنه لم يلبث أن تكررت الملاحاة والمنازعة بين نفر من المسلمين فى حال السكر ، وذلك لما يتولد عن السكر عادة من اهتياج الحس وارتفاع السيطرة عن حركات النفس ، وكادت أن تقع العداوة والبغضاء بينهم وتحل التفرقة فى صفوفهم ، فنزلت الآية « يأيها الذين آمنوا

إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . وكان نزول آية التحريم بالمدينة فى شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة ، وقيل بعد غزوة الأحزاب بأيام فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة .

وقد روى أنس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه أنه كان ساقى القوم يوم حرّمت الخمر فى بيت زوج أمه أبى طلحة زيد الأنصارى — ولم يكن شرابهم إلا الفضيخ من البسر والتمر — فإذا مناد ينادى . فقال أبو طلحة : « أخرج فانظر » فخرج أنس ، فإذا مناد ينادى « إلا إن الخمر قد حرمت » ، فأخرج الناس الحِباب[1] إلى الطريق فصبّوا ما فيها . ومنهم من كسر حُبَّه ، ومنهم من غسله بالطين والماء لتطهيره . ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حيناً كأنما مُطرت ، وقد استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقد جاء فى الحديث النبوى « الخمر من هاتين الشجرتين: الكرمة والنخلة» . ومن ثمة استقر الناس على أن الخمر المحرمة هى الشراب المتخمر المتخذ من عصير العنب بعد أن يغلى ويقذف الزبد من غير أن تمسه نار ، وكذلك المتخذ من التمر . ويزعم بعضهم أن أولهما هو المحرم بالكتاب والآخر بالسنة .

ثم حدث على أثر ذلك فى أيام الصحابة أن بعض المسلمين أخذوا بحرف الحديث الشريف ، فعدلوا عن خمر « هاتين الشجرتين » إلى غيرهما مما يتخذ من العسل والحبوب . فقام عمر بين الناس يخطبهم على منبر النبى فيقول : « أما بعد ،

---

(١) الحباب : جمع حب وهو الجرة الضخمة .

أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر . وهى من خمسة : من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير » .

وهكذا وقع الاختلاف منذ عهد الصحابة فى مدلول الخمر ، وما زال يتسع فى عهد الخلفاء الأمويين حتى بلغ مداه فى عصر العباسيين .

ولكنه لم يبلغ أحد من الاجتراء فى هذا الشأن ما بلغه بعض المعتزلة حين تركوا التفاصيل لمن شاء الاختلاف فيها ، وتمرّضوا للأصل بالتأويل . فذهبوا فى تفسير الآية الكريمة إلى أنها غير داعية للتحريم ، فقالوا إن الخمر ليست محرمة ، وإنما نهى الله عن شربها تأديباً ، كما أنه أمر فى الكتاب بأشياء ونهى فيه عن أشياء على جهة التأديب . واحتجاجهم أن الله لو أراد تحريم الخمر لقال « حرمت عليكم الخمر » كما قال « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » .

على أن هذه المقالة لم تخرج عن أنها دعوى جريئة لم يُلتفت إليها . فالتحريم عند عامة المسلمين مسلَّم به مفروغ منه . وإنما كان الاختلاف بين الفقهاء واقعاً على مدلول الخمر ، وكيفية ما يحل منها وما يحرم . فالمتشددون من ذوى الغيرة على الدين مجمعون على أن التحريم جاء على وجه التعميم ويروون فى ذلك أحاديث للنبى منها « كل مسكر خمر . وكل مسكر حرام » ومنها « ما أسكر كثيره فقليله حرام » ومنها « ما أسكر منه الفرق[1] ، فالحسوة منه حرام » وغيرها وغيرها مع أخبار يطول الكلام باستقصائها ، إلا أن ما ذكرناه أغلظها فى التحريم وأبعدها من حيلة المتأول . ويتلخص احتجاج أهل الرخصة والسماح منهم فى أن لفظ الخمر مقصور على عصير العنب فلا يدخل فى الحرمة غيرها من الأشربة ، ويزعم

(١) الفرق أكبر المكاييل عند العرب وهو ستة عشر رطلا .

بعضهم أن المحرم من الأشربة بالسنّة فيه فسحة كالقليل من الديباج والحرير ، ويروون فى ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « حرمت الخمرة بعينها ، والمسكر من كل شراب » . وقد ذهب فريق إلى أن موجب التحريم للخمر المنصوص عليها فى الكتاب هو السكر ، ويستدلون على ذلك بأن آية التحريم تنص على ما يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذلك يكون فى الشراب الكثير دون القليل .

ويحسن التنبيه فى هـذا الموضع إلى أن الاختلاف بين الفقهاء هنا لا يرجع بطبيعة الحال إلى استيلاء شهوة الشراب على فريق وفقدانها عند فريق ، وإنما هو اختلاف فقهىّ مرجعه إلى منهج البحث . فأهل الحديث ، وعلى رأسهم مالك ابن أنس ، يعتمدون فى استنباط الأحكام الشرعية على الأحاديث النبوية الواردة على ألسنة الرواة وهم كثيرون فى المدينة حيث كان مولد الإمام مالك ووفاته . وأما أهل الرأى ، وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان ، فلا يعتمدون جميع الأقوال المنسوبة إلى النبى ، ولعل ذلك لقلة رواة الحديث فى العراق وضعف مكانتهم . وقد بلغ من تشديد أبى حنيفة فى شروط الرواية أن لم يسلم عنده من الأحاديث على كثرتها سوى سبعة عشر حديثاً . فلا جرم يكون مرجع هؤلاء فى استنباط الأحكام الشرعية إلى القياس المنطقى والدليل العقلى . وإذا عرفنا هـذا فقد عرفنا أن المتشددين فى الشراب هم لا محالة من أهل الحديث ومذهبهم الغالب على الحجاز ، وأن المترخصين فى الشراب هم من أهل الرأى ومذهبهم الغالب على العراق .

وفى ذلك قول القائل « إنما حرم النبيذ أهل الحرمين وأطلقوا الغناء ، وأطلق فقهاء العراق النبيذ وحرموا الغناء ، فنحن نأخذ من الأمرين رخصتى الفريقين حتى يجتمعوا على تحريمهما » .

وإلى ذلك يشير بعض الشعراء فى قوله :

إسقنى ما تمجُّ سُحْمُ الزِّقاقِ   وافْرِ تَمْعى مَثانِىَ الحُذّاقِ
رأيُنا فى السَّماعِ رأىٌ حِجازىٌّ ، وفى الشُّربِ رأىُ أهلِ العراق

وقد ذهب ابن الرومى إلى أبعد من ذلك فى قوله :

أباح العراقىُّ النبيذ وشربَه   وقال «حَرامانِ : المُدامةُ والسُّكرُ»
وقال الحجازىُّ « الشَّرابانِ واحدٌ »   فَحلٌّ لنا من بين قولهما الخمر

والقارىُ لاحتجاجات المحرِّمين للنبيذ والمُحلين له لا يملك نفسه فى حالتى الموافقة والمخالفة من الإقبال على متابعة ما يأتون به من دقائق المعانى وفنون التخريج . ونضرب مثلا على ذلك نظرية التحريم لعلة الإسكار . فهذه النظرية يصدر عنها المحرمون للنبيذ ، فيقولون إن العلة التى لها حرّمت الخمر من الإسكار والصد عن ذكر الله وعن الصلاة قائمة بعينها فى النبيذ كله ، فسبيله سبيل الخمر لا فرق بينهما . فيجيبهم المحلون للنبيذ أن الخمر حرمها الله تعبداً لا لعلة الإسكار ولا لأنها رجسٌ بالمعنى الذى تأولتم ، ولو كان ذلك كذلك لما أحلهاَ الله للأنبياء المتقدّمين والأمم السالفين ، ولا شَرِبَها أصحاب محمد صلواتُ الله عليه فى صدر الإسلام قبل التحريم . وإنما جعلها الله رجساً بالتحريم ، كما جعل السِّفَاح معصيةً بالتحريم كذلك ، وإنما هو جِماعٌ كجماع النكاح ، وهو عن تراضٍ وبَذْلٍ كما أن النكاح عن تراضٍ وبذل ، وقد يُبذَل فى السِّفاح ما لا يُبذل فى النكاح . فالله تعالى حرّم ما حرم تعبدًا ، ومن ثمة لا يتناول تحريم الخمر غيرها من الأشربة .

وهذه النظرية نفسها — نظرية التحريم لعلة الإسكار — يصدر عنها المحلون للنبيذ فيقولون : السكر حرام ، فما كان دون سكرٍ وبعيداً منه فما عليه حظرٌ ولا حجر . فيجيبهم المحرمون : ليس بين شارب المسكر وموافقة السكر حدٌّ

ينتهى إليه ويوقف عنده . فما يعلم شارب المسكر متى يسكر، كما لا يعلم الناس متى يرقد . وقد يشرب الرجل من الشراب المسكر قدحين وثلاثة أقداح ولا يسكر ، ويشرب منه غيره قدحاً واحداً فيسكر . بل إنه قد يختلف طبع الرجل فى نفسه فيسكر مرة من القدحين ، ويشرب مرة أخرى ثلاثة أقداح فلا يسكر .

أما شاعرنا أبو نواس فلم يكن يعنيه من هذه الاحتجاجات شىء . وما عساه يُدخله فيها ، ولا نفع له من سائر تراخيصها وفتاويها ! فالرجل لا يلذ إلا الخمر ، خمر العنب الذى انعقد إجماع المسلمين على أنها محرمة :

يا صاحبَ الحانوتِ لا تَكُ مُشْفِقاً إنَّ الشَّراب مُحَرَّمٌ كَمُحَلَّلِ
فدعِ الَّتى نَبَذَت يداكَ ، وعاطِنى ـ لله درُّكَ ـ من عَصيرِ الأرجُلِ

لا تسقِنى الدَّهرَ ـ إمَّا كنتَ لى سَكَناً ـ إلَّا التى نَصَّ بالتَّحريم جبْريلُ
إن كان حرَّمها الفُرقانُ بَعدُ ، فقد أحلّها قبلُ توراةٌ وإنجيل

فخُذْها إن أردتَ لذيذَ عيشٍ ولا تَعدِلْ ـــ خليلىَ ـــ بالمدامِ
فإن قالوا« حَرامٌ» قُلْ « حَرامٌ ، ولكن اللّذاذةَ فى الحرام »

هذا من جهة الكيف . أما جهة الكم فهو لا يشرب حين يشرب إلا بالقدح الكبير ، ويشرب أرطالا بعد أرطال ، ولا يعرف حدًّا للشرب دون السكر :

طربتُ إلى الصَّنج والمزهَرِ وشُربِ المُدامةِ بالأَكبرِ

نَشربُها فى الكِبارِ صِرفاً وليس فى شُربِنا مِطالُ

إسقنى ـ إن سقيتَنى ـ بالكَبيرِ إنَّ فى السُّكرِ لى تَمامَ السُّرورِ

إنَّ شُرْبَ الصَّغير صُغرٌ وعَجزٌ   فاجعلِ الدَّورَ كله بالكَبير

لا تُطلِع الشَّمسُ المُنيرةُ ضوءها   إلَّا وأنتَ فَضيحةٌ فى الدَّار

وصاحبنا لا يغالط نفسه فى أمر الخمر، فهو مقرٌّ بما نزل فى تحريمها . وإنه ليكاد ينظر لهذا كأنما هو المعنىّ به لبلائه وشقوته ، فتراه يبكى ويندب حظه ، ويمضى مع ذلك فى شربها ، فما له قدرة على تركها :

بكيتُ ، وما أبكى على دِمَنٍ قَفْرِ   وما بِىَ من عِشْقٍ فأبكى من الهَجْرِ

ولكنْ حديثٌ جاءنا عن نبيِّنا   فذاكَ الَّذى أجْرَى دموعى على النَّحْر

بِتَحْريم شُربِ الخمر والنَّهىِ جاءنا   فلمَّا نَهىَ عنها بَكَيْتُ على الخمر

فَأَشربُهــا صِرْفاً ، وأَعلَمُ أنَّنى   أُعَزَّرُ فيهــا بالثمانين فى ظَهْرى (١)

وإذا نحن ذكرنا أن الحد فى الخمر على أيامه لم يكن على مجرد الشرب وإنما كان على السكر ، وإذا ذكرنا فوق ذلك أن السكر الذى يجب فيه الحد — على حكم قاضى القضاة فى عهد الرشيد — ألا يعرف الإنسان سماء ولا أرضاً ، فإننا ندرك مقدار الخمر الذى كان يعبّه صاحب هذا الشعر حتى يتعرّض للحد .

ثم إن التعرض للحد على السكر ليس غاية ما يعاقب به صاحب الخمر . فالذى أعده الله تعالى لمن عصاه فيها أنكى وأمر . ولكن شاعرنا السكير كان لا يملك إلا أن يعاقرها مع كامل يقينه بما يحمله فيها من عظيم الوزر :

الرَّاحُ شىءٌ عجيبٌ أنت شاربُهُ   فاشربْ وإن حمَّلتكَ الرَّاحُ أوْزارا

يا مَنْ يَلومُ على حَمراءَ صافيةٍ   صِرْ فى الجِنانِ ودعنى أسكُن النَّارا

فالرجل مستهتر فيها مُصرٌّ عليها ، لا كفراً منه وتحدياً ، ولكنه منجذب إليها

---

(١) التعزير : اللوم والتأديب والضرب الشديد .

بطبيعته ، ممتزج ماؤها بطينته ، لم يُضمر لشىء ما يضمره لها من حب ، وكل همه أن يشربها مع الندامى من أمثاله وحسب :

أَلَا لا تَلُمْنِى فى العُقارِ جَليسى ولا تَلْحَنى - فى شُربِها - بِعُبوسِ
لقد بَسَطَ الرَّحمنُ مِنى مَوَدَّةً إليها ، ومن قومٍ لدىَّ جُلوس

وأنه فى عجزه عن تركها ليكاد يعتقد عقيدة الجبر فى شربه لها :

أذاقَنِى الصَّدَّ سُوءُ تدبيرى لأنَّ قصدى بغير تَقْديرى
ذاكَ لِأَنِّى فتًى لَهِجْتُ بما يَخلُص فى خالص القواريرِ

ولكنه كان فى إصراره هذا على شربها واستهتاره بها يعتمد على أنه مؤمن وأن الإيمان يكفى فيه — على قول المرجئة — التصديق بالقلب ، وأن الله يغفر الكبائر جميعها إلا الكفر :

تَرَىَ عندنا ما يَكرَهُ اللهُ كُلَّه سوى الشِّرْكِ بالرَّحمن رَبٍّ المَشاعِرِ

تَرَى عندنا ما يُسخطُ الله كله من العَمَلِ المُرْدى الفَتَى ماخَلَا الشِّركا

وَثِقْتُ بعَفوِ الله عن كلِّ مُسلمٍ فلستُ عن الصَّهباء ما عِشْتُ مُقْصِرا

غادِ المُدامَ وإن كانتْ مُحرَّمةً فللكبائرِ عند اللهِ غُفْرانُ

ولقد كان أبو نواس مبغضاً لمن يقول بغير ذلك ، حتى لينبذ مودته وينزع يده من يده ، ولو كان آثر الناس عنده وأقربهم مودة إلى قلبه . ونذكر من ذلك أنه قد صحب فى صباه أبا إسحق إبرهيم النظّام ثم افترقا حيناً ، فلما التقيا بعدها كان النظام قد اعتقد مذاهب المعتزلة وصار على رأس فرقة من فرقهم ، فصار يدعوه إلى ما ذهبوا إليه من القول بعموم الوعيد ، وصار ينهاه عن أفعاله ، ويقول له إن الكبائر مخلدات فى النار . ولم يزل يزعم له أن

مذهب المعتزلة هو الحق حتى ضاق به أبو نواس وفارقه ، ثم هجاه معرّضاً به و بعلمه ، وهو من العلم فى المنزلة التى يقول عنها الجاحظ المعتزلى « الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له . فإن صح ذلك ، فأبو إسحق من أولئك » . ومن تعريض أبى نواس به قوله فى إحدى خمرياته :

دَعْ عنكَ لومِي ، فإنّ اللّومَ إغراءُ وداوِني بالّتي كانت هِيَ الدّاءُ
وقل لِمَن يدّعي في العِلمِ فَلْسفةً « حَفِظتَ شيئاً ، وغابتْ عنكَ أشياءُ
لا تَحظُرِ العَفْوَ إن كُنتَ امرأً حَرِجاً فإنّ حَظْرَكَهُ بالدِّينِ إزْراءُ

فشاعرنا الخليع كان مطمئن النفس إلى أنه مهما يكن من تركه للفرائض وشربه وفسوقه ، فإن هذه المعاصى جميعاً غير مخلِّدات له فى النار ، إذ لا يكون خلود فى النار لغير الكفار . وفوق ذلك كان شاعرنا الخليع شديد الاطمئنان إلى حلم العزيز الجبار ، عظيم الرجاء فى عفوه وحسن مغفرته ورحمته التى وسعت كل شىء.

والشواهد على ذلك كثيرة فى أخباره . منها حديث الأمير أبى العباس بن محمد معه . فقد كان الأمير يتشوق أبا نواس و يميل إليه . فلما رآه وسمع منه ورأى ظرفه وكماله ، أقبل عليه وقال: « يا أبا علىّ! أريد أن أقول لك شيئاً فأستحييك ، وأستحى من نفسى فى ترك نصحك . وقد بلغنى أنك مُكبٌّ على المعاصى، مشتهر بالقبائح والمجون » . فقال أبو نواس : « أيها الأمير ! أما المجون فكل أحد يقدر أن يَمْجُن ، و إنما المجون ظرف ، ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره . أما المعاصى فإنى أثق فيها بعفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أن السندى يقول ما قال الله عز وجل لوثقتُ به ، فكيف بقول رب العالمين وهو يقول : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تَقْنَطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

ومما يروونه كذلك أنه كان مع شَرْبٍ يشربون نبيذاً ، وهو يشرب خمراً ، فدعوه إلى ما يشربون ، وخوّفوه الله عز وجل . فقال :

رُدَّا عليَّ الكأسَ ، إنكما لا تَدْريان الكأسَ ما تُجْدِي

لو ذُقْتُما ما ذُقتُ ما امْتزجتْ إلاَّ بدمعكما من الوَجْد

إن كُنتُما لا تشربان مَعى خَوْفَ العقابِ شربتُها وَحدى

خَوّفتُمانى اللهَ ربكما وَكَخِيفَتِيهِ رَجاؤُه عِندى

والشواهد فى أشعار أبى نواس أكثر من أن نحصيها هنا ، فنجتزىءُ بقوله :

اترُكِ التَّقصيرَ فى الشُّر بِ وخُذْها بنَشاطِ

من كمَيْتٍ كسَنا البَرْ قِ أضاءتْ فى البواطى

لِمْ — وعَفوُ الله مبذو لٌ غَداً عِند الصِّراطِ —

خُلِق الغُفرانُ ، إلاَّ لامرىء فى النَّاس خاطى !

يا كبيرَ الذَّنب ، عَفْوُ الله من ذَنبكَ أكْبرْ

أعْظَمُ الأشياء فى أصْغَر عَفو اللهِ يَصْغُرُ

النبيذ والخمر المطبوخة

ونقف هنا لحظة عن متابعة الكلام فى الخمر ابنة الكرم ، لنقول كلمة عن النبيذ والخمر المطبوخة ، وهما اللذان اختلف الفقهاء فيهما تحريماً وتحليلا .

النبيذ لفظ عربى كالمنبوذ بمعنى المتروك غير المعصور . وهو كل ما انتبذ فى الأوعية المتينة فاشتد حتى يُسكر كثيره . وما لم يشتد فلا يسمى نبيذاً . وعلى الجملة هو كل شراب مسكر سوى الخمر .

وأقرب الأنبذة إلى الخمر المتخذ من الزبيب ثم التمر ثم العسل ، وما عداها عند القوم ردىء .

فأما نبيذ الزبيب ، فمنه النىء وهو النقيع ، ولا يشتد ولا يجود إلا بالضرب الوجيع . ومنه المطبوخ ، وصناعته عند المتقدمين أن ينقع الزبيب فى عشرة أمثاله ماء مدة يوم ، ثم يطبخ حتى يذهب النصف ، وبعدها يعصر ويصفى ، ويعاد طبخه حتى يبقى ثلثه ، ثم يوضع فى الجرار المزفتات مسدوداً ستة أشهر فما دون . ومن أجناسه ما يسمونه رزين الأهواز من زبيب الداقياذ ، وهو من غير أن يسيل سُلافه أو يماط عنه ثفله يعود كلون العقيق ، فى رائحة المسك الفتيق ، وهو أصلب الأنبذة عريكة وأشدها خشونة .

ويجىء بعد ذلك النبيذ المتخذ من ثمر النخل ، ومنه السَّكَر من التمر ، ومنه الفضيخ ويتخذ شرابه من البسر والرطب كليهما من غير أن تمسه نار ، وصناعته أن يؤخذ العذق وهو نصفان بسرٌ ورُطَب ، فيخرج منه الرطب فيلقى فى الدن ويؤخذ البسر فيشدخ فى المناحيز[1] ثم يطرح مع الرُّطب لم ينزع له نوى ولا قِمَع ، ويصبّ عليهما الماء ويتركا حتى يغليا فيه . ومنه الغربىّ وهو ما اتخذ من الرطب وحده . ومنه الدوشاب البستانى من الرطب الجنى بالحب الرتيلى ، وهو إذا أُوجع ضرباً وأطيل حبساً فى الدن أعطى صَفْوه ، فإذا كشف عنه قناع الطين ظهر فى لون الشقر والكمت وسطع برائحة كالمسك .

وأخيراً نبيذ العسل وصناعته أن يصفّق بالماء ويوضع على النار حتى يغلى ، فتنزع رغوته ويودع بعدها الجرار المقيرة المسدودة ، ويسمى البتع .

وأما الأنبذة الأخرى فلا نعرض لها بتفصيل لعدم احتفال القوم بها وقلة

---

(١) المناحيز : جمع منحاز وهو الهاون .

لهجهم بشربها ، و بعضها من الثمار كأنبذة الكِشْمِش والتين والجزر ، و بعضها من الحبوب كالمزرة والسكركه من الذرة والفقّاع ، والجعة من الشعير .

وقد كان أبونواس لا يشرب النبيذ إذا الخمر أمكنت . وفى الخمر أبدع مدائحه وأبرعها ، وكأنما كان يخشى إن هو قصر فى مدحها ولم يؤدِّ شكرها أن تحرمه دِرّتها ، فلا يبقى له غير النبيذ يشربه :

غَضِبتْ عليكَ ذخيرةُ الخمّارِ لمّا بها شبّهْت فى الأشمارِ
قالتْ « يُشَبِّهُنى بنارٍ أُجِّجَتْ تَخبُو إذا نُضِحَتْ بماء حار
وأنا التى أزدادُ حسناً كلّما لاحَ المزاجُ ككوكبِ الأسحار
فلَئن لَجَجْتَ لَأحْرِمَنَّكَ دِرّتى حتى تجرّعَ قهوةَ التَّمّار »

وفى مثل هذا المعنى قوله :

فاشرَبنْها مُزّةً — تذْ هَبُ بالهمِّ — عُقارا
واصرِفَنْها عن أبى أيُّـ وبَ ، إذْ تاهَ فخارا
باعَ راحاً بنبيذٍ هكذا ، بَيعاً خسارا
مِثلَ مُبتاعٍ بِطِرْفٍ ، سبقَ الخيلَ ، حِمارا

وعلى أن هذه الزراية بالنبيذ لا تعدّ شيئاً إلى جنب كراهته الشديدة للخمر المطبوخة . وقد كان الطبخ وسيلة القوم لاستباحة الخمر المجمع على تحريمها وهى المتخذة من عصير العنب . وفى ذلك يقول الجاحظ : (قد يكون الشىء من جنس الحرام ، فيعالج بضربٍ من العلاج حتى يتغير بلونٍ يحدث له ورائحةٍ وطعم ونحو ذلك ، فيتغير لذلك اسمه و يصير حلالا بعد أن كان حراماً) . ومصداق ذلك ما نجده من مختلف الأسماء للخمر المطبوخة . فهم يسمون العصير المطبوخ «الطِّلاء»

لأن ما يبقى بعد طبخه يكون شبيها بطلاء الإبل فى ثخنه وسواده . ومن أسمائه « الباذق» معرب عن باده الفارسية، وذلك للعصير الذى يطبخ أدنى الطبخ وتطرح طفاحته[1] ويطيّب بالأفاويه[2] ويجعل فى الأوعية فيخمر فيكون خمراً شديداً. وقد يعاد على البُخْتُج الماء الذى ذهب منه ثم يطبخونه بعض الطبخ ويودعونه الأوعية ويخمرونه ، فيأخذ أخذاً شديداً ، ويسمونه «الخمرىّ» و «المُخْدَب» وأما الذى ذهب فى الطبخ نصفه فيسمونه « المنصَّف » وهو فى رأى طائفة من الفقهاء المترخصين حلال إلا أنه يكره . فإذ ذهب ثلثاه وبقى ثلثه أسموه « المثلث » وهو عند هؤلاء طِلْق حلال مباح لأهل الملة بيعه وشربه . وبديهى أن الشرب المباح عندهم للطلاء ما كان دون السكر وبعيداً منه .

وقد كان من شيوع « الطلاء » عند المفتونين بالشراب من متحرجة المسلمين أن رأى الخليفة الأموى الورع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ رسالة فى ذلك إلى أهل الأمصار ينهى عن شرب الخمر من الطلاء لما يراه فيها من أنها الخمر بعينها ، وإن عولجت بما عولجت وتغير اسمها . وهذا نص المنشور الخليفىّ :

[أما بعد ، فإن الناس كان منهم فى هذا الشراب المحرم أمرٌ ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سفّه أحلامهم وأذهب عقولهم، فاستحل به الدم الحرام وفرج الحرائر . وإن رجالا منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون « شربنا طلاء فلا بأس علينا فى شربه » ولعمرى إن فيما قرأتُ مما حرم الله بأساً . وإن فى الأشربة التى أحل الله من العسل والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحةً عن الأشربة الحرام غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا فى أسقية الأدم التى لا زفت فيها ولا يشرب منها ما يسكر ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله

---

(١) الطفاحة : ما طفح فوق الإناء كزبد القدر . (٢) الأفاويه : التوابل ونوافح الطيب

عليه وسلم نهى عن شرب ماجعل فى الجرار والدباء والظروف المزفتة ، وقال كل مسكر حرام . فاستغنوا بما أحلّ لكم عما حرّم عليكم . وقد أردت بالذى نهيت عنه من شرب الخمر من الطلاء وما جعل فى الدباء والجرار والظروف المزفتة وكل مسكر إظهارَ الحجة عليكم . فمن يطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية ويكفينا الله ما أسرّ فإنه على كل شىء رقيب ، ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلا]

وأيّاً كان الرأى فى تحليل الطلاء أو تحريمه ، فإن شاعرنا أبا نواس كان يعاف هذه الخمر المطبوخة التى كان يُقبل عليها عامة الناس . وقد بلغ من عيافه لها ونفوره منها أنه كان وهو المدمن السكير يؤثر الزهد فى الشراب على شربها :

لمَّا أتَوْنى بكأسٍ من شرابهمُ يُدْعى «الطِّلاء» صليباً غيرخوّارِ (١)

أظهرْتُ نُسْكاً ، وقلتُ « الخمر أشرَبُها !! »

والله يعلمُ أنّ الخمرَ إضمارى

آلىٰ زَعيمُهمُ بالنَّار قد طُبخت يريدُ مِدحَتها بالشَّين والعار

فقلتُ : « من ذا الّذى بالنارِ عَذَّبها لا خَفَّفَ اللهُ عنه كُرْبَةَ النَّار »

ومن ثمة كانت إشاراته فى أكثر من موضعٍ من خمرياته إلى أنه إنما يقصد إلى معتقة العقار التى لم تمسسها نار :

لمْ تزَلْ فى قعرِ دنّ مُشعَرٍ زِفتاً وقَارا

بِنْتَ عَشْرٍ لمْ تُعايِنْ غَيْرَ حَرّ الشمس نارا

لمْ تَدْنُ مِنها يَدٌ مُذْ يَومِ قطفتِها ولم تعذَّبْ بتدخِينٍ ونيرانِ

---

(١) الصليب كالصلب : الشديد .

ظللتُ أعاطيه سُلافةَ قرقفٍ مُخدَّرةٍ عذراءَ من سَبى بابل
سَليلة كرمٍ لم يَفُضَّ ختامها ولم يَلتذِعها فى بطون المراجل
يَكُرّ عليها صيفها وشتاؤها ويأتى عليها قابلٌ بعد قابل

أدِرْها وخذها قهوةً بابليّةً لها بَيْنَ بُصرى والعِراق كُرومُ
وما عَرَفتْ ناراً ولا قِدْرَ طابخٍ سِوى حَرِّ شمسٍ إذْ يهيجُ سَموم

وإذا كان قطافٌ وتوقّتَ المُصارا (١)
فاطْبُخِ الرّاحَ بشمسٍ فكفى بالشمسِ نارا

طبختْها الشِّعرىْ العَبُور ، وَحشَّتْ نارَها بالظّهـائرِ الجوزاء (٢)
لم يَسُمها الطاهى بماء ، ولا غَيَّـرها عن طبيعةِ الكَرْم ماء

فالرجل كما رأينا شديد الكلف بالخمر المحرّمة لا يحمد سواها . وأمّا الأشربة التى وقع فى وهم الراهمين أنها « شراب الصالحين » ، فليس يسيغ نوعاً منها طلاء كان أو نبيذاً :

يا ابنة الشّيخ أصْبَحِينا ما الذى تنتظرينـا
قد جرى فى عُودِهِ المـا ء ، فأجرى الخمرَ فينا
إنمـا نشربُ منها — فاعْلمى ذاك يقينا —
كلَّ ما كان خِلافاً لشرابِ الصّالحينا

صناعة الخمر

ولما كانت الخمر المتخذة من عصير العنب هى المدار الذى عليه تدور خمريات

(١) المصار : ما تحلب من العصير .
(٢) حش النار : أوقدها ، الظهائر : جمع ظهيرة ، حد انتصاف النهار .

أبى نواس . فليس عليها بمستكثر أن نختصها بهذا الفصل مفرداً لها مقصوراً عليها .

ونبدأ بصفة العنب الذى منه تتخذ الخمر. وهو أشهر من أن يُعرَّف. ويختلف بألوانه ، فمنه الأبيض والأحمر والأسود ، كما أنه يختلف بحسب الكبر والاستطالة وغلظ القشر وحجم البزر أو عدمه وكثرة الشحم أو قلته ومقدار الحلاوة . وأجوده الكُبار ، الرقيق القشر ، القليل البزر ، الحلو . وقد ذكر مؤلفو العرب من أنواعه الجُرَشىّ وهو أطيب العنب كله ، ولونه أسحر — وهو المغبر فى حمرة — وعناقيده طوال ، وحَبُّه متفرّق . ومنها الأقماعىّ وهو غلة الناس وأصل العنب الذى عليه يُعتمد ، وهو أبيض فإذا انتهى اصفرّ فصار كالوَرْس ، مكتنز العناقيد ، وحبه كبارٌ مدحرج كثير الماء ، وليس وراء عصيره غاية فى الجودة. ومنها السُّكَّر وهو أبيض رطب عذب من طرائف العنب . وأطراف العذارى وهو أبيض طُوال يشبَّه بأصابع العذارى المخضبة لطوله . والضُّروع وهو أبيض عظيم العناقيد كبار الحب قليل الماء . والنواسى وهو الشامى ، أبيض كثير العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو . ومنها عيون البقر وهو أسود ليس بالحالك ، عُظام الحب مدحرج وليس بصادق الحلاوة . والدّوالى وهو أسود غير حالك ، وعنبه مدحرج جاف يتكسر فى الفم وعناقيده أعظم العناقيد كلها .

وفى مجانى هذه الكروم تنتشر النواطير لحراسة قطوفها إلى يوم القطاف. ولقد ترك لنا أبو نواس وصف ناطور من هؤلاء أصلع شرِسٍ ، وهو فى قميصٍ بالٍ وسراويلَ قصار :

كرمٌ تخالُ على قُضبانِ نَخْلته ... يومَ القِطافِ لهـ هاماتِ حُبشانِ
وحوْلها حارِسٌ ذُو صَلعةٍ شَكسٌ ... عِلجٌ يدور ، أخو طِمْرٍ وتُبّانِ[1]

---

(١) التبان : السروال القصير . الطمر : الثوب البالى .

كما ترك لنا وصف خيمة ناطورٍ منهم فى رأس رابية مُنيفة يمتد على سفوحها عرائش الكروم ، وحكى ما كان من نزوله وأصحابه بالخيمة يتفيّؤن ظلها فى وقدة الهجير ، ودعوته إياهم للمنادمة على معتقة من ماء هذه الكروم قد اتخذها الناطور ذخيرة من سنين يبيع منها لمن عاج بخيمته من المتنزهين ، حتى إذا خيّم الليل ومدّ على خيمة الناطور رِواقَه ، استرسل شاعرنا الخليع وندمانه إلى ما تعودوه بعد السكر من خلاعةٍ وفجور :

وخَيْمةِ ناطورٍ برأسِ مُنيفةٍ ... تهُمُّ يَدَا مَن رامَها بزَليلِ [1]

إذا عارَضَتْها الشَّمسُ فاءتْ ظِلالُها ... وإن واجهَتْها آذَنَتْ بدُخول

حطَطْنا بها الأثقالَ فَلَّ هَجيرَةٍ ... عَبُورِيَّةٍ تُذكَى بغير فتيل [2]

تأيَّتْ قَليلاً ثمَّ فاءتْ بِمَذْقةٍ ... من الظِّلِّ فى رَثِّ الأباء ضَئيل [3]

كأنَّا لديها بين عِطفَىْ نعامةٍ ... جفا زَوْرُها عن مَبْرَكٍ ومَقيل [4]

حلَبْتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا ... بصهباءَ من ماء الكرُوم شَمول

إذا ما أتتْ دون اللهاة من الفتى ... دعا همُّه من صدرِه برَحيل

فلمَّا توفَّى الشَّمسَ جُنحٌ من الدُّجى ... تصابَيْتُ واستجْملتُ غيرَ جميل

... ...

و يدرك العنب فى شهر تمُّوز فى أول الصيف ، ويدوم إلى كانون فى أواخر

---

(١) الناطور : حافظ الكرم أو الزرع . الزليل : الزلل .

(٢) يقال رجل فل وقوم فل أى منهزم ومنهزمون . والمراد غلبة الهجيرة عليهم ونيلها منهم . عبورية نسبة إلى الشعرى العبور ، لأنها إذا طلعت بالغداة فهو أشد الحر .

(٣) تأيت : تلبثت . المذقة : المزجة . من مذق الشراب مزجه ، والمراد الظل الشفيف . الأباء : جمع أباءة وهى القصبة . (٤) الزور : أعلى وسط الصدر .

الخريف . فإذا حان أوان القطاف اجتمع الأُجَراء من الجُناة فى مجانى الكرم بين الزياط والهرج والتطريب ، وظلوا أياماً يعملون المقاضب فى أصول العناقيد لا يدعون عنقوداً ولا عُنَيْقِيداً إلا قطعوه . وهم يجمعون ما يجنونه فى المكاتل [١] يحملونها إلى المعصرة غير بعيد من الكروم.

المعاصر

والمعصرة كانت حوضاً كبيراً مستطيلا واسع الجوف قعيراً ، ولهذا الحوض مَثْعَب [٢] أوأ كثر من مثعب يجرى منه ما يسيل بالعصر إلى حوض أصغر منه يجتمع فيه العصير ، على نحو ما استدل عليه الباحثون فى التاريخ القديم لأرض فلسطين ، وكما يُستدل من أوصاف آنية الخمر عند العرب فى كتب اللغة . وهذه المعاصر فى البلاد الجبلية مثل فلسطين كانت تنقر فى الصخر ، وهى حوضان فى سفح الرابية ، الحوض الكبير ثم يليه أسفل منه الحوض الصغير .وأما فى البلاد غير الصخرية فتتخذ المعاصير من خشب . وما من شك فى أن صناعة المعاصير قد ارتقت كغيرهامن الصناعات مع انفساح دولة العرب وأخذهم بأسباب الحضارة.

والحوض الكبير الأعلى هو المقصود على وجه التحقيق بلفظ المعصرأو المعصرة. وفيه تلقى الأعناب بعضها فوق بعض بعناقيدها أو منزوعة عن ثفاريقها [٣] ، فلا تلبث للضغط الحاصل من طباقها المتراكبة أن يسيل ماؤها و يتحلّب وحده من قبل العصر ، وهذا العصير الأول يسمونه السُّلاف أو السلافة ، واسمها عند الروم بروتوبون Protopon واشتقاق الكلمة الرومية كالعربية فيه معنى السَّلَف وهو المتقدم فى كل شىء . والسلافة عندهم جميعاً أفضل الخمر .

---

(١) المكتل : زنبيل من خوص . (٢) المثعب : مسيل الحوض .
(٣) الثفاريق : أقماع حب العنب .

سُلافةٌ لم تَمتَصِرْها يَدٌ ولم تُدَنِّسْها المَعاصيرُ

شمطاء تأبى أن يدوسَ أديمَها قدَمُ الرِّجال وما بها استكبارُ

مُشَعْشَعةٌ من بناتِ الكُرو م سالَتْ نِطافاً ولم تُعْصَرِ (١)

ثم يُقبلون بعد ذلك على الأعناب فى الحوض يتناولونها بالعصر إما مَرْساً بالأيدى أو دهساً بالأرجل ، أو يستعينون فى عصرها بالعواصر وهى ثلاثة أحجار غلاظ ثقال :

فدَعِ الَّتى نَبذتْ يداكَ ، وعاطِنى — لله درُّك — من عَصيرِ الأرْجُلِ

لم تَدْنُ منها يدٌ من يوم قَطْفتها ولم تُعَذَّبْ بتدخينٍ ونيرانِ

حتى إذا عُصِرَتْ سالتْ سُلافتُها فى قَعْر مَعْصرةٍ كالعَنْدَمِ القانى

وهذا الذى عُصر بعد السلاف يسمونه النَّطْل ويجىء بعد السلاف فى الجودة. ثم ما يحصل من معاودة العصر الشديد بعد ذلك يكون أقلها جودة .

و بديهى أن تَحَلُّبَ السلافة من غير عصر يستغرق أياماً . وكذلك الحال فى استخراج النطل وما بعده بالعصر . وأشْيَع طرائق العصر كان الدَّوس بالأقدام ، ويقوم به أكثر من رجل على حسب الحوض وهم عراة الأقدام والسيقان ، وقد تخضبت سراو يلهم وقمصانهم المشبورة برشاش العصير من توثبهم بقوة وعنف فوق الأعناب المتفقّئة .

ولما كانت جراثيم الاختمار المعروفة بجراثيم فُطْر السكر موجودة دائماً على جلد الأعناب الناضجة ، فإنها حين تتفقأ ويسيل عصيرها يختلط به دِقاق

(١) النطاف : جمع نطفة ، الصافى من الماء .

الغبار الذى فيه تعيش تلك الجراثيم فضلا عما يحدثه التعرض للهواء . ومن ثمة يبدأ الاختمار و يستهل فعله . وفى عصير العنب كل ما يحتاج إليه لتغذية هذه الخميرة ، ففيه مقدار عظيم من السكر يبلغ أحياناً خمسة عشر فى المائة ، ومقادير قليلة — ولكنها كافية — من المواد الأزوتية والفوسفاتية والدهنية لا تزيد وغيرها من مركبات العصير على الخمسة فى المائة ، وأما الثمانون فى المائة من العصير فماء كما هو معلوم .

وهذا العصير يودع الأوعيةَ المتينة ليمضى فى الاختمار .

الزقاق والجرار

وكان يُتخذ للتخمير والتعتيق أنواع الجرار من الفَخَّار ، والزقاق من الجلد . وكانت الزقاق من جلدٍ يُجَزُّ ولا يُنْتف و بره ، كما يدل عليه قول ابن الهندى :

تَضمَّنها زقٌ أزَبُّ ، كأنَّه صريعٌ من السُّودان ذو شَعَرٍ جَعْدِ[1]

و يقال لزقاق الخمر الدوارع ومفردها ذارع . ثم الأداوى ومفردها إدَاوَة ، وهى الأوعية الصغيرة للخمر تتخذ أيضاً من الجلد :

فقالتْ: «من الطُّرَّاقُ». قلنا: عصابةٌ خِفافُ الأداوى تُبتغَى لهمُ الخمرُ

وقد تكون هذه الأوعية مُقيَّرة كما فى قول الهذلى :

سلافةُ راحٍ ضُمِّنَتْها إداوةٌ مقيَّرةٌ رِدْفٌ لمُؤْخِرة الرَّحْلِ

وظاهر أن الغرض من ترك الوبر فى الأدم ومن تقييره هو سد المسام فى

---

(١) الأزب : الكثير الشعر .

الأوعية ليشتد التخمير ويجود التمتيق . وهذه هى حكمة نهى النبى عن الانتباذ فى الدّباء والمزفّت .

ولأبى نواس أوصاف كثيرة فى هذه الزقاق المتخذة من جلود الغنم المسلوخة سليمةً كاملة على هيئتها وقد ملئت بالشراب فارتفعت قوائمها ، وهو معنى قولهم الشاصيات ، مع الإشارة إلى لونها الأسود الساحم السواد :

وجَرَّ زِقًّا كأنَّه رجَلٌ مفصَّلُ السّاعِدَين من حام ِ

وبنت كرمٍ سَفَكْناها بدرهمِنا من بطنِ أسْحَمَ مُسوَدٍّ ، وما سُفِكا
كأنَّ أكرُعَه أيدٍ مُقَطَّعَةٌ لا يَرتجى قَوَداً منها ولا دَرَكا[1]

حتى تُلاقِى رَبَّ شاصِياتِ مُحْتَطباتٍ لا مُخضَّراتِ

إذا نزَفُوا زِقًّا أقمتُ مكانَه من الشّاصياتِ السُّودِ محزوزة الظّهْرِ

وأكبر الظن أن الزقاق في أيام أبى نواس كانت تتخذ لحفظ الخمر . أما التخمير والتعتيق فكان معظمه فى الجرار .

وكانت الجرار يقير باطنها بالزفت كذلك للعلة التى تقدم بيانها فى الزقاق ، ثم يسدّون على فيها بالطينة . ومن قول أبى نواس فى صفتها :

من قهوةٍ لم تزل تخفَى ويحجُبُها كِنُّ الحرائرِ عَصراً بعد أعصارِ
ظلَّت من الدّهر أزماناً مُخدَّرةً يصونُها كَنَفٌ من بيت خمَّار
من قَمرٍ أجْوَف ذى ساقٍ بلا قَدَمٍ نِيطَتْ بدَنّ ٍ عظيم البطن هَدَّار

---

(١) القود : القصاص . الدرك : اللحاق ، يريد إدراك الثأر .

مُمازَجِ الخلقِ، من زِفْتٍ بِطانَتُهُ والظّهرُ من فوقه بنيانُ فَخّار

من خَنْدَريسٍ لجامُها خَزَفٌ وثوبُها المُسْتكِنُّ من قِيرِ

وهذا القار الذى يتبطن به الجرُّ كان يترك لا محالة أثره فى لون الخمر وفى نكهتها:

فيه مُدامٌ كعين الدِّيكِ صافيةٌ من مسكِ دارِينَ فيهانفحةُ القارِ

كأنّما شربتْ من نَفسها جُرَعاً فازْدادَ من لَوْنها فى باطن القارِ

وللجرار من الفخّار أسماء عدة على حسب هيئاتها وأحجامها. منها الدنان وأسفلها كهيئة العصاعص(١) فلا تقعد إلا أن يحفر لها. والحباب وهى أكبر من الدنان، والقِلال دون الحباب العظام، والخوابى ما عظم من الدنان، والرواقيد أصغر من الدنان، والحناتم الخضرُ من الرواقيد.

فاستَوْدَعوها رواقيـداً مُزفّتةً من أغبرٍ قاتمٍ منهـا وغَبراء

فأتحَفَنا الخمّارُ عند طُروقنا براقُود خمرٍ شكَّ فى جَنْبِه شَكّا

فضُمّن صَفْوُ ما يَجْنون منهـا خوابىَ — كالرِّجالِ — مُقَيَّراتِ

ثمّ أتتْ فى الحبابِ يخفرُها مَشْىٌ هُوَيْنَى ما إنْ به نَزَقُ(٢)

وقد تكرر وصف شاعرنا لمظاهر هذه الدنان وأثر تقادم العهد بها وتطاول الأيام عليها بما تراكم فوقها من غبار الهواء ونسج العنكبوت الخرقاء، وبما تحاتّ من رءوسها وتفتت من سِدادها:

(١) العصاعص جمع عصعص: عظم الذنب. (٢) يخفرها: يحميها ويؤمنها أن تقع.

لبِثتْ في دِنانِها ألفَ شهرٍ　　لم تُقمّصْ ولم تُدنّسْ بنارِ
نسَج العنكبوتُ بيتاً عليها　　وعلى دَنِّها دِقاقُ الغُبار

ألستَ تراها قدْ تعفَّتْ رسومُها　　كما قد تعفَّتْ للدِّيارِ رُسُومُ
تحومُ عليها العنكبوتُ بنَسجها　　وليس على غير الدِّنان تحوم

أشُقّ عنها — والليل معتكرٌ —　　مُهلهلَ النّسْج ما له هُدُبُ
من نسجِ خرقاء لا تُشَدّ لها　　آخيَّةٌ فى الثّرى ولا طُنُب[1]

أقامتْ فى الدِّنان فلم يَضِرْها　　ولكنْ زانَها طولُ المُقامِ
أشبِّهها وقد صُفّتْ صفوفاً　　بأشياخٍ مُعمّمَةٍ قِيام
يَشُجُّ القَطرُ أروُسَها، و يَسفِي　　عليها الرِّيح عاماً بعد عام
إلى أن لم يَذَرْ دَهرٌ عليها　　بها طِيناً ولا أثَرَ الختام
فجاءتْ كالدُّموعِ صَفاً وحُسناً　　كقَطرِ الطّلِّ فى صافى الرّخام

تدبير التخمير

وكانت هذه الدنان المزفتة « المقيّرات » ، المشتملة على عصارة العنب ، توضع فى الشمس زمناً حتى يطبخها حرُّها من غير أن تمسها نار . وهذا التشميس يجعلها فى قولهم رقيقة لطيفة الإسكار :

فجاء بِها قد أنهكَ الغمْوُ جسمَها　　وأوجَعَها فى الصَّيفِ حرُّ الهجائرِ[2]

---

(١) الآخية : حبل يدفن فى الأرض ذو حلقة تشد فيها الدواب ، والطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد . الخرقاء : وصف للعنكبوت　(٢) الغمو : التغطية بالخشب والطين .

من كُمَيتٍ أرَقَّها وَهَجُ الشمـ ـس، وصَيفٌ تَغلى به وشتاء
مَخَّضَتها كواكبُ القَيظِ حتى أقلَعَتْ عن سمائِها الأقذاء

ثم توضع بعدها فى ظل ممدود وارف . وأوفق ما يكون ذلك فى كنفٍ لا يناله الهواء :

فى دِنانٍ مُسنَداتٍ مُعْلَماتٍ بِمـــدادِ
بين أفيـــاء عَريشٍ عَمَـــدوه بِعماد

قد غَبَرَتْ، فى الدِّنانِ مَسكنُها وتحتَ ظلِّ العريشِ مَأواها

فهىَ فيها عَرُوسُ خِدرٍ وكِنٍّ رُبِّيَتْ فى النَّعيمِ بعد النعيمِ
فى ظـــلالٍ مَحْفوفةٍ بظلالٍ من كُرُومٍ ومن عريشِ كروم

وهذا التعاقب من حر الشمس و برد الظل يفعل فعله فى الخمر ، فإذا هى على حد وصفه :

عُتِّقت فى الدِّنانِ حتى أفادَتْ نورَ شمسِ الضُّحى و بَرْدَ الظِّلالِ

ومن الدنان ما كان بعد تشميسه يدفن فى بطن الأرض مكنوناً مصوناً عن تقلب الجو واختلاف الفصول :

فسَقِّنيها سُلافاً سَلْسَلاً حُجِبَتْ فى دنِّها حِقَباً فى رُكنِ دِيماسِ (١)

كانت مُخبَّأةً فى الدَّن قد عَنَسَتْ فى الأرضِ مدفونَةً فى بطنِ تابُوتِ

---

(١) الديماس : الحفير تحت الأرض .

فصانَها فى مَغار الأرض ، فاخْتَلَفَتْ   على الدَّفينــةِ أزمانٌ وأزمانُ

وحسبنا للدلالة على تعدد أساليب أهل ذلك العصر فى معالجة تخمير القطاف فى شتى الأحوال ومختلف الأقاليم ، وعلى بصرهم بتدبير الحرارة اللازمة لجودة الخمر ، واحتيالهم على ذلك بما كان فى ميسورهم من وسائل التدفئة والتبريد على حسب الاقتضاء ، أن نسوق للقارئ هذه الشواهد من شعر النواسى :

سقانى أبو بِشرٍ من الرّاح شَربةً   لها لَذّةٌ ما ذُقتُهــا لشَرابِ
وما طبخُوها ، غيرَ أنّ غُلامَهمْ   مَشى فى نواحِى دَنّها بِشِهاب

مَحْجوبة فى مَقيلٍ حَوْبَتِهــا   تِسعين عاماً مَحْسوبَةَ العَدَدِ[1]
لم تعرِفِ الشّمسُ أنّهــا خُلِقَت   ولا اختلافُ الْحَرورِ والصَّرَدِ[2]
بين فَسيلٍ يحفُّها خضــلٍ   وبين آسٍ بالرّيِّ مُنفَرِدِ[3]

أدوار الاختمار

ومؤدى الاختمار تحويل ما يستطاع تحويله من المادة السكرية فى عصير العنب إلى كحول. والشراب المختمر يغلى أثناء ذلك وتزيد درجة حرارته ، ويحصل مع السائل الكحولى أيضاً غاز هو غاز ثانى أكسيد الكربون ، وهو يتصعد فيسمع لتصعّده فى العصير الآخذ فى الاختمار غرغرة وبقبقة ، ثم هو فى تصعّده يحمل معه الثفل — من بقايا قشور العنب وبزره وغيرها من الجوامد غير الذائبة — إلى سطح الشراب ، وتتجمع من ذلك كتلة كالرغوة ذات مسام يسمونها الطُّفاحة

---

(١) الحوبة : وسط الدار .   (٢) الحرور : حر الشمس ، الصرد : البرد .
(٣) الفسيل : جمع فسيلة وهى النخلة الصغيرة . خضل : ندى مبتل .

وتبقى هذه الطفاحة — بطبيعتها الرغوية وفعل الغاز المتصعد المتعلق بها — عائمة طوال مدة الاختمار. ولا يلبث الكحول الحاصل في العصير أن يصمد إلى محاربة خميرة الفطر التى هو وليدها، فيكسر من شوكتها ويفل من حدّتها، فيضعف الغليان ويخف الهدير، حتى إذا أربى مقدار الكحول وبلغت نسبته اثنتى عشرة أو أربع عشرة درجة فى المائة تغلب على خميرة الفطر فأتى عليها وقتلها. وحينئذ يقف الاختمار وينتهى فعله، وترسب الطفاحة ويصفو الشراب وتحصل منه الخمر. وإذا تركنا هذه اللغة العلمية المحدثة، واقتصرنا على المتعارف فى كلام القوم قلنا إن عصارة العنب لاتلبث فى الدنان بضعة أيام حتى تنشط فيها حركة الاختمار، فيسمع لها فى بادئ الأمر نَشٌّ خفيف ثم تضطرب وتهيج، ثم يشتد غليانها فتصخب وتهدر وتقذف بطفاحتها. فيُصبر عليها حتى تنفى زبدها ويقرّ هَيْجها ويسكن هَدْرها. فتكون الخمر قد خلصت وصفت، وراقت ورقّت، وأشرق لونها، وتفتق عَرْفها:

أقامت حِقبةً فى قعر دنٍّ ... تفورُ وما يُحَسُّ لها لهيبُ
كأنَّ قِراتها في الدّن تحكى ... قِراةَ القَسِّ قابله الصّليب(١)

أَنّتْ زماناً كما أنَّ المريضُ، ولم ... تبرَأْ، فدافعَ عنها الخالقُ البارى

من مدامٍ معتّقٍ أخرَسته ... حِقبةُ الدّهر بعد طولِ الهَدير

فَتَرَت عن ترَنُّمٍ قد حَسبنا ... هُ حديثَ المُبَرسَمِ المحمُومِ(٢)

---

(١) قراتها: أى قراءتها والمراد صوت غليانها.
(٢) المبرسم: المصاب بالتهاب فى الحجاب الذى بين الكبد والقلب.

بنتُ دهرٍ هُجِرتْ فى دنّها ورمَتْ كلّ قَذاةٍ ودَنَسْ

حتى إذا ما صَفت فى دنها بُزِلَت حمراء تذهبُ عنكَ الهمّ والبُوسا

وعُمِّرت حِقَباً فى الدنّ لم يَرَها حىٌّ من الناس فى صُبحٍ وإمساء
حتى إذا سَكَنت فى دنّها وهَدَتْ من بعد دَمْدَمةٍ منها وضَوْضاء
جاءت كشمسِ ضُحًى فى يوم أسعُدِها من بُرِجِ لهوٍ إلى آفاق سَرّاء

درجات العتق

وهم يسمون الشراب الحديث الذى لم يتعد ستة أشهر ولم تزل فيه حلاوةٌ مُسطاراً أو مصطاراً . واللفظ رومىّ معرّب أصله Mustum (ومنه Must بالإنجليزية و Moût بالفرنسية وهو عصير العنب الحلو قبل أن يصير خمراً)

وقد ذهب أطباؤهم إلى أن الشراب الحديث جدًّا لا ينبغى أن يُشرب لأنه لا يُمرى الطعام ويكدّر ما يستمرى ، وهو إلى ذلك بطىء الانحدار والنفوذ يبقى فى المعدة مدةً طويلة فتسرع معه الحموضة ، وليس يصلح لغذاء البدن ولا يعين على توليد الدم .

أما الشراب المتوسط فما كان بين الحديث والعتيق ، وهو الذى يسلخ سنةً . ومن أقوالهم : « اللحم لوقته ، والخبز ليومه ، والشراب لسنته » . وقد ذهبوا إلى أن الشراب المتوسط ليست فيه مضرّةُ الحديث ولا مضرة القديم . ولذلك يُختار فى الصحة وفى حال المرض . وفى هذه الخمر التى استوفت حولاً كاملا يقول شاعرنا قوله المشهور :

أما ترى الشمسَ حلّتِ الحملاَ وقام وزنُ الزمان واعتدلا
وغنَّت الطيرُ بعد عُجمتها واستوفت الخمرُ حَولها كَمَلاَ

ويبلغ الشراب المتوسط أقصى حدّه ويؤذن بتجاوز طوره حين يناهز أربع سنين . وفى حدّه الوسط يقول النواسى ولا يخلو قوله من شبهة الانطياع للقافية والنزول عند حكمها :

سُخاميَّةٌ لم تَقطع السنُّ مَتْنها لها مُذْ ثَوت فى دنّها سنتانِ[1]

والشراب الذى يتجاوز أربع سنين يسمونه العتيق . وينصحون لمن كان فى عصبه وسائر حواسه ضعف أن يحذره . ويقولون إن المزاج الكثير يعدله ويسلم من مضرته . ويزعم أبو نواس أن العتيق هذا بداية الحرام :

فاسقِنيها سُلافةً بنت عَشرٍ دبَّ فى جسمها غِذاء الحَرامِ

وقد يسمون الذى فات السنين الأربع لا إلى نهاية بالقديم . ولكنهم ذهبوا إلى أن أجود القديم من خمس عشرة سنة إلى أربعين ، وهو أعظم نكايةً من العتيق لا محالة .

وأما ما زاد فى القدم على هذا الحدّ فإنه يتناقص حتى يعدم نفعه فى الثمانين ، كما ورد فيما بين أيديهم من كتب الحكمة القديمة . ولعل هذا القول هو الذى حدا شاعرنا المولع بالخمر القديمة منذ عهودٍ متطاولة يبالغ فى مدتها إلى حد الإحالة أن يشير فى صفة قِدمها هذه الإشارة مدافعاً عنها :

أقامتْ فى الدّنان فلم يَضِرْها ولكن زانَها طولُ المقامِ

---

(١) السخامية : الخمر السلسة .

موصوفة بفنونِ الطِّيبِ ، طال لها　　عُمْرٌ فلم تَعْدُ أنْ رقّتْ حواشيها

لم يُذهِبِ الدَّهرُ عنها حَدَّ سَوْرَتِها　　ولم يَنلها الأذى فى دَهرِها الخالى

والغالب فى غير الكلام العلمى استعمال النعتيْن العتيق والقديم كلٌّ فى موضع الآخر . وقد تتابعت الشعراء على مدح الشراب بالعتق والقدم .

أسماء المعتقة وخصائصها

وقد رأينا فى سائر ما تقدم بنا من خمريات أبى نواس ، أنه حين يمتدح الخمر ويثنى عليها بآلائها ، ويسميها أحسن أسمائها ، إنما يعنى المعتقة :

نَعِّمْ شبابَك بالخمر العتيقِ ولا　　تشرَبْ كما يشرب الأغمارُ من ماذِى[1]

ومن أسماء هذه المعتقة : المُدام والمدامة . سميت بذلك لأنها أُديمت فى ظَرْفها . والعقار لأنها عاقرت الدنّ أى لازمته . والشمول لأنها تشمل الناس بريحها . والراح لأن صاحبها يرتاح لشربها . والقهوة لأن شاربها يقهى عن الطعام أى لا يشتهيه . والقرقف لأن صاحبها يقرقف إذا شربها أى يرعد . والشموس لأنها تجمح بصاحبها . والخندريس البعيدة القدم ، ولا تسمى خندريساً حتى يتبيَّن القدم عليها فى رائحتها فتُنَشِّم[2] . وهم أخيراً يقولون لأعلى الخمر وأصفاها إسْفَنط . وأشهر من ذلك تسميتهم صفوة الخمر بالرحيق .

وإنما تُستجاد المعتقة لأن الشراب لا يرقّ ويعتدل قوامه ويلطف كونه ،

---

(١) يسمى الشراب ماذياً والخمر ماذية من قولهم عسل ماذى لسهولة مدخله .

(٢) يقال نشم اللحم تغير وابتدأت فيه رائحة كريهة .

ولا يروق وتصفو كثافته ويشف لونه ، ولا يستوفى بعد أن رقّ وراق غاية الإشراق ، وتتم له عَصْفته[1] التى اختُص بها من ريح ومذاق ، إلا بعد أن يمضى عليه زمان فى الدنان أو الزقاق يعتق فيها ويستحكم عتقه .

وسبب ذلك أن الخمر الحديثة فيها مقدار غير قليل من المواد الغروية والمواد السكرية لم يتحول إلى كحول ، وفيها أيضاً أجسام أخرى ذائبة مثل فوسفات الكلس وكبريتات الكلس وزبدة الطرطير وطرطرات المغنيسيا وكبريتات البوتاسا . وفيها كذلك حوامض عضوية مختلفة . فإذا عتق الشراب زاد مقدار ما يتحول إلى الكحول من المواد السكرية والغروية ، ومن ثمة تزيد رقة الخمر ، وترسب كذلك بقية الأجسام الذائبة لأنها أقل ذوباناً فى الكحول منها فى الماء ، وبرسوبها يزيد صفاء الخمر . وفوق هذا وذاك فإن الخمر مع تطاول الزمن بها يتكون فيها أنواع كثيرة من الإيثير من انحلال الحوامض العضوية ، وهذه الإيثيرات يضيف بعضها إلى طعم الخمر ويضيف بعضها إلى رائحته ، وهى سرّ عصفته الخاصة .

ولا تَسقِيانى بنتَ عشرٍ ، فإنها كما عُصِرت ، لم يَنْسَ فُرقَتها الكَرْمُ
ولكن عجوزاً بنت كسرى قديمةً معتَّقةً قد دبَّ فى طَيِّها الحِلم
إذا ذاقها شُرَّابُها بَجِلُوا لها بألسُنِهم شُكراً فهم عَرَبٌ عُجْم[2]

وقد كثر ترديد شاعرنا أبى نواس لهذه الخصائص فى صور شتى ، جادة تارة وأخرى ماجنة . وقد تقدّمت طائفة كبيرة من أوصافه لرقة الخمر وصفائها ورائحتها ومذاقها . ولكننا قد نحتاج إلى العود لذكر بعضها وترديد أمثالها — وهى

---

(١) العصفة تقابل ما يطلق عليه الفرنجة لفظ Bouquet .

(٢) بجل : فرح .

كثيرة فى شعره — لنستشهد بها على ما بيّناه من فعل العتق ، وتأثير ما يحصل عنه من أنواع الإيثير ومن شتى الانحلالات والتركيبات الكيميائية البطيئة ، فى طعم الخمر ورائحتها خاصة .

فأما من جهة المذاق فإن شاعرنا ينعتها ولا يملّ من نعتها فى كل خمرية له بأنها مزة الطعم تحذى اللسان لا من حموضة ، وأن لمذاقها مثل قَرْص الفُلفل :

واشرَبْ كُمَيْتاً مُزَّةً عنَستْ وأقعَدَها الكِبَرْ

من قهوةٍ مُزَّةٍ مُعتَّقةٍ عتَّقها دنُّها وربَّاها

ممَّا تخيَّرها التِّجارُ ترى لها طعماً إذا ذِيقت كقَرْص الفُلفُلِ

وأما رائحتها التى يجدها ويحدّثنا عنها فهى لمن يراجع شعره أراييح مختلفات . منها الورد والقرنفل والعنبر والزعفران والخلوق إلى آخر ما فصّلناه فى موضعه ، والغالب منها على شعره المسك تارة والتفّاح تارة أخرى :

نَكهتُها أطيبُ من فارةٍ مملوءةٍ مِسكاً لعطّارِ (١)

من بنتِ كرمٍ لها فى الكأس رائحةٌ تحكى — لمن نالَ منها — ريحَ تُفَّاحِ

وحقيقة الحال أنها رائحة لا يشبهها شىء ولا يحقّها الشارب تمام حقّها . وقد رأى صاحبنا المتحيّر بين المسك والتفاح أن يخرج من حيرته ، بأن يجعل بين الرائحتين ريح خمرته :

صَهْباء صافِية تُجْذيك نَكهتُها تنفُّسَ المسكِ مَلطوخاً بتُفَّاحِ

(١) الفارة : وعاء المسك .

وأما رقة الخمر المعتقة فمن شعره فيها غير ما تقدم ذكره ، قوله الماجن :

عُتِّقَتْ فى الدنّ حتى هى فى رِقَّة دينى

وقوله :

بنت كرمٍ أباحها حَبَبُ الْجَوْ هَرِ فيها ورقَّةٌ فى الأديمِ

لا تُعَرِّجْ بدارسِ الأطلالِ واسْقِنيها رقيقة السِّرْبالِ
مات أربابُها ، وبادت قُراها وبَراها الزَّمانُ بَرْىَ الخِلالِ (1)

وعُجْ بنا نَصْطَبِحْ حمراء راقِدةً فى حُمرة النارِ ، أو فى رِقَّةِ الآل

وهم يصفونها بقولهم شراب سَلْسَل وسَلْسال ، وذلك لسهولة مساغه فى الحلق . وكذلك يقولون فى صفتها خمر سُخام وسخاميَّة من قولهم شَعر سخام وهو اللين الحسن:

سَلسالةُ الطَّعم إسْفَنْطٌ مُعتَّقَةٌ يُشربها قَيِّمُ الحانوت أوصانى

قد هَتَكَ الصُّبحُ سُتورَ الدُّجى فانحسرتْ أثوابُهُ الجُونُ
فاصْبَحْ نَداماكَ سُخاميَّةً أتى لها فى دنّها حِين (2)

ونذكر أخيراً كثرة وصف الشعراء لما يكون من رسوب المواد الذائبة فى الشراب كلما عتق ، وما يكون من صفائه بعد ذلك وشفوف لونه . وفى ذلك قول شاعرنا :

مَنفيَّةُ الأقذاء صفَّقَهَا كرُّ اللَّيالى البيضِ والسُّحْمِ

ومن قبله ردَّد شعراء الجاهليه فى مدحهم الخمر قولهم إنها لفرط الصفاء ، لا تحجب عن النظر قذاها الراسب فى قعر الإناء :

(1) الخلال : عود دقيق يبرى ويتخلل به .

(2) صبحه : سقاه الصبوح .

سُلافةُ راحٍ تُريكَ القَذى ، تُصَفَّقُ فى بَطنِ زِقٍ وجَرّ[١]

صِرفٌ ترى قَعْرَ الإناء وراءها تُودِى بعَقلِ المرء قبلَ فُواقِ[٢]

وقد بذّهم الأعشى جميعاً بقوله المشهور :

تُريكَ القَذى من فوقها وهى فوقَه إذا ذاقَها من ذاقَها يتمطّقُ[٣]

ولقد ذهب أبو نواس فى نعت هذا الصفاء إلى آخر الشوط ، فزعم أنها مجرد لون ونور ، ليس وجودها بالوجود العينى المحسوس الملموس ، وإنما وجودها كله فى رأى العين متوهم محدوس :

وكأنّما هى حين تُبْرِزُها للشّاربين عُصارةُ الوَرْسِ[٤]

وإذا تُرامُ تفوتُ لامِسَها مثلَ الهباء يفوتُ باللّمس

قَهْوَة يحسبُها النّا ظرُ — إن صُبَّت — شُعاعا

دقّت عن اللحَظانِ حتّى ما ترى إلا اليَاعَ شُعاعِها العَيْنانِ

من سُلافٍ كأنّها كلُّ شىءٍ يتمنّى مُخَيَّرٌ أن يكُونا

أكلَ الدّهرُ ما تجسّم منها وتبقّى لبابُها مَكْنونا

فإذا ما اجتَلَيْتها فهباءٌ تمنعُ الكفَّ ما تُبيحُ العُيونا

فهى ليست من المحسات الملموسات ، وإنما هى من المدركات المعقولات :

---

(١) الجر : جمع جرة كالجرار . (٢) الفواق : حشرجة الموت .

(٣) تمطق الرجل : صوت باللسان والغار الأعلى وذلك عند استطابة الشىء .

(٤) الورس : نبات يتخذ منه صبغ أصفر يضرب إلى الحمرة .

فأتاكَ شَىْءٌ لا تُلامِسُهُ إلّا بحِسٍّ غَريزةِ العقْـلِ

ثم ينتهى الشاعر إلى أنها ليست إلى المحسات الملموسات ولا إلى المدركات المعقولات ، بل هى خرافة مما يتُصور فى الأوهام ، وأنها ظن من رجم الظنون ، وخيال لا تحققه العيون ، ومعنى لا يدركه عقل ولا يُثبته يقين .

كَأنها حين تمطو فى أعِنَّتِها ـ من اللّطافةِ ـ فى الأوْهامِ عَنْقاء[1]

فأتَتْك فى صُوَرٍ تَداخَلَها البِلى فأزالَهُنَّ وأثْبتَتَ الأشْباحا

دقَّ معنى الخمرِ حتّى هى من رَجْمِ الظُّنونِ
كلّما حاولَها النّا ظرُ من طَرْفِ الجُفُون
رجَعَ الطَّرفُ حَسيراً عن خَيالِ الزَّرَجون[2]
لم تَقُمْ فى الوَهْمِ إلّا كَذَّبتْ عينَ اليَقين
فمتى يُدْرَكُ مالاَ يُتَحَرَّى بالعُيـــون

وهنا يقف الشاعر منها موقف الشك ، وهو مطبوع عليه لا يبرح يغالبه ويعاوده ، كما يدل على ذلك قوله :

جَلَّتْ عن الوَصف حتّى ما يُطالبها وَهمٌ فتخلفها فى الوَصفِ أسماء
تَقَسَّمتْها ظُنونُ الفِكرِ إذ خَفِيَتْ كما تَقَسَّمَتِ الأديانَ آراء

---

(١) تمطو : تسرع فى حركتها . (٢) الزرجون : الخمر الذهبية اللون .

ذخيرة الخمار

والخمارون يذخرون هذه المعتقة لمن يعرف فضلها، ويَقْدُرها قدرها، ولا يستغلى مهرها، من الوجوه الأثرياء الذين تعوَّدوا إطلاق اليد فى النفقة لماهم عليه من سعة الثروة، ومن أصحاب الخلاعة السادرين الذين لا يتمالكون لشدة ولعهم بها أن يخرجوا عن جميع ما احتوته أيديهم من أجلها :

يا خاطبَ القهوة الصَّهباء يَمهُرُها ... بالرِّطل يأخُذ منها مِلأه ذَهَبا
قصَّرتَ بالرَّاح، فاحذَرْ أن تُسَمِّعَها ... فيحْلِف الكَرمُ ألَّا يحملَ العِنبا
إنِّى بذلتُ لها لمّا بَصُرتُ بها ... صاعاً من الدُّرِّ والياقوتِ ما ثُقِبا
يا قهوةً حُرِّمت إلَّا على رَجُلٍ ... أثرى فأتلَفَ فيها المالَ والنَّشَبا

إذا قُطرَبُّلُ عَصَرَتْ ... وحازَ دِنانَها الأهْلُ
فزِنْ خَمّارَها وأفْعلْ ... به ما يفعل السَّهل
فلو كانتْ بِبَنْتِ الـــمالِ بيعَتْ، لم تكُن تَغْلو

ويعتمد أصحاب الحوانيت على هذه الذخيرة المعتقة لاستدرار المكاسب الطائلة من وراء المغالاة بثمنها، وإنها لكفيلة لهم بسداد الخراج مهما عظم، وكفيلة لهم فوق ذلك بصلاح الحال واتساع النعمة وإفادة الغنى ووفور المال :

ذخيرةُ دَهقانٍ حواها لنَفْسه ... إذا مَلِكٌ أوْفى عليه وَسيمُ
وما باعَها إلّا لعُظْم خَراجِه ... لأنَّ الذى يَجْبى الخراجَ ظَلوم

فى كلِّ يومٍ يظلُّ قَيِّمُها مُكبَّلاً كالأسيرِ فى صَفَدِ[1]
مُزَمْزِماً حولها ومُرْتنِماً يرجو بصَوْنٍ لها غِنَى الأبَدِ[2]
يزيد خُطَّابَها حُكومَته عَذراء لم تعتمِدْ على وَلَد
حتَّى بذلْنا بمَهْرِها مِئَةً صفراء تبدو بكفٍّ مُنتقِد

جوهر بلا عرض وروح بلا جسد

وإذا كان الخمارون يستامون بهذه المعتقة سوماً غالياً ، فلأنها من التعتيق تصير إلى نقصان ، وقد تؤول إلى النصف وإلى أقل من النصف فى الدنان :

رأيتُ الشَّىءَ حين يُصانُ يَزْكو ونُقصانُ المُدامِ على الصِّيانِ

قد عُتِّقتْ فى دنِّها حِقَباً حتَّى إذا آلت إلى النِّصْفِ
سَلبوا قِناعَ الطِّين عن رَمَقٍ حَىِّ الحياةِ مُشارِفِ الحَتْفِ

قد أتى الدَّهرُ عليها غير شىء فى قرارِه

فلم تزل تأكلُ اللَّيالى جُثمانَها ، مابها انتصارُ
حتَّى إذا أمرُها تَلاشىَ وخُلِّص السرُّ والنِّجار
آلتْ إلى جَوْهرٍ لطيفٍ عِيانُ مَوْجودِه ضِمار

طَوَى عليها الدَّهرُ أيَّامه وعُمِّيَت عنها المقاديرُ

---

(١) الصفد : القيد . (٢) الزمزمة : الترنم .

فلم تزَل تخلُصُ حتّى إذا صار إلى النّصفِ بها صِيرٌ[(١)]
جاءت كرُوحٍ لم يَقُمْ جوهرٌ لُطفًا به أو يُحْصِه نور

وكذلك خلص الشاعر من أوصافه للخمر إلى أنها صارت من التعتيق خلاصة ، ثم انتقل من كونها خلاصة طبيعية إلى أنها صارت من فرط اللطافة والصفاء روحاً مجردة نورانية . ويرى القارئ من تكراره لهذا المعنى — سواء كان بكراً لم يُسبق إليه أو غير بكر — مبلغ اغتباطه بهذا التشريف للخمر :

فإنّ فيها بنات الكَرمِ ، ما تركَتْ منها اللّيالى سوى تِلكَ الحُشاشاتِ

كَرْخِيَّةٌ قد عُتِّقتْ حِقبةً حتّى مضى أكثرُ أجزائِها
فلم يَكَدْ يُدرِكُ خمّارُها منها سوى آخِرِ حَوْبائِها

أتَتْ من دُونِها الأيّام حتّى تفانى جِسمُها والروحُ باقِ

فهْى روحٌ مُخَلَّصٌ فارَقَ اللّحْمَ والدّما

جاءتْ بخاتَمِها من بيتِ خمّارِ رُوحٌ من الكرم فى جِسْمٍ من القارِ

ما زالَ يَجْلوها تَقادُمُها حتّى اغْتَدَتْ رُوحًا بلاجسمِ

وليس الأمر عند شاعرنا مجرد تشبيه ، بل هو عنده حقيقة وجدانية وتجربة شعورية ، فإنه ليشرب الخمر ويكثر من الشرب ، فإذا استخفّه السكر واستطاره

---

(١) الصير : المنتهى والعاقبة .

الطرب ، أحس فيما يحسه من طرب وخفة فى نفسه وجسمه ، أنها أضافت روحاً إلى روحه :

ما زلتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدنِّ فى لُطُفٍ   وأَسْتَقِى دَمَهُ من جَوْفِ مَجْرُوحِ
حتى انْثَنَيتُ ولى رُوحانِ فى جَسَدٍ   والدنُّ مُنطَرِحٌ جسماً بِلا رُوحِ

دقائق الصناعة

ونحن إذا أجرينا فى الخاطر واستحضرنا قيد الذاكرة مامر بنا فى شعر النواسى من أنواع الأشربة ، أمكننا أن نتمثل مبلغ علم القوم بهذه الصناعة وما وصلت إليه خبرتهم بها .

ولقد وصف أبو نواس فيما وصف من الخمر ، الشراب الأحمر والأصفر والأبيض . فالقوم كانوا لا محالة يعرفون مالا بدّ من معرفته لصنع كل نوع منها . ومن غير المعقول أن يكون حصولها فى كل مرة اتفاقاً من غير قصد ، لا سيما أنهم قد أكثروا الكلام فيها وفى خواصها الطبية . وذهب عامة أطبائهم إلى أن أجودها الأحمر الصافى . وكلما اشتدت حمرته وغلظه كان أكثر للدم توليداً . ويليه الأصفر الأصلى . وأما الأسود والأبيض فأقلها جودة عندهم . وسواء صَحّت مقالة أطبائهم أو لم تكن صحيحة ، فإن خماريهم كانوا ولا ريب يعرفون موضع المادة الملونة من العنبة وأنها فى باطن قشرتها إذ كان شحم الأعناب جميعاً عند نزع القشرة عنه لا لون له . فإذا كان الشراب الأحمر هو المرغوب فيه عمدوا إلى الأعناب السود والحمر الداكنة ، وهى فى العادة أغنى الأعناب فى المادة السكرية . فإذا أريد الأصفر اتخذوا له الأعناب الضاربة إلى الحمرة أو البيض

مضافاً إليها بعض عنبات سود أو حمر داكنة . وأما الشراب الأبيض فيختارون له العنب الأبيض ، وإلا عمدوا إلى الأعناب الملونة فعصروها عقب قطافها وأحسنوا تصفيتها من بقايا القشر وسائر الثفل فى التو قبل أن يختمر . ولهذه العجلة سرها ، وهو أن مادة القشرة الملونة لا تذوب فى الماء ولا فى ذوب السكر ولا الحوامض ، وإنما ذوبانها فى الماء الممزوج بالكحول وهو لا يكون فى العصير قبل الاختمار . والشراب الأبيض الحاصل عن الأعناب الحمر على هذه الصفة يكون مشرباً بصفرة خفيفة ، وهو ما يسمونه الصهباء . وهذه بعض أوصاف الشاعر للخمر المتخذة من الأعناب الملونة :

ألا خُذْها كمصباحِ الظَّلام سليلةَ أسودٍ جَعْدٍ سُخامِ[1]

نُسْقَى سُلافاً من بنتِ دَسْكَرةٍ ما شابَها فى دِنانِها الرَّنَقُ[2]
إخْتارها فى القِطاف سائِمُها حُمراً وسوداً كأنَّهـا الحَدَق

كذلك نتمثل من الخمريات تلك الرتب الثلاث التى تنقسم إليها الخمر من جهة خواصها عند أهل زماننا ، وهى الخمر الحلوة ، والخمر اليابسة أو القابضة ، والخمر ذات الرغوة .

والخمر الحلوة إما أن تكون حديثة لم يكتمل اختمارها ومن ثمة لم يتحول غير القليل من سكرها إلى كحول فيبقى فيها معظم السكر على حاله وهذه هى المصطار ، وإما أنها اتخذت لها الأعناب الشديدة الحلاوة بحيث يفضل فيها مقدار من المادة السكرية حتى بعد تمام الاختمار .

---

(١) سخام : أسود . (٢) الرنق : الكدرة .

وإلى الخمر الحلوة الحديثة يشير عدىّ بن الرّقاع فى قوله وقد جعل فيه اللبن الحليب بمنزلة المصطار .

تَقْرِى الضّيوفَ إذا ماأزمةٌ أزَمَتْ   مُصطارَ ماشيةٍ لم يَعْدُ أن عُصِرا

وإذا كان المصطار ينال بالنشوة عدىّ بن الرقاع على حدّ قوله :

مُصطارةٌ ذهبت فى الرأس نشوتُها   كأنّ شاربَها مِنها بِهِ لَمَمُ(١)

فإن هـذه المصطارة عند مدمنى الخمر غير مطلوبة ولا محبوبة ، لأنّها أضعف نكايةً من أن تنالهم منها نشوة ، وهم ما هم ، لا يكتفون من الخمر بما دون السكر. فلا عجب إذن أن نسمع الأخطل يقول :

تَدْمَى إذا طَعَنوا فيهـا بجائِفةٍ   فوق الزُّجاج عَتيقٌ غيرُ مُصطارِ(٢)

وإنما المطلوب المحبوب عند القوم هو الخمر المُزّة التى تَحْذِى(٣) اللسان . وهى التى تُعرف اليوم باسم الخمر القابضة أو اليابسة .

والخمر القابضة يغلب فيها طعم الكحول والحوامض . وهى تتميز خاصه بما تحتوى عليه من مادة التّنين القابضة. والمادة التّنينية تكثر فى بعض أنواع الأعناب وتقل فى بعضها . ولما كانت ثفاريق(٤) العنب جميعاً حافلة بهذه المادة القابضة فإنه يراعى فى الأعناب القليلة التنين عصرها بعناقيدها مع الثفاريق . وقد يتركون فى العصير ثفل العنب — ويسمونه الثَّجِير — لما فى الثفل فضلا عن كسارة الثفاريق من بقايا البزر ، وهى أيضاً لا تخلو من مادة التنين . وهذه الخمر القابضة هى ولا مراء التى يقول فيها النواسى :

(١) اللمم : طرف الجنون .   (٢) الجائفة : الطعنة التى تبلغ الجوف .
(٣) تحذى : تلذع .
(٤) الثفاريق : جمع ثفروق ، أقماع حب العنب والعناقيد الخالية من الحب .

وكأنّ عُقْبَى طعمِها صَبِرٌ وعلى البَديهةِ مُزَّةُ الطَّعْمِ (١)

وإذا ذكر الذاكرون من أبناء اليوم الخمر المعروفة بذات الرغوة أو المُرْغية ، فلنذكر أن خمر النواسى كلها خمرٌ مرغية .

والذى جاء فى الخمريات قاطع بأن القوم كانوا إذا جعلوا العصير فى الأوعية المتينة للاختمار سدّوا أفواهها بالطينة .

وكُمَّ أفواهُها دَهراً على وَرَقٍ من حُرِّ طِينَة أرضٍ غيرِ مَيْثاء (٢)

أو أنهم كانوا على الأقل يسدونها قُبيل تمام الاختمار سدًّا موثقاً محكما :

فضُمِّنَ صفوُ ما يجْنُون منهـا خَوابى — كالرِّجالِ — مُقيَّراتِ

فلمَّا قيلَ قد بَلَغتْ ولمَّا ويُوشكُ أن تَقَرَّ وأن تُواتى

نَسجتْ لها عَمائِمَ من تُرابٍ وماء ، مُحْكَماتٍ مُوثَقات

وقلما تعرّض شاعرنا لوصف التخمير فى خمرياته دون أن يذكر سداد الطين على أفواه الدنان . ولقد ذكر أكثر من مرّة ما أسماه « خاتم الدَّنَّان » على أنه — كعلامات اليوم المسجّلة — علامة الضمان لأصالة الصنف وجودة البضاعة :

بمَصُونَةٍ قد صان بَهجةَ حُسنِها كِنُّ الخُدور وخَاتَمُ الدَّنَّانِ

وجِيء بالدنِّ على مِرْفَعٍ وخاتَمُ العِلجِ على طِينه

والذى يحصل من هـذا الحرص على سدّ الدّنان وتكميم أفواهها ألا يجد غازُ ثانى أكسيد الكربون الحاصل من الاختمار منفذاً للخروج ، فيبقى من وطأة الضغط ذائباً فى الشراب ، حتى يُفكّ عن الدنان الختامُ وتُسكب الراح فى

---

(١) الصبر : عصارة شجر مر . (٢) الميثاء : الأرض اللينة السهلة .

الأقداح . فيتعرّض سطح الشراب للهواء ، وتزيده تعرضاً حركةُ المزج بالماء ، وعندئذ يتصعّد الغاز على هيئة فقاقيع فائرة متناثرة ، وهى ما يسميه أصحاب الخمر بالحبَبِ والحَبَاب . ولا تكاد تخلو من التغنى بمنظرها قصيدةٌ واحدة من الخمريات.

ونورد هنا لشاعرنا فى صفة ما لهذه الخمر المرغية من حركةٍ فى القدح عند صبها فيه ، ومن فوران ورَمْيٍ بالحبب عند المزج ، طرائف من شعره لم يسبق إلا فى الأقلّ إيرادها والاستشهاد بها :

فأبدى لنا صهباء تمّ شبابُها ... لها مَرَحٌ فى كأسها ووُثوبُ

ويا تَعالى عُقاراً قَرقَفاً رَقَصَتْ ... عند المِزَاج بطاساتٍ وأقداحِ

تَسْتَنُّ من مَرَحٍ، فى كفّ مُضْطَبِحٍ ... من خمرِ عانَةَ أو من خمرِ سُوراء[1]

كأنها — عند مَسِّ الماء من جَزَعٍ ... والماء يَجْزَعُ منها — شِبْهُ فُرّارِ
والكأسُ تُمْسكها من أن تَراعَ ، فما ... تَنفكُّ فيها بإقبالٍ وإدبار

من ماء كَرمٍ إذا تُصَفِّقها ... بماء مزْنٍ رَمَتْكَ بالزَّبَدِ

مزجَ الكأسَ لى غزالٌ أريبٌ ... هاشمِيٌّ أصابَ فيها المِزاجا
خَندريسٌ كأنها كلُّ طِيبٍ ... زوّجوها وليس تَهْوَى الزّواجا
فرَمَتْ أوجُهَ النّدامى بِنَبْلٍ ... ليس يُدْمِى وليس يُبدِى شِجاجا[2]

---

(١) تستن : تقبل وتدبر . (٢) الشجاج : الجراح .

فن صاحب الدنان فى البزل والكيلان

والآن وقد فرغنا من الكلام على صناعة الخمر، نتكلم على فن تقديمها . فنرى الخمار يتقدم إلى الدنان ينقرها واحداً واحداً يتعرف بذلك أصفاها . فإذا وقع على واحد منها اختيارُه ، نَفَض عن الدن العتيق غباره ، وجاء به — يمشى الهوينى من الحرص عليه — محمولا على مِرْفع إلى موضع البَزْل . وينظر الخمّار إلى سدادة الطين فى رأس الدن ، فإذا استوثق من خاتمه شمّر كمّه عن ساعده ، وغسل يده إلى مرفقه ، وتناول المِبْزَل أو الإشْفى ، فتوَجّأ الدن بشباة حديدته فى شَكّة واحدة لا ثانية لها . وما يكاد يَشْخَب من البزال على ترائب الدن عرقٌ أحمر حتى يهلّلَ الخمار متحمساً لشرابه ، مهيجاً إليه شهوة شُرّابه ، فإذا استقبالهم لخمره لا يقل تهللا وحماسة عن استقباله .

ثم أتتْ فى الحباب يحفُرها　　مَشى هُوَيْنى ما إنْ به نَزَقُ
فبادَروا لافتضاض عُذْرَتِها　　بناقِدٍ فى شَباته زَلَق[1]
فسال منها مثل الرُّعاف دمٌ　　يُشْفَى به ـ مِن سَقامه ـ الصَّعِق[2]

ندَبتُ لها الخمّارَ فانصاع مُسرعاً　　إلى عِدّةٍ من حَنْتَمٍ ودنانِ
دراستُه الإنجيلُ حول دنانه　　بصيرٌ ببزْلِ الدنّ والكَيلان

فجاءها مُستعدّا　　كالحارثِ بن عُبادِ
قد لفّ الكُمّ منه　　كنازِعٍ للقَتاد
فسلّ منها بزالا　　فسال مثلُ الفِصاد

---

(١) الناقد : المثقب . الزلق : الحدة .　　(٢) الرعاف : خروج الدم من الأنف.

وجئَ بالدنِّ على مرْفعٍ   وخاتَمُ العِلْج على طِينه
وافتُصِدَ الأكحلُ من دِنّنا   فانْصاع فى حمرة تَلوينه

رأيتُ عِلجاً ، بباطُرْنجى   لها تَوَجَّى ، فلم يُثْنِ

وخَندريسٍ باكرتُ حانتَها   فودَّجوا خَصرَها بمبزالِ
فسال عِرقٌ على ترائبها   كأنَّ مَجْراه فَتْلُ خَلْخالِ

لمَّا أتيتُ الدِّهقانَ أخطُبهـا   من بين أصهارها وأحماها
قال: « مَنِ الخاطبون ؟ » قلتُ له: «فتيانُ صدقٍ » فقال : «أكفاها»
حتّى إذا حطَّها وأنزَلها   وفكَّ عنها الختامَ — فدَّاها

فقام بِمبزَلٍ فأجاف دنًّا   كمثل سَماوة الجملِ الهِجانِ
فسيّل بالبزال لهـا شهاباً   أضاء له الفُراتُ إلى عُمانِ

فشَكَّ بإشفاء له بَطْنَ مُسندٍ   فـالتْ تُحاكى فى تلألئها البَدْرا

ويدفع الخمار إلى الراغبين فى خمره أنموذجات منها ، ليذوقوها ويعرفوا صدق قوله فيها ، ثم يكتال لهم بلباقة وحسن فن ، على قدر ما أدوا من ثمن . ويقال لمكاييل الخمر النياطل . وأكثر ما كان يحمل المتزودون شرابهم فى الأداوى والزقاق من جلد . وأما الذين يشربون فى حانوت الخمار فانه يتخذ لهم آلة الشراب المعهودة فى ذلك العهد .

نماذج من الشعر التعليمى

وما دمنا قد جمعنا فيما تقدم أشتاتاً مما قاله الشاعر فى وصف صناعة الخمر ، فيحسن بنا أن نورد فى هـذا الشأن قصائدَ على التمام أو ما يشبه التمام . و بعض هـذه القصائد من أبلغ الأمثلة على الشعر التعليمى فى الأدب العربى . والشعر التعليمى — كما هو مفهوم من اسمه — قوامه التعريف والإفادة . فهو درس . وقد يكون هـذا الدرس المنظوم مواعظ خلقية ، أو فوائد لغوية ، أو جوامع لأصول الأدب ومتون الأجرومية ، أو عجالة فلسفية أو علمية . والشعر التعليمى كثير فى الآداب القديمة وذلك أن القوم فى العصور الخوالى السابقة على الطباعة كان اعتمادهم كله أوجله على الذاكرة . ومن ثمة كان إقبال الكثير من أهل الفكر عندهم على نشر المعارف فى قالب الشعر لما خبروه من سهولة استظهار الناس للمنظوم ، وسرعة انطباعه فى لَوْحة القلب ، وثباته فى محفوظهم ، و بُعد نسيانهم له. ولقد ساهم شاعرنا أبو نواس مساهمة لطيفة المدخل فى هـذا الباب . وجاء درسه — ولا غرو — مختصًا بصناعة الخمر ، كما هو المؤمّل المرتقَب منه. ولقد أجاد شاعرنا الوصف ، وتقصى فى التفصيل ، واستطاع مع توخّيه الصدق العلمى أن يُفرغ موضوعه فى قالب الجمال ، مستعيناً بالجزالة فى اللفظ، والطلاوة فى العبارة ، وحسن الافتنان فى الصورة .

وهذه أولى القصائد ، ومدارها الخمر بالمعنى الحقيقى الذى خصه بها أهل اللغة ، أى التى من ماء العنب. والشاعر فى هذه القصيدة — كمثله فى سائر القصائد — يبدأ بالبداية . فيصف الكرمة مذ كانت عوداً حتى أطلعت العناقيد مكتنزة ، متراصة الحب ، سود الألوان ، ثم ينتقل بالوصف إلى ابنة العنب مذ كان القطاف إلى أن حوتها الدنان ولا يختم الكلام حتى تدور كؤوسها المتلألئة على الندمان :

وعُودِ كَرْمةِ كَرْخٍ زوَّجْتُها ماء وادِ
فلم يزَل يَعتَليها بمُسقِيات الغَوادى[١]
حتى استهلَّتْ بسُودٍ مُسَرْهَدات جِعاد[٢]
فمُهِّدتْ فى دنانٍ سَقياً لها من مِهاد
حتَّى إذا مرّ دهرٌ لها ، أتاها عِبادى[٣]
وقد تناهَتْ وصارت كمثل قَبْسِ الزِّناد
فجاءها مُستعدًّا كالحارث بن عُباد
قد لفَّف الكمَّ منه كنازعٍ للقَتاد[٤]
فسلَّ منها بزالًا فسال مثل الفصاد
إلى قَنانٍ تلالَا مُدَملجاتِ القِلاد[٥]
فأذهَلتْنِىَ عقلى واستأثرت بفؤادى
واخترتُ إخوةَ صدقٍ من خير هذى العباد
فقلتُ : «لذُّوا ، بنفسى أفديكُمُ وفؤادى
ونَفِّروا اللَّيل عنكمُ بلَذَّةٍ وسُهاد»

وأوفى من هذه بياناً لطريقة تخمير العنب ، ولعلها كذلك أبلغ أداء وأعلى طبقةً فى الجزالة وفخامة الأسلوب ، قوله :

---

(١) الغوادى : السحب تأتى فى الغداة .

(٢) سود أى عناقيد سود . المسرهد : السمين . الجعد : المجتمع المتراكب بعضه فوق بعض .

(٣) العبادى : النصرانى من عرب الحيرة . (٤) القتاد : شجر شائك .

(٥) القلاد : خيط من الصفر (النحاس) يشد به رأس القنينة .

يا ليلةً طاب لى بهــا الأرَقُ   حتَّى بدا من صَباحِها الفَلَقُ
نُسقَى سُلافاً من بنتِ دَسكَرَةٍ   ما شابَها فى دِنانِها الرَّنَق
إختارَها فى القِطاف سائِمُها   حُمراً وسوداً كأنَّها الحَدَق
حتى إذا فى الحِياض صيرَّها   خالَطَها الزَّعفرانُ والعَلَق[1]
حصَّنَها فى الحياض فاحْتَجَبَت   ما راعَها رَهْبَةٌ ولا فرَق
خَمْسينَ عاماً حتى إذا هَرِمَت   واخضَرَّ من نَبْتِ نَبتِها الوَرَق
أتَوْا بها فى الحِباب يخفرُها   مشىٌ هُوَيْنى ما إنْ به نَزَق
فبادَرُوا لافْتِضاضِ عُذْرَتِهـا   بناقِدٍ فى شبــاته زَلَق
فسال منها مثل الرُّعاف دمٌ   يُشْفَى به من سَقامِه الصَّعِق
نازَعَهـا سـادة غَطارِفةٌ   كأنَّهمْ من شَقيقَةٍ شُقِقُوا
يُسقَوْن من قَهوةٍ مُعتَّقَـةٍ   لها دَبيبٌ فى المُخِّ يَسْتَبِق
أعْطَوا بِها ربَّها حُكومتَه   بيضاً كمثل السُّيوف تَبْتَرِق
جاء بها كالخَلوق فى قدَحٍ   تَزهَرُ فى جَوْفه فتأتَلِق[2]
كأنَّ إبريقَنا إذا صُفِقَتْ   فى الكأس شَيْخٌ مُزَمْزِمٌ شَرِق[3]
كأنَّها والمــزاجُ يَقرعُها   شِهابُ نارٍ فى الجوِّ يحترِق
كأنَّما حَفَّ من قراقِرِها   بطَوْقِها جِلْدُ حَيَّةٍ يَقَق[4]
فى مجلسٍ ليس فيـه فاحِشَةٌ   إلَّا حديثٌ ومَنطِقٌ أنِق

ثم القصيدة التالية وهى فى صناعة السَّكَر وهو المتخذ من التمر . والشاعر

---

(١) العلق : الدم ، والمراد المشابهة فى اللون . (٢) الخلوق : الطيب . تزهر : تضيء .
(٣) شرق : غصان . (٤) القراقر : صوت تصاعد الحبب . اليقق : الشديد البياض .

يقدّم لها — مثلما فعل فى سابقتها — بدرسٍ شائق جميل من دروس التاريخ الطبيعى فى صفة النخل . فيستهلّ درسه بوصف موجز للنخلة فى ظاهر منظرها من استقامة قدّها وجلالة هيئتها وارتفاع شَطاطها ارتفاعاً يبعد بثمارها عن متناول الجُناة ، وهو يشبّه الكبائس[1] المثمرة المتدلّية بالضروع الحافلة ، ثم يشير إلى المساحات المترامية التى تغطيها هـذه الأحراش من النخيل مُدَّعياً أنها جميعاً من غرس من تقدّموا من الفرس . وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ذكر المواقيت الزراعية فيما يتعلق بالنخل ، فيذكر أن بدء إثماره فى مستهل الصيف عند نزول الشمس أول برج السَّرَطان ، ويمضى فى وصف الأدوار التى يمر بها هـذا الإثمار من نجوم الكوافير[2] فى أعالى النخلة على هيئة الأكفّ ، إلى تشقّق هـذه الكوافير عن نَوْرها — وهو الطلع — كاللآلئ المنظومة فى سلوكها ، ثم تقلّب الرياح المتناوحة ناقلة غبار اللقاح من ذكور النخل إلى إناثها ، فإذا بالطلع يصير خَلالًا ، ويخضرّ فيصير بلحاً كالزمرّد خضرةً ، حتى يطلع سُهَيْل فى أواخر القيظ فإذا البسر يلوّن كاليواقيت حُمراً وصفراً . ولا تكاد ترطّب أطرافه حتى يبادر الجناة إلى النخل يتسلقونه ومعهم أدوات القطع ، وهى مُعَقَّفات من حديد ، فيقطعون الكبائس ويستنزلونها فى رفق . وهنا ينتقل الشاعر إلى القسم الأخير والأهم من درسه وهو صناعة الخمر من البُسر . فيصف لنا البسر المُرْطِب يُودع الخوابى المقيّرة ويضاف إليه الماء ، ثم كيف يعمدون إلى تحريكه ضرباً بالسِّياط المحكمة الفتل من اللِّيف تنشيطاً للاختمار وحثًّا له . فإذا قارب الاختمار أن يَتم عمدوا إلى أفواه الخوابى فسدّوها سدًّا محكماً منعاً لفساد الخمر وتخلّلها . وعلى هذه الصفة يحصل أصحاب الخمر من ثمرات النخيل على خمر جيّدة طيبة مشرقة اللون متلألئة :

---

(١) الكبائس جمع كباسة : العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب .

(٢) الكوافير جمع كافور : وعاء طلع النخل .

لنا خمرٌ وليس بخمرِ نخلٍ ... ولكنْ من نتاجِ الباسِقاتِ
كرائمُ فى السماء زَهَيْن طُولاً ... ففاتَ ثِمارُها أيدى الجُناة
قلائصُ، فى الرءوسِ لها ضُروعٌ ... تَدِرُّ على أكفِّ الحالِبات
مَسارِحُها المَذارُ، فبطنُ جوخا ... إلى شاطئِ الأُبُلَّة، فالفُرات
تُراثاً عن أوائِلِ أوَّلينا، ... بَنِى الأحرار، أهلِ المكرُمات
فحين بدا لك السَّرطانُ يتلو ... كواكبَ كالنِّعاجِ الرّاتِعات[1]
بدا بين الذَّوائِبِ فى ذُراها ... نَباتٌ كالأكُفِّ الطّالِعات
فشُقِّقت الأكفُّ، فخِلْتُ فيها ... لآلئَ فى السُّلوك مُنظَّمات
وما زال الزَّمانُ بحافَتَيها ... وتقليبُ الرِّياح اللّاقِحات
فعاد زمُرُّداً، واخضرَّ حتى ... تخال به الكِباشَ النّاطِحات
فلمّا لاح للسّارى سُهَيْلٌ ... قُبَيل الصُّبح من وَقتِ الغَداة
بدا الياقوتُ، وانتَسبَتْ إليه ... بحُمرٍ أو بِصُفرٍ فاقِعات
فلمّا عاد آخرُها خَبيصاً ... بعثتُ جُناتَها بمُقَفَّعات[2]
بعثتُ جناتَها فاستَنزَلوها ... بِرِفقٍ من رُءوسٍ سامِقات
فضُمِّنَ صَفْوُ ما يجنُون منها ... خوابِىَ — كالرِّجالِ — مُقَيَّرات
وقلتُ «استَعْجِلوا» فاستَعْجَلوها ... بضَربٍ بالسِّياطِ مُحَدْرَجات[3]
ذوائِبُ أُمِّها جُعِلتْ سِياطاً ... تَحُثُّ، فما تناهى ضارِبات
فولّدتِ السِّياطُ لها هَديراً ... كتَرجيع الفُحولِ الهائِجات[4]
فلمّا قيل قد بَلغت ولمّا، ... وتُوشِكُ أن تقَرَّ وأن تُوَاتى

---

(١) السرطان : من بروج السماء . ويكون الصيف عند نزول الشمس أول السرطان .
(٢) المقفة والعقفاء : حديدة أو نحوها ملوى طرفها وفيها انحناء .
(٣) محدرجات : مفتولات محكمات . (٤) الفحول : جمع فحل ، ذكر الإبل .

نَسجتُ لها عَمائِمَ من تُرابٍ ... وماء ، مُحكماتٍ مُوثقات
ستَرتُ الجوَّ خوفاً من أذاهُ ... فباتت من أذاه آمِنات
فلمَّا قيل قد بلغتْ كَشَفْنا الـ ... عمائِمَ عن وُجوهٍ مُشرقات
حَسَاها كلُّ أَرْوعَ شَيْظَمِيٍّ ... كريمِ الجَدِّ محمودٍ مُؤات(١)
تحيَّةَ بَينِهِم « تَفديكَ رُوحى » ... وآخرُ قولِهم « أفديكَ هاتِ »

وآخر ما نسوقه من نماذج الشعر التعليمى عند شاعرنا ، هذه الهمزية . وهى ليست فى خمر العنب ، ولا فى خمر النخيل ، وإنما هى فى صناعة البتع أى النبيذ المتخذ من العسل . والصورة التى يقدمها الشاعر بين أيدينا لا تعدلها صورة شعرية فى التوضيح والاستيفاء العلمى . فهو يصف النحل العاملات ، ضامرات الجسوم ، فُطس الأنوف ، غائرات العيون ، تغدو إلى الغيطان والأودية ، فتحط على نوّارها وأزهارها متنقلة بينها ، تمتص بألسنتها الطوال الدقاق من كؤوس الرياحين رحيقها المعسول . ثم يعود الشاعر إلى هذه الأسراب من النحل العاملات فيصف عودتهن فى المساء إلى القفير ، وفيه معقل الملكة التى يعملن تحت إمرتها ، والتى تمضى فيهن جميعاً حكومتها . والملكة أعظم منهن جرماً وأعزّ شأناً . وهن يكدحن جميعاً طَوال النهار يذرعْن الفضاء جيئة وذهوباً ، فلا يزلن يبنين فى القفير أقراص الشمع ، ويختزنّ أزواد العسل . والملكة فى موضعها متربعة على عرشها لا ترعى زهراً ولا تحوم على ثمر . إنها الملكة دعامة القفير ، ولا مستقبل لمملكة القفير بغيرها .

ولسنا نزعم أن شاعرنا قد أُلهم السداد فى جميع ما ذكره عن حياة النحل ، وأنه لم يلتبس عليه وجه الصواب فى شىء . فلقد جعل الشاعر ملكات النحل ملوكاً ، وجعل وظيفة النسل شائعة فى النحل العاملات ، وهى مقصورة على الملكة

(١) الشيظم والشيظمى : الجسيم الفتى .

أم الجميع . غير أنه من الإنصاف للشاعر أن نقول إن هذه معارف العلماء فى عصره . وإننا لنظلمه أشد الظلم إذا طالبناه أن يتقدم فى العلم عصره وأن يعلم فى التاريخ الطبيعى أو غيره من العلوم ما نعلمه اليوم . وحسبنا منه هذه الصورة الحية لحياة النحل ، وما أشاع فيها هنا وهناك من الحركة ، حتى لنحسبنا منها بمشهد من مشاهد الطبيعة المسجلة عن الحياة فى أشرطة الصور المتحركة التعليمية فى عصرنا الحاضر . قال :

ليستْ إلى النَّخْل والأعنابِ نِسْبَتُها ... لـكنْ إلى العَسَل الماذِىِّ والماء[(١)]

نِتاجُ نحلٍ خلايا غَيرِ مُقفِرَةٍ ... خُصَّت بأطيب مُصْطاف ومَشْتاء

تَرعَى أزاهيرَ غِيطانٍ وأوديةٍ ... وتشربُ الصَّفوَ من غُدْر وأحساءِ[(٢)]

فُطْسُ الأنوفِ ، مَقاريفٌ مُشَمَّرةٌ ... خُوصُ العيونِ ، بَرِيئاتٌ من الدَّاء[(٣)]

من مُقْربٍ عُشَراء ذات زَمْزمةٍ ... وعائذٍ مُتْبعٍ منها وعَذْراء[(٤)]

تغدو وترجعُ ليلاً عن مساربها ... إلى مُلوكٍ ذَوى عِزٍّ وأحْياء[(٥)]

كلٌّ بمَعقِله يُمْضى حُكومتَه ... فى حِزْبه بجميلِ القَوْل والرَّاء

لم تَرْعَ بالسَّهلِ أنواعَ الثمار ولا ... ما أينعَ الزَّهرَ مَن قَطْرٍ وأنْداء[(٦)]

زالَتْ وزِلْنَ بطاعاتِ الجماع فما ... ينينَ فى خُدُرٍ منها وأرجاء

حتَّى إذا اصطَكَّ من بُنْيانها قُرَصٌ ... أرْوَيْنَها عسَلًا من بعد إصداء[(٧)]

وآن من شَهْدِها وقتُ الشِّيارِ فلم ... تلبثْ بأنْ شُيِّرتْ فى يوم أضواء[(٨)]

---

(١) الماذى : العسل الأبيض . (٢) الغدر : جمع غدير . الأحساء : جمع حسى وهو السهل من الأرض يستنقع فيه الماء . (٣) مقاريف : جمع مقروف وهو الضامر . خوص العيون : غائرتها . (٤) المقرب : التى قرب ولادها . العشراء : التى مضى لحملها عشرة أشهر . العائذ : الحديثة النتاج . متبع : يتبعها ولدها . (٥) أحياء : جمع حى وهو القبيلة والعشيرة . (٦) هذا البيت وسابقه وصف لملكات النحل . (٧) اصطك : انطبق وتقارب . الصدى : العطش . (٨) الشيار : جنى العسل .

وصَفَّقُوها بمـاء النّيل إذ بَرزَت   فى قِدْرِقَسٍّ كجوفِ الجبِّ رَوْحاء[1]
حتَّى إذا نزَع الروّادُ رَغوتَها   وأقصَتِ النَّارُ عنها كلَّ ضرَّاء
استوْدَعوها رواقيـــداً مُزَفَّتةً   من أغبرٍ قائمٍ منها وغَبْراء[2]
وكُمَّ أفواهُها دهراً على ورقٍ   من حُرِّ طينةِ أرضٍ غيرِ مَيْثاء
وعُمِّرَت حِقباً فى الدنّ لم يرَها   حَىٌّ من الناس في صُبْحٍ وإمساء
حتَّى إذا سكنَتْ فى دنِّها وَهَدَت   من بعد دَمْدَمةٍ منها وضَوْضاء
جاءتْ كشمسِ ضُحًى فى يوم أسعُدِها   من بُرج لهوٍ إلى آفاق سرَّاء

هيئة مجلس الشراب

وبعد ما شهدناه من حوانيت الخمر واجتزنا به من حانات الأديرة وأفدناه من معارف عن صناعة الأنبذة ، نظن أن قد حان الوقت للكلام عن هيئة مجلس الشراب على اختلاف المكان والزمان ، وما يكتمل به نظمه من مقدّمات وأركان ، وما يجرى عليه أمره من سنن موضوعة وعادات مألوفة ورسوم مرعية . وذلك جميعه سنأتى عليه سالكين طريق الإيجاز .

فنى النهار كانوا يؤثرون — كما رأينا — المجلس المرتفع المكشوف ليشربوا على وجه السماء . فالخمر أحب ما تكون إليهم هنا وهم يتنسمون برد الهواء ، ويملئون العين بالضياء ، ويسرحون النظر إلى البعيد من مناظر القيعان والأودية . فإن كان اليوم قائظاً شديد الحر عمدوا إلى الرياض يتفيئون ظلالها عند ماء جار

---

(١) تصفيق الشراب : مزجه بالماء وتقليبه من إناء إلى إناء ليصفو . روحاء : واسعة . والنيل : خليج كبير يتخلج من الفرات من أعمال بابل وهو معروف منذ التاريخ القديم .

(٢) الراقود : دن كبير طويل الأسفل يطلى داخله بالقار .

وجعلوا مجلسهم على بساط الخضرة فوق العشب المرصع بنجوم الزهر ، وتحت الشجر المفترّ عن مضاحك النَّوْر .

أما فى الليل فنراهم يكثرون مع المصابيح من إيقاد الشموع ، يروقهم منها بياضها الشاحب وقامتها المشرعَة ، ومن فوقها لسان ذبالتها واحمرار شعلتها ، وهى فى صورتها هذه تتراءى لخيالهم الشعرى المترف كأنها رماح ولكن من فضة ، ولها أسنّتها ولكن من ذهب . والشموع فيما عدا منظرها العَجَب تزيد من التنبه العصبى بما يحصل عن كثرتها من شدة النور ، وإنه ليتكاثر فوق ذلك ويتضاعف بانعكاساته على آنية البلور .

وإذا كان الشرب فى أوان الصيف فى الدُّور ، رشّوا المجلس بالمياه العطرية الممسّكة أو المستخرجة من الزهر ، وفرشوه على مألوف العادة بالرياحين ، من منثور وورد ونسرين ، ومن آس ونيلوفر وياسمين . وهم يسمون ما يزين به مجلس الشراب بالعمارة أو العمار ، وتسميه الفرس مبوران . ولا تخلو هذه المجالس من فاكهة الصيف لا سيما التفاح ، إذ ليس فى الأرض — على زعمهم — رائحة أعصم للروح من رائحة التفاح .

إشْرَبْ نَدِيمِىَ فى كاساتِ بَلُّورِ ... فى مَجْلِسٍ بِفُنونِ الزَّهْرِ مَعْمورِ

يا حَبَّذا المجلسُ من مَجْلِسٍ ... قد حُفَّ بِالخِيرِىِّ والنَّرْجِسِ
وَفيه إخْوانٌ لنا سادَةٌ ... كلُّهُمُ ذو كَرَمٍ يَحْتَسى

فالعَيْشُ فى مَجْلسٍ حُفّت جَوانِبُهُ ... بالنَّرْجِسِ الغَضِّ والنَّسْرِينِ والآسِ

ودارِ نَدامَى عَطَّلُوها وأَدْلَجُوا ... بِها أَثَرٌ مِنْهُمْ جَديدٌ ودَارِسُ
مَساحِبُ من جَرِّ الزِّقاقِ على الثَّرى ... وأَضْغاثُ رَيْحانٍ جَنِىٌّ ويابس

وأما فى الشتاء فيكون مجلس الشرب فى الأكنان على فرش الصوف . ومشموماتهم فيه فتيت المسك والعنبر ، وفى وسط المجلس المجامر يحرق فيها العود والندّ .

وفى هذه المجالس ينصب الخوان ، أو يمدّ على الأرض السماط ، وعليه ما لذ وطاب من لحم وحشٍ وطير ، ومن جنى الفاكهة وأنواع النقل . وتأخذ العين من بين هذه جميعاً آنية الشراب كأنظف ما تكون وأظرفه ، وإذْ كان المجلس للشراب وتلك آلته ، فمن حقها علينا أن نخصها بشىء من البيان والوصف المفصل.

آلة الشراب

كانت الخمر تسكب إذا لزم الأمر فى الراووق لتصفو ويرسب كدرها قبل شربها . والراووق معروف من قديم وفيه قول الأعشى المشهور :

نازعتهم قُضُب الرَّيحانِ مُرتَفِقاً وقهوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ

وهم يجعلون الخمر إما فى الناجود ، وهو كل إناء يجعل فيه الشراب من جفنة أو غيرها ويغترف منه القوم فى أقداحهم ، وإما فى الدوارق وهى على هيئة الجرة الصغيرة ذات عروة ، وإما — وهو الغالب الأعم — فى الأباريق من زجاج أو من رصاص أو شبهٍ أو من معدن كريم كالفضة والذهب ، يصبّون منها الشراب فى الكؤوس . وقد أكثر أبو نواس من ذكر هذه الأباريق ذات العروة والبلبل[1] وجاء بمختلف التشابيه فى رقابها الطوال العوج :

ثُمّ صارَتْ إلى أغَنَّ كَطير الـ ماءِ إبريقِ فِضَّـةٍ مَفْدومِ[2]

ثم زُفَّتْ إلى الزُّجاجِ بِدِرْعٍ مثلَ نارٍ تَحكِى الْتِهابَ الْحميم

---

(١) البلبل : قناة الكوز التى تصب الماء .

(٢) مفدوم : جعل عليه الفدام (المصفاة) .

فى أباريقَ سُجَّدٍ كبنات الما ءِ أقعَيْنَ من حذارِ الصُّقُورِ [١]

لدينا أباريقٌ كأنّ رقابَها رقابُ كراكِيّ نظَرْنَ إلى صَقْرِ [٢]

كأنّ إبريقَنا ظبيٌ على شَرَفٍ قدمَدّ مِنهُ لخوفِ القانصِ العُنُقا

فى أباريقَ من لُجَيْنٍ حِسانٍ كظباء سَكَنّ عُرْضَ قِفارِ
أوْ كَراكٍ ذُعِرْنَ من صَوْتِ صَقْرٍ مُفزَعاتٍ ، شَواخِص الأبْصار

كما جاء بأكثر من تشبيه لحكاية صوت الشراب فى اندفاقه من الإبريق :

كأنّ إبريقَنا إذا صُفِقَتْ فى الكأسِ شَيخٌ مُزَمْزِمٌ شرِقُ

كأنّ قَرْقَرةَ الإبريقِ بَيْنَهُمُ رَجْعُ المزاميرِ أو تَرْجيعُ فأفاء

ومن آنية الشرب التى تتخذ فيما تتخذ له الأباريق ، القنانى والقوارير من زجاج، وهى على هيئات، منها العظيمة الأسفل كالحوجلة ، والطويلة العنق كالحوقلة والواسعة الأعلى الضيقة الأسفل كالباطية . وعلى فم هذه الأوانى جميعاً يشدّون فى أكثر الأحيان خرقة يسمونها الفدام بمثابة المصفاة . وقد يتخذ الكوب وهو كالكوز إلا أنه لا عروة له ، وقد يكون ذا خرطوم وعُرًى ، وفى الكوب قول النواسى :

والكوبُ يَضحَكُ كالغزالِ ، مُسبِّحاً عند الرُّكوعِ بلَثْغَة الفأفاء

أما الأقداح فمنها الغُمَر وهو القدح الصغير الذى لا يبلغ الرى ، ومنها القعب وهو القدح الكبير ، وأكبر منه العُسّ والصَّحْن . وكالأقداح والكاس والطاس

---

(١) أقعين : جلست على أذنابها .

(٢) الكراكى : جمع كركى طائر كبير طويل العنق والرجلين .

والجام والزجاج وغيرها . ويسمى القدح المقعر الكثير الأخذ من الشراب الوأب ، ويقال للقدح أعلاه ضيق ووسطه واسع المكوك ، ويوصف القدح الواسع المنبسط القصير الجدار القريب القعر بأنه أرحّ أو رحرح أو رحراح ، وغير ذلك من الأسماء والصفات تزخر بها كتب اللغة والأدب .

ولقد عرض شاعرنا لهذه الآنية بالوصف فى كثير من شعره. فتناول منها المتخذ من البلور أو من الزجاج الفرعونى ، وظاهرٌ أنها من صناعة مصرية ، فقال :

إشربْ —نديمىَ— من كاساتِ بَلُّورِ فى مجلسٍ بفنونِ الزَّهر معمور

قلتُ « القَنانِىّ والأقـداح ولَّدَها فِرعونُ » قالت « لقدْهيَّجت لى طَرَبا »

وقد بلغ هذا البلور من الصفاء ورقة المستشف أن زعم لنا الشاعر أن كأسه صيغت من حجر كريم ، فالكأس تارة لؤلؤة ، وتارة ياقوتة بيضاء . ثم لا يلبث خياله أن يستقل متن الهواء ويبعد فى الفضاء، فيتمثل الكأس كأنها كوكب درى

فالخمرُ ياقوتةٌ ، والـكأسُ لؤلؤةٌ فى كَفِّ جارِيةٍ ممشوقةِ القَدِّ

فالخمرُ فينا كالبَجادِى حُمرةً والكأسُ من ياقوتةٍ بيضاء[1]

وكأنَّ أقداحَ الزُّجاج إذا جَرَتْ وَسْط الظَّلام كواكبُ الجَوْزاء

وظاهر أن بعض هذه الآنية كان من زجاج ملون ، وينص الشاعر فى هذه المرة على أنه صناعة فارسية على حد قوله :

بآنيةٍ مُخْروطةٍ من زبَرْجدٍ تخيَّرَ كِسْرى خَرْطَها ليَصونَها

أما الآنية غير الزجاجية ، فقد ترك لنا النواسى منها أكثر من قدح من ذهب . وأقداحه هذه كلها أو جلها مصور ، ونصاويرها إما رومية نصرانية ، وإما

---

(١) البجادى : حجر كالياقوت أحمر تعلوه بنفسجية كثير الماء .

— وهو الأكثر — فارسية ساسانية . وهذا قوله فى الكأس المصورة الرومية :

واستوسقَ الشُّربُ للنَّدامى وأجْ ... راها علينا اللُّجَينُ والغَرَبُ(١)

أقولُ لمَّا تحاكيَـا شبهًا : ... « أيُّهما — للتَّشابُه — الذَّهب »

هما سواءٌ ، وفرقُ بَيْنِهما ... أنهما جامدٌ ومُنْسكب

مُلْسٌ ، وأمثالُهــا مُحَفَّرةٌ ... صُوِّرَ فيها القُسوسُ والصُّلُب

يَتْلُون إنجيلَهُم ، وفوقَهمُ ... سماء خمرٍ نجومُها الحَبَب

وأما الأقداح المصورة الفارسية ، فالذى يلحظ فيها جميعاً أن فى قرارتها صورة كسرى يستقبلها نظر الشارب ، ثم فى جنباتها صور الفوارس :

تُدارُ علينا الرَّاحُ فى عَسجَدِيَّةٍ ... حَبَتْها بأنواعِ التَّصاوير فارسُ

قَرارتُها كسْرى ، وفى جَنَباتها ... مَهًا تدَّريها بالقِسىِّ الفوارسُ

فللرَّاح ما زُرَّت عليه جُيوبُها ... وللماء ما دارت عليه القَلانِس

فحَلَّ بِزالها فى قَعْر كأسٍ ... مُحَفَّرة الجوانبِ والقـرارِ

مُصوَّرة بصورة جُنْدِ كِسرى ... وكِسرى فى قرار الطَّرْجَهار(٢)

وجُلُّ الجُند تحتَ ركابِ كسرى ... بأعْمِـدةٍ وأقْبِيةٍ قِصــار

بَنَيْنا على كسرى سماءَ مُدامةٍ ... مُكَلَّلة حافاتُهــا بنُجومِ

نُزوِّجُ الخمرَ من الماء فى ... طاساتِ تِبرٍ جَوفُها يَفهَقُ(٣)

مُنَطَّقاتٍ بتصــاويرَ لا ... تسمَعُ للدَّاعى ولا تَنطِق

على تَماثيل بَنى بابَكٍ ... مُحْتَفَرٌ ما بينَهم خَنـدَق

---

(١) استوسق له الأمر : انقاد وأمكن . الغرب : الذهب .

(٢) الطرجهار : كأس للشراب (معرب) . (٣) فهق الإناء : امتلأ حتى تصبب .

كأنَّهم والماء من فوقهم كَتائِبٌ في لُجَّةٍ تَغرَق

وأكبر الظن عندنا أن أبا نواس كان محبباً إليه مزيناً عنده الأقداح الملاح من الزجاج الشفيف الرقيق ، لشفوفها عن منظر الشراب وحكاية لونه للعين ، ثم لانعكاس لون الشراب منها على كف الساقى المنادم ، وما يخيله من تخضيب بنانه الرخص الناعم :

وحمراءَ كالياقوتِ بتُّ أشُجُّها وكادت لِكفِّي فى الزُّجاجةِ أن تُدْمِي

كأنَّ بنانَ مُمْسِكِها أُشيمَت خِضاباً حين تَلمعُ فى الزُّجاجِ

يسقيهمُ حمراءَ ياقوتةً تَسرَجُ فى الكأس وفى الكفِّ

وإذا ذكرنا كثرة تشبيه النواسى للكئوس بالسرج وبالنجوم ، لم يبق لدينا شك فى إيثاره اتخاذ الكئوس الزجاجية النقية فى مجالس شرابه . ونجتزئُ من أوصافه الكثيرة لها بمقطوعتين مثالا على كل من التشبيهين الأثيرين عنده :

حَثَثْنا مُغَنِّينا على شُربِ كأسِهِ فتُدرِكه كأسٌ وفى كفِّه أُخرى

فأمسكَ ما فى كفِّه بشمالِهِ وأوْما إلى السَّاقى ليَسقِيَه باليُمنى

فشبَّهتُ كأسَيْه بكفيْه إذا بدا سِراجَيْن فى مِحرابِ قَسٍّ إذا صَلَّى

إذا الكاساتُ دارَ بها عَلَينا تكوَّن بينها فَلَكٌ يَدورُ

تدورُ نجومُه عجَلاً ورَيْثاً مُشرِّقةً ، وتاراتٍ تغور

إذا لم يُجْرِهِنَّ القُطب مِنّا وفى دَوْراتِهِنَّ لنا نُشور

احتفال الشاربين وأدب الشرب

وكان لمجالس الشرب التى يعقدها الأمراء والكبراء حُلَّتها الرسمية ، وهى خاصة

بهذه الاحتفالات ، وتعرف بثياب المنادمة . وهى غلائل رقاق من المصبغات الزاهية الألوان من حمر وصفر ، وتكون عليها أحياناً ملاءة تقوم قياماً من شدة الصقال .

ويأخذ الندمان مجالسهم فى هيئة حسنة ، فلا ترى إلا حَسن البِزّة ، متأنق اللبسة ، مطيّب الأردان ، مضمّخ الشعر ، مسرّح اللحية ، متظرفاً فى العبارة ، متلطفاً فى الإشارة .

وكانت العادة فى مجالس الشراب عامة أن تكلل رءوس الشاربين ومعهم الساقى بأكاليل الزهر ، أو على الأقل يضعون على متن آذانهم زهرة من الآس أو الآذريون . وهم يجلسون وبين أيديهم قضب الرياحين ، وكلما دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منها بأيديهم يحيونه بها . ولا جرم تكون هذه المجالس المثل الأعلى للحياة عند من كان مثل شاعرنا فى حب الدعة والترف :

أَلَذُّ وأحلى من قِراعِ الكتائبِ مُصافحةُ الطَّاساتِ من كلِّ جانبِ
وأخْذُ تحيَّاتِ النَّدامى وردُّها بترحيبِ أُنسٍ من حبيبٍ وصاحب
ولُبسُ أكاليلِ الرّياحِين مَعْهمُ وإنصاتُ آذانٍ إلى ضَربِ ضارب

أحسنُ عندى من انكبابِكَ بالفِهْرِ مُلِحًّا به على وَتِدِ[1]
وُقوفُ رَيْحانةٍ على أُذُنٍ وَسَيْرُ كأسٍ إلى فَمٍ بيَدِ

لنا رَوامِشْنَ يُنْتخبنَ لنا تَظَلُّ آذانُنا مَطاياها[2]

وكان إذا بدأ الدور تقدم الساقى إلى رب المجلس فى أدب ولطف يسقيه ، ثم دار

(١) الفهر : حجر قدر ما يملأ الكف .
(٢) روامشن : جمع روامشنة وهى ورقة آس لها رأسان (فارسية) .

بعده على حلقة الحاضرين يسقيهم . والساقى فى دورته بالكأس يجريها على اليمين، إلا إذا شاء رب المجلس أن تجرى يساراً كرامة لبعض من على يساره من الجالسين . ولم تزل هذه عادة العرب فى جاهليتهم و إسلامهم ، كما هو المدلول عليه فى أقوالهم.

قال عمرو بن كلثوم :

صرفتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمروٍ وكان الكأسُ مَجْراها اليمينا

وقال الوليد بن يزيد الأموى :

أدِرِ الكأسَ يميناً لا تُدِرْها ليَسارِ

وعلى النديم إذا تناول القدح أن يشمه و ينظر فيه ، مع المحادثة عليه قليلاً . و إذا كان حديث أو غناء أصغى إلى صاحبه ، فلا يشرب قبل انقطاع صوته . و يكون قدحه فى أثناء ذلك محمولاً بين أنامله لا يضعه على الأرض .

و يكون البدء عادة بالأقداح الصغار ثم الأوساط ثم القِعاب الكبار . والقوم فى أثناء الشرب يتهادون ما بين أيديهم من تحايا ، وهى من أطايب الفاكهة حيناً وأحياناً قضبان الرياحين أو الطاقات اللطاف من الزهر و بعد كل دور من التناول يشتغلون بالحديث نوبةً و بالغناء أخرى .

المنادمة والنديم

وليس بعد استجادة الشراب وتهيئة آلته وزينة مجلسه ما يهتم له صاحب المجلس ويحتفى به مثل اختياره لنديمه أو لندمائه على الشراب . وفى ذلك يقول النواسى :

أرى للكأسِ حقًّا لا أراه — لغير الكأس — إلّا للنَّديمِ

وليس كل مشارب يشرب معك بالنديم . فالنَّديم الكامل أديب بأوسع معانى الكلمة . والكثير من مجاميع الأدب القديمة دعا إلى جمعه منادمةُ الكبراء . وفى تفسير الأديب يقول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنّاً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنن فى العلوم » . ومثله قول ابن خلدون « إن الأدب لاموضوع له » . فإذا أريد حده قالوا هوحفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من العلوم اللسانية والشرعية . على أن النديم كان يحتاج إلى أكثر من ذلك فى عصور الحضارة ، فلم يكن له عن الإلمام بأنواع الثقافات فى هذه العصور غنى ولا مندوحة ، ومنها الطب والفلك والنجوم والطرد والقنص ولعب الصوالج والشطرنج والموسيقى والغناء . ولا تقف حاجة النديم عند هذه الثقافات الذهنية والفنية فحسب ، بل لا بد أن تجتمع له معها ألوان من الشمائل الخلقية يوفق بينها بحسن الاستعداد والمرونة ، فيكون له مع عزة الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النساك مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث . ثم هو محتاج أن يجمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الذى ينادمه على حسب ما يبلوه من خلائقه ، وما يتعلمه من ملامحه و إشاراته .

ولقد وردت بعض هذه الصفات التى يحتاج إليها على لسان معاصر لأبى نواس ، هو أبان اللاحقى فيما وصف به نفسه للأمير الفضل بن يحيى البرمكى حين ورد على بابه يعرض نفسه وأدبه عليه :

أنا من بُغية الأمير وكنزٌ ... من كنوز الأمير ذو أرْباحِ

شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفُّ من الرِّيـ ... ـشة ممَّا يكون تحت الجَناح

ثم أرْوِى عن ابن هَرْمَةَ للشعـ ... ـر وقول النسيبِ والأمداح

ثم أروِى عن ابن سيرين للفقـ ... ـه بقولٍ منوَّرٍ الإفصاح

لىَ فى النَّحْوِ فِطنةٌ ونفاذٌ ... أنا فيه قِلادةٌ لوِشاح

كاتبٌ ، حاسبٌ ، خطيبٌ أديبٌ ناصحٌ راجحٌ على النُصَّاح
لستُ بالضَّخمِ يا أميرُ ولا اا قَدْمِ ولا بالمُجَحْدَرِ الدَّحْداح
لِحيةٌ سَبْطَةٌ ووجهٌ جميلٌ واتقادٌ كشُعلة المِصباح
وظريفُ الحديث من كلِّ فنٍّ وبصيرٌ بخفياتٍ ملاح
كمْ وكمْ قد خبأتُ عندى حديثاً هو عند الملوك كالتفاح
أيمَنُ الناسِ طائراً يومَ صَيْدٍ فى غُدوٍ خرجتُ أو فى رَواح
أبصرُ الناس بالجوارح والخيـ ل وبالخُرَّد الحِسان الصِّباح
كل هذا جمعتُ والحمدُ للـ ه ، على أننى ظريف المِزاح
لستُ بالنَّاسك المُشَمِّر ثَوْبَيْـ ه ، ولا الماجِن الخَليع الوَقاح
إن دعانى الأمير عايَنَ منى شَمَّرِيًّا كالبُلبل الصيَّاح

منادمة الرؤساء

وكانت للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء مجالس منادمة قد تحدثَتْ فأكثرت من الحديث عنها كتبُ الأدب . ولهذه المجالس شرائط صعبة ومسالك ضيقة على الندماء . فعلى كل نديم أن يجلس فى مرتبته ، جاثياً على ركبته ، لا يظهر شىء من قدمه ، من غير اتكاء ولا استناد إلى جدار أو مخدَّة ، مع حسن أدب وسكون ، فلا يعبث بثوب ولا خاتم ولا لحيـة . وعليه كلما نهض الرئيس أن ينهض لنهوضه ويجلس لجلوسه . وألّا يدنو إلّا إذا استدناه ، ولا يبتدئه بكلام ولا يستعيده منه . وإذا سأله الرئيس نهض قائماً على قدميه وأجاب بأوجز عبارة وألطف إشارة ، ثم لا يجلس حتى يأذن له . وينبغى أن يكون ذهنه وإصغاؤه ومجاميع قلبه كلها مع الرئيس ، لا يتشاغل عنه ولا يلتفت إلى غيره .

ومهما يكن ما بين يديه من الرياحين والأزهار ، فينبغى ترك الإكثار من شمها أو من تناول غيرها من الشمّامات[1] ، أو العبث بالفاكهة . ويحسن منه الإقلال من التنقل على الشراب . وليس له بحال من الأحوال أن يستحث الشراب ، أو يقترح صوتاً على مغن أو مغنية . وكان لكل خليفة أو ملك أمارة يعلم منها ندماؤه أنه يريد قيامهم فينصرفون .

وليس غريباً بعد ما تقدّم من صفة هذه المجالس أن كانت منادمة شاعرنا الخليع للخليفة هارون الرشيد مما تنازع فيه أصحاب التواريخ والسير . وما نحسب شاعرنا — مع الذى كان لشعره من حسن الموقع لدى الخليفة ومع دخوله أحياناً عليه — قد شهد فى حضرته مجلساً من مجالس المنادمة والغناء ، وهى لا تحصى من الكثرة وقد شهدها غير واحد من الشعراء . وإنما نادم أبو نواس من الخلفاء محمدًا الأمين ، مع من كانوا ينادمونه من الغلمان والخصيان والخلعاء المستهترين .

وأكبر الظن أن الشاعر كان من الكرامة لنفسه بحيث لا يطيب له أن ينادم من الرؤساء إلا من كان يجرى مع الندماء مجرى الأقران والأكفاء . فلقد ذكر الرواة اتصاله ببعض أولاد الخلفاء كولدَىْ المهدى وبعض الأمراء من الهاشميين ، وأنه كان يلازمهم وينادمهم ، ونجد مصداق ذلك فى صفته لهذا المجلس :

أشرَبُها صِرفاً فإنْ هي قَسَتْ ... زوَّجتُها بالماء حتى تَلِينْ
لدى شريفٍ حسنٍ وجهُه ... أحْوَرَ ، قلبي بهواه رَهين
من وَلد المهدىَّ في ذِروةٍ ... مهذَّبٍ يَخلِطُ حزماً بلين

---

(١) الشمامات : كل ما يشم من الروائح الطيبة .

ولقد نادم أبو نواس القاسم بن الرشيد ، فلم يلبث أن لقى القاسم منه أشياء كرهها وكرهت له ، ففارقه .

وممن نادمهم أبو نواس الأمير عيسى بن أبى جعفر المنصور . وقد عزم الأمير يوماً عليه أن يقيم معه فى قصره أسبوعاً بالقفص بين بغداد وعُكْبَرَا قريباً من بغداد ، وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه ، وتنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة . وقد أقام الجماعة بالقفص يقصفون ويشربون بين عزف وغناء فى مجلس مونق وسط الحدائق الفيحاء ، فلما أرادوا الانصراف ، وصله الأمير وخلع عليه وحمّله الهدايا ، وقال له : « بحياتى عليك ! صف مجلسنا هذه الأيام كلها التى أقمناها » فقال فى ذلك :

يا طيبَنا بقُصور القُفْصِ مُشرقةً ... فيها الدَّساكرُ والأنهارُ تَطَّرِدُ
لما أخذنا بها الصَّهباء صافيةً ... كأنها النَّارُ وَسْط الكأس تتقد
جاءتْكَ من بيت خمَّارٍ بطينتِها ... صفراءَ مثلَ شعاعِ الشمس تَرْتَعِدِ
فقام كالغُصن قد شُدَّت مَناطِقُه ... ظبيٌ يكاد من التَّهييفِ يَنْعَقد
فاستلَّها من فم الإبريقِ فانبعثَتْ ... مثل اللِّسانِ جَرى، واستمسكَ الجسَد
فلم نزل فى صباح السَّبْتِ نأخذُها ... والليل أجمعه حتَّى بدا الأحَد
ثم ابتدأنا الطلا باللَّهو من أممٍ ... فى نعمةٍ غاب عنها الضِّيقُ والنَّكد
حتى بدت غُرَّةُ الإثنَيْن واضحةً ... والسَّعدُ مُعترضٌ، والطَّالِعُ الأسَد
وفى الثُّلاثاء أعملنا المطيَّ بها ... صهباءَ ما قرَعتْها بالمزاج يد
والأربعاء كَسَرنا حدَّ سَوْرَتِها ... والكاسُ يَضحكُ فى تيجانِها الزَّبَد
ثم الخميس وَصَلْناهُ بليلته ... قَصْفاً وتمَّ لنا بالجُمْعةِ العَدَد

يا حسنَنا ! وبحارُ القَصف تغمرنا　　في لُجَّة اللَّيل والأوتارُ تنفَرِد
في مجلس حوله الأشجارُ مُحْدِقَةً　　وفي جوانبه الأنهـارُ تطَّرِد
لا نَستَخِفّ بساقينا لغِرَّتهِ　　ولا يَرُدُّ عليه حُكمَه أحد
عند الأميرِ أبي عيسى الذي كَمُلت　　أخلاقُه ، فَهْيَ كالأوراق تُنْتَقد

ولقد كان للبرامكة مجالس منادمة . وكانت هذه المجالس مختلفة في الصفة بمقدار ما كان بين أبناء هذه الأسرة من اختلاف المنزع من حيث اصطناع التصون والوقار أو التخفف من الحشمة والمجاهرة بطلب اللذة .

ونحن نعلم ما كان ينصح به شيخُهم يحيي البرمكي :

إنْصَبْ نهاراً في طِلاب العُلا　　واصبِرْ على فَقد لقـاء الحبيبْ
حتى إذا اللَّيـلُ بدا مُقبلاً　　وغابَ فيه عنكَ وجهُ الرَّقيب
فبادِرِ الليـلَ بما نَشْتَهي　　فإنما اللَّيـل نهارُ الأريب
كم من فتى تحسبه ناسِكاً　　يَسْتَقْبل اللَّيـل بأمرٍ عجيب
ألقى عليـه الليلُ أستارَه　　فبات في لهو وعيشٍ خصيب
ولذَّةُ الأحمق مَـكشوفةٌ　　يسعى بها كلُّ عدوٍ مُريب

ولـكن جعفراً في شبابه واعتداده لم يكن ليستجيب لدواعي العقل . فكان لا يخلو بمنزله يوماً إلا ويهيأ له مجلس الشراب ، فيلبس الحرير ، ويتضمخ بالخلوق، ويحضر ندماؤه الذين يأنس بهم ، فيجلس إليهم وقد لبسوا للشراب واللهو الثياب المصفرة حمراً وصفراً وخضراً . فيقضون ليلتهم يسمرون وقد دارت الكاسات وخفقت العيدان .

أما الفضل فكان أقرب في طباعه إلى أبيه ، فهو رجل همة وجدّ ، إلا أن فيه

كبراً شديداً يغطيه ما كان عليه من جود وعظم سخاء على من يجتمعون ببابه من أهل الأدب والشعراء . ولقد كان مجلس منادمته مثالا لما ينبغى أن تكون عليه مجالس الأمراء، فكان يدعو إليه الرواة والشعراء فى بهو له قد فرش كله بالسَّمُّور وهو فى صدر المجلس . وعليه دواج سمور[١] ، و بين يديه كانون من فضة ، فى وسطه أُثفيَّة[٢] من ذهب ، وعلى الأثفية قِدْرٌ أوقد تحته العود المندلى . وأمامه صينية من فضة ، على أسد رابض من فضة وعيناه ياقوتتان حمراوان ، والصينية والأسد قطعة واحدة . وفى الصينية إبريق زجاج فرعونى ، لا يبلغ حسنَ فنه وصفٌ ولا يفى بقدره ثمن . و إلى جنبه كأس تسع رطلا . و يقف على القدر خادم فزرى ، والخدم خارج البهو جلوس . ولقد حضر الأصمعى إمام اللغة وراوية العرب مجلس الفضل وصوره لنا على عادته تصويراً دقيقاً مفصلا . فوصف ما أمر به الأمير له من خلعة كاملة ، من جبة ، وكساء بحواشيه ، وجوارب ، وكلها خز مبطن بسمور . ثم انتقل إلى خوانه فوصف الرقاقات وألوان الأطعمة فى صحاف الفضة ، وبخاصة ما قدم إليه من طعام طيب المذاق فى جام فضة خسروانية وقد نثر عليه السكر . والظن الغالب عنده و إن لم يحققه أنه كان مخ خصيان الضأن الذى يذبح فى مطبخ الأمير كل يوم ، و بعد أن تملأ الأصمعى من الأكل ورفع الخوان ، جاءه الطست فأعطى أربعة أصناف من الأُشنان[٣] فلما مسح يديه جاءه خادم بيده ملعقةُ غاليةٍ فتغلف بها ، ثم إن الفضل أخذ الكأس بيده ، فصب فيها من النبيذ قدر ثلثيها ثم ملأها بالماء وشرب . ثم صب مثل ذلك للأصمعى ، فبدره إليه وصيف ، فقال « تنح ، هذا يوم منادمة الأدب » . وأراد الأصمعى أن يستهلّ المنادمة

---

(١) السمور : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربما أطلق السمور على جلده . الدواج : ثوب يلتحف به . (٢) الأثفية : الحجر توضع عليه القدر .

(٣) الأشنان : ما تغسل به الأيدى من الحمض .

بأبيات من الشراب لأبى نواس فقال : « جعلت فداك ، قال الشويعير . . . » فلما علم الأمير أنه يعنى أبا نواس ، راجعه : « بل قل الشاعر الذى قلما طلب فأكره القوافى » . ثم عقب على ما أنشده الأصمعى من خمرياته بقوله « لله دره ، ما أبينه لدرر الوصف فى هذا الشعر وغيره . وإن كان فُتح له الباب ورُسم له الوصف، لقد أحسن الاشتقاق ، ودرر معانيه فى هذا الباب كثيرة ، وإن كنت أكره أن أشتغل به عما أنا إليه أميل » ثم قال « والله لولا أن مجالسته سخف يُسب به عند العامة لكان ثالثنا فى هذا اليوم . ولقد كنت على برٍّ له ، فحالت بين ذلك وبينه الأشغال من يوم ناداني مطلقاً من رسيس الهوى الذى يجده فى حب جنان فقال :

سَأَشْكُو إلى الفَضْلِ بن يَحْيى بن خالِدٍ   هَواكُمْ لَعَلَّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنا

ولقد هزّت الأريحية الأمير الجواد عند ذكره الشاعر فنادى : « يا غلام ! عليّ بمنصور الخازن » . فلما وقف بين يديه قال : « إبعث إلى الحسن بن هانئ بمنديل فيه خمسة آلاف درهم . »

منادمة الإخوان

وتختلف آداب المنادمة فى مجالس النظراء عنها فى مجالس الرؤساء . فالأدب هنا ترك التقيد بالأدب ، وإطراح التحفظ والتكلف وما يؤدى إلى حصر وضيق .

ولما كانت هذه المجالس تخلو من رئيس يهابونه ويحتشمونه ، فهم يتواصون فيما بينهم بتحامى كل ما يجر إلى الملاحاة والخلاف ، كالتعرض بالعيب ، والتفاخر بالحسب والنسب ، والإملال بإطالة الحديث والاستئثار به ، والتكلم بالفحش وهُجْر القول ، فهذا جميعه يجر إلى الشغب والعربدة والخصام والأذى . ولقد

أكثروا من ذكر الحلم، والتغافل عن رد الجواب، وإدمان الرضا وإطراح ما مضى، حتى بلغ بهم الأمر أن يمتدحوا الندامى بقلة الكلام وطول الصمت، فإذا كان كلام فليكن فى وصف المدام وما يلحق بها ويتفرع منها، فلا يتعاطى الندماء كلاماً خارجاً عنها

الرّاحُ طَيِّبَةٌ، وَلَيسَ تمامُها — إِلّا بِطيبِ خَلائِقِ الجُلّاسِ

لِمثلِي مِن الفِتيانِ حَلّتْ ـ أَخِي ـ الخَمْرُ — وطابَتْ له اللّذاتُ واستُرْخِصَ السُّكْرُ
إذا كان شُرْبِي لا يُكَدِّرُ مَجلِسِي — ولا يَعتَرِي فيه خِصامٌ ولا هُجر

نَداماىَ ـ طُولَ الدَّهرِ ـ خُرْسٌ عن الخنا — وعُمْىٌ عن العَوْراء، نُزْهٌ عن الكِبْرِ

إذا ما كُنْتَ شارِبَها فَشرباً — على غَيرِ الخلافِ أو التّلاحى

لا تَشِنْهـــا بالّتى كَرِهَتْ — فَهْىَ تَأبىٰ دعوةَ النَّسَبِ

خُلّتَا شرٍّ تَشينانِ الفَتَى — حَيْثُما حَلّ: الخنا والعَرْبَده

وَوَقِّرِ الكأسَ عن سَفِيهٍ — فإنّ آيينَهـــا الوَقارُ[1]

ولم نَزَلْ نَتَحَسّاها مُشَعْشَعَةً — مَعْ كُلِّ مُدَّرِعٍ بالحِلْمِ سِكِّيتِ
وأَجْوَدُ الشربِ لهـا عِنْدَنا — أَنْ نَشرَبَ القَهْوةَ بالصَّمْتِ

نازَعتُها فتــــيةً غُرّاً غطارفةً — لَيْسُوا إذا امتُحِنوا يوماً بأنكاسِ

(١) الآيين : القانون (معربة).

لا يَبطَرون ولا يُخْزُونَ نادِيَهم كأنهم جُثَثٌ من غيرِ أنْفاس

نَفَسُ المُدامَةِ أطيَبُ الأَنفاس أهْلاً بِمَنْ يَحْمِيهِ عَنْ أنْجاسِ
فإذا خَلَوتَ بِشُربِها في مَجْلسٍ فاكْفُفْ لِسانَكَ عن عُيوبِ النَّاس
في الكأس مَشْغَلَةٌ وفي لذَّاتِها فاجْعَلْ حَديثَكَ كلَّه في الكاس
صَفْوُ التَّعاشُر في مُجانبةِ الأَذى وعلى اللَّبيبِ تخيرُ الجُلاَّس

ومع أن أبا نواس كان خميراً يستكثر من الشراب ويستهلك به ويحيف على نفسه فيه ويستحب ذلك فى ندماه، فإنه كان فى أكثر الأحيان إذا تبين فى النديم أنه أخذ من الشراب حظه وانتهى إلى الكفاية وقارب السكر، لم يحلف له على الشراب ولم يزده منه ولم يثقل عليه فيه . ولم يكن ذلك كله من الرحمة للنديم، بل مجانبة لما قد يبدر منه فى سكره وتوقياً من عربدته .

ولَسْتُ بقائِلٍ لِنَدِيم صِدْقٍ وَقَدْ أَخَذَ الشَّرابُ بِمُقْلَتَيْهِ
«تَناوَلْها وَإلاَّ لَمْ أذُقْها» فيأخُذها وقد ثقُلَتْ عَلَيه
وَلكِنِّي أُدِيرُ الكأسَ عَنْهُ إذا اسْتَغْنى بِغَمزَةِ حاجِبَيْه
وإنْ طَلَبَ الوِسادَ لِنَوْمِ سُكْرٍ مَدَدْتُ وسادَتِي مِنِّي إلَيه

ولقد وقعت الخبرة لأبى نواس فى هذه المجالس بأنها مجال ذو سعة لتعرّف أخلاق الناس، بما يكون عليه حالهم بعد الشراب . وذلك لما تثيره حميا الخمر من كوامن الطباع، فينهتك ستر المصانعة، ويغلب الطبع التطبع، وتنكشف كل نفس على جليتها وحقيقة جوهرها :

أرَى الخمرَ تُربِى فى العُقولِ فَتَنْتَضِي كَوامِنَ أخْلاقٍ تُثيرُ الدَّواهيا[1]
تَزِيدُ سَفِيهَ القَوْمِ فَضْلَ سَفاهَةٍ وتترُكُ أخْلاقَ الكَرِيم كما هِيا

---

(١) تنتضى : تستل .

وَجَدْتُ أَقَلَّ النَّاس عَقْلاً إذا انتَشى   أقَلّهمُ عقْلاً إذا كان صَاحِيا

ولقد رأى الشاعر مما تقلب على عينيه ، أن الحاجة ماسة إلى وضع دستور للمنادمة ، فنظمه من خمس وصايا للمتنادمين ، وهذه هى أبياته كما وردت فى ديوانه وقد نسبها صاحب زهر الآداب إلى أبى عبد الرحمن المطوى :

حُقوقُ الكأس والنّدمانِ خَمسٌ   فأوّلُها التّزَيُّنُ بالوَقارِ

وثانيها مُسَامَحَةُ النَّـــدامى   وكَم حَمَتِ السَّماحةُ من ذِمار

وثالثُها ـ و إن كُنتَ ابنَ خَير الـ   برِيّةِ مَحْتِداً ـ تركُ الفَخار

ورابعُها وللنَّـــدمانِ حَقٌّ   سِـوى حَقّ القَرابَةِ والجوار

إذا حَدَّثتَه فاكسُ الحديث الـ   ـذى حَدَّثته ثوبَ اختِصار

وخامسُها يَدُلّ به أخُوه   على كَرَم الطَّبيعةِ والنِّجار

كلامُ اللّيْل يَنْساهُ نَهــاراً   فإنّ الذّنْبَ فيـــه لِلعُقار

وكذلك كان من وحى التجربة والمكابدة أن أوصى الشاعر ألاّ يتجاوز المجلس خمسة ، بما فى ذلك صاحب الدعوة والمغنى ، تحرزاً من الهرج والمرج والفوضى التى لا تؤمن مع كثرة العدد :

ثلاثَةٌ فى مَجلِسٍ طَيِّبٍ   وصاحِبُ الدَّعْوَةِ والضَّارِبُ

فإن تجاوَزتَ إلى سادِسٍ   أتاكَ مِنهمُ شَغَبٌ شاغِب

ومع ذلك فقد تجاوز شاعرنا فجعلهم ستة :

وخَيرُ النَّدامَى سِتَّةٌ من ذَوى الحِجَى   فَخمسَةُ إخوانٍ وآخَرُ مُسْمِعُ

ومما يلفت النظر فى هذه الإحصاءات على اختلافها عدم الغفلة أيًّا كان العدد عن وجود من يتولى العزف والغناء . وذلك أن السماع ركن من أركان مجلس

الشراب لا يتم المجلس إلا به ، ومن ثمة زيادة الشاعر لهذه الحاشية على وصاياه :

وبُحَمِّد فى الإخوان مَن كان مُنشِداً بصوتٍ يُغَنِّيه ولا يَتَمَنَّعُ

وظاهر من خمريات أبى نواس أن المنادمة للصحاب كانت تزيده طلباً لمجالس الشراب ، وأن لذة المنادمة عنده كانت لا تعد لها غيرها من اللذات ، لا يستثنى منها وصال البيض الغانيات .

إنما العَيشُ فى مُنادَمَة الإخْـ ـوان ، لا فى الجُلوس عِندَ الكعابِ

فإذا أحمد يوماً منادمة الكواعب ، فقد أحمدهنّ لأنهن قد كن ممن يحسن التصرف فى الحديث وتلذّ معهن المذاكرة والمسامرة :

ولَقَد دَخَلْتُ على الكواعبِ حُسَّرًا فَلَقِينَنى بِتَبَسُّمٍ وتَهلُّلِ (١)

فأَصَبْتُ من طرفِ الحديثِ لَذاذَةً وأصبنَها مِنّى ولمّا أجهَلِ

وقد أجمع أصحاب الخمر أنها خير مسامرٍ فى الخلوة ، وأنها تغنى عن الجليس وتقوم مقام الأنيس . ولكن شاعرنا كان لا يكتمل له أنس بغير ندماه ، فإن شربها يوماً وحده خالياً بها ، فذاك أنه لم يجد فى يومه النديم الذى يرضاه لها :

خَلَوْتُ بالرّاح أُناجِيها آخُذُ مِنْها وأُعاطِيها

نادَمْتُها إذْ لَمْ أجِدْ مُسْعِداً أرضاهُ أنْ يَشْرَكَنى فيها

شَرِبتُها صِرْفاً على وَجْهِهَا فكُنْتُ ساقِيها وحاسِيها

وغنىٌّ عن البيان أن ما يتطلبه شارب الخمر فى الخمر من النشاط والانبساط والخفة ، يزيد أضعافاً مضاعفة بما يتطارحه الندمان على بساطها من أطايب الحديث ، وما يحضرهم عليها من الحكايات والمُلَح ، وما تستخفهم إليه من

---

(١) حسراً : سافرات .

اختراع الفكاهات والأضاحيك ، فضلا عما تهزهم إليه النشوةُ من ذكر صبوات الشباب ، وما تجريه على ألسنتهم من تقارض التحايا والثناء ، وما تُدِبّه فيهم من مظاهر التعاطف والولاء . فلا يلبث أن يشيع فى جو المجلس السرور وتتجاوب الضحكات ، وتفيض النفوس بالشعور وتتفتح للمودات ، وليس شىء أسرع من انعقاد الصداقات بين القنانى والكاسات .

وَمجْلس فِتْيةٍ طابُوا ، وطابَتْ مَجالِسُهُمْ ، وطابَ بِهـا النَّعيمُ
تُدارُ عَلَيْهِمُ فيهـا عُقارٌ مُعَتَّقَةٌ لهـا يَصْبُو الحكيمُ

سَقْياً لِمَجْلِسِ فِتيانٍ أُنادِمُهم ما فى أديمهمُ وَهْىٌ ولا خَلَلُ
هذا لِذاكَ ، كما هذا وذاكَ لِذا ، فالشَّمْلُ مُنْتَظِمٌ والحَبْلُ مُتَّصِلُ

ونَدْمانِ صِدْقٍ ، بلْ يَزيدُ فَكاهَةً على الصِّدق، لم يَخْلِطْ مُواتاته مَحكا[1]
حَمُولٍ لما حَمَّلْتَه غَـيْرَ ضَيِّقٍ ذِراعاً بِما ضاقَ الكِرامُ به مَسْكا
دَعانِى ، وأَعْطانِى من أُبنةِ نَفْسِهِ مَوَدَّتَه المُثْلَى ، وفى مالِه الشِّرْكا

معاقرة العقار مع الشطار

ولقد كانت فى المدن طائفة من أهل البطالة المستهترين بالدعارة ، وكان اجتماعهم على الفساد والضلال ، وكانت وجوه ارتزاقهم من غير الحلال ، وكلهم من ذوى الطبائع الثورية الخارجين على النظم الاجتماعية والأوضاع الخلقية ، ولهم نوادر وأخبار تملأ الصحف الكبار ، وكانوا يعرفون فى العراق بالشُّطَّار وأحيانا بالفُتَّاك أو الفتيان[2] وكان لهؤلاء زهوٌ بذلك وخيلاء حتى اتخذوا لهم زيّاً خاصّاً بهم، وأخص

---

(١) المحك : التمادى فى اللجاجة .

(٢) انظر صفحة ١٦٨ فى الجزء الأول من الحيوان للجاحظ .

ما فيه مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بإزْرَة الشطار . وكان أبو نواس من المعجبين بهذه الطائفة لما بنفسه من النزوع إلى خلع الطاعات والتحلل من ربقة العادات ، إطلاقاً لعنانه فى معاقرة الراح و إصابة اللذات . وقد أكثر شاعرنا فى أشعاره من نعت الفتيان والجوارى بالشطار والشاطرات كلما أراد تحسين الخلاعة لهم أو مدحهم بها وتمليقهم ، حتى صارت الشطارة عَلَماً على الخلاعة ومرادفاً لها . ثم أفرط به إعجابه بالشطارة فنعت بالشاطرة ما هو أحب إليه وأحظى عنده من الغلام والجارية ، ونعنى به الخمر :

من كان يَهذِى بحبٍّ جاريةٍ أو بغلامٍ ، فإننى أَمِقُ
شاطرةً فى الإناء صافيةً تَعْشَى لها من شُعاعها الحدَق

ويروى ابن منظور أن أبا نواس عند خروجه إلى مصر خرج فى زىّ الشطار وتقطيعهم ، بطرّةٍ قد صففّها ، وكُمَّـيْن واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق . وسواء أصحّ الخبر أم لم يصحّ ، فأبو نواس كان يستحبّ الاجتماع بالشّطار ويصاحبهم ويخرج معهم متنزهاً فى الرياض ، فيعاقرون الشراب ويعبثون بكل من يجتاز بهم متبذلين ماجنين على عادتهم من تجاوز الحد وقلة المبالاة :

أيّها العاذلُ دَعْ لَو مِىَ فى شرب الرَّحيقِ
خَنْدَريسٌ عِطرُ النَّكْـ هَةِ كالمسك السَّحيق
إنمـا طابت لذِى فَتـ لكٍ تَردَّى بفسوق[1]
جاهَرَ النَّاس بمـا يأ تيه فى ضَنْكٍ وضيق
وبدا فى النَّاس مَشْهُو راً كذى الرَّأس الحليق[2]

---

(١) تردى به : لبسه .

(٢) قوله مشهوراً كذى الرأس الحليق ، إشارة إلى ما كان يفعله الحكام بالمخالفين من حلق رءوسهم وإركابهم حماراً أو جملا والطواف بهم فى الطرقات لإشهارهم والتجريس بهم .

ومُلِحَّةٍ باللَّوم تَحْسَب أننى ... بالجهل أُوثِرُ صُحْبَةَ الشُّطَّارِ
بَكَرَت علىَّ تلومُنى ، فأجبتُها ... إنِّى لأعرفُ مذْهبَ الأبرار
فدَعى الملامَ ، فقد أطَعتُ غَوايتى ... وصرَفتُ مَعرفتى إلى الإنــكار
ورأيتُ إتيانى اللذاذة والهوى ... وتَعَجُّلى من طيبِ هذى الدّار
أَحْرى وأَحزمَ من تنظُّرِ آجلٍ ... عِلْمى به رَجْمٌ من الأخْبار
ما جاءنا أحدٌ يُخبِّر أنّه ... فى جنَّةٍ مُذْمات أو فى النّار
فدَعى مُعاتبتى على تَرْكِ التُّقى ... وتَعَتَّبى فيــه على الأقــدار
لوْ عَنَّ لى قَدَرٌ يُساعدُ صرْفُه ... لرأيتِ كيف تَعَفُّفِى ووَقارى

السـاقى

وللساقى شأن ملحوظ فى مجلس الشراب . وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو مدير الــكأس ؛ والــكأس قطب المجلس ، من أجلها انعقاده وحولها تَحلّقُه :

هى القُطبُ الّذى دارتْ عليه ... رَحى اللّذاتِ فى الزّمنِ القديمِ

والساقى فى دورته بالــكأس يتنقل بين القوم خفيف الحركة رشيق الخطو ، وعليه قبل المناولة أن يستأذن فى المزج وعدمه . فمن القوم من يشرب الراح صرفاً ، ومنهم من يختار الممزوج قليلاً أو كثيراً . فإن كان الساقى عارفاً بأخلاق القوم ، عامل كلا منهم بما يلائم طباعه من غير سؤال . كما أن من واجبه فى كل حال مراعاة الإنصاف وإصابة المزاج . ومن هذا جميعه يتبين أن الساقى لا يكون ساقياً حتى يحذق الصناعة :

يا رُبَّ ليلٍ بتُّ فى نعمةٍ ... عنــد فتًى أبيضَ بَسّامِ

قد باتَ يَسقينيَ دِرْياقَةً سالت من الإبريقِ فى الجام[١]
بكفِّ ساقٍ حسنٍ وجهُه فى السَّعى عَدْلٍ غيرِ ظلّام

يَسقيكَها مُختَلِقٌ ماجِنٌ مُمَوَّدٌ للسَّقى نِحْرِيرُ
مُنقطعُ الرِّدف هضيمُ الحشا أحورُ فى عَيْنَيْهِ تفتير
قد عَقرَبَتْ رابيةٌ صُدْغَه فالصُّدغُ بالعنبَرِ مَطْرور[٢]

يوم الخميس أقَمنا ساقياً حكماً نرى حُكومته عَدْلاً ، وما زَعما

أقولُ لمَّا أدارَ الكأسَ لى قَسَمٌ : « الآنَ قيل تعاطَى القوس باريها
يا ألبقَ النَّاسِ كَفًّا حين يمزُجها وحين يَشرَبُها صرْفاً ويَسقيها
قد قُمتَ فيها على حدٍّ يُوافقُنا وهكذا فأدِرْها بيْننا ، إيها ! »

وكانوا يستحبون فى الساقى أن يكون حدث السن ، بارع الحسن ، رشيقاً كالظبى النافر ، مُخْطَفَ الخصر ، محطوط المتن ، يتثنى فى مشيته ، ناعم الإهاب ، أبيض بلون العاج ، كالبدرغُرَّته ، وكالليل طُرَّته ، قد كسَّرشعره على جبينه واوات ، وعقرب سوالفه المطرورة بالعنبر على صدغيه كالنونات ، أحور ، مكحول الجفن ، غنج اللحظ ، فى عينيه تفتير ، أغن الصوت ذا لثغة ، رخيم الكلام ، حسن الدلّ خنث الشمائل ، مخضب البنان ، يلبس القرطق أو الدواج أو القَباء من الديباج ، معصوب الرأس بتاج من الرياحين ، مقلد العنق بقلائد الياسمين ، مقرّط الأذنين وعلى المتن منهما وردتا آذريون :

إنما العيشُ فى مُباكَرة الخمـ ـرِ ، وسُكرٍ يدومُ فى كلِّ حالِ

---

(١) الدرياقة : الخمر .
(٢) الرابية : بمعنى الرقيبة المربية . مطرور : مدهون .

وتمام السُّرورِ فيها بساقٍ حسنِ الوجه مُستنيرِ الجمال

يدورُ بها ظَبْيٌ غَريرٌ مُتوَّجٌ بتاجٍ من الرَّيحانِ ، مِلْءَ القَراطقِ
له عقربا صُدْغٍ على وردِ خَدِّه كأنَّهما نُونانِ من كَفِّ ماشِقِ

يسقيهمُ ذو وَفرةٍ أحورٌ يُسْبِلُ صُدْغاً فاترَ الطَّرْفِ
يُكسِّرُ الرَّاءَ وتكسيرُها يَدْعو إلى السُّقْم مع الحَتْفِ

بيدَيْ ساقٍ عليه حُلَّةٌ من ياسمينِ
وعلى الأُذْنَيْنِ منه وَرْدَتا آذَرْيونِ
غايةٌ فى الشَّكلِ والظَّرْ فِ ، وفَرْدٌ فى المجُونِ

يَسعَى بها خَنِثٌ ، فى خُلقه دَمَثٌ يَستأْثِرُ العَينَ فى مُستَدْرَجِ الرَّائى
مُقرَّطٌ ، وافرُ الأعطافِ ، ذو غَنَجٍ كأنَّ فى راحتَيْه وَسْمَ حِنَّاء
قد كسَّر الشَّعْرَ واواتٍ ، ونَضَّدَه فوق الجَبين ، وردَّ الصُّدْغَ بالفاء
عَيْناه تقسم داءً فى مَحاجِرِها ورُبما نفعَت من صَوْلة الدَّاء
إنِّى لأشرَبُ من عَيْنَيْه صافيةً صرفاً ، وأشربُ أُخرى مَعْ نَداماى

وكان القوم إذا دبت فيهم النشوة وتخففوا من الحشمة ، أعملوا الطرف إلى الساقى الغرير الشباب وهو يدور عليهم بالشراب ، وجَسَّه فُتَّاكهم خفية بطرفة العين وغمزة الكف ، وهو يتثنى دلالاً ويزيد تيهاً ، ولا ينى فى خبثه يوزع البسمات هنا وهناك ، ويجيب بالعدات كاذبات وصادقات على غفلة من هذا وذاك .

يمدُّ به إليكَ يدَا غُلامٍ أغَنَّ كأنَّه رَشأٌ رَبيبُ
غَذَتْه صَنْعَةُ الدَّايات حتَّى زها ، فزها به دَلٌّ وطِيبُ

فإن جمّشته خلبتك منه طرائفُ تُستخفّ لها القلوب
يكاد — من الدّلال إذا تثنّى عليكَ، ومن تَساقطه — يذوب

وهذه الأبيات جميعاً صريحة الدلالة على ما كان عليه السقاة من نقص الرجولة والتخنث والاسترخاء، ولكنها مع هذا قاعدة لا تخلو من استثناء :

يَسْعى بها مِثْلُ قَرْنِ الشّمس ذو كَفَلٍ يَشفي الضّجيعَ بذى ظَلْمٍ وتَشْنيبِ (١)
كأنّه كلّما حاوَلْتَ نائلَهُ ذو نَخْوةٍ قد نشا بين الأعاريبِ

ومن الإنصاف أن نقرر أن هؤلاء السقاة كانوا من كل جنس وكل نِحلة لا يختص بعارهم فريق دون فريق :

يسعى بها من وُلْدِ « يافث » أحْوَرٌ كقَضيبِ بانٍ فوق دِعْص نَقاء (٢)

وساقٍ غَريرِ الطّرْفِ والدَّلِ ، فاتنٍ ربيبِ ملوكٍ كان وَالدُهم كِسْرى

وغزالٍ من بنى الأصْـ ـفَرِ، مَعْصوبٍ بتـاجِ
شَخْصُه منّى بعيدٌ وَهْوَ منّى كالمُناجى
دارَ بالصّهباءِ صِرْفاً لم تُدنَّسْ بمزاجِ

يَسقيكَها من بنى العبادِ رَشاً مُنْتَسِبٌ عِيدُهُ إلى الأحدِ

مزَجَ الكأسَ لى غزالٌ أديبٌ هاشمىٌّ أصاب فيها المزاجا

وكان ساقى القوم فى أكثر الأحوال مغنّيهم ، بعد أن يفعل الشراب فيه فعله وفيهم :

---

(١) الظلم : بريق الأسنان ، والتشنيب بياضها ورقتها .
(٢) الدعص : الكثبان . النقا : الرمل .

نازَعْتُهم قَهْوَةً صفراء صافيةً بشادِنٍ خَنِثٍ كالغُصن مَيَّاسِ
كأنّ إكليله تاجُ ابنِ مارِيَةٍ إذ راح مُقْتَصِباً بالوَرْد والآس
مُخَنَّثُ اللَّفظِ ، يَسبِينى بمُقْلَتِه مُقَرطَقٌ ، قُرَشِىٌّ الوَجْه عبَّاسى
وقد يُغَنِّيكَ من سُكرٍ ومن طَرَبٍ والكأس تختالُ من ساقٍ إلى الحامى
« لله دَرُّكَ ، قد عَذَّبْتَنى حُرَقًا بالقُربِ والبُعد والإطماع والياس »

يسقيكَها أحورُ العَيْنيْن ذو صُدُغٍ مُشَمِّرٌ بمزاج الرّاح قد حذِقا
لا شىء أحسَنُ منه حين تُبصرُه كأنّه من جنان الخُلد قد سُرقا
ما زالُ يمزُجُها طوراً ، ويشربُها طوراً ، إلى أن رأيتُ السُّكرَ قد سَبَقا
ثمّ تَغنّى وقد دارَتْ بهامتِه فما يكاد يُبينُ القولَ إذ نَطَقا
« إنّ الخَليطَ أجَدَّ البَينَ فافترقا وعَلِقَ القلبُ مِن أسماء ما علقا »

تعشق الغلمان والغزل بالمذكر

وكان السقاة والندمان فى دور القوم معظمهم غلمان من مماليكهم ، وهم بيض من الترك والفرس والديلم والطبرية والصقالبة وغيرهم ممن كان يُسبى ويحمل للبيع . وفى بعضهم قول النواسى :

كأنما البدر يمشى فى قَراطقِه إلى بنى الأصفر الصُّهْبان يَنتسبُ

وقد صار هؤلاء زينة لقصور الرؤساء حتى أصبحت لهم دولة فى عهد الخليفة الأمين ، فقد جعل منذ ولى الخلافة يوجه فى طلب الخصيان من الغلمان يبتاعهم مغالياً بهم مستكثراً منهم . ورفض النساء الحرائر والجوارى الإماء حتى رمى بهن. وصير الخصيان لخلوته فى ليله ونهاره ، وجعلهم قوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه .

وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه معهم فى المنادمة والشرب ، حتى أحفظ هذا الإيثار لهم أبا نواس وَهو نديمه وأقرب الشعراء منزلة عنده ، فقال :

إحْمَدوا اللهَ جميعاً يا جميعَ المُسْلمينا
ثُمَّ قولوا ، لا تَمَلُّوا ، «رَبَّنَا أَبْقِ الأمينا ! »
صَيَّرَ الخِصْيانَ حَتَّى جعل التَّعْنِينَ دِينا
فاقْتَدَى النَّاسُ جميعاً بأميرِ المُؤْمنينا

وهكذا انقلب الزمان وصارت للخصيان دولة . وصار يقسم بها شاعرنا فيما يقسم به من يمين برة :

أَمَا وحقِّ الإيوانِ والبزم والمِهْرَجان
وحُرْمَةِ الخُسْرَوانى إذا بَكى فى الدِّنان
ورَنَّةِ العيدان وكُلِّ بَمٍّ ومثان
ونَهْمَةِ المُجَّان ونَخْوةِ النَّشْوان
وبانْقِلابِ الزَّمان وَدَوْلةِ الخِصْيان
يَمِينَ غاوٍ خليعٍ مُضَلَّلٍ مَخْرشانى
لقَدْ شَكَكْتَ فُؤادى بأَسْهُمِ الهِجْران

ولقد كان الأصل فى اتخاذ المماليك من الغلمان للخدمة، والخصيان منهم لخدمة الحرَم. ثم اتخذ شجعانهم لحمل السلاح ، واشتغل بعضُ أهل الفطنة منهم فى الدواوين :

يا رُسْتُمَ بنَ خَداهِى يا ظَبْيَةَ الدِّيوان

* * *

وكان الرسم عند أصحاب الدواوين أن يضعوا القلم فوق متن الأذن ليكون قيد متناولهم عند استئناف الكتابة ، وقد رُوى سنداً لذلك أن معاوية بن أبى سفيان كان يكتب للنبى فكان أن رأى منه إعراضاً فوضع القلم فى فيه ، فنظر إليه النبى

وقال : « يا معاوية ، إذا كنت كاتباً ، فضع القلم على أذنك ، فإنه أذْكَرُ لك والمُمْلى » ، ومن ثمة إيرادهم لفظ « يستحب » عند الحض على ذلك ، ومنه قول محمد بن المدائنى « يستحب للكاتب فى كتابته إذا فكر أن يضع القلم على أذنه ».
ولم يزل الأمر على هذه الصورة إلى عهد قريب عند كتاب الدواوين . و إلى هذه الصورة يشير شاعرنا فى قوله :

وَصِلِ الشادنَ الذى يَرُوح إلى الـ ـدِّيوان مِن فوق أُذْنِه قَلَمُ

و يمضى فى استكمال الصورة فى غير واحدة من المقطعات على نحو قوله فى هذه الأبيات :

إنَّ الذى تَيمنى حُبُّه أمْرَدُ من نَشْءِ الدَّواوين
قد نَشَر الطُّومارَ فى حِجْرِه مُبْتَدِئاً بالباء والسِّين(١)
يُطَرِّرُ الوَرْد على خَدِّه من عَرَقٍ بالمِسْكِ مَعْجُون

ولقد كان من الرؤساء كما رأينا من اتخذوهم زينة لمجالسهم . و بلغ من كثرة الغلمان أن كان الأمير من الأمراء يصل شاعره بالجائزة السنية من مال و بغلام أو أكثر من غلمانه ، ثم كان مِن تبدل حياة القوم الاجتماعية ، وما استتبعته الحرية الفكرية من توهين ما كان مستولياً على نفوسهم من الإخبات للنواهى الشرعية أن دخل على القوم ما دخل من البدع والعادات الأجنبية عنهم ، وكان شر ما حدث من ذلك شيوع الإباحية الجنسية .

وفى ديوان أبى نواس غزلٌ كثير بمماليك القصور شاهدٌ على مبلغ ما أشاعوه فى ذلك العصر من الميل الجنسى الشاذ :

يا بأبى ظَبْىٌ بِهِ مَسْحَةٌ قدْ شَبَّ ، فى بَغْدَادَ مَأواهُ
رُبِّى « بقَصْرِ الخُلْدِ » فى نِعمَةٍ حَيَّاه بالنِّعْمـةِ مَوْلاه
أغفَلَهُ البوَّابُ من شِقْوَتى فجاءنى يَضْحَكُ عِطْفاه
ومرَّ للحَيْن بنا ضَحْوةً فَصاد منى القَلْبَ عَيْناه

---

(١) يشير إلى الابتداء بالبسملة . الطومار : الصحيفة يكتب فيها .

فصِرْتُ للشَّـقْوَةِ فى فَخّه كَطائرٍ قُصَّ جَنـاحاه

إلا أن ديوان شاعرنا لا يخلو إلى جانب ذلك من دلالة شنعاء على استشراء الداء ، بما يتضمنه من جملة عظيمة المقدار من الغزل بالمذكر فى غير المماليك . ولو شئنا لأتينا على أسمائهم ؛ وإن كان الشاعر فى أكثر الأحوال يكتفى بالتكنية عنها والتلميح ، ولا يجترىء على المجاهرة والتصريح . ويلاحظ أن هذا العاشق الفاسق كان يلقى أحياناً من حزم أهليهم وشدّتهم ما يفوّت عليه خبث نيته وسوء قصده .

يا أيُّها الرِّيمُ الذى صادَنى بمُقْلةٍ فى اللحْظِ حوْراء
وحاجِبٍ كالنُّونِ قد نُمِّقَتْ فوق حَجاج العَيْنِ زجَّاء[1]
ومِحْجرٍ أنوَرَ من فِضَّـةٍ مَجْـلُوّةٍ بالصَّقل بَيْضـاء
وعارِضٍ أظهرَ تَشْبيـكَهُ كرَوْضةِ الفِرْدَوْس خَضراء
قد ملّنى أهْلُكَ يا سيِّدى ونفَّرُوا عَنِّىَ مَوْلائى
وأضرَموا — إذْ فرّقوا بيننا — فى كَبِدى ناراً وأحشائى
إنى غداً من حُبّكُم مَيِّتٌ كعُرْوةٍ فى حُبِّ عَفْـراء

وقد انتشرت لأبى نواس من ذلك فى الناس قالة سيئة ، وشاعت له شهرة فاضحة ، حتى لقد تسامع به الصغار — فيما زعم الزاعمون — فلم يكن فيهم من يجهل اسمه وإن كان لا يعرف شخصه . قال الحكم بن عمار الواسطى : [مررت وأنا غلام بداود بن رزين الشاعر ، فقال لى : « اصْعَدْ يا حَكَم » فصعدت إليه وإذا معه رجل وكانت فى يدى وردة فمددت يدى بها إلى ابن رزين ، فقال : « ناولها هذا الرجل » فناولته إياها ، فقبض الرجل على كفى وهى فيها فشمها وقال :

ووردةٍ جاء بِها وردةٌ تُشْبِهُه ريحاً فحَيّانى
عجِبْتُ منها حين أبْصرتها رَيْحانةٌ فى كفِّ رَيْحان

---

(١) الحجاج : العظم الذى ينبت عليه الحاجب . زجاء : رقيقة فى طول .

فقال له ابن رزين : « أحسنت يا أبا نواس » . فلما سمعت كنيته ، نفضت يدى من يده] .

وكان أبو نواس — على حبه للسلامة — يملك زمام خوفه و يتعرّض لحتفه مغامرة منه فى هذه السبيل . ونسوق من جملة أخباره لابن منظور هذا الخبر مهذباً مختصراً على طريق التمثيل :

كان بالكوفة فتى من أهلها يقال له « جمال » من بنى دارم ، قدم بغداد أيام الرشيد . وكان جميلا حديث السن ، وكان لا يشرب الخمر ، وله شطارة وجلد ، وكان يقرض الشعر ، وقُرِئ من شعره على أبى نواس شىء . فسأل عنه ، فقالوا : « إنه لجمال الكوفى » ، فاستظرفه واستحسن معانيه . وكان جمال صاحب جراحات وآفات ، ولم يستوف العشرين سنة . فعظم فى عين أبى نواس ، وتمنى أن يراه . وقد كان خبره فشا فى الكرخ ، وعظم ذكره . فبينا أبو نواس فى أصحاب القراطيسى — وكان له مجلس فى الكرخ بدرب القراطيسى ، ومجلس بعسكر المهدى ، فى الورّاقين — إذ مر به غلام فى قدّ الفتيان ، فاستحسن قده ، واستحلى وجهه ، وراعه منظره ، ففطن له أصحاب القراطيسى ، فأخذوا بطرف ردائه ، وقالوا له : « أتدرى من هذا ؟ » . قال : « لا » . قالوا : « هذا جمال الكوفى» . فقال : « قاتله الله ! هو والله كما سُمّى » . قالوا : « إن له بأساً وجلداً وكرهنا أن يعاجلك بالحديد ، فيأتى على نفسك » . فقال : « أما من رسول يبلغه رقعتى ؟ » . فأتوه بغلام ، وكتب إليه رقعة فيها شعر . فأتاه الغلام بالشعر ، فلما قرأه ، قال : « قل له : يا دعىّ ، يا شارب الخمر ، والله لينزعنّك نفسك يا ابن الزانية » . فرجع الغلام فأخبره بقوله ، فقال أبو نواس فى ذلك :

قد يخْضَعُ الُحرُّ للغُلامِ فما ... يَنقُصُ ذاكَ الخضوعُ من شرَفِهْ

« فَسُبَّ ما شئتَ سيِّدى أبداً » ... هذا خضوعى له على سَرَفه

ثم بعث بالبيتين . فقال للغلام : « أترى خنجرى هذا ؟ — وأخرجه من

كه ، — أبلغه عنى أنى والله قاتله به » . فقال أبو نواس :

يا من دعا قلبي إلى حبّه فقال : لَبّيْك وسَعْديْكا
أوْعَدْتَنى بالقتل من غير ما جُرْمٍ وقلبي رهْنُ كَفّيْكا
ما خنجرٌ تَسلبُ رُوحى به أَقتَلَ من تفتيرِ عَيْنَيكا

ومثل هذا الموقف وقفه من أبي نواس غالب الصفدى أو « غلبون » في تدليله له . وهذه إشارة شاعرنا إلى ما كان منه :

قولوا لمن قد تَنَفّرْ من كِلْمتى وتَنَوّرْ
إنّى أتوب إلى اللّـ ـه من مزاحك فاغفر
ودَعْ وعيدى بقَتْلٍ فالوعد بالقتل مُنْكَر
وكيف يا فاتر اللّحْـ ـظ، ساحر العينِ، أحْور
تمرُّ مثـلَ كَمِيّ مُهدّداً لى بخَنجر
يا ناعماً لو برفقٍ لَمَسْتُه لَتَكسّر
تسبُّنى المردُ حتّى غَلْبونُ ، فالله أكبر !

بيد أن الحال لم تكن دائماً على هذا المنوال ، كما أن النهاية لم تكن دائماً مطابقة للبداية .

والرأى العلمى فى المطبوعين على التخنث من هؤلاء الغلمان أن الاختلال إنما يكون فى الوظائف العضوية عندهم أكثر ظهوراً منه فى هيئة خلقتهم وتركيب بنيتهم . ومع ذلك فالتغيير فى هيئة الخلقة وتركيب البنية قد يكون من الظهور فى بعضهم بحيث لا تخفى معالمه . فيلحظ فى أوساط أبدانهم أن تجويف الحوض أقرب فى استعراض أقطاره إلى حوض المرأة ، مع استعدادٍ لاكتناز الشحم فوق الأرداف والأفخاذ . وقد يذكرك شَعْرهم فى نسقه شعر النساء ، وقد تكون أبشارهم فى رقّتها كأبشارهن ، وقد تسمع لأصواتهم نغمة غير طبيعية فيها ترطبٌ وتصنع . ونسوق

مصداقاً لقول السادة العلماء قول شاعرنا المقدَّم على سائر الشعراء الخلعاء؛ ولا ينبئك مثل خبير:

يا مَن تأنَّق باريهِ ، وصوَّرهُ دِعصاً من الرَّمل فى غُصْنٍ من البانِ

قلتُ «الوِصال» فقامَ يَقدُمُنى يَرْتَجُّ مِنــه مَكانُ مُؤْتزَرِه

كم ليلةٍ ذاتِ أبراجٍ ، وَأَرْوِقَةٍ ، كاليمِّ تقذِفُ أمواجاً بأمواجِ
سامرتُها بِرَشاً كالغُصْنِ يجذِبُه دِعصُ النَّقافى بياضِ العاجِ رجْراجِ

فوقَ الخُماسىِّ ،لمَّا طرَّ شارِبُه رَخصُ البنانِ،جلاَمن جلْدِهِ الشَّعَرُ

يا خوطَ بانٍ تَثنَّى عليه بدرٌ مصوَّرْ
وخدُّ وجهٍ مُنــيرٍ بمائه الزهرُ يَقطُر
ولَثْغَةٌ وخناثٌ وطىُّ كَشحٍ مُخَصَّر

وشادنٍ أحْورَ فى طرفه فَترٌ ، وفى مَنطقه غُنَّهْ
قلتُ لأصحابى وقدمرَّ بى أظنّ ذا فرَّ من الجنّة
يُعجبنى تخنيثُ ألفاظه وغاية المطلوب فيهنّه

ولما كانت هذه الظواهر فيمن ذكرنا من الغلمان ليست عامة فى جميع من على هذه الشاكلة ، فإننا لا نعدم غزلا بالمذكَّر عند شاعرنا يعدل فيه بأوصافه وتشابيهه معدلا يجعلها أقرب إلى الفتوَّة :

السَّيفُ مَضحكُه ، والقَوسُ حاجِبُه والسهمُ عَيْناه ، والأشْفارُ أرماحُ

ويضاف إلى ما وصفنا من الظواهر الجسدية فى المخنثين ما يُشاهد فى معظمهم من انقلاب ذوقهم فى التجمل إلى ما يشبه زينة النساء ، وإظهارهم مثل ما يظهرنه فى حال الزينة من الزهو والخيلاء . وهذا أيضاً مما سجله أبو نواس فى ديوانه الجامع :

وُمخطَفِ الخصْرِ فى أرْدافِهِ عَمَمٌ   يميسُ فى خاتمَةٍ رقَّت حواشيها

أيّها النّاسُ ، ارْحَمُونى   وتَمَشَّوْا لى إليْه
كَلِّموهُ فى سُكونٍ   لا تَشُقنَّ عَلَيْه
كلِّموه اليومَ يَرضى   عن أسيرٍ فى يدَيه
لو رأيْتُم كيفَ يَمشى   كاسِراً مِن حاجِبَيْه
فى إزارٍ قد لواهُ   ثمّ دَلّى طرَفيه
قلتمُ « ذا الفَتكُ حقّاً   ليس ما نحنُ عَليه »

بدا من الخُلْدِ لنا غُدْوةً   فى قَصَبٍ من صُنع إسْكَنْدرا
فى مَوْكبٍ تحمِيه خِصْيانُه   كما رأيتَ الملِكَ الأكبرا

ومن أعجب العجب أن تكون هذه الصفات المؤنثة موفورة فى الإناث فلا يطلبونها فى غير الغلمان . وهذا الذى جعل معظم الأطباء ينظرون إلى الانحراف الجنسى على أنه داء عضال شديد العياء .

ويشهد الجاحظ أن هذه الشهوة لم تكن شائعة فى الأعراب . ويستدل على عدم شيوعها فيهم قديماً أنها لو كانت كذلك لنسبوا بهم من جرّاء تعشّقهم لهم ، وَلحدثتْ فى ذلك أخبار وأشعار ، ولجاء لهم فيه بابٌ من النسيب كالذى نراه لشعراء الدولة العبّاسية .

وما كان هذا التنزيه للأعراب ليرتضيه أو يسكت عنه أبو نواس الشعوبيّ ، ولا سيّما والأمر يمسه فى موضع هواه الشخصى . فنراه لا يتورع عن رمى عشاقهم المشهورين بجهل العشق ، ثم هو يأبى أن يُنْسَب انصرافهم عن هوى الغلمان إلى صحة الغريزة واستقامة الطبع وسلامة التركيب ، فنراه يعلن — مؤكداً قوله بأغاظ الأيمان — أن مَرَدّ ذلك عندهم إنما كان إلى تخلفهم فى الحضارة وجهلهم بعفاتنها :

أَمَا واللهِ لا أَشَرا ... حَلَفْتُ بِه ولا بَطَرا
لوَ أنَّ « مُرَقِّشاً » حيٌّ ... تعلَّق قَلْبُــه ذَكَرا
وأيْقَنَ أنَّ حُبَّ المُرْ ... دِ يُلْفَى سَهْلَه وَعِرا
ولا سِيَّا وبَعْضُهُمُ ... إذا حَيَّيتَــه انْتَهرا
ومرَّ يُريد ديوانَ الـ ... خَراجِ مُضَمَّخاً عِطرا
كأنَّ ثِيابَهُ أَطْلَعْـ ... نَ من أزْرارِه قمَرَا
بوَجهٍ سـابِريٍّ لو ... تَصَوَّبَ ماؤُه قَطَرا
وعينٍ خالَطَ التَّفْتِيـ ... رُ فى أَجفانِها حَوَرا
وقد خَطَّتْ حواضِنُه ... له من عَنْبرٍ طُرَرا
يَزيدُكَ وَجْهُه حُسْناً ... إذا ما زِدْتَه نَظَرا

ويمضى الجاحظ فى دفاعه مبيناً ما كان من طروء هذه الفاحشة وسريانها من ناحية الخراسانيين . ويقول إن الأمر كان شائعاً فى خراسان ، والسبب الذى أشاعه فيهم كثرة خروجهم فى البعوث الحربية ، وكانوا لا يستطيعون إخراج النساء والجوارى معهم ، ولم يكن لهم يد من غلمان تهيئ مؤونتهم ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وفى حالة التبذّل والتكشّف ، وكانت الغُلْمة تهيج بهم ، شغفوا بغلمانهم .

وليس فى شعر أبى نواس ما يفيد فى تمحيص قول الجاحظ. وكل الذى يُستدلّ عليه بوجه التحقيق من مطالعة غزل شاعرنا بالغلمان والجوارى أن الزىّ الشائع بينهم كان الزىّ الخراسانى وهو القرطق والقباء. وكلاهما — على خلاف الثياب العربية الفضفاضة — محبوك على الأجسام يرسُم للعين تقاطيعها. ويُظهر دقّة الخصور ومن تحتها استرسال الأعطاف ووفرة الأرداف. ومن إشارات الشاعر إلى « تخَرْسُن » الغلمان أو « خرسنة » سادتهم لهم فى اللباس قوله:

قلْ لِذى الوجه المُترّكْ ولذى الصُّدْغ المُمسَّكْ
ولذى السرّة والأعكا نِ والثَّـدْى المُفـكّك
قد تخَرْسَنْتَ بلا طَبْـ عٍ لـكى نعتَدّ دَلَّك

لا خرّبَ اللهُ كرْخَ السُّوس والسُّوسا مَغنى، ولا مَجْلِساً فى السُّوسِ مأنوسا
وحبّـذا حانَةٌ بالـكَرخ تَجمعُنا نُطيعُ فيهـا بشُربِ الخَمْرِ إبْليسا
حتى إذا ما صَفَتْ فى دنّها بُزِلَتْ حَمْراءَ تُذهِبُ عنك الهمّ والبُوسا
نازَعْتها واضحَ الخـدّيْنِ مُعْتَدِلاً يَحْـكى ببهجتِهِ للنَّـاسِ بِلْقيسا
مُقرْطقٌ خَرْسَنُوه فى حداثته لم يُغْذَ — واللهِ — فى مَرْوٍ ولا طُوسا

مُتَخَرْسِنٌ ، دِينُ النّصارى دِينُه ذُو قُرْطَقٍ لم يتّصلْ بِبَنائِقِ

أشتَهِي السّاقِيَيْن لـكنّ قلبي مُسْـتهامٌ بأصْـغرِ السّاقِيَيْنِ
ليس باللاّبِس القَميص ، ولـكنْ ذو القَبـاءِ ، المُعقْرَب الصُّدغَيْنِ
الّذى بالجمالِ زَيّنَـــهُ اللّـ ـهُ ، وحُسن الجبين والحاجبَيْنِ
يتلاهى إذا استُحِثّ لشُرْبٍ فى سُكونٍ ، ويَمسَحُ العارِضَيْنِ

خَرْسَـنوه — وما دَرَى ماخُراسا　ن — بلُبسِ القَباء والمِنْزَرَيْن
هُمْ يَجُورونَ فى المِزاحِ عليـه　وهو يَحْـكى بِعَذْلِهِ العُمرَيْن

والنقاد مجمعون على القول بأن أبا نواس مبدع هذا الباب من الغزل عند العرب ، وإنه لـكذلك ، أو على الأقل السابق المبرّز فيه عندهم . ونقول عند العرب لأن الغزل بالمذكر معروف فى الأدب اليونانى والرومانى القديم ، ولا تخلو منه الآداب الغربية فى التاريخ الحديث سواء فى ذلك عهد النهضة الأوربية والأزمنة المتأخرة . فهذا « ميكائيل أنجلو » أكبر مثّالى النهضة غير مدافع ، له إلى جانب آثاره الفنية آثار أدبية وقد اشتهرت بينها قصيدته الغرامية المثالية فى صديق له مصور من أبناء الأشراف . فإذا تركنا إيطاليا إلى إنجلترا ذكرنا « شكسبير » ومقطوعاته الرائعة المعروفة بالأربعة عشرية « Sonnets » وهى نيف ومائة وخمسون مقطوعة ، قلّ من قراء الإنجليزية من يجهلها ، وهى غزل بالمذكر صريح لا خفاء به . وكيف يخفى والشاعر فى مقطوعاته الأولى يحثُّ فتاه الجميل على الزواج ويدفعه دفعاً أن يأتى حرثه من النساء ، حتى لا تحرم الدنيا المترملة بعده من صوَر هذا الجمال يوم يذهب عنها المثال . وأما فى الأزمنة المتأخرة فحسبنا منها مثالان ليس أشيع منهما ذكراً على كل لسان ، وليس أسرع منهما حضوراً فى سائر الأذهان ، لما تعرّض له العاشقان من فضيحة عميمة ، وما انتهت به حياتهما من خاتمة أليمة . وكلاهما من أخصب القرائح وأنبغ الأقلام . أحدهما القصصى الإرلندى « أوسكار وَيلد » والآخر الشاعر الفرنسى المجدد « بول ڤرلين » . ثم هذه القارة الجديدة الأمريكية — مع قِصرتاريخها الأدبى — لم تخل من التغنى بهذا العشق على لسان شاعرها « والت هويتمان » .

ومن المشاهدات التى يقرّرها العلاّمة « هاڤلوك إليس » توافر الاستعداد الفنى

وشدة الميل إلى الموسيقى والغناء عند ذوى الانتكاس المتعلمين. ولعل فى هذا تعليل ما يُلحظ فى الرّعيل الأول من مشاهير الموسيقى والغناء المحكم عند العرب من كثرة المخنثين، أمثال طُويس المغنى الدّفاف وكان يخضب يديه، فإذا سرّه أمرٌ خضبهما إلى مرفقيه، وكان كثير المُلَح ظريفاً. وابن سُرَيج المغنّى العوّاد وكان سُناطاً خفيف العارضين لا لحية له، يلبس الثياب المصبغة ولا يغَنّى إلا مُتَنَقِّباً، وكان يُرى أحياناً وفى يده جرادةٌ مشدودة الرِّجل بخيط يُطيرها ويجذبها كلّما تخلّفت كما يفعل الصغار. وأبو زيد الدلاّل، ولم يكن فى المخنثين أحسن منه وجهاً ولا أنظف ثوباً، وكان ضاحك السنّ أبداً، نَزْر الحديث كثير النوادر يُضحك الثكالى، ولم يكن — بعد طويس — أظرف منه ولا أكثر مُلَحاً، وسُمّى بالدلال لشكله ورقة ظرفه ودله وحلاوة منطقه وحسن وجهه، وكان مشغوفاً بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال، ويسعى كالخاطبة فى تزويج هؤلاء من هؤلاء محتالاً إلى ذلك بأخش الحيل، وقد بلغ خبره الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك وكان غيوراً شديد الغيرة، فكتب فى هذا الشأن للوالى لخصاه هو وسائر المخنثين بالمدينة ومكة.

ونحن إذا ذكرنا هيئة أولئك الفنانين من المخنثين وقد نتفوا لحاهم، واتخذوا الثياب المصبغة المصقولة، وظهروا كالنساء مُمْتَشِطين مختضبين، لم نملك أنفسنا من المقابلة بينهم وبين ما كان يصطنعه الفنانون الأوربيون إلى عهد قريب من إحفائهم شعرَ وجوههم وإعفائهم شعر رءوسهم وإرساله كالنساء على عواتقهم، مع اتخاذ الأصباغ، واستطراف الزىّ وإيثارهم فيه الألوان الزاهية الصارخة. وسواء أكان أهل الفن هؤلاء من الأوربيين مقلدين أم كانوا مبتدعين، فإن هذه الظاهرة فى الحالين تتفق وما يقرّره العلاّمة العصرى الإنجليزى.

ومما يجب التفطن له والتنبيه عليه أن الانجذاب إلى الغلمان لا ينطوى دائماً على فعل جندى . ولكنه — على أية حال من الأحوال — ظاهرة من الميول الجنسية تسترعى النظر .

ولعل أهم ما وقع إلى المتأخرين من الوثائق القديمة فى هذا الموضوع ما ورد عنه فى مائدة أفلاطون فى حديثه عن الحب وعن الحب المثالى خاصة ، وما رواه بعد ذلك عن نفسه وأستاذه سقراط . وهى صفحات لها خطرها من حيث دلالتها على وجه من وجوه التفكير فى المسائل الخلقية والصلات التعليمية فى أخصب عصور الحضارة اليونانية ، وهى الحضارة التى لا يرتضى الغرب أن يُرجع أصلا من أصول حضارته إلى غيرها ازدراء منه بالحضارات الشرقية .

ولقد بلغ من شيوع هذا المَيْل المقرون بالمثالية عند الإغريق الأقدمين أن شاع فى اللغات الحديثة للكناية عنه قولهم « الحب الإغريقى » . ويعلم كل من له إلمام بالخرافات اليونانية أن « زوس » كبير آلهتهم قد وقع فى قلبه حبُّ الأمير الشاب « جانميد » من أمراء طروادة ، فاتخذ هيئة النَّسر واختطف الشاب الجميل وحمله إلى مقام الآلهة على جبل الأولمب ليكون ساقيهم .

ولقد عرفت الأمم القديمة هذا الميل من غير أن تكون له هذه المثالية الفكرية الفنية التى يخلعها على كل شىء رفيعٍ أو وضيعٍ أبناء يونان . ومن هذه الأمم أهل قرطاجنة الأولون ، والأسبارطيون وأبناء جنسهم الدوريون ، ثم الميديون فى الهضبة الإيرانية ، ثم السكيثيون أسلاف المغول والترك ، وبعد ذلك الشماليون النورمان . وجميعهم أهل حروب . وقد ظهر هذا الميل كذلك عند الرومان ، وقد صوّر فضائحه عندهم المؤرخ الرومانى « سويتون » فى كتابه عن « الأباطرة الاثنى عشر » . وأخيراً استفاضت تعاليم المسيحية فى الدولة الرومانية

ورسخت أصولها فى أوربة ، فلم يلبث هذا الشذوذ الجنسى أن صار وصمة نكراء ، وجريمة تعاقب عليها السلطة الزمنية والسلطة الدينية أشد العقاب ، ومن ذلك الحرق أحياناً حتى قيام الثورة الفرنسية .

ومع ذلك جميعه بقيت هذه الرذيلة فاشية فى الجماعات التى تطول غيبة النساء عنها .

وفى القرون الوسطى لم يكن هذا الارتكاس الجنسى فاشياً فى المعسكرات وحدها بل يُرَجَّح أنه تعدّاها إلى الأديرة — كما يقول العلامة هافلوك إليس وغيره — وليس يخلو من الإشارة إلى هذا الإثم كتاب من كتب القوم فى التوبة والتكفير . وبديهى أن أصحاب الأمر الدنيوى والدينى لم يَطُل سكوتهم على هذه الحال ولم يقعدوا عن إصلاحها . فلما أظل عصر النهضة فى أوربة بما كان من بعث الآداب الإغريقية واللاتينية القديمة عاد « الحب الإغريقى » سيرته الأولى فى أوربة الناهضة . ولكن هذا الحب الإغريقى المقتبس لم تواته الملابسات الاجتماعية الدينية السياسية ، فانقطعت مادته وخَبَتْ شعلته ، وارتد إلى الشذوذ الجنسى ميسم عاره وطابع شُنعته . وتعاقبت سنون وسنون ، وأهل الشذوذ فى كل قطر وفى كل عصر لا يزالون كما كانوا ، ولكنهم متوارون بمقدار النكير عليهم وهذا علة ما يعترض الباحثين المحققين من صعوبة فى إحصاء عددهم ، وإلى هذا يرجع السبب فى تأخر دراستهم . وهكذا ظل الشذوذ الجنسى بعيداً عن دائرة التحقيق العلمى فلم تتناوله دراسة علمية إلا منذ القرن الماضى تبعاً للتوسع فى دراسة الحياة الجنسية توسعاً يلمس القارئ العصرى مظهره فيما ظهر فى موضوعها من موسوعات خاصة بها مقصورة عليها .

وليست الدراسة العلمية المفصلة مرادنا فى هذا الموضع ولا هنا مجال الكلام

فيها . وكل ما نقصد إليه هو أن نحدّد موضع شاعرنا أبى نواس فى طبقات أصحاب الشذوذ الجنسى . ونكتفى فى ذلك بالتقسيم المبدئى البسيط للعلاقة الجنسية لغنائه ووفائه بالغرض . فثمّة فرق ثلاثة ، فريق ينجذبون إلى الجنس المقابل دون سواه ، وفريق ينجذبون إلى جنسهم لا يشركون فيه من عداه ، وفريق ينجذبون إلى الجنسين .

والناظر فى أشعار أبى نواس وأخباره يباعد بينه وبين الفريق الأول لأول وهلة ، فالأمر فيها جميعاً أوضح وأصرح من أن يحتمل التوقف لحظة للتأمل والمراجعة .

ويبقى أمامنا بعد ذلك الفريقان الآخران ننظر فى أيِّهما نسلك شاعرنا النواسى .

وهنا يعرض لنا ما يُروَى من أخبارٍ وأشعار تشهد على صاحبنا بنفوره الشديد من الزواج وصدوفه العنيد عنه ، ومن ذلك أن أهله قدموا عليه من البصرة يعذلونه على سيرته ويقولون له : « يا هذا ، إنه قد نفد عُمُرك وساء عملك . فلو تزوجتَ امرأة من أهل بيتك رَجَوْنا أن تُقْصِر عن بعض ما أنت فيه » . فأبى عليهم ، فما زالوا به حتى زوّجوه جارية جميلة من أهل بيته ، فلما دخل بها أعرض عنها ، وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه ، فجمعهم وألبسهم الأُزُر المعصفرة ، وخلا معهم يومه . فلما أمسى طلقها ، وأنشأ يقول فيها :

صاحِبَةَ القرْقرِ لا تَشْغَبى ... تحَمَّلى طالِقَةً واذْهَبى

مُرِّى فكمْ مِثلكِ مِن حُرَّةٍ ... رائِعةٍ لم تَكُ مِن مَطْلبى

لا أشتَهى الحَيْضَ ولا أهلَهُ ... غيرُكِ أشهى َمنكِ فى المَرْكَب

أوْلاَ ، فإنْ كُنتِ غُلامِيَّةً ... مِن شَرْطِ مِثلى فَرِدِى مَشرَبى

لا أُدخِل الجُحرَ يدى طائِماً أخْشَى من الحيَّة والعقْرَب

وروى أنه لم يتزوجها ، وأنهم دسّوا إليه امرأة ، وقالوا لها : « كلميه » ، فجعلت تقول له : « وقد وجدتُ لك امرأة جميلة موسرة ، ولها دار سَرية كبيرة تجعلها لك » . فقال لها : « ويحك ! لستِ أنتِ أدعى إلى الرشد من الله عز وجل ، وقد دعانى إليه وأبَيْت ، وليست المرأة التى تصفينها بأحسن من الحور العين ، ولا الدار التى تذكرينها بأحسن من الجنة ، وكل هذا قد بذله لى من هو أصدق منك ، إذا ارعويتُ ، فلم أقبل ، فكيف أقبل منك أنت ؟ » ، ثم قال :

أقولُ لها — لمَّا أَتَتنى تَدُلُّنى على امرأةٍ مَوصوفةٍ بجَمالِ :
«أَصَبْتِ لها ـ يا أختـ خلًا كما اشْتَهتْ إذا اغْتفَرَتْ منى ثَلاَثَ خِصال
فمنهُنَّ فِسْقٌ لا يُنادَى وليدُه (١) ورقَّةُ إسلامٍ ، وقلَّةُ مال
ولو أنَّها فى الحُسنِ كانت كيُوسفٍ وبِلقِيسَ ، أو كانت كَخَطِّ مِثال
وقالت تَزَوَّجْنى على مَهْرِ دِرْهمٍ لَقلتُ اغرُبى عنى فمهرُكِ غالى ! »

فقال أهله : « والله لا أفلح هذا أبداً ! » ويئسوا منه .

ولعل القارئ يحس فتور هذا الرجل نحو المرأة ، وبرد طبعه من ناحيتها ، وأنها لا تنبه فيه شهوة ولا تحرك به ساكناً ، فى تكراره لفظ « أُخت » فى خطابها ، كما هو بيِّن فى المقطوعة السابقة ، وكما هو أبين فى قوله :

خُيِّبَتْ فِىَّ خَوْدةٌ رُبَّ راجٍ مُخَيَّبِ (٢)
قلتُ لمَّا رأيتُهـا إذهَبِى ـ أُخْتِ ـ واغْرُبى
إنَّمـا هِمَّتى غُلا مٌ ، وسُؤْلى ومَطْلبى »

---

(١) فسق شاذ لا يثمر ولداً . (٢) الخودة : المرأة الشابة الناعمة .

وتتكرر الشواهد على إيثار الغلمان فى معظم شعر أبى نواس ، وله فى ذلك مطارحات مع مُواطنه عمرو بن عبد الملك الورّاق الشاعر ، وكان خليطه وعشيره ، ومن أحبِّ الناس إلى قلبه وأحظاهم بأنسه وأخلطهم بنفسه . ولا عجب أن يكون ذلك كذلك فإنه ماجن خليع من جنسه ، منهمك مثله فى اللهو والتطرّح فى الديارات ، وإن يكن أقل منه استكراهاً للغانيات :

إسقنى بالله يا عَمْـ   رو ثلاثاً وثلاثا
حبّذا الأكؤس فى الدَّ   يْر إذا كُنَّ حِثاثا
حبّذا يا عمرو تبكى الـ   مُرْدَ لا تبكِ الإناثا

وأبو نواس فى إيثاره الشاذ للغلام على المرأة يتعمد شينها وتقبيحها والتنفير منها بذكر الحيض كلما ذكرها :

ألا قُل لِمَن يَلْحىَ على حُبِّ شاطِرٍ   ويحكُمُ فى الأشياء حُكْماً بظاهِرِ
أتجعلُ ذاتَ الحَيْضِ والطَّمْثِ نَجْسَةً   تظلّ ــ طَوالَ الدَّهر ــ ليستْ بطاهر
إلى طاهرٍ من كلِّ عَيْبٍ كأنَّما   تَرَدَّى على غُصْنٍ من البانِ ناضر

وأسمج من ذلك هذه المقابلة التى لا يمل تكرارها بين ما يزعمه سفراً فى عُرض البحر وما يزعمه سفراً على ظهر البر ، وأيهما أكثر أمناً وأقل خطراً :

لستُ بولاّجٍ على جارَتى   لكنْ على ابنِ الجارِ وَلاَّجُ
لاأركبُ البحرَ حِذارَ الرّدى   للبحرِ أهوالٌ وأمواج
والبرُّ لا زلتُ له سالِكاً   لِى فيه ــ لافى البحر ــ مِنْهاج

والظاهر مما تقدم جميعه أن الرجل فى حبه متعصبٌ لجنسه تعصباً لا اعتدال فيه ولا هوادة ، بل إنه ليعترف لنا بذلك فى لفظ صريح :

أعَزُّ العيش وَصْلُ المُرْدِ دَهْرِى   وبؤسُ العيشِ وَصْلى للغوانى

مَنْ كان تُعجِبُه الأنثى ويُعْجبها   من الرِّجالِ ، فإنِّى شَفَّنِى الذَّكَرُ

إنِّى امرؤٌ أُبْغِضُ النِّعاجَ وقد   يُعجبُنى من نتاجِها الحَمَلُ

من عذَّبَ اللهُ بالزِّنَا فأنا   لا ناقة لى فيـهِ ولا جَمَل

وقد يجد القارئُ لنفور هذا الرجل من النساء أسباباً جاء ذكرها فى ديوانه ، ومدارها جميعاً الخوف ، فهو مع الجارية لا يأمن حملها إذا اتصل بها ، بل إنه ليضطر إلى مراقبة الناس ومحاذرتهم لمجرد السلام عليها وخطابها ، أما مع الغلام فهو من جميع ذلك آمن الروع ، مطمئن النفس ، قرير العين :

وشـاطرٍ ماجنٍ أخِى خَنَثٍ   مُستَعْطفٍ كالقَضِيبِ فى مَيلهْ

أيسَرُ ما فيـه من فضائِله   أَمْنُكَ من طَمْثِه ومن حَبَله

أيا «عمروٌ» فَدَيتُك يا خَليلِى   وغايةَ مُنيتى دون الأنامِ

أتجعلُ مَن يحيضُ بكلِّ شَهرٍ   ويَنْبحُ جَرْوُه فى كلِّ عام

كأمْرَدَ واضح الخدّين حُلوٍ   يُزيّنُ للقُعودِ وللقِيـام

ومن ألقـاهُ فى سرٍّ وجَهر   وأطمَعُ منه فى رَدِّ السَّلام

أكلِّمُه بمـا أهْوَى صريحاً   بلا خوفِ المُؤذِّنِ والإمام

بل إنه — فيما يصوره له نفوره ويهول به عليه — ليتوجس من النساء أحابيلهن ، وما اشتهر من ألاعيبهن ، ولا يملك أن يستوحش منهن لعلمه بغدرهن :

إنِّى لأهواكِ وإنِّى جَبـانْ   أفرَقُ من عِلْمى بغَدْرِ القِيانْ

فإذا قابلنا بين موقفه تجاه القيان ، ومجلسه هذا الذى يصفه مع ندماه من

الغلمان ، تماظمنا ولا ريب فَرْقٌ ما بين إحساس و إحساس . هنـاك توجّسٌ واستيحاش ، وهنا استئناس أى استئناس :

ما اسْتَكْمَلَ اللَّذاتِ إلاّ فَتًى يَشرَبُ والمُرْدُ نَدَاماهُ
هـذا يُفدِّيه ، وهذا إذا ناوَلَهُ القَهْوَةَ حَيَّـاه
وكلَّما اشْـتاقَ إلى قُبْلَةٍ من واحـدٍ ألثمه فاه
سَقياً لدهرٍ كنتُ فيـه لهم مُعاشِراً ، ما كان أحْـلاه

ونحن بعد ما بسطناه من معاذير أبى نواس فى النفور من المرأة ، نعتقد أن هذا النفور له أصول أصدق مما زعمه وأعمق ، تقتضى الباحث أن يستقرى منابتها و يتقصى علّتها . وسبيلنا إلى ذلك أن نرجع إلى طفولته وحداثته الأولى . وأول ما يستوقفنا فى هذه المراجعة أنه عدم أباه الجندى العربى ولما يزل طفلا ، فعدم كفالته وحمايته. ولا نعلم فيما وقع لنا أن أحداً تقدم لكفالته من ذوى قرابته . فكانت نشأة «الحسن» فى حجر أُمّه الفارسية . ولا شكّ فى أنها تحوّلت إليه بجملة حبّها بعد أن مات شريكه ومُنافسه فى قلبها . وكلّنا نعرف سيرة الأمّهات مع واحدهنّ أو أصغر أولادهنّ لا سيما إذا مات عن الصغير أبوه ، ونعرف إسرافهنّ فى تدليل الصغير و إظهار التحنّن والحدَب عليه ، والحرص على استرضائه ، واصطناع كلّ مامن شأنه الاستزادة من حبه لهنّ وتعلقه بهنّ . ولاشك عندنا فى أن حال أبى نواس اليتيم مع أُمّه الأرمل لم يكن ليختلف عن سواه ، إن لم يزد لتوحُّدهما وتخلّى الأهل عنهما، فهو لامحالة كان مشبوب العاطفة نحوها شديد التعلّق بها . ولـكن سعادة الطفل كانت غير خالصة . فقد كان يعذِّب نفسه الصغيرة ويَهيج ثورتها أن أمه لم تكن منصرفةً إليه بكلّيتها من جراء اشتغالها بصنع الجوارب والأخراج والاتجار بها سعياً لمعاشه

ومعاشها . فلما أن بلغ « الحسن » السادسة أو نحوها من عمره دفعت به أمه إلى الكتّاب . وكان الطفل إذا آب من الكتّاب إلى تلك الدار من الآجُرّ والجص التى انتقلت إليها أمه فأيسرت حالها ورخا عيشها ، أنكر اجتماع الغوانى والرجال عندها ، ولم يفهم السر فى هذه الخلوات بين الواحد والواحدة من هؤلاء ، واستراب فيما حوله من التكتم والخفاء . إنه لا يحُقّ شيئاً مما يجرى ، ولكن شيئاً يحك فى صدره منه . فهو غير مرتاح النفس ، وقد استوحش من ناحية أمه وفترت عاطفته المشبوبة نحوها ، وزاده فتوراً زيادة اشتغالها عنه . على أن هذا الذى كان يبدو فى ظاهر الوعى فتوراً ، كان فى باطنه غيرة مكبوتة ونقمة مكظومة ؛ فلم يبق شىء أحب إلى الغلام من قضاء معظم الوقت بعيداً عن بيت أمه ، وكان هذا التصرف من الغلام — مع ما كان يداخلها من القلق عليه — لا يخلو من وجه لرضاها وارتياحها ، لما فيه من خلو الجو للمجتمعين والمجتمعات تحت سقف بيتها . ثم لم تلبث هذه الأرملة الطروب الدءوب أن اجتذبت إليها رجلاً يدعى « العباس » شغل بها ، فتزوجت منه وشغلت به عن ابنها وفلذة كبدها .

وانصرف الحسن عن التعلق بأمه إلى صحبة الغلمان من لداته ، وطابت له معهم حلقات المذاكرة والدرس على المشايخ المستبحرين فى كل علم وفن . وكان المسجد الجامع بالبصرة — مثله فى سائر أقطار المملكة الإسلامية — مُتَعَبَّداً وجامعةً ، بل لعله كان أحفل ما يكون حركة ونشاطاً وأشد ما يكون جلبة وزياطًا بالحياة الجامعية . وكانت تدور فيه من الدعابات والمعابثات بين الطلاّب والطلاب وبينهم وبين أساتيذهم مثل ما يجرى فى دور الدراسة عامة . ولقد انبسطت لهذه الحياة نفسُ الفتى وتكشفت طبيعته المِمْراح ، فكان أكثر أقرانه ملازمةً لحلقات الدرس وتوفّراً على تحصيل علوم الأدب ، كما كان أكثرهم دُعابة ومجانة

حتى لم يسلم من عبثه شيخٌ من شيوخه مهما جلّ موضعه فى نفسه .

وأيسر ما يروى من عبثه بأستاذه أبى عبيدة معمر بن المثنّى أنه جاء فى يوم شديد الحر بناطف فألقاه على سارية أبى عبيدة . وجاء أبو عبيدة ، فاتكأ على قفاه إلى السارية . فلما انتصف النهار واشتد الحر ، ذاب الناطف ، فسال على وجه أبى عبيدة وعينيه ولحيته وثيابه . فقال : « قبح الله الماجن الخبيث أبا نواس ! فإن هذا من عمله » . والماجن الخبيث مع هذا كله كان من أعلم الناس بقدر أستاذه ، وفيه قولته المأثورة حين سئل عنه : « ذاك أديمٌ طُوِىَ على علم » . وقد جاء فى « وفيات الأعيان » لابن خلكان فى ترجمة أبى عبيدة أنه كان لا يَقبل شهادته أحدٌ من الحكام لأنه كان يُتَّهم بالميل إلى الغلمان .
وقد روى محمد بن هشام : [كنا عند أبى عبيدة فى المسجد الجامع ، ونحن نتحدث ، ومعنا أبو نواس ، إذ كتب إنسان على دفتره شيئاً وقد لحظ الأسطوانة . فقال له أبو عبيدة : « ما هذا الذى تكتب ؟ » . فنظرنا فإذا بيت قد قاله أبو نواس وهو :

صَلّى الإلهُ على لُوطٍ وشِيعَتِه   أبا عُبَيْدَةَ قُلْ باللهِ : آمِينا

فقال أبو عبيدة : « هذا عمل الخبيث » . يعنى أبا نواس ، وكنا أربعة أو خمسة . فقال أبو عبيدة لكيسان : « أيما أحب إليك ؛ أن تُجَبِّىَ[1] لى فأمحوه ، أو أُجَبِّى لك فتمحوه أنت ؟ » قال : « جَبِّ لى أنت » . فانحنى أبو عبيدة وحمل كيسان على ظهره ، وقال له : « حُكَّهُ » . قال كيسان : فجعلت أحكه وهو يقول لى : « ويحك ، عَجِّل ، لا نفتضح عند الناس » . ثم قال لى بعد أن أثقلته

(١) يقال جبى فلان أى وضع يديه على ركبتيه منحنياً وهو قائم .

« أثقلتنى وقطعت ظهرى . قد فرغت ؟ » . قلت : « قد بقى لوط وحده » . فقال لى أبو عبيدة : « وهل نهرب إلا من لوط ! حكّه »] .

والذى يستدل عليه من هذه « النادرة » التى يكثر التندر بها و بأمثالها فى كتب الأدب القديم هو أن ذلك الانحراف الجنسى الذى شهر به أبو نواس كان فاشياً فى بعض الأوساط الأدبية الفنية فى عصره ، وقد كان من تمام البلية أن التقى النواسى عند العطار الذى كان يعمل له — وهو إذ ذاك فتى غرير يعالج نظم الشعر — برجل من مشاهير الشعراء كان يشيع فى هذه البيئة ذكره وتتناقل الألسنة شعره ، ولم يكن ذلك للإجادة والإحسان بقدر ما كان لخروجه عن الحدّ فى غزله الماجن واجترائه على العرف فى سيرته .

وهكذا ائتمرت ملابسات طفولته وظروف حداثته على قَطع الرحم الواشجة بينه و بين أمه ، وعلى تهجين المرأة عامة فى قرارة نفسه ، ووقفت صلته بالنساء عند الإهاب ومباشرة الجسد للجسد ، وأما الصلة التى تعوّدها مع أفراد جنسه ، فكان يدخلها فى حداثته الإعجاب بذوى الغلبة والتفوق ، والتعبد لهم والسكون إليهم والفناء فيهم ، ثم صارت — بعد بلوغه مبالغ الرجال — يدخلها ميل نفسى أشبه ما يكون بالصداقة .

ولقد كادت حال أبى نواس تنصلح حين عرضت له الجارية الأديبة الظريفة العاقلة « جنان » جارية آل عبد الوهاب الثقفى ، وما ذاك — فى اعتقادنا — إلا أنه توسَّم فيها النمط الذى يصبو له بهواه ، ويجنح إليه بطبيعة مزاجه ومقتضى نزعته ، ونعنى به « المرأة الصديق » . وقليل ما هنّ . ومصداق ذلك ما قيل من أنه لم يصدق فى حب امرأة غيرها . ولكنها بعد أن عطفت عليه ، لم تلبث

أن أعرضت عنه وكرهته . ثم ضرب الدهر بينهما ضربة من ضرباته العسراء فافترقا إلى غير لقاء .

ولم يزل ذلك حظ المسكين فى طلبه للصداقة عند النساء ، حتى قال ابن منظور متعجباً : « وكان أبو نواس يحب أيضاً جارية لجعفر بن سليمان اسمها حسن ، وحُرِم صحبتها ، كما حرم صحبة جنان وعنان ، كأنه لم يكن مجدوداً منهن كما كان من الغلمان ! » .

ومع هذا فقد ظل أبو نواس إلى آخر العمر يخطب ودّهن ، كما هو ظاهر من كثرة الجوارى اللواتى تغزل بهن فى شعره . على أن الذى يلحظ فى معظم هؤلاء أنهن كن من الغلاميات ممن يصطنعن المشاركة فى أفعال الرجال ، والمشاكلة لهم فى طبائع الأمزجة والخصال ، مع إظهار الرغبة عن الزواج إلى المصادقة .

الساقية

ولم يكن السقاة كلهم فى مجالس الشراب من الغلمان ، بل كان منهم الجوارى الحسان . وقد ترك النواسى للقوم صورة « للساقية المثلى » حتى صار ذلك الوصف المنطبع فى أذهانهم الماثل فى خيالهم هو المثال الذى كان يُطلب لمن يُبعث فِي الارتياد لها أن يمتثله . روى كاتب الرشيد إسماعيل بن صبيح : [قال لى الرشيد : « يا إسماعيل ؛ ابغنى وصيفة مليحة ، مقدودة شَكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عاملة ، تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « يا سيدى ، علىّ الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هـذا العيّار — يريد أبا نواس — وامتثل فيها ما حدّ فى مثلها لك » . قلت : « يا سيدى ، فما قوله ؟ » . فقال الرشيد :

من كَفَّ ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً في حُسن قدٍّ وفي ظَرْفٍ وفي أدبِ
كانت لربِّ قيانٍ ذي مُغالبةٍ بالكَشْخ مُحترفٍ ، بالكَشْخ مُكتسِبِ[١]
فقد رَوَت وَوعَتْ عنهُنَّ ، واختلفَتْ ما بينهُنَّ ومن يَهْوَيْنَ بالكُتُبِ
حتّى إذا ما غَلَى ماءُ الشَّباب بها وأُفْعِمَتْ في تمام الجسم والقَصَبِ
وجُمِّشَت بخَفيِّ اللَّحظِ فانجَمشتْ وجَرَّتِ الوَعْدَ بين الصدق والكَذِبِ[٢]
تمَّتْ فلم يَرَ إنسانٌ لها شَبَهاً فيمن برا الله من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
تلكَ التي لو خَلَتْ من عَيْن قَيِّمها لم أقضِ منها ولا مِن حبِّها أربى

فهذه الساقية المثالية كانت تنشئتها الأولى — وهي صبية حدثة السن لم تبلغ الحلم — في بيت كشخان يتجر بالرقيق الأبيض ويكتسب من الجمع بين قيانه ومن يجتذبن من الرجال ، وكانت تختلف بين هؤلاء وهؤلاء بالرسائل الغرامية ، فهي راوية لما يدور حولها واعية له ، حتى بلغت سن المراهقة وغلى ماء الشباب بها ونضج جسمها وأدرك تمامه ، فالتفت إليها رواد هذه الدار المريبة يجمّشونها بخفيّ اللحظ وهي تمانيهم في الخفاء وتضرب لهم المواعيد ، وقد حذقت الصناعة ، وإن لم تزاولها بعد .

ونحن نرى من إعجاب المعجبين بهذه الأبيات مبلغ اشتهاء القوم لهذه الثمرة الجنية الناضجة التي لم تبتذلها الأكف ، لا سيما وقد اجتمع حذق الأدب والتخرج في الفن للجارية المراهقة ، في هذه السن المتطلعة التي تكون فيها الأنثى أتم ما تكون حيوية ، لأنها حيوية لم ينل بعد منها طول الكبت ولا السرف .

وقد عرض أبو نواس في أكثر من قصيدة لوصف أولئك الساقيات . والذي

(١) الكشخ : الجمع بين الرجال والنساء لريبة . (٢) جمشه : قارصه ولاعبه

يغلب على صفتهن استواء جسومهن وضمور الحشى وعدم الاسترخاء ، مع الفطنة ودقة الفهم وحدة الذكاء :

قد سَقَتْنى — والصُّبحُ قد فَتَقَ اللّيـ ... لَ — بكأسَيْن ، ظَبْيَةٌ حَوْراء
عن بنـانٍ كأنَّه قُضُبُ الفِضّـ ... ـةِ ، قَنَّى أطرافَهـا الحِنَّاء
ذاتُ حسنٍ تُشْجَى بأردافِهـا الأُزْ ... رُ ، وتُطوَى فى قُمْصِها الأحشاء
قد طوَى بطنَها — على سَعَةِ العَيْـ ... ـشِ — ضمورٌ فى حَقْوِها وانْطواء (١)

قِفْ ، لا تَحَلْحَلْ عن الرَّيحانِ والرَّاحِ ... وعن ترَنُّم أوْتارٍ بإفصاحِ
من كفِّ ساقيةٍ يستلُّ ناظرُها ... — لدِقَّة الفَهْم — ما أوحى به الواحى

وكان أكثر الساقيات ممن يحسن الغناء ، ومنهن هذه الساقية المغنية واسمها « قُبَل » على نحو ما ذكر النواسى فى قصته مع صديقه :

فقلتُ « هل لكَ فى الصَّهْباءِ تأخذُها ... من كفِّ ذاتِ هنٍ ، فالعيشُ مُقْتَبلُ
حِيرِّية كشُعاع الشَّمس صافيـة ... يُحيط بالكأسِ من لألائِها شُعَل »
فقال « هاتِى ، وغنِّينا على طرَبٍ ... « ودِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلِ »
فأحسنتْ فيه ، لم تَخْرُمْ مَواقِعَه ... والكأسُ فى يدِها فى جَوْفِها حُلَل
ثم استهَشَّت إلى صَوْتٍ تُمَلِّحُه ... « إنَّا محيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَل »
فما تمالكتُ عَيْنِى أن تَبادَرها ... دَمْعى وعاوَدَها من دلِّها خَبَل
فقال « أحسنتِ . ماتُدْعَيْن ؟ » قلت له: ... « منكوسُهُ (لَبِقٌ) . هذا هُوَ المثل »
فطار وجداً بهـا ، والخمـرُ تأخُذه ... وقال « هاتى ! فأنتِ العيشُ والأمل

---

(١) الحقو : الخصر .

إن العيونَ التى فى طرْفِها مَرَضٌ ... فرجَّعَتْهُ بِلَحْنٍ وقُمْه شَكِل
فخـرَّ مُعْتَجِزاً مما ترادَفَه ... منها، وقلتُ لها « أحسنتِ يا قُبَل ! »
فاستخجلتْ ، فتبدَّى الوردُ يضحكُ فى ... خَدٍّ أنيقٍ لها يا حبَّذا الخَجَل

عصر الجوارى

وكانت المدن الكبيرة فى الإمبراطورية العربية تغص بالجوارى حتى كن فى بعضها يزحمن الرجال فى الطريق . وكثيراً ما كان يجرى على ألسن الرجال من زحمتهن لهم أقوال شبيهة بما رواه أهل الأخبار عن هذا الذى زحمته جارية منهن فقال متغضباً شاكياً : « المستعان بالله منكن . ما أكثركن ! » .

ولا عجب ، فقد كان للملوك وللأشراف ولسائر الناس من الإماء على قدر ما كانوا عليه من الجاه والثراء ، وكن يختلفن لمواليهن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ويجلسن للناس ، وكن فى جميع هذا يبرزن أحسن ما كن وفى أجمل ما به يتزين.

وكانت هذه الجوارى من مختلف الأجناس والأديان والألوان ، يجلبهن النخّاسون أكثر ما يجلبونهن إلى حاضرة الإمبراطورية فى بغداد ، ويتكلف عمالهم مشاق الأسفار والطواف فى الآفاق فى طلبهن . فقد كانت سوقهن نافقة ، وتجارتهن من المتاجر الدارّة الرابحة ، لإقبال الكافة على اقتنائهن، وتنافس الخاصة فى الاستكثار منهن والمغالاة بأثمانهن .

ومن ظريف ما يذكره الرواة عن الخلفاء ما كان يُرى فى قصورهم من الجوارى الروميات وهن فى الديباج الرومى ، لا يحسنّ اللسان العربى ، فإذا تكلمن سُمعت لهن رطانة ، وكانت صلبان الذهب على صدورهن ، فإذا حلّ

من أعياد النصرانية عيد احتفلن بدينهن . ولم ينكر أحد من ذلك شيئاً بل كانوا يستطرفونه . وقد جاء فى كلام الطبرى عن الخليفة المهدى ، أنه دخل فى بعض دوره يوماً ، فإذا جارية له نصرانية ، وإذا جَيْبُها[1] واسع وقد انكشف عما بين ثدييها ، وإذا صليب من ذهب معلق فى ذلك الموضع فمد يده إليه فجذبه وأخذه ، فولولت الجارية الحسناء على صليبها . وسرّ الخليفة من المنظر ولم يلبث أن قال فيه:

يومَ نازَعْتُها الصَّليبَ ، فقالتْ : « وَيحَ نفسى ! أمَا تُحَلِّى الصَّليبا »

وأرسل إلى بعض الشعراء فأجاز البيت ، وأمر بالشعر فغُنِّىَ فيه صوت ، ولم يزل معجباً بهذا الصوت .

ومن هذا وما تقدم قبله فى الأديرة تظهر جليًّا روح التسامح الدينى التى كان عليها الخلفاء وعامة الناس . على أن الأمر لم يقتصر على مجرد التسامح ، بل كان فيه — كما شهدنا — الكثير من الاستطراف والاستظراف لما فى الديانات المخالفة من عادات جرت عادة المسلمين باستهجانها ، وإظهار المقت لها ، كاتخاذ الصلبان والتعبد للصور والأيقونات . ولا ريب فى أن هذه الحال يرجع فضلها إلى أولئك الجوارى النصرانيات الحسان ، وما كان من ملابسة القوم لهن ملابسةَ عشق وافتتان ، مما أعان على البلوغ بالتسامح هذا المبلغ الذى رأيناه عند الخلفاء ، والذى ذهب — ولا عجب — إلى أبعد من ذلك عند المجان والخلعاء ، كما نرى فى قول شاعرنا متغزلا فى الجارية الرومية النصرانية : « درّ » :

لو كنتَ تعشق « دُرًّا » ما سألتَهمُ هل عندكم فَضْلَ زُنَّارٍ تُعيرُونى
ولستُ أسألُ « دُرًّا » غير قُبلَتها فإنَّ فيها شِفائى لو تُواتينى
مَزَجتُ دينى بدين الرُّوم فامتزَجا كالماء يُمزَج بالصِّرف الرَّساطون
فلستُ أبغى بها يا عاذِلى بَدَلاً إذ صارَ لى بِهِمُ دينانِ فى دين

---

(١) الجيب : طوق الثوب

ولقد بلغ من افتتان الخلفاء ببعض جواريهن نصرانيات وغير نصرانيات أن صار منهم شعراء ينظمون الشعر فيهن و يشببون بمحاسنهن . ولا نظن للخلفاء شعراً أشيَرَ وأجرى على الألسن من هذه الأبيات التي يروونها للخليفة هارون الرشيد فى « الثلاث الآنسات » وهن جواريه (سحر ، وضياء ، وخنث ذات الخال) . وقد جاء فى الأغانى أن الرشيد كان يهواهن و يقول الشعر فيهن . وهذه الأبيات خطيرة الشأن من عاهل مطلق السلطان كهارون الرشيد ، وليس يقلل من خطرها أن يقال إن الشعر للعباس بن الأحنف أو لسواه ، فالمقطوع به في كل حال أنه قيل على لسان الخليفة وارتضاه :

مَلَكَ الثَّـلاثُ الآنساتُ عِنانى وَحَلَلْن من قَلْبى بكلِّ مَكانِ
مالى تُطاوعُنى البريَّـةُ كلُّها وأُطيعُهنَّ وهنَّ في عِصْيانى
ما ذاكَ إلاَّ أنَّ سُلْطانَ الهَوى — و به قَوِينَ — أعزُّ من سلطانى

وجاء فى العقد الفريد منسوباً إليه قوله فى قينة له :

تُبدى صدوداً ، وتخفى تحته مِقَةً فالنفس راضيةٌ والطرف غضبانُ[(١)]
يا من وضعتُ له خدّى فذلّله وليس فوقى ــ سوى الرّحمنِ ــ سلطان

وللخليفة إلى ذلك أبيات أقل من هذه شيوعاً فى « هيلانة » ، وهى جارية كانت ليحيي البرمكى ، فاستهداه إياها فوهبها له . وكان الرشيد شديد الحب لها حتى غلبت عليه . وقد أقامت عنده ثلاث سنين ثم ماتت ، فوجد عليها وَجْداً شديداً ، ورثاها فى شعر أورده ابن الخطيب فى تاريخ بغداد .

وندع الأمين لاشتغاله عن الجوارى بالخصيان من الغلمان كما تقدم . وننتقل إلى خلافة المأمون ، فنرى الخليفة وقد دخل عليه أحمد بن صدقة الطنبورى فى

---

(١) المقة : الحب .

بعض الأيام ، وكان يوم السعانين من أعياد النصارى ، فإذا الخليفة بين يديه عشرون وصيفة جُلْبٌ روميات ، تزيّن بالديباج الرومى ، مُزنَّرات الأوساط ، وقد علّقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفي أيديهن جميعاً سعفات الخوص وأغصان الزيتون ، احتفالاً منهن بذكرى يوم دخول المسيح أورشليم واحتفاء الشعب به على هذه الصفة كما هو المأثور في دينهن . فما وقع نظر المأمون على الطنبورى حتى قال : « ويلك يا أحمد ! قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغنّنى فيها » ثم أنشد الأبيات :

ظِبــــاءٌ كالدَّنانيرِ   مِلاحٌ فى المَقاصِير
جــلاهُنَّ السَّعانينُ   علينا فى الزَّنانير[1]
وقد زَرْفَنَّ أصداغاً   كأذْنابِ الزَّرازِير[2]
وأقبَلْنَ بأوْساطٍ   كأوساط الزَّنابير

فغناه الطنبورى بها ، فلم يزل الخليفة يشرب ، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص من الدَّسْتبند إلى الإيلا .

دليل الشارى

وهكذا كثرت الجوارى على اختلاف أجناسهن في بغداد وغير بغداد ، وشاع اتخاذهن بين العامة والخاصة . ولقد طال عهد القوم بملابستهن ، وكثر ما احتقبوه من الخبرة بهن ، حتى استقرّ لهم فى هذا الشأن مُقَرَّرات لم تلبث أن اتخذت سمة العلم ، ووجدت بعد ذلك من يكتب فيها الرسائل المطولة لتكون بمثابة الدليل

---

(١) الزنانير : جمع زنار ، حزام يشد على الوسط . (٢) زرفنت شعرها : جعلته كالزرافين وهى الحلق الصغيرة . الزرازير جمع زرزور : طائر أكبر من العصفور .

المادى والمرجع المفيد فى أمر الجوارى والعبيد . فالهنديات « لهن حُسنُ القوام وسمرة الألوان ، وحظ وافر من الجمال ، على صفرة وصفاء بَشَرَة ، وطيبِ نَكهة ولين نعمة ، وهن للولد . . . ولكن الشيخوخة تسرع إليهن » والسنديات « ينفردن بدقة الخصور ، وطول الشعور » . ثم الزنجيات « أنقى الناس ثغوراً ، وليس فى خُلقهن الغمّ ، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن » . وأما الحبشيات « فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها » . والنوبيات « ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين ملمس » . والبجاويات « مذهبات الألوان حسان الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة » . ثم التركيات « قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقدودهن ما بين الرَّبْع[1] والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قل ما يتفق فى أولادهن القبيح ولا ردىء التركيب » . وأما الأرمنيات « فالملاحة فيهن ، لولا ما خُصصن به من قبح الأرجل مع صحة بِنْية وشدة أسر ، وفيهن غِلَظُ طبع ولفظ ، ولا يصلحن لمتعةٍ » . والروميات « بيضٌ شُقر ، سِباط[2] الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء » . ثم الجوارى العربيات ، وهن عند القوم أنواع ، فالطائفيات « سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحاً ، وأحسنهم فكاهة ومزاحاً ، لسن بأمهات أولاد . يَكسَلن فى الحبل ويهلكن عند الولادة » ، والمكيات « خَنِثات مؤنَّثات ، لينات الأرساغ[3] ، ألوانهن البياض المشرب بسمرة ، قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثغورهن نقية باردة ، وشعورهن جَعْدة ، وعيونهن

---

(١) الربع : الوسيط القامة . (٢) السبط المسترسل من الشعر ، ضد الجعد .

(٣) الرسغ : المفصل ما بين الساعد والكف .

مراض فاترة » ، والمدنيات « سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دَلّ وحسن شِكْل وبِشْر ، لا غيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل لا يغضبن ولا يصخبن ، ويصلحن للقيان . . . » إلى آخر ما صح فى الأوهام وتقرر فى الأذهان عن الجوارى وخصائصهن ، ظاهرهن و باطنهن .

وليس أدل على ما استحدث القوم من أوصاف فى ظاهر العيان وما خبروه من أصناف فى صميم المتعة وسط هذا الحفل من الجوارى الجلائب من المشارق والمغارب من كل لون وسحنة ، من هذه الصورة للحسناء الرومية ، وقد أبى أبو نواس فى إعجابه بها إلا أن يكون فى تركيبها أجزاء من جميع النساء :

أبصرتُ فى بغدادَ رُوميَّهْ   تَقصُر عنها كلُّ أمْنيَهْ
قَصْرِيَّةَ الطَّرف ، شَآمِيَةُ الـ   خَلْوَة ، فى نَكْهَةٍ زَنْجيه
صُغْدِيَة السَّاقَيْن ، تُرْكِيَّة الـ   سَّاعد ، فى قَدٍّ طَخاريَه
بِنْدِيَّة الحاجب نُوبِيَّة الـ   فَخْذَيْن ، فى زَهْو عِبادِيه
حِيرِيَة الحُسْن ، كِيَانيَّة الـ   أَرْداف ، فى أَلْيَة عاجيَّه

الغلاميات

على أن الجوارى اللواتى يُعرف بهن ذلك العصر ، هن فى حقيقة الواقع ظاهرة جديرة بالدرس . فلقد كن فى شكلهن وزيّهن وفعلهن أقرب إلى بنت اليوم « الرياضية » كما نسميها . فهن شاطرات ، فارهات ، مطمومات الشعر[1] ، عاطلات من الحلى ، وفى أرجلهن النعال كأحذية الرجال . يلبسن القرطق وعليه

(١) طم الشعر : قصه .

قباء ومنطقة ، وهو زى يلتزم الجسد من ضيقه التزاماً حتى ليرسم للعين تقاطيعه المكورة[١] ، وينحسر من قصره عن السيقان ويبدى ربلاتها[٢] المنسوقة ، فلا تسحب له صاحبته ذيلاً ، ولا تنازعها الريح من بنائقه فضلا :

مُقرْطَقَةٌ لم يَحْنِها سَحبُ ذيلها ولا نازَعَتْها الرِّيحُ فَضْلَ البنائقِ[٣]
تُشارِكُ فى الصُّنعِ النِّساءَ ، وسَلَّمت لهُنَّ صنوفَ الحلْىِ غيرَ المَناطق

ولا شك فى أن هذه الأوصاف التى نجدها للجوارى كما نتمثلهن فى أخبار أبى نواس وأشعاره ، تصلح فى جملتها مثلاً سابقاً للفتاة الغربية التى عرفها الفرنجة فى أوائل القرن العشرين باسم « الغلامة La Garçonne » ، والتى هى أثر من آثار تطور الأخلاق والآداب بعد الحرب العظمى الأولى . وإنه لمن التوافق العجيب أيضاً أن يكون هذا الاسم بعينه هو الذى يوسم به أولئك الجوارى فى عصر أبى نواس . فلنسمع إليه يصفهن :

عَذَّبنى حُبُّ « غُلاميَّاتِ » ذواتِ أصداغٍ مُعَقْرَباتِ
مُقوَّماتِ القدِّ مَهضوماتِ يَمْشِين فى قُمْصٍ مُزَرَّرَاتِ

مَطْمُومَةُ الشَّعْرِ ، فى قُمْصٍ مُزَرَّرَةٍ فى زِىِّ ذى ذَكَرٍ ، سِيماهُ سِيماها

صُورٌ إليكَ مُؤنَّثا تُ الدَّلِّ فى زِىِّ الذُّكُورِ[٤]
عُطْلُ الشَّوى ومواضِعِ الأ زرار منها والنُّحور[٥]
أَرْهِفْنَ إرهافَ الأعِنَّـ ةِ والحمائلِ والسُّيور
ومُوقَّرات فى القَرا طِقِ والخناجرُ فى الخصُور

---

(١) المكورة : المطوية المدمجة . (٢) الربلات : أصول الأفخاذ (سمانة الساق) .
(٣) البنيقة : لبنة القميص وهى الرقعة تزاد فى نحره .
(٤) صور إليك أى مائلات إليك . (٥) الشوى : الأطراف كاليدين والرجلين .

أصداغُهنّ مُعقربا ت والشَّوارب من عَبير
مثل الظِّباء تَمتْ إلى رَوضٍ صَوادِرَ من غَدير

وخُذْ من كَفّ جاريةٍ وَصِيفٍ رَخيمِ الدَّلّ ، ملثوغِ الكلامِ
لها شَكلُ الإناثِ ، وبَيْنَ بَيْنا ترى فيها تكاريةَ الغُلام
فأحياناً تُقطِّبُ حاجبَيْها وأحْياناً تَثنّى كالحُسام

رَأتْ زِيَّ الغُلام أتمَّ حُسناً وأدنى للفُسوقِ وللأثامِ
فما زالتْ تَصرّفُ فيه حتّى حَكَتْهُ فى الفِعالِ وفى الكلام
تُرَجِّل شَعرَها وتُطيلُ صُدغاً وتَلْوِى كُمّها فِعلَ الغُلام
وراحتْ تستطيلُ على الجوارى بفَضلٍ فى الشَّطارة والغَرام
تَعافُ الدُّفَّ تَكرِيهاوفَتْكاً وتلعبُ — المَجانة — بالحَمَام
ويَدعُوها إلى الطُّنبورِ حِذْقٌ إذا دارتْ مُعَتّقةُ المُدام
وتَغدُو للصَّوالِج كلَّ يَوْمٍ وتَرْمى بالبَنادِقِ والسِّهام

ولشاعرنا أبى نواس وقائع عدة مع جوارى القصور الغلاميات نجتزئ منها بواقعة له مع « معشوق » جارية أسماء بنت المهدى . وكانت الشعراء تجتمع فى كل يوم بباب الأميرة العباسية ؛ وكان لهم مجلس يجتمع عليهم فيه أهل الأدب . فكان يحضر ذلك المجلس أبو نواس . فنظر يوماً وقد خرجت من القصر وصيفة ناهدة غلامية ، فاشتد عجبه بها ومازحها ، ولم يزل ذلك دهراً ، إذا خرجت لحاجة إلى ما يلى باب القصر ، عبث بها وداعبها ، وأنشدها أشعاراً فى حبه لها ، ولا ينكر ذلك عليه أحد لما كان منه من العبث بالناس والمجون ، ولأنه لم يكن يعتد

بالنساء . فقال يوماً ليوسف بن الداية النخاس : « إمض بنا إلى باب أسماء ، لننظر إلى من يحضر اليوم من الشعراء ، ونتعرف خبراً إن كان حدث » . فمضيا، فبينا هما على باب أسماء ، إذا بالجارية قد خرجت ، وعليها قباء وشى منسوج بالذهب ، وسراويل وشى أخضر منسوج بالذهب ، وعلى رأسها محبسة إبريسمية[1] منسوجة بالذهب ، وفى رجليها نعل مغشاة بالديباج ، وتشد خصرها منطقة ذهب مفرقة على زرياب حرير عريض وقد غابت فى خصرها من انهضامه فما تكاد تبين ، وفى يدها قضيب خيزران تعبث به ، فدهش كل من حضر وبهتوا إلى براعة جمالها وحلاوتها وحسن زيها . فقال أبو نواس لزميله : « فمثل هذه يا نخاس فاشتر، لا مثل رقيقك » . فقال : «دعنى ، فما رأيت مثل هذه قط ، على كثرة ما يمر على يدى ، وما تصلح هذه إلا للخليفة » . فأقبلت الجارية ، تخرج وتغيب ، وتتهادى وتتثنى فى مشيتها ، حتى وقفت حيالها ، ونظرت إليه نظراً دلّ على أن فى قلبها منه شيئاً ، فأنشأ يقول وهى تسمعه شعراً مطلعه :

لقد صُبِّحتْ بالخير عينٌ تَصَبَّحَتْ بوجهِكِ يا « مَعْشُوقُ » فى كلّ شارقِ

فلما فرغ من إنشاد الشعر ضحكت وولّت راجعة ، فإذا أحسن الناس قدًّا وأعطافاً وحلاوة . فانصرف الزميلان وقد أخذت بمجامع قلبهما . وانقضت أيام . وفى ذات يوم ، وأبو نواس كسلان لا ينشط للشرب ، والوقت ظهر ، إذ دخلت عليه الوصيفة بغير إذن ولا سابقة علم ، فقالت : « تَقْبَل الطُفَيليّة ؟ » . فوثب الشاعر فقبّل رأسها وعينيها ، ويديها ورجليها . وقال : « يا سيدتى ، الحمد لله الذى ألان لى قلبك ، وسخّرك لعبدك ، ومتّعنى بقربك ، فأعلمينى كيف تخلّصت ؟ » . قالت : « خرجت لأداء رسالة ، فكنتَ أهمّ إلىّ فى نفسى » .

---

(١) الإبريسم : الحرير .

ثم كان ما يرويه لنا الشاعر فى قصيدة له ماجنة يدفعنا على نشر بعضها ما تنطوى عليه من روح ساخرة :

وناهِدَةِ الثَّديَيْنِ من خَدَمِ القَصْرِ ... سَبَتْنى بحُسْنِ الجيدِ والوَجْه والنحْرِ
غُلامِيَّةٌ فى زِيِّها بَرْمَكيَّةٌ ... مُزَوَّقةُ الأصْداغ مُطمُومَةُ الشَّعر
كَلِفتُ بما أبصرْتُ من حُسن وَجهها ... زماناً ، وما حبُّ الكَواعِب من أمرى
فما زلتُ بالأشعار فى كلِّ مَشْهدٍ ... أُلَيِّنُها ، والشِّعر من عُقَد السِّحر
إلى أن أجابَتْ للوِصالِ وأقْبلَتْ ... على غير ميعادٍ إلىّ مع العَصْر
فقلتُ لها أهلاً ، ودارتْ كؤوسُنا ... بمَشْمولةٍ كالوَرْس أو شُعَلِ الجَمْر
فقالتْ : « عَساهَا الخمر ! إنِّى بَريئةٌ ... إلى الله من وَصْلِ الرِّجال مع الخمر »
فقلتُ: « اشرَبى، إنْ كان هذا مُحرَّماً ... فَفِى عُنُقى يا رِيمُ وِزْرُكِ مَعْ وِزْرِى »[1]
فطالبتُها شيئاً فقالتْ بعَبرةٍ : ... « أموتُ إذَنْ منه » ودَمعتُها تجرى
فما زلتُ فى رفقٍ ونفسى تقولُ لى : ... جُوَيْرِيَةٌ بِكْرٌ ! وذا جزَعُ البِكْر
فلمّا تواصَلْنا تَوَسَّطْتُ لُجَّةً ، ... غَرِقْتُ بِها يا قَوْمُ ، من لُجَجِ البَحر

الهوس بالشذوذ

وليس أدلّ على الهوس بالشذوذ من هذا الخلط الذى طرأ على ذوق القوم ومن هذا القلب فى الأوضاع . فهم يطلبون فى الغلام الساقى أن يكون شبيهاً بالجارية فى الدّل والتغنّج والتأنث ، وقد يريدونه أحياناً على أن يتزين زينتها ويتزيى زيّها :

من كفّ ذى غنَجٍ ، حُلو شمائِلُهُ ... كأنّه عند رأى العين عذراء

(١) الريم : الظبى الخالص البياض .

ومُوحَّدٍ في الحسن جَلَّله ... بردائِه ذُو الطَّوْلِ والقُدْسِ
إن شئتَ قلتَ خَرِيدَةٌ جُليتْ ... للشُّرْبِ يومَ صَبيحةِ العُرس

يَسعَى بها خَنِثٌ ؛ في زِيِّ جاريةٍ ... مُطيَّبٌ صُدغُه في طِيبِ ألبانِ

يَتيه على العبادِ بحُسنِ وجهٍ ... وشَعْرٍ قد أُطيلَ على قَفاهُ

بكفٍّ أغَنَّ مُختَضِبٍ بناناً ... مُذالِ الصُّدْغ مَضفورِ القُرونِ[1]

ومشترِكٍ فيه — إذا الوهمُ ناله — ... تخنّثُ أُنثى واعتدالُ غلامِ

فأَنْ لى أكعابٌ ... أنتَ ، أم أنتَ غلامُ؟

وهم يستحبون فى الجارية الكعاب أن تكون أشبه بالغلام فى جميع أمره ؛ كالساقية التى يقول فيها النواسى : « من كفِّ ذاتِ حِرٍ فى زىِّ ذى ذَكرٍ » وفى الكثرة من شعره الذى عرض فيه لوصف الجوارى :

مُذَكَّرةٌ ، مؤنّثةٌ ، مَهاةٌ ... إذا بَرَزتْ تُشَبِّهُها الغُلاما

غُلامٌ ، وإلَّا فالغُلامُ شَبيهُها ... ورَيحانُ دُنيا ، لَذّةٌ للمُعانق
تَجمَّع فيها الشكلُ والزىُّ كله ... فليس يُوَفِّى وَصْفَها كلُّ ناطق

ولقد كان لشباب بغداد فى ذلك العهد بدعة فى تسوية شعرهم . فكان الشاب منهم يحلق شعرَه على جبينه دون أن يبلغ جبهته ، ويسوّيه مع حاجبيه ، ثم يدوّره إلى أذنيه بعد مَسْحه بالعنبر أو تَنْديته بماء المسك ، ثم يسدله إلى صدغيه :

صُدْغاه قد سَالَا على خَدِّه ... مثل عَناقِيد على وَرْدِ

---

(١) مذال الصدغ : منسدله .

فصَوْلَجانُ الصُّدْغِ مُستمْسكِنٌ — للضَّرْبِ — من تُفَّاحةِ الخَدّ

فكان أن اصطنعت الغلاميات من الجوارى هـذا الطراز ، فبعد أن كنّ يباهين بطول شعورهن ، و يصلْنها بالضفائر يرسلنها إلى أسفل ظهورهن ، وقد يَزِدن فيضعن فوق مفارقهن تاجاً مرصّعاً ؛ عمدن إلى تقصير شعورهن ، واصطناع الطرر والأصداغ كالغلمان :

وَمَطْمُومَةٍ لم تَتَّصـل بذُؤابةٍ — ولم تَعْتَقِدْ بالتَّاجِ فوقَ المفارِقِ
كأنَّ مَخَطَّ الصُّدْغِ فوق خُدودِها — بقيّةُ أنقـاسٍ بأصْبَع لائق(١)
نَدَّهُ بماء المِسكِ ، حتى جرى لها — إلى مُسْتَقَرّ بين أُذْنٍ وعاتقِ

وكان زىّ الصبيان يُتخذ — فى القليل النادر — للبنات فى سن الحداثة على سبيل الطرافة كما يقع عندنا اليوم . وقد روى لنا التاريخ فى أخبار الخليفة المهدى أنه رئى حين دخل البصرة يسير فى سِكّة قريش ، وصاحب الشرطة يسير أمامه فى يده الحربة ، وابنته « البانوقة » — وهى سمراء حسنة القد حلوة — تسير بين يديه ، بينه و بين صاحب الشرطة ، فى هيئة الفتيان ، عليها قباء أسود ، وشاشيّة (عِمامة) ، ومنطقة ، متقلدة سيفاً ، وفى الصدر شىء من ثدْيَيها وقد رفعا القباء لنهودها . ولكن هذا القليل النادر فى عهد المهدى تعدّى الصبايا الصغيرات ، وصار بعده سيان زىّ الجوارى وزىّ الغلمان . و يقال فى علة شيوع ذلك ما رأته الملكة زبيدة من شدة شغف ابنها الأمين بالغلمان من خَدَمه . واشتغله بهم ورفعه لمنازلهم ، فكان منها أن اتخذت الجوارى المقدودات ، الحسان الوجوه ، وعمّمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق

(١) المخط : المنبت . الأنقاس : جمع نقس ، المداد . اللائق : من لاق الدواة أى أصلح مدادها .

والمناطق ، فبانت قدودهن ، و برزت أردافهن . و بعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة . فحذا الناس من الخاصة والعامة حذوه ، واتخذوا الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

أم الخبائث

وكانت أساليب أبى نواس وأمثاله مع عامة الجوارى ، غلامياتٍ وغير غلاميات ، عينَ الأساليب المعروفة عند الشبان الخلعاء حتى اليوم فى المغازلة والمعاكسة . فهو لا يزال يترصّد الجارية منهن ، يرقبها فى حركاتها وسكناتها ، ويجلس لها فى الطريق يلتمس اجتيازها ، فإذا أقبلت أو أدبرت أعمل الطَّرف نحوها ، ولهج بإطرائها ، ثم سعى خلفها وجدّ فى إثرها ، يلاحقها ويُبرمها ويضايقها ، على حدّ قوله :

أَمْشِى إلى جَنْبِها أُزاحِمُها عَمْدًا ، وما فى الطَّريق من ضِيقِ

يضرع إليها تارةً ، وتارة يضحكها ، متعرّضاً لها بالكلام جادًّا وهازلاً ، لا يرعوى مهما انتهرته ، ولا يرجع مهما سبَّته ، عملاً بقول سلفه بشّار :

لا يَمْنَعَنَّكَ من مُخَدَّرةٍ قَولٌ تُغَلِّظُه وإن جَرَحا

عُسْرُ النِّساء إلى مُياسَرَةٍ والصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَما جَمَحا

فإذا ظفر منها بعد العناء بموعد لقاء ، هيّأ لاجتماعهما مجلساً طيباً . ولا يزال بها يتملقها و يطنب فى صفة حسنها ، و يبالغ فى إظهار حبه لها ، وقد وضع الشراب بينهما وجعل يصانعها و يداريها ، و يحمل عليها فى الشراب و يدنو بها من حدّ السكر ، حتى تنبسط نفسها ، و يسترسل أبيّها ، و يلين عاصيها .

ولأبى نواس أشعار كثيرة يذكر فيها ما للخمر على الفساق أمثاله من فضل فى تقريب البعيد وتيسير العسير . ويذهب فى قصصه إلى أبعد حدود التفصيل ، حتى إذا بلغ الغاية وانتهى إلى النهاية انطلق يمتدح للخمر أياديها عليه ، وحسن صنيعها إليه :

صَنائِعُ الخمرِ عِندى غيرُ ضائِعةٍ حتّى يَقومَ بها شُكرِى فيَجْزِيها

ولا مندوحة من أن نرخى لشاعرنا عنان القول قليلاً ، لنسمع إلى جنب قصته مع « معشوق » أمثلةً أخرى على صنائع الخمر فى لياليها ، مع اصطناع الحرص من جانبنا على إجمال ما يفصّل حكايته مما يجرى فيها :

يا لَيْلَةً بتُّ فى دَياجِيها أُسقَى من الرّاح صفْوَ صافيها
تدورُ بالسَّعد كأْسُنا عَجِلًا قد فُتِقَ المِسكُ فى نواحيها
ماتَشْتَهِى العين أن ترى حسناً إلّا رأته فى كَفِّ ساقيها
وصِيفَةٌ كالغُلام تَصْلُحُ للعِشْ قَيْن ، كالغُصْنِ فى تَثَنِّيها
فى قُرْطَقٍ زانَه تَخَرُّسُنها قد عَقربَتْ صُدغَها مَدارِيها[1]
كَمَّلها اللهُ ثمّ قال لها لما استتمَّتْ فى حُسنها «إيها !»
لو قِيلَ للحُسن «صِفْ محاسنَها» ما اسطاع ـ ضَعفاً بذاك ـ يحكيها
أشربُ كأسًا من كفِّها ، ولها كأْسُ سقامٍ فى النَّفس تُجْرِيها
حتى إذا السُّكرُ كَفَّ نَخوتَها ولانَ ـ من بَعْدِها ـ حَواشِيها
وأمكنَتْنى منها مُخاتلةٌ مَدَدْتُ رِفْقاً ثغرى إلى فِيها
فأعرَضتْ عند ذاك ، وارْتعدَتْ ثمّ تناوَلتُها لِأُرضيها

---

(١) المدارى : جمع مدراة ، المشط .

قالتْ « لِذا زُرتَنا ؟ » فقلتُ لها « يا أحسَنَ النَّاس كلّهم تِيها
لولا بَلائى لَما تَجاسَرْتُ أهْ والاَّ يُرى الموتُ فى أدانيها
ولَا تَعرّضتُ للحُتوفِ بنَفْ سٍ كان بعضُ الغرام يُسْلِيها »
قالَتْ : « أهْلاً بِمَنْ تتبَّعهُ نَفسى ، ومَن كان مِن أمانِيها »
فبتُّ فى ليلةٍ نعِمتُ بها ألثَمُها تارةً وأسقيها
وأجْتَنِى الطِّيبَ من أطايبها وأُمْكِنُ النَّفْسَ من أمانيها

ومن نظائرها فى غزله بالمذكر :

ولَيلةٍ قَصَّر لى طُولَها بالكَرْخ أن مُتِّعتُ من رُؤْيته
فى مَجْلسٍ يَضحَك تُفّاحُه بين الرّياحين إلى خُضْرته
ما إن يَرى خلوتَنا ثالثٌ إلّا الذى نَشربُ من خَمْرته
خمرتُه فى الكأسِ مَمْزوجةٌ كالذَّهبِ الجارى على فِضّته
فتارةً أشربُ من رِيقِه وتارةً أشربُ من فَضْلَته
وكُلَّما عَضّضَ تُفّاحةً قبَّلتُ ما يَفضُل من عَضّته
حتى إذا ألْقَى قنـاعَ الحَيا ودار كَسْرُ النَّوم فى مُقْلته
سَرَت حُمَيَّا الكأس فى رأسهِ ودبَّت الخمرةُ فى وَجْنَته
فصارَ لايَدفَعُ عن نفسِه وكان لا يَأْذَنُ فى قُبْلته

وأبو نواس لم يختصّ بهذا العلم وحده . فقد كان فعل الخمر فى تحريك الغرائز الجنسية وتوهين مقاومة النفس لها ، شائعاً معروفاً . ولقد روى لنا معاصره الأصمعى فى ذلك روايةً من طرائف أخباره ، و إن شئت فقل من بنات أفكاره ، وهى على

كل حال من الحق فى الصّميم الذى لا سبيل إلى إنكاره . زعم الأصمعى أن عجوزاً من الأعراب جلست فى طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً لهم ، فدَعَوْها وسقوها قدحاً ، فطابت نفسها وتبسمت ، ثم سقوها قدحاً آخر فاحمرّ وجهها وضحكت ، ثم سقوها قدحاً ثالثاً ، فقالت : « خبّرونى عن نسائكم بالعراق ، أيَشْرَبْنَ من هذا الشراب » . قالوا : « نعم » . قالت : « زَنَيْنَ وربِّ الكعبة »

الجوارى والروح الإباحية

وقد كان من أثر الجوارى فى الحياة الاجتماعية أن شاعت الروح الإباحية فلم يسلم منها حتى الأعرابيات ، إن لم يكن بالفعل الشائن فبالقول الماجن . ومن ذلك ما رواه أحد رواة أبى نواس — سلمان سخطة — عن حيٍّ من أحياء العرب قدموا بادية البصرة ليمتاروا ويرجعوا ، وخيموا ظاهرَ البصرة . فقال أبو نواس يوماً لراويته : « أُخرج بنا إلى الأبيات » . فخرجا ، فاستقرياها ، فلما صارا إلى آخرها إذا هما بامرأة شديدة الأُدْمة[1] ، إلا أنها مع تلك الأدمة أحسن الناس وجهاً وأحلاهم وأغزلهم ، وأنقاهم ثغراً ، وأحورهم عيناً . فوقفا ينظران إليها . وداعبها أبو نواس ، وداعبته . فإذا هى ظريفة آنسة ضاحكة ماجنة من الأعراب . فقال لها أبو نواس :

هل عندَكِ اليومَ من خمرٍ فنشربَها ... أم هل سبيلٌ إلى تقبيل عَيْنَيكِ
فلستُ أبغى سوى عَينيكِ منزلةً ... إن لم تجُودى لنا عَفْوًا بخَدَّيكِ
أو بادِرِينى برِيقٍ منكِ أرْشُفه ، ... أو لَمْسِ صدرِكِ ، أو تغميزِ عِطْفَيكِ

(١) الأدمة : السمرة .

فأجابته على المكان :

أنتَ امرؤٌ ليس يَجْزيه مُقَبَّلُنا ... وإن لَهِجتَ بعيتيكِ وخَدَّيك

فلِمْ تُجَمْجِمُ فيما لستَ تُوضِحُه ... أوْضحْ وقلْ بُغْيتى ماتحتَ بُرْدَيك

إنِّى فتـــاةٌ بِبَذْلِ الودِّ سامحةٌ ... أُجيبُ من رامنى يوماً بلبَّيْك

فاستظرفها أبو نواس . فكان الشاعر وراويته يحملان فى كل وقت شراباً ؛ ويجيئان فيشربان عندها ومع زوجها ، وكانت وزوجها يشربان . ولم يزالا كذلك حتى رحلوا .

ولم يكن العرب ممن يحسنون الظن بالمرأة، وأشعارهم فى ذلك مذكورة مشهورة إلا أنهم فى العصر الذى نحن بسبيله قد بلغوا من سوء الظن بها الحد الذى لامزيد عليه ولا مذهب وراءه . ونحن نجد صدى ذلك فى الأدب الشعبى ، وآيته « ألف ليلة وليلة » . فالأصل فى حكاياتها ما تعرّض له الملك الفارسى شهريار الحاكم على جزائر الهند والصين وأخوه الأصفر ملك سمرقند من خيانة زوجة كل منهما له ، وما شهداه فى سياحتهما عقب ذلك من أمر الجارية الحسناء التى أظهرتهما على عِقْد معها فيه سبعون وخمسمائة خاتم تذكاراً لخياناتها للجنى المارد الذى هى فى حوزته ، وهى خيانات احتالت لها على الرغم من أن الجنىّ المارد منذ اختطفها ليلة عرسها قد بالغ فى التحفظ عليها فوضعها فى عُلبة ، وجعل العلبة داخل صندوق ، وجعل على الصندوق سبعة أقفال ، وجعل الصندوق فى قاع البحر العجّاج المتلاطم الأمواج .

فإذا تركنا الحكايات الموضوعة إلى الأخبـــار المروية الصحيحة ، فإننا نجد الكفاية وفوق الكفاية فيما يروونه . من ذلك أن مُطيع بن إياس مرّ يوماً بيحيى بن زياد وحمّاد الراوية وهما يتحادثان ، فقال لهما : « فيم أنتما ؟ » قالا : « فى

قذف المُحصَنات » . قال : « أوَ فى الأرض محصنة تقذفانها ؟ ! » . وهو حكم قاسٍ قد كان فيه القضاء على أخلاق العصر كله لولا اعتراض يقوم دون التسليم به على إطلاقه . وذلك أن مطيعاً وصاحبيه من الخلعاء لم يعرفوا المحصنات حتى يقبل لهم كلام فيهن .

التغزل والحب

والناظر فى مقطوعات الغزل فى خمريات أبى نواس وفى شعره عامةً يجزم بأن الرجل لم يعرف الحب إلّا ما كان من أمره مع جنان ، وأما ما سواه فهو صبْوةٌ عابرة لكل مَن عليه سمةٌ للحسن ظاهرة . وذلك على الرغم من قوله فى الحب :

فى الحبِّ رَوْعاتٌ وتعذيبُ   وفيـــه يا قومُ الأعاجيبُ
من لم يذُق حبًّا فإنِّى امرؤٌ   عندى من الحبِّ تجاريب

والحب الذى نقول إن أبا نواس لم يعرفه ، هو ذلك الاستغراق فى المحبوب حتى لا يملك المحب من نفسه شيئاً ، مثل ابن الملوَّح قيس ليلى ، وابن ذريح قيس لبنى ، وغيرهما من المتيمين . فكل واحد من هؤلاء اختُص بامرأة واحدة أحبَّها ، وكان من استغراقه فيها أن كان لا يرى إلا بعينيها ، ولا يسمع إلا بأذنيها ولا يعرف الناس والدنيا إلا فيها ، فهى من الوجود مركزُه ، فإن مالت يوماً عنه أحسَّ المحب كأنما مادت الأرض تحت قدمَيْه ، وزلزلت العوالم من حواليه .

هذا الحب لم يكد يعرفه أبو نواس غير مرة ، وإنما كان شاعرنا يصبو إلى الحسان ، صبوة الفنَّان الذى يتطلع إلى الحسن حيثما كان . ولا نريد هنا مطلق الفنان ، بل نعنى به للمعنىَ قبل كل شىء بجمال الأجسام وكمال التكوين على نحو أصحاب التماثيل ومبدعى الأوثان من أبناء يونان . ولقد يثبت الفنان من هؤلاء

وغير هؤلاء على حب هذا أو ذاك من أنماط الجمال . ولـكن شاعرنا كان يستجيب لأنماط الجمال جميعها . والمتتبع لأخباره يقع لا محالة على أشياء تحرك من استنكاره ، إذ يراه فى الخبر بعد الخبر يكدّ ما يكد وراء الحسناء ، ليظفر منها بموعد لقاء ، فإذا المعشوقة أرسلت إليه بكتابها المنتظر مع رسول من جواريها ، لم تسلم الجارية من تجميشه لها وتصبّيها . وأمثال ذلك من مبادرة اللذات والانطلاق مع الشهوات ، كيفما كانت وحيثما سنحت ، من غير حرج ولا مبالاة ، بل مع التوخى للمجاهرة و إظهار المباهاة ، كانوا يسمونه فى اصطلاح العصر فتكاً ، و يسمون صاحبه فاتكاً . والذى نراه أن أبا نواس لم يكن مدفوعاً إلى ما يروى عنه بدافع من منازعة الشهوة له وغلبتها عليه ، فما نحسبه موصوفاً بالقوة على النساء ، بل أكبر الظن أنه كان فى ذلك مدفوعاً بحبه للمجون .

ومن الإنصاف أن نسلم بأن النزعة الحسية غالبة على الغزل فى الشعر العربى حتى فى الأغانى الصوفية . إلا أن ما نراه فى شعر أبى نواس من هذه النزعة يتعدى حال الصحة إلى الظاهرة المرَضية . فهو لا يبرح فى شهوة مسعورة عقيمة سواء كان بسبيل الوصف لتقاطيع الجسم أو حركة المشية أو حلاوة اللحظ ، حتى الـكلام يشير إليه بقوله « لولا فتور فى كلامك يشتهى » . ومن شأن هـذا جميعه أن يزيد فى اعتقادنا بأن الشهوة عنده لم تكن من فضل القوة وفيض الحيوية ، بل هى هاجس ذهنى واضطراب عصبى .

ولقد ذهب ابن المعتز إلى أن فى غزل أبى نواس بَرداً كثيراً . ولعله كذلك فى معظم غزله المؤنث إلا ما قاله فى « جنان » . ثم إن غزله بالمذكر أحمى وقدةً وأقوى نبرة بوجهٍ عام . وهذا مثال من أول قصيدة له فى هذا الباب الخاص من الديوان :

أفنيتُ فيكَ معانىَ الشَّـكوى ‏ ‏ ‏ وصفاتِ ما ألقَى من البَلوى

قلَّبتُ آفاق الكلام ، فما أبصرتُني أغفلتُ عن مَعْنى
وأُعُدُّ ما لا أشتكى غَبْناً فأعود فيه مرَّةً أُخرى
فلَو أنَّنى أشكو إلى بَشَرٍ لأراحَنى بشرٌ من الشَّكوى
لكنَّما أشكو إلى حَجرٍ — تنبُو المعاولُ منه — أو أقسى

وإذا كانت نسبة هذه القصيدة إلى أبى نواس قد يكون فيها موضع خلاف لورودها فى ديوان أبى تمام مع ما ورد من النص على أن الصّولى لم يروها له ، فإن فى ديوان شاعرنا غير هذا المثال مقطّعات غير قليلة تجرى على هذا الأسلوب ولا تنحط عن طبقته :

قلبى — على ما كان من شِقْوَتِهْ — صَبٌّ بمن يَهوَى على جَفْوته
أكلَّما جَدَّدَ لى موعداً أخلفَه التَّنغيصُ من عِلَّته
يَخْتَلِقُ السَّخْطَةَ لى ظالماً أَحْوَج ما كنتُ إلى رَحمتِه
أُضمِرُ فى البُعد عتاباً له فإن دنا أُنسِيتُ من هَيْبته

وقد بلغ من تمكن هذا العشق الشاذ فى نفسه ، واستيلائه على هواه ، أن صار كل ما سواه عنده ناقص الروعة فاتر اللوعة ، وصار فى وصفه تباريحه ولواعجه يتحدّى أعلام العشاق من أهل العشق الطبيعى ممن اشتهروا به وفشت أشعارهم فيه بين الناس :

وَاللهِ ما بلغَ الحبُّ من جَمِيلِ بنِ مَعْمَرْ
ولا منِ ابن ذريح قَيْسٍ ، وما كان قصَّر
بلوغَه من فؤادى لمَّا غدا يتخطَّر

وغزل شاعرنا فى العادة كالغزل عند معظم شعراء العرب، يدور أكثره على القد

النحيل والردف الثقيل ، على حد قوله :

يا من تأنق باريه وصوّره دعصاً من الرمل فى غصنٍ من البانِ

فلا يكاد يختلف شاعر عن شاعر فى ذلك إلا من جهة الأسلوب ، فعليه أكثر المعول عند نقادهم فى الموازنة والتفضيل . والأسلوب صورة صاحبه على كل حال ، وما برح عند نقاد الفرنجة أصلا من أهم أصول الاستدلال على مزاج الشاعر وطبيعة ملكته . وعلى هذا الأساس نعرض هذه الأبيات من غزل أبى نواس :

يا ذا الّذى يَخطرُ فى مِشْيَته قد صَفَّف الشَّعر على جَبْهته
وسرّحَ المِئزَر من خَلفه ودقَّق البانَ على وَفْرته
مُبتَّلٌ تَثنيه أعطافُه أميسُ خَلْق الله فى خَطْرته
مُهَفْهفٌ ترتجُّ أردافُه يَتيه بالحُسن على جِيرته
يَنتسِب الحسنُ إلى حسنه والطِّيب يحتاجُ إلى نَكهَته
يحارُ رَجْعُ الطَّرْفِ فى وَجْهه وصورةُ الشَّمسِ على صُورته

وقد ينزّه شاعرنا غزله أحياناً عن ذكر القد النحيل والردف الثقيل ، فيرتفع بموصوفه فى بعض المقطّعات عن الماديات عارجاً بتشبيهاته من عالم الصورة الجسمانىّ إلى عالم النور الشَّعشعانى :

ومُستتِرٍ عنّى بضَوْء جبينه يُخَيَّل فى وهمى كَخَطرة خاطرِ

أتراه يدِقّ عن كلّ لَمسٍ لُطفُ جُسمانِك المكوّنِ نُورا
ما رأينا مثالَ وجهك مَوْجو داً ، ولا مُشبهاً له تصويرا

و يظهر فى غزل شاعرنا المولد ، سواء أكان غزله بالمذكر أم بالمؤنث ، ظاهرةٌ غير مألوفة فى شعر الأقدمين ، وهى كثرة ما يصطنع فيه من مراسم التأدب فى المخاطبة .

ولعل ذلك من أثر ما تقررت أصوله فى عهد الرشيد — بما عرف من جلالته وأبهته — من رسوم الخلافة واصطلاح الأدب فى خطاب الملوك . ونذكر من مشاهير ذلك العصر أبا العتاهية من شعراء القصر وكان يصطنع هذه اللغة فى غزله كلما أدركه ضرع الحب وأبدى له الحبيب صفحة الهجر :

اللهَ بينى وبين مَوْلاتى أَبْدت لىَ الصّدّ والملالاتِ

ألاَ ما لسيِّـدتى مالَها أَدلٌّ ، فأحمل إدلالَها

فلا جرم يتكرر فى غزل النواسى قوله للجارية الحبيبة « سيدتى ، مولاتى ، مالـكتى » ، وقوله للغلام الحبيب « سيدى ، مولاى ، أميرى » :

مالى وللعـــاذلات زَوَّقنَ لى تُرَّهاتِ
سَعَيْنَ من كلّ فجّ يَلُمْنَ فى مَوْلاتى

ما لِلعُداةِ إذا مازُرت مالِـكتى كأنّ أوجُهَهم تُطلَى بأنقاسِ

قد مَلّنى أهلُك يا سيّدى ونفَّرُوا عنّىَ مَوْلاتى

فديتُك ، جسمى كان أحملَ للشكوى وكان عليها منك ـ يا سيّدى ـ أقوى

يا صغيرَ السنّ والمـوْ لدِ فى عقلِ الـكبيرِ
لِمْ تَغَضَّبْتَ على عبْ دِكَ فى خَطبٍ يسيرِ
فارْضَ عنّى بحَياتى يا حيـاتى ، يا أميرى

ولما كان أبو نواس مطبوعاً على القصص ، فله فى غزلياته — مثل ما تقدم بنا فى خمرياته — وقائع يقصّها ، وفيها ما عرفنا عنه من تظرف ودعابة ، يتجاوزها

أحياناً إلى المجون ، و يقف بهما أحياناً بَيْن بَيْن ، ومن هذا اللون الأخير ما يقصه من وقائع العيد :

يا فرحةً جاءت مع العيدِ ... وَفَى الذى أهوَى بموعودِ
جاء من الأعيُنِ مُستَخْفِياً ... من بعد إخلافٍ وتَنكيد
حتَّى إذا الرَّاحُ جَرَت بيننا ... أَمِنتُ من خُلفٍ وتَرْديد
ظلَّ ولىُّ العَهد فى خُطبَةٍ ... وظَلْتُ بين الرَّاح والعُود
صار مُصَلاَّنا أباريقَنا ... ونحرُنا بنتَ العناقيد
للنَّاس عِيــد عَمَّهُمْ واحد ... وصار لى عِيدانِ فى عيد

ومن هذا القصص كذلك ما يصدر عن ملكة الفكاهة عنده وحبه للنادرة المضحكة ولو كانت منصبة عليه ، مثل هذا الحوار المشهور بينه و بين جاريةٍ من جوارى القصور :

وقَصْريةٍ أبصرتُهــا فهوِيتُهـا ... هوى عُرْوة العُذْرىّ والعاشق النَّجدى
فلمَّا تمادَى هَجرُها ، قلتُ « وَاصلى» ... فقالتْ « بهذا الوجهِ ترجُو الهوى عندى؟ »
فقلتُ لها « لو كان فى السُّوق أوجُهٌ ... تُباع بنَقدٍ حاضرٍ وسِوى نَقد
لغيَّرتُ وَجْهى واشتريتُ مكانَه ... لعلَّكِ أن تَهْوَى وِصالىَ من بَعْد
وإن كنتُ ذا قُبحٍ ، فإنِّى شاعرٌ » ... فقالت « ولوْ أصبحتَ نابغَة الجعدى»

ومثله :

وقائلةٍ لها فى وجه نُصحٍ : ... «عَلامَ قَتلتِ هذا المستهاما ؟ »
فكان جوابُها فى حُسنِ سرٍّ ... « أأَجمَعُ وجهَ هذا والحراما !»

ولا يخلو قصصه كذلك من عنصر الحوار الذى برع شاعرنا فى مناقلته وحسن

مساقه و إدارته ، مع القدرة على حكاية المتحدثين والمتحدثات فى خلائقهم وطريقة كلامهم ، مما له فائدته وغَناؤه فى الإبانة عن روح العصر :

وميرائيَّـــةٍ تمشى اختيـالاً من التَّـكريهِ فاترةَ الـكلامِ
أقولُ لها : « بَخِلْتِ علىَّ يَقظى فجُودى فى المنام لِمُستهام »
فقالت لى : «وصرتَ تنامُ أيضاً ؟ ! وتطمع أن أزوركَ فى المنام ؟ ! »

ومثله :

ولقـــد قلتُ لعمرو بعد كتمانى خريفا
« ما يَرى الظبىُ الذى أحْـ ـبَبْتُه حُبًّا عنيفا
ما يَرى إخفاقَ قلبى فى هـــواه والوجيفا
فلقـــد طال تمـــادِيـ ـهِ ، وقد خِفتُ الحتوفا؟ »
قال : « ما يَخْفَى عليـــه ذاك ، إن كان ظريفا »

وأما رقائق أوصافه للجمال ومواضع الحسن فلا تدخل تحت حصر . وهى غير المألوف من جناس وطباق وسائر ما هنالك من اللعب بالألفاظ ، و إنما هى فى المعانى و براعة التصرف فيها . وقد يكون مسبوقاً إليها ، ولـكنه يُضفى عليها من رقة حسه ومن ذوقه الفنّى للجمال ، فإذا هى غاية ما يُبْلَغ إليه فى هذا الباب :

دمعةٌ كاللؤلؤ الرَّطْـ ـبِ على الخدِّ الأسيلِ
قَطَرتْ فى ساعةِ البَيْـ ـن من الطرف الـكحيل
إنَّما يَفتضحُ العـا شِقُ فى وقت الرَّحيل

وفاتِن الألحاظِ والخدِّ مُعتدلِ القامة والقدِّ
ظَلْتُ وعَينى منه فى خدِّه راتِعةٌ فى جَنَّة الخُلْد
فاحمرَّ حتى كدتُ ألاَّ أرى وَجْنَتَه من كَثْرة الوَرْد

لغة العيون

على أن أبدع إجادات شاعرنا فى صفة العيون . فهو يقظ الفؤاد متنبه الملاحظة لمعانى العيون ودلالة النظرات . وإنه ليصوّر النظرة المعبّرة بلمسة واحدة من لمساته فإذا هى معبرة عن حالة النفس وطبيعة الموقف واتجاه مجرياته ومعقباته جميعاً ، وإذا كل كلام بعدها إنما يجىء مصدِّقاً لها . ونذكر من الأمثلة هذا الاستهلال فى صفة النظرة القاسية المتغضبة :

مرَرتُ به فكلمنى بطَرفٍ   يُخَيِّلُ فيه شَيْطانٌ مَرِيدُ
فقلتُ له « أتَيتُكَ مُستجيراً   بوصلِك إذ أضرَّ بِيَ الصُّدود »
فقطَّب ثم قال « تَنَحَّ عنى   فدون وِصالِيَ الأمرُ البعيد »

ومثل ذلك قوله فى نظرة الخمّار مرتابة متوجِّسة ، أو فى نظرة الساقية ذكية ثاقبة :

فأدبرَ كالمُزْوَرِّ ، يَقسِم طَرْفَه   لأرجُلِنا شَطْراً وأوجُهِنا شَطرا

من كفِّ ساقيةٍ يَستلُّ ناظرُها   لدِقَّة الفَهْم ما أوْحَى به الواحى

ثم هـذا الاختلاف بين نظرة القينة الوَقَاح الفاجرة ، ونظرة الجارية الناعمة الفاترة . ونظرة الغلام الحيِيِّ الوجل :

تجمَّع فيها الشَّـكلُ والزِّىُّ كلُّهُ   فليس يُوفِّى وصفَها قولُ ناطِق
فَطانةُ زِنديقٍ ، ولَحْظةُ قَينَةٍ   بعينِ الّذى يهوى ، ومُنيةُ عاشق

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرف تحسَبُ أنّها   حديثةُ عَهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ

فَديتُ مَنْ كلَّمنى لَحْظُهُ   سرًّا من الناس وما يَنطِقُ

أوْمَا بعَيْنَيه بتَسليمةٍ وقلبُه من وَجَـلٍ يَخفِق

وهذا الخطاب الصارخ الضارع يتوجه به الشاعر إلى صاحب هـذه النظرة الساحرة التى تغلب عشاقها على أمرهم ، وتفضح ما يكاتمونها من سرهم :

ياساحرَ الطَّرف! أنت الدَّهرَ وَسْنانُ سرُّ القلوب لدى عَيْنَيْكَ إعلانُ

إذا امْتَحنتَ بطَرف العَين مُكْتَتِماً ناداكَ من طرفه بالسرِّ تِبْيان

تبدو السَّرائرُ إن عَيْناكَ رنَّقتا كأنَّما لكَ فى الأوهامِ سُلطان

مالى ومالَكَ ، قد جزَّأتَنى شِيعاً وأنت ممّا كسانى الحبُّ عُريان

أراكَ تعملُ فى قَتْلِى بلا تِرَةٍ كأنَّ قتلىَ عنـد الله قُربان

وقد يكرر الشاعر هذا المعنى فى صفة نظرة كهذه النظرة ، ولـكنه لا يغفل عن مواضع الاختلاف التى تكون بين كل متشابهين مهما تقارب ما بينهما من المشابهة ، شأنه فى ذلك شأن أهل التدقيق والتحقيق :

مُسْتيقِظُ اللَّحظِ فى أجْفانِ وَسْنانِ قبَّلتُ فاه فحَيَّانى بريْحـان

مُستَعْبِد للأمانى حسنُ منظره عَفُّ الضَّمير وأمّا لَحْظُه زَان

لم تتَّصِلْ بعيونِ النَّاس لَحْظَتُه إلّا اسْتَوى كلُّ إسرارٍ وإعلان

والمستقصى لما قاله هذا المتيَّم العاشق للعيون فى صـفة العيون ، لا شك تجتمع عنده مجموعة منها كلها فاتن ساحر على حد قوله « رشأ صناعة عينه السحر » . إلّا أن هذه العمومية لا تلبث من دقة الوصف أن تستبان فروقها فتتميز كل عينين ساحرتين بصفة من صفات الخصوصية ، وإذا نحن — آخر الأمر — فى معرض من معارض الجمال فيه من صـنوف العيون الجميلة ما لعله لم يتهيأ للأكثرين الالتفات إلى خصائصه ومزاياه ، والبلوغ إلى كنهه ومعناه .

وغَريرِ الشّبابِ ، مُخْتَنِكِ السِّـــنِّ عَلَى جيدِهِ مَناطُ التّميمِ [١]
وهْو عَفُّ الجُفونِ فى النَظرِ العَمْـــدِ حِذاراً على فُؤاد النَّديم

يا عارِمَ الطَّرف حيثُما نَظَرا   أثَّرَ فيه ، وإن رأى حَجَرا
فهل على مَن قتلتَ من حرَجٍ   أم ليستَ تدرى فتُخْبَرَ الخَبرا

يا مَن له فى عَيْنه عَقْرَبُ   فكلُّ من مَرَّ بها تَضْرِبُ

تُدنيكَ عَيْناه لو تُلاحِظُه   إلى شَفَا مِيتَةٍ بلا أجَلِ

وفاتنٍ بالنَّظَرِ الرَّطْبِ   يَضحك عن ذى أشَرٍ عَذْبِ

ومُعتدِلٍ إلىَّ بشَطرِ عَينٍ   له من كَسرِ ناظِره رَسولُ

يا حُسنَها من بَنانِ ذى خَنَثٍ   تدعوكَ أجفانُه إلى الرِّيَبِ

ولقد تجتمع هذه الصفات كلها ومعها الكثير غيرها فى عينين اثنتين ، فلا يقف سحرهما عند معنى واحد من معانى السحر ، وهما من أجل هـذا أحق العيون عند شاعرنا الخمير بأن يشبهها بالخمر :

إن كانت الخمرُ للألباب سالبةً   فإنَّ عينيْكَ تجرى فى مجاريها
فى مُقْلَتيكَ صفاتُ السِّحر ناطقةٌ ،   باللفظ واحدةٌ ، شتَّى معانيها

وإذا ذكرنا أن شاعرنا النواسى فى خلاعته وانطياعه لإيحاء شهوته محب لكل ما فيه تأنث وتخنث ، من تكسر فى المشية وترطيب فى الكلام ، لم نعجب أن تكون أحب اللحاظ إليه ما كان فيه تفتير على حد قوله :

---

(١) المناط : موضع التعليق . التميم جمع تميمة وهى العوذة .

مُنقطِعُ الرِّدفِ هَضيمُ الحشـا   أحورُ فى عَيْنَيه تفتـيرُ

وذلك ما يعبّر عنه الشاعر الكوفى أحسن تعبير فى قوله :

من كفّ ساحرةِ العَيْنين شاطرةٍ   تُربى على سِحر هاروتٍ وماروتِ
لها تماويتُ ألحاظٍ إذا نَظرتْ   فنارُ قلبكَ فى تلك التَّماويت

وجملة القول أن شاعرنا فى حبه للعيون و إدمانه النظر فيها والتملى بأفانين سحرها واستقراء معانيها ، صار لا تخفى عليه حركة من حركاتها ، ولا تشكل عليه مضامين نظراتها ، حتى انراه — حين يجمعه والحبيب مجلس حافل — مستغنياً عن لغة الكلام ، بما يجرى بينهما من مخاطبة رمزية ، وما يتوافقان عليه من عِدَات خفية ، بلغة لا يعرفها إلا العاشقون ، ونعنى بها لغة العيون . وفيها يقول :

وخَشْخَشَتْ كأُمّها مُقرطَقَةٌ   لو مُنِّىَ الحُسنُ ما تعدّاها
تجمعُ عينى وعينَها لُغةٌ   مُخالِفٌ لَفْظُهـا لمَعْناها
إذا اقْتَضاها طَرْفى لها عِدَةً   عرفتُ مَرْدودَها لفَحْواها
ذى لُغةٌ تسجدُ اللُغاتُ لها   ألْغزَها عاشقٌ وعَمّاها

فتنة جديدة : الموسيقى والغناء

ولقد شاع فى عصر التمدن الإسلامى إلى جانب الشعر وسيلة أخرى للتعبير عن الشعور بالجمال ، وهذه الوسيلة هى الموسيقى .

والمتأمل فى تاريخ الحضارة العربية لا يلبث أن يتبين أن انصراف القوم عن التصوير بانقضاء الوثنية أعقبه اهتمام متزايد بالألحان . فكان القوم كلما ارتقوا فى الحضارة وأفادوا من ترف العيش لطافة الحس ، ارتقى تبعاً لذلك ذوقهم الجمالى ، وزاد طلبهم للفنون المعبرة عن الجمال .

وكان الأمر إبان الفتوحات فى صدر الإسلام مقصوراً على اللحن الحسن فى ترتيل القرآن والأذان و إنشاد الشعر ، فتعدّاه فى العصر الأموى فالعباسى إلى إحكام فنون الموسيقى الصوتية والآلية لما كان من اختلاطهم بعد الفتوحات بالفرس والروم. والغناء — كما هو معلوم — قديم فيهما، على حين لم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد . وكانوا يسمون النشيد فى اصطلاحهم « النَّصْب » وهو غناء للعرب يشبه الحداء إلا أنه أرقّ ، تغنيه الركبان والقدائم من القيان . وهو ثلاثة أقسام ؛ الركبانى ، والسناد الثقيل، والهزج الخفيف . و إذا كان المتقدمون من فحول المغنين العرب وأكابرهم قد تعرفوا ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية[1] ، واقتبسوا من الضرب والغناء بالفارسية ، فإنهم كانوا يأخذون محاسن تلك النغم ويلقون منها ما يستقبحونه من النبرات ثم يصوغون على نحو ذلك . ولقد استعانوا فيما استعانوا به فى تركيب الأنغام بالمؤلفات النظرية مثل كتاب بطليموس فى اللحون الثمانية ترجموه فى خلافة أبى جعفر المنصور ، وتقسيمات إقليدس التى ألمّ بها إسحق الموصلى فى رسالته المطولة فى الغناء . على أن هذا الذى أفادوه ونقلوه يقوم إلى جانبه الكثير الواسع مما وضعوه وزادوا عليه ، حتى بلغ الفن الجديد أوجه فى عصر هارون الرشيد ، فهو بلا مراء العصر الذهبى للموسيقى العربية . وقد تعددت فيه مذاهب الغناء . فكان منها مدرسة إبراهيم الموصلى وابنه إسحق من أئمة الصناعة ذوى المعرفة الواسعة بها . و الإحاطة بأصولها وفروعها ، والاطلاع على أسرارها ، والحذق بأدائها والقدرة عليها ، مع الغيرة الشديدة على صحتها والتزام قواعدها وتأديتها على وجهها . و يقابل هذا المذهب مذهب إبرهيم بن المهدى أخى الرشيد وكان أطبع الناس فى الغناء وأحسنهم صوتاً ، كما كان من أعلمهم

---

(١) الأسطوخوسية معناها الأجرام السماوية . ولعلها إشارة إلى ما يزعمه اليونان من أن للأجرام السماوية فى حركة دورانها أنغاماً علوية .

بالنغم والوتر والإيقاعات ، إلا أنه مع علمه وطبعه ومعرفته كان يخرج فى صنعته عن الغناء القديم ، ويحذف نغم الأغانى الكثيرة العمل حذفاً شديداً ، ويغنّى على ما يشتهى ويلتذ . وكانت تساعده على بلوغ مواقع الرضا نداوة صوته وقوته وحلاوته . حتى لقد نسبوا إليه ما نسبه اليونان فى أساطيرهم إلى أرفيوس ، فزعموا أنه غنى الخليفة الأمين مرة فى موضع من بستان قصره مشرفٍ على حَيْر (١) الوحش ، فكان إذا ابتدأ يغنى صغت الوحوش إليه ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدكان الذى كان عليه . فإذا سكت نفرت و بعدت حتى تنتهى إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها .

ونغتنم هنا فرصة الكلام عن إبرهيم ابن الخليفة المهدى لننوه بما كان فى العصر العباسى من كثرة من دُوّنت لهم صنعة فى الموسيقى والغناء من الأشراف والأعيان والأمراء ومن أكابر القواد والعلماء ومن أبناء الخلفاء والخلفاء أنفسهم . ونذكر من أبناء الخلفاء عُلَيَّة بنت المهدى ، وقد قيل إنه ما اجتمع فى جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبرهيم بن المهدى وأخته علية ، و يبلغ ما يؤثر لها من الأصوات ثلاثة وسبعين صوتاً . ومنهم أبو عيسى بن الرشيد وكان جيد الصنعة وله أغان منسوبة إليه ومعروفة به . ومنهم عبد الله بن موسى وكان من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء ، وكان له فى الغناء صنعة حسنة وله أصوات مذكورة . ومنهم عبدالله ابن محمد الأمين وكان ظريفاً غزِلاً يقول شعراً ليناً ، و يصنعه صنعة صالحة . ومنهم أبو عيسى بن المتوكل وقد جمع له صنعة مقدارها أكثر من ثلاثمائة صوت منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط . ومنهم عبدالله بن المعتز وكان حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام عن النغم وعللها ، وله أصوات ظريفة الصنعة فى شعره . وأما

---

(١) الحير : الحمى والبستان ، والمراد حظيرة الوحش .

الخلفاء. فأكبر الظن أن ما نقل عنهم كان منهم قبل الخلافة، أمثال الواثق بالله وكان أحذق من غنّى بضرب العود وكان يغنى فى الشعر البليغ من محدث وقديم، وله مائة صوت صنعها ما فيها صوت ساقط. وكان المنتصر بالله حسن العلم بالغناء وكان إذا قال الشعر صنع فيه، وأمر المغنين بإظهاره، فلما ولى الخلافة قطع ذلك وأمر بستر ما تقدم منه، فلذلك لم تظهر أغانيه. ومنهم المعتز بالله وكان يغنى أصواتاً. ومنهم المعتمد على الله وهو ممن له يد فى الغناء وصنعة حسنة، وقد قيل إنه جمع النغم العشر فى صوت صنعه فى شعر لدريد بن الصمة وهو من جيد الصنعة ونادرها، وقد صنع ألحاناً فى عدة أشعار سبق أن صنع فيها الفحول من القدماء والمحدثين فعارضهم بصنعته، فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصر ولا أتى بشىء يعتذر منه، وله أصوات تناهز مائة صوت.

والذى قصدنا إليه من تعداد هؤلاء ممن دُوِّنت لهم صنعة فى الغناء من أبناء الخلفاء ومن الخلفاء، هو أن نقرن هذه الحال بما كانت عليه الحال من قبل حين لم يكن يشتغل بهذا الفن غير الموالى والمخنثين، لنعلم مقدار ما ارتفع إليه قدر الغناء وما صار إليه من عظيم المكانة ووافر الحرية.

ولقد كان الغناء يستخف القوم ويهتاج مشاعرهم ويهزّ كيانهم ويبلغ عنفه بهم مبلغاً لم نألفه فى طبائع غيرهم من أهل الحضارات التى أخذوا عنها. وحسب القارئ أن يتصفح من كتاب الأغانى أجزاء فى صفة مجالس الغناء، ليرى كيف كان الطرب يأخذ من القوم مأخذه، وكيف كان يذهب بهم فى بعض الأحايين مذاهب التوله والجنون.

وقبل أن نمثل لهذه المجالس الخاصة، يحسن بنا أن نعرض هذه الصورة العامة التى يتمثل فيها روح الشعب ومبلغ ما كان عليه من الولوع بالغناء والنزوع إلى الطرب.

روى علىّ بن الجهم أن بعضهم واقفَ عمرو بن أبى الـكنّات المدينى المغنّى على جسر بغداد أيام الرشيد ، وأخذ يحدثه عن قدرة بعض من تقدم من المغنين على قلوب الناس . وكان ابن أبى الكنات تياهاً معجباً بنفسه ، فاندفع فغنى وهما على جسر بغداد ، وكان إذ ذاك على دجلة ثلاثة جسور معقودة . فانقطعت الطرق ، وامتلأت الجسور بالناس وازدحموا عليها ، واضطربت بهم حتى خيف أن تنقطع لثقل من عليها من الخلق .

ومن كانت حالهم على هذه الصفة فى الطرق إذا سمعوا صوتاً ، لا غرو يكونون على ما وصفهم لنا صاحب الأغانى حين يستفزهم ويغلب على عقولهم الغناء على الشراب من تخريقهم لثيابهم ، وخروجهم منها أحياناً كما ولدتهم أمهاتهم ، وضربهم الحيطان والأساطين[1] برءوسهم ، وإكبابهم على المغنّى يقبلون رأسه وما بين عينيه ولا يكادون يبقون عضواً من أعضائه إلا قبلوه ، ثم لا يزالون كذلك فى غناء وشراب ، وقد أخذ المغنى يغنى على أشد طبقة يُتناهى إليها فى العود ، والسامعون النَّشاوى فى طرب شديد يخيل إليهم أنه خرق السقف ، وأن الحيطان تجاوبه ، فيتواجدون ويضجون بالاستحسان ويطلبون الزيادة حتى آخر الليل .

وفى قصور الخلفاء والأمراء لا يملك حتى غلمان الخدمة من الذهول عن أنفسهم إذا أجاد المغنى فى مجالس الغناء ، فلا يبقى منهم أحد إلا ترك ما فى يديه ، وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمع الغناء ، فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عما كان فيه ، حتى إذا أمسك المغنى ، رجعوا إلى التشاغل بما كانوا فيه .

أما الخلفاء أنفسهم فمنهم من كان يظهر للندماء والمغنين ، ومنهم من كان

---

(١) الأساطين : الأعمدة .

ينصب بينه و بين الندماء ستارة فلا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغنى والتذّه . وقد روى إسحق الموصلى فى كلامه عن خلفاء بنى أمية أنه كان منهم من إذا طرب ينقلب و يمشى و يحرك كتفيه و يرقص و يتجرد ، وذلك كله من خلف الستارة حيث لا يراه إلا خواص جواريه . وكان إذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو نعير طربٍ أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة : « حسبك يا جارية ! كفِّى ! إنتهِى ! أقصرى ! » ، يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى .

وكان الخلفاء كلهم — أمويين كانوا أو عباسيين — سواء فى استفزاز الغناء لهم ، ولكنهم كانوا يتفاوتون فى سيطرتهم على أعصابهم وضبطهم لحركات نفوسهم . فكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور إذا طرب ربما أراد أن يصفق بيديه فيقوم عن مجلسه و يدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان الهادى فى مجلس الغناء يثب عن فراشه من الطرب و يشرب بالأرطال وهو قائم على قدميه . أما الرشيد فكان يلتزم أُبهته ووقاره، فإذا ملكه الطرب تحرك حركة بين الحركتين فى القلة والكثرة . و يقول إسحق الموصلى عن الأمين : [ما كان أعجب أمره كله ! فأما تبذله ، فما كان يبالى أين قعد ومع من قعد . وكان — لو كان بينه و بين ندمائه مائة حجاب — خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا . وكان مِن أعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها . وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوقر زورق ذهباً . .]

والموصلى يشير بذلك إلى إبرهيم بن المهدى عم الأمين . ولقد كان إبرهيم يغنى أحياناً فى شعر شاعرنا أبى نواس، وقد غنّى ليلةً محمداً الأمين صوتاً فى مقطوعة النواسى التى يقول فيها :

يا كَثيرَ النَّوْحِ فى الدِّمَنِ ... لا عَليْها ، بَلْ على السَّكَنِ
سُنَّةُ العُشَّاق واحدةٌ ... فإذا أحببْتَ فاسْتَكِنِ
ظَنَّ بى مَن قد كلِفتُ به ... فهْوَ يَجفُونى عَلَى الظِّنَنِ
رَشَأٌ لولا مَلاحَتُهُ ... خَلَتِ الدُّنيا من الفِتن
يا أمينَ الله عِشْ أبداً ... دُمْ على الأيَّام والزَّمن
أنت تَبْقى ، والفَناء لنا ... فإذا أَفْنَيْتَنا فكُن
تضحكُ الدُّنيا إلى مَلِكٍ ... قام بالأحْكام والسُّنن
سنَّ للناس النَّدى فندوا ... فكأنَّ البُخْل لم يَكن
كيف تَسْخُو النَّفسُ عنكَ وقد ... قُمت بالغالى من الثمن

فقام إليه الخليفة عن مجلسه فقبّل رأسه وأمر له بثلاثمائة ألف دينار . فقال له إبرهيم : « يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم » فقال : « وهل هى إلا خراج بعض الكور

الجوارى المغنيات

ولما كانت دور الرقيق طافحة بالجوارى ، وقد حط من أثمانهن ما بلغت إليه كثرتهن ، فقد فكر أصحاب المصلحة فى الأمر أن يخصّوا صفوة من لديهم من الجوارى — على حسب استعدادهن — بالتعليم وحسن الثقافة ، والتخريج فى صناعة من الصنائع المطلوبة أو فن من الفنون المحببة المرغوب فيها ، لترتفع بذلك أقدارهن . ولقد كان من استتباب الدولة للمسلمين ، وتدفق الأموال إلى أيديهم ، أن أفضت أحوالهم إلى الترف والقصف ، ووافق ذلك نهضة الغناء — وكان مهدها فى الحجاز فى مكة والمدينة — بما دخل عليه من فنون الغناء العجمى والنغم الرومى

كما قدمنا . و بلغ افتتان القوم بالغناء العربى المنقول عن الفارسى أن كانوا يسمونه « الغناء المتقن » تمييزاً له عما ألفوه قبل من ساذج الغناء ، من حداء ونشيد .

وأول من اشتهرت من الجوارى بهذا الغناء المتقن « جميلة » . وقد أخذته اجتهاداً لا إلهاماً ولا تعليما . فقد كانت جارة لأبى جعفر سائب خاثر ، وهو أول الناقلين للغناء العجمى من أهل المدينة ، وأصله فارسى . وكانت الجارية تسمعه يغنّى بالفارسية وكانت لا تفهم ما يقول . فأخذت تلك النغمات وبَنَتْ عليها ، فجاء غناؤها العربى أقرب إلى قلوب القوم . وحينئذ شاع أمرها وظهر ذكرها وقصدها الناس وجلست للتعليم ، فكانت الجوارى المتعلمات يكثرن عندها حتى كسبت لمواليها ما لم يخطر لهم ببال .

ونحب أن نورد هنا وصف خروج جميلة للحج ، لما فى تفاصيل الوصف وملابسات حجها من الدلالة الناطقة على ما كان للجوارى المغنيات من مكانة عند القوم ومبلغ ما كان لهن من أثر فى إشاعة الجو الموسيقى وتنشيط الحركة الفنية .

خرجت جميلة من المدينة فخرج معها حفل من المغنين والمغنيات والشعراء والأشراف ، منهم طويس والدلال ومعبد وابن عائشة من المغنين ، وعزّة الميلاء وحبابة وسلّامة وخليدة والزرقاء من المغنيات ، ومن غير المغنين من الأشراف والشعراء ابن أبى عتيق والأحوص وكثيّر عزة ونُصَيب . وحج معها من القيان مشيعات لها ومعظمات لقدرها خمسون قينة وَجّه بهن مواليهن معها . وقد تخاير من خرجوا معها جميعاً فى اتخاذ أنواع اللباس العجيب والهوادج والقباب . فلما قاربوا مكة تلقاهم من أهلها سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز من المغنين ، وقيان كثيرة لم يسمين ، ومن غير المغنين من الشعراء والأشراف عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزومى والعرجى ، وخرج معهم أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم . فلما قضت حجها سألها

المكيون أن تجمل لهم مجلس غناء ، فاعتذرت . فأقسم عمر بن أبى ربيعة على كل من كان فى قلبه حب لسماع غناء « جميلة » إلا خرج معها إلى المدينة . فخرج معها جمع كثير . فلما قدمت المدينة تلقاها الناس والأشراف من الرجال والنساء فدخلت بأحسن مما خرجت . وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها و إلى القادمين معها ، وتوافد إلى منزلها الناس مسلمين . فلما مضى لمقدمها عشرة أيام ، جلست للغناء لمن قدم من أهل مكة وللناس مجلساً عاماً ، وقد غصت الدار . ودام المجلس أياماً ثلاثة فكانت تبتدئ ، ثم تدعو للغناء من كان حاضراً من المغنين والمغنيات وكلهم من المتقدمين المحسنين ، وكانت أحياناً تجلس للغناء والجوارى جميعاً معها ، فتغنّى على عودها وهن يضربن على ضربها ، فيضج السامعون من الطرب ، وتدمع أعين كثير منهم حتى يبلّوا ثيابهم وتسمع زفراتهم .

ولقد نبغ من الجوارى غير جميلة ومن ذكرنامعها خلق كثير فيما توالى من العصور.

ولقد كان أصحاب الجوارى فى أول الأمر يعمدون إلى الصفر والسود ممن يقعد بهن قلة نصيبهن من إشراق الحسن و بياض البشرة ، فيدفعونهن إلى من يعلمهن ويخرجهن فى الضرب بالعود والغناء ليكون ذلك أنفق لسوقهن . و يروى فى ذلك أنه عرضت على الوليد بن يزيد جارية صفراء كوفية مولدة يقال لها سعاد ، فقال لها الخليفة : « أى شىء تحسنين ؟ » فقالت : « أنا مغنية » . فقال : « غنّينى » . فغنت ، فطرب الخليفة طرباً شديداً وقال : « يا غلام ، اسقنى » فسقاه عشرين قدحاً وهو يستعيدها . ثم قال لها : « ممن أخذت الغناء ؟ » . فقالت : « ربيت بالعراق فكان أهلى يجيئوننى بحنين فيطارحنى » . فدعا الخليفة تابعاً له فقال : « اذهب فابتعها بما بلغت ، ولا تراجعنى فى ثمنها » .

ولقد اشتهر بالغناء من الجوارى المولّدات الصفر كثيرات منهن متيم الهاشمية

وقلم الصالحية و بذل ودنانير البرمكية وفيها يقول النواسى :

اللهُ مَوْلى دنانيرٍ ومَوْلائى بعَينه مُصْبَحى فيها ومُمْسائى
لقد حَمَيتُ لسانى أن أُبينَ به ، فما يُعَبِّر عنى غيرُ إيمائى
لو كان زُهدُكِ فى الدنيا كزهدكِ فى وَصْلى مَشَيتِ بلا شكٍّ على الماء

أما المغنيات الجوارى السود فأشهرهن خليدة المكية ، وقد أخذت الغناء عن ابن سريج ومالك ومعبد ، وفيها يقول الشاعر :

فتَنَتْ كاتبَ الأمير رباحٍ — يا لقومى — خُلَيْدةُ المكّيهْ

ولم يلبث أصحاب التجارة فى الجوارى أن التفتوا إلى ما يكون فى الجمع بين حسن الصوت وحسن الصورة مع الصنعة المحكمة من فتنة لا تغالب . وهذه الفتنة التى لا تغالب هى التى أنطقت النواسى بهذه المقطوعة فى صفة الجارية المغنية « حسن » :

طَفْلَةٌ خَوْدٌ رَداحٌ هام قلبى بِهَواها
قدُّها أحسنُ قَدٍّ فاسألوا من قد رآها
ما بَراها اللهُ إلّا فِتْنةً حين بَراها
تنثُر الدرَّ — إذا غنّتْ علينا — شَفَتاها
وأرى للعُودِ زَهْواً حين تَحْويه يَداها
ربّما أغْضَيْتُ عنها بَصَرى خَوْفَ سناها
هِىَ هَمّى ومُنائى لَيْتَنى كنتُ مُناها

فكان ما كان من إقبال أصحاب هذه التجارة على الجوارى الحسان المثمنات يدفعونهن إلى المعلمين من أهل الصناعة يتولونهن بالتعليم والتلقين وحسن التخريج ، وقد وجدوا أنهم بهن أقدر ما يكونون على فتنة الشارين ، واستنزاف الأموال الجسام من أهل الثراء منهم والمترفين .

ولقد كان لرجال الفن من هذه الحال فرصة مواتية ، فلم يقنعوا بما يكون للمعلّم

من جمالة بل جملوا إلى أنفسهم كذلك أمر التجارة . فكان منهم من يشترى بالثمن الذى لا حيف فيه، مائتين من الدنانير أو ثلاثمائة، ثم لا يزال بالجارية يعلّمها حتى تخرج على يديه من المتقدمات المحسنات ، فيتطلب فيها الألوف . وقد شاع ذلك وعظم الربح منه، حتى كانت تعقد الشركة فيه كالذى كان بين يزيد حوراء وإبرهيم الموصلى

ومما كان يذكر به إسحق الموصلى أباه مفاخراً أنه أول من علم الجوارى المثمنات وأنه بلغ بالقيان كل مبلغ ورفع من أقدارهن . وفى الشكوى من ذلك يقول ابن عُيَيْنِيَة الشاعر :

لا جزى اللهُ المَوْصلىّ أبا إسـ ـحاقَ عنّا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مُرسَلاً بوَحْيٍ من الشَّيْـ ـطانِ ، أغْلى به علينا القِيانا
من غِناء كأنّه سَكَراتُ الـ ـحُبِّ يُصبى القلوبَ والآذانا

وكان الخلفاء والأمراء وسائر وجوه الدولة وأهل اليســار يتنافسون فى اقتناء هؤلاء الجوارى مع ما كان من اشتطاط أصحابهن فى سومهن . وكان الخليفة وإن امتلأت خزائنه يتعاظمه أحياناً الثمن المطلوب ، فيطلب حطه أو ينصرف عن شراء الجارية مع ما هو عليه من شدة الرغبة فيها .

ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء العدد العديد من المغنيات . إلا أن الغناء لم يكن مقصوراً على النوابغ المشهورات ، بل كان شائعاً بين عامة الجوارى ، وكان منهن في قصور الخلفاء ما لا يحصى كثرة وخاصة فى مقاصير هارون الرشيد . فقد ورد فيما ورد من أخبار الرشيد أن أهديت إليه جارية فى غاية الجمال ، فأراد الاحتفال بذلك فأخرج كل قينة فى داره واصطبح ، فكان من حضر من جواريه المغنيات والخدمة فى الشراب زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ، واتصل الخبر بالملكة زبيدة أم جعفر فعظم عليها ذلك كله ، فأرسلت

إلى عُلَيَّة تشكو إليها . فردّت أخت الخليفة على رسالتها : « لا يهولنك هـذا ، فوالله لأردّنه إليك . وقد عزمتُ أن أضع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جوارى فلا تبقى عندك جارية إلا بعثت بها إلىّ ، وألبسيهن أنواع الثياب ليأخذن الصوت مع جوارىّ » ففعلت الملـكة ما أشارت به . فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الخليفة إلاّ وعليّة أخته وزبيدة زوجه قد خرجتا إليه من مقاصيرهما معهما زهاء ألفى جارية من جواريهما وسائر جوارى القصر عليهن غرائب اللباس وكلهن فى لحن واحد هزج صنعته عليَّة :

مُنْفَصِلٌ عنِّى وما قلبىَ عنـه مُنْفصلْ
يا هاجِرى اليومَ : لِمَن نوَيتَ بعدى أن تَصِل

فطرب الرشيد ، وقام على رجليه حتى استقبل الملـكة ومعها أخته وهو على غاية السرور يقول : « لم أر كاليوم قط » . ثم التفت إلى خادمه مسرور : « يا مسرور ، لا تُبقين فى بيت المال اليوم درهماً إلا نثرته » فـكان ما نثر يومئذ ستة آلاف ألف درهم . وما سمع بمثل ذلك اليوم .

بيوت القيان

ويجدر بنا التنبيه إلى أن الجوارى المغنيات فريقان، خاص وعام؛ فكان الكبراء وأهل النعمة والثراء قلما يوجد أحد منهم إلا وهو يقتنى لنفسه جارية أو أكثر من الجوارى المغنيات تغنّيه على الشراب حين يخلو فى حريمه . وقد ذكروا من جوارى الخليفة يزيد بن الوليد حبابة وسلاّمة . وذكروا أنه أدخل الرجال عليهما للسماع . وكان يزيد إذا طرب شق بُرْده ثم يقول : « أطير ! » فتقول حبابة : « لا تطر ، فإن بنا إليك حاجة » . على أن الغالب عند الدعوة أن تغنى الجارية المدعوين من وراء ستارة .

وإلى جانب هذه المغنية الخاصة قامت مغنيات شائعات ، فانتشرت فى المدن الكبرى دورٌ عامة للسماع يسمونها « بيوت القيان » . وكان الذين يقومون على أمر هذه البيوت نخّاسين ، وغير نخاسين ، والقيان على كل حال قيانهم ، ومرجع ما يدرّ عليهن من مالٍ إليهم .

وذكر صاحب الأغانى من بيوت القيان فى بغداد بيت «حرب بن عمرو الثقفى» النخاس، وكانت له جارية مغنية، وكان الشعراء والكتّاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها يسمعونها وينفقون فى منزله النفقات الواسعة ويبرّونه ويهدون إليه.

وكان بالكرخ نخاس يكنى أبا عمير ، وكان له جوار قيان لهن ظرف وأدب . وكان عبد الله بن محمد البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها « عبادة » ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها ، فضاق ضيقة شديدة ، وكره أن يقصر عما كان يستعمله من برّهم فتعلم الجارية بضيقته ، فانقطع عن منزل أبى عمير ونفسه تنازعه إلى زيارتها . وقد ذكر فى شعرٍ له ما كان يتمناه وقتئذ لكى تمكن الزيارة المرموقة من غير هدية للجارية المعشوقة :

لو تَشكّى أبو عميرٍ قليلاً ... لأتيناه من طريق العِياده

فقضَيْنا من العيادة حقًّا ... ونظرنا فى مُقْلَتَىْ « عبّاده »

وأجلّ من اشتهر من هؤلاء المقينين عبد الملك بن رامين فى الكوفة ومن جواريه سلّامة الزرقاء وسعدة وربيحة ، وكان يغشى بيته الكثيرون من أصحاب الإمارة وَفتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم . وينافس جوارى ابن رامين فى الكوفة جوارى زريق بن منيح مولى عيسى بن موسى ، وكان شيخاً كريماً يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حى .

ولقد ذاع فى الكوفة وغيرها ما كان يقوله ويتغنى فيه محمد بن الأشعث فى

جوارى ابن رامين . وكان ملازماً لابن رامين ولجاريته سلامة الزرقاء فشهر بذلك، وكان رجلا قصافاً ، فلامه قومه فى فعله فلم يحفل بمقالتهم . وطال ذلك منه ، حتى رأى بعض ما كره فى منزل ابن رامين ، فمال إلى سحيقة جارية زريق بن منيح ولازم بيته ، وقال فى ذلك شعراً تناقله الناس جاء فى مطلعه :

يا ابن رامين بحتُ بالتصريح　　فى هوانى سحيقةَ ابن منيحِ
قَيْنةٌ عَفّةٌ ، ومولى كريم　　ونديمٌ من اللّباب الصحيح
رَبَعىٌّ ، مهذَّبٌ ، أريحىٌّ　　يشترى الحمدَ بالفَعال الرَّبيح
نحن منه فى كل ما تشتهى الأنفــــسُ من لذَّة وعيشٍ نَجيح
عند قومٍ من هاشمٍ فى ذُراها　　وغِناء من الغزال المليح
فى سرور وفى نعـيمٍ مُقيمٍ　　قد أمِنَّا من كل أمرٍ قبيح

فلم يدع ابن رامين شريفاً بالكوفة إلا تحمّل به على ابن الأشعث أن يرضى عنه ويعاود زيارته ، فلم يفعل ، حتى تحمّل عليه بمحمد بن بشر الجحوانى وكان يومئذ على الكوفة ، فكلمه فرضى الشاعر عن ابن رامين ورجع إلى زيارته ، ولم يقطع منزل زريق .

وهذا الحرص على ترضّى الشعراء وذوى اللسن شاهد على دراية أصحاب هذه المنازل بفن الدعاية . فلم يكن شيء أفعل فى لفت الأنظار إلى المنزل من منازل القيان ، وادعى إلى كثرة من يغشونه ، من تغزل الشعراء بقيانه وإشاعة الفتنة بهن . والكساد رهين بإغفال الشعراء لهن أو اشتغالهم بغيرهن . وأما البلاء كل البلاء ففى تعرضهن لقبيح الهجاء مثل قول شاعرنا النواسى فى قيان موسى النخاس:

إذا ما كنتَ عِند قِيان مُوسى　　فعند الله فاحْتَسِبِ السرورا

خنافِسُ حول عِيدانٍ قعودٌ يُطَوِّلُ قُربُها اليومَ القصيرا
إذا غَنَّيْنَ صوتاً قيل مَوْتاً وهِجْنَ به عليك الزَّمْهَرِيرا

وليس أدل على ما كان عليه بعض « أصحاب القيان » فى ذلك العهد من سعة الثروة وشرف الجاه من وصف الجاحظ لهم على هذه الصفة :

[ومن فضائل الرجل منهم أن الناس يقصدونه فى رحلة بالرغبة كما يُقصد بها للخلفاء والعظماء . فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يُحمل على الصلة ، ويهدَى له ولا تُقتضى منه الهدية ، وتبيت العيون ساهرة والدموع ساجمة ، والقلوب واجفة والأكباد منصدعة ، والأمانى واقفة على ما يحويه ملكه وتضمه يده مما ليس فى جميع ما يباع ويشترى ويستفاد ويقتنى بعد العُقَد النفيسة . فمن يبلغ شيئاً من الثمن ما بلغت « حبشية » جارية عَوْن مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار . وهم يرسلون إلى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حصلوا على النظر ، وانصرفوا بالحسرة ؛ ويجتنى مولاها ثمرةَ ما غرسوا ، ويتملى به دونهم ، ويُكفى مؤنة جواريه .

فالذى يقاسيه الناس من عَيْلة العيال ويفكرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤنتهم وصعوبة خدمتهم ، هو عنه بمعزل ، لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السويق ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ ، قد كُفِى حسرته إذا نزر ، والمصيبة فيه إذا حمض ، والفجيعة به إذا انكسر . ثم هو يستقرض إذا أعسر ولا يردّ ، ويسأل الحوائج فلا يُمْنَع ، ويُلقَى أبداً بالإعظام . يُكنى إذا نودى ، ويُفدَّى إذا دعى ، ويحيى بطريف الأخبار ، ويطلع على مكنون الأسرار ، ويتغاير الربطاء عليه ، ويتبارون فى بره ، ويتناجون فى وده ، ويتفاخرون بإيثاره .

ولا نعلم هذه الصفة إلا للخلفاء ، وهم مع ذلك يعطون فوق ما يأخذون ، وتحصل بهم الرغائب ، ويُدرَك منهم الغنى . والمقين يأخذ الجواهر ويعطى العرَض

ويفوز بالعين ويعطى الأثر ، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفلذ اللاجين والعسجد . وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خَرْطُ القتاد ؛ لأن صاحب القيان لو لم يترك إعطاء المربوط سؤله عفةً ونزاهة لتركه حذقاً واختباراً ، وشحًّا على صناعته ودفعاً عن حريم ضيعته ، لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه ، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه .

فما الذى يحمل المقيّن على أن يهبك جاريته ، ويكسر وجهه ، ويصرف الرغبة عنه ؟ ولولا أنه مثرٍ فى هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن جواريه ، ويعنى بأخبار الرقباء ، ويأخذ أجرة البيت ، ويتناوم قبل العشاء ، ويعرض عن الغمزة ، ويغفر القبلة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتبة ويتناسى الجارية يوم الزيارة ، ولا يعاتبها عن المبيت ، ولا يفض ختام سرها ، ولا يسألها عن خبرها فى ليلها ، ولا يعبأ بأن تقفل الأبواب وتسدل الحجاب ، ويعد لكل مربوط عِدَةً على حدة ، ويعرف ما يصلح كل واحد منهم كما يميز التاجر الخضرة والحنطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الربطاء اعتمد على جاهه ، وسأله الحوائج ، ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه بلا عِينة[1] ، ومن كان من السلطان بسبب كُفِيَتْ به عادية الشُّرَط والأعوان ؛ وأُعلنت فى زيارته الطبول والسرانى[2] .

فأى صناعة على وجه الأرض أشرف منها] .

ومما يدلّ على كثرة المختلفين إلى بيوت القيان ، وشيوع تعشق الفتيان لهن ، ووقوعهم فى حبائلهن ، حتى صار ذلك آفة العصر ، ما نجده كذلك فى حديث الجاحظ عنهن ، قال : [ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون

---

(١) العينة : القرض بفائدة .

(٢) السرانى : جمع سرناى ، آلة من الملاهى ينفخ فيها .

النفوس إليهن ، لأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع فى شىء على وجه الأرض . فإن رَفعت القينة عقيرة حلقها تغنّى حدّق إليها الطرف ، وأصغى نحوها السمع . فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدّى للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه . فيتوافيان عند حبة القلب ، فيُفرغان ما وعياه ، فيتولد مع السرور حاسة اللمس . فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شىء قط ولم تؤدّ إليه الحواس مثلها . فيكون فى مجالسته للقينة أعظم الفتنة] .

ونحن لا نجد بين من قرأنا لهم من كتّاب ذلك العصر الحافل بطوائف الناس وأنواع المشاهدات وأحوال المعاش ، دارساً لطبائع المجتمع أصدق من الجاحظ فراسة ، وأوسع خبرة ، وأبلغ تصويراً . فمن التقصير فى حقه وحق القراء ألا نتخذه هادياً ودليلاً طوال بحثنا فى طبيعة القيان ، فإننا ولا شك بعد تحليله لحالهن وإيضاحه القول فيهن ، أفهم لما ورد لأبى نواس من أشعار فيهن وأخبار معهن .

قال الجاحظ : [إن القينة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نَصْب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد — فى مجلس السماع فى بيت المقيِّن — رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد تقلب فيه ، وأنه قد تغلغل فى الشرك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها . ثم كاتبته تشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدّت الدواة بدمعها وبلت السِّحاء[1] بريقها ، وأنه سَبْحُها وشجوها فى فكرتها وضميرها فى ليلها ونهارها . وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً

(١) السحاء : ما يشد به الكتاب .

عنه ، ولا تريده لماله بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب فى سدس طومار[١] ، وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زير[٢] ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألحت فى اقتضاء جوابه . فإن أجيبت عنه ادّعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته . ثم تجنَّت عليه الذنوب وتغايرت على أهله ، ووصمته النظر إلى صواحبها ، وسقته أنصاف أقداحها ، وجمَّشته بعضوض تفاحها ، ومنحته من ريحانها ، وزوَّدته عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مرطها ، وشظية من مضرابها[٣] ، وأهدت إليه فى النيروز تكة وسكراً ، وفى المهرجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه . ثم أخبرته أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تتهنأ بالطعام وجداً به ، ولا تمل — إذا غاب — الدموعَ فيه ، ولا ذكرته إلاَّ تنغصت، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وربما قادها هذا التمويه إلى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها فى البلوى حتى تأتى إلى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها إن استحل ذلك منها . وربما جحدت الصناعة لترخص عليه ؛ وأظهرت العلة والتألب على الموالى ، واستباعت من السادة ، وادَّعت الحرية احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقاً عليه أن يجتاحه كثرة ثمنها ، ولا سيما إذا صادفته حلو الشمائل ، رشيق الإشارة ، عذب اللفظ ، دقيق الفهم ، لطيف الحس ، خفيف الروح . فإن كان يقول الشعر ويتمثل به أو يترنم كان أحظى له عندها .

على أن أكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة فى استنطاف مايحويه المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكى لواحد بعين ،وتضحك

---

(١) الطومار : الصحيفة . (٢) الزير : الكتان . (٣) المضراب : ريشة العواد ونحوها .

للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرّها والآخر علانيتها ، وتوهمه أنها له دون الآخر ، وأن الذى تُظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرّمها بالباقين ، وحرصها على الخلوة به دونهم .

وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكتسب الأهواء وتُتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لَدُن مولدها إلى أوان وفاتها بما يَصُدُّ عن ذكر الله من لهوالحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلعاء والمجّان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جد ، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكرُ الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة . ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبّةً عليها تأخذ من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش ، وإنشادهم مراودة ، وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها .

فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتُل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها ، إلا القيان ، لكفاه] .

وللقارئ فيما قدّمناه من كلام الجاحظ فى الجوارى والقيان أبلغ المقدمات وأوفى الشروح لما نقرأ فيهن من تغزّلٍ ماجن وغير ماجن ، فى مجاميع الأدب ودواوين الشعر . ونكتفى هنا ببعض الشواهد من ديوان أبى نواس .

فنبدأ بهذه المقطوعة ، وهى بدعة من بدائع التصوّر ، وزخارف الخيال ، زعم

فيها الشاعر أنهم كشفوا الخِدْر فى جنح الليل عن وجه القينة التى كانت معهم فتبلّج حسنها فى الظلام كالصبح المنير ، فإذا الليل يُدبر قبل انتصافه ، وعلى إثر إدباره أقبل الصبح قبل وقت مجيئه فألقى ضياء الحسن شائعاً فأدبر كذلك .
وكانت من ذلك فترة لا تُحسَب من الليل ولا تحسب من النهار ، كما خَيَّلت لشاعرنا وقتئذ سَمادِيرُ السُّكر والخمار[1] :

وليلٍ لنـا قد جاز فى طوله القَدْرا كشفنا له عن وَجه قَينتنا الخِدْرا
فوَلّى برُعبٍ قبل وقت انتصافهِ كأنَّا أَلَحنا عند ذاك له الفَجرا
وأقبلَ صبحٌ قبـل وقت مَجيئه فأدبرَ مرعوباً وقد كُسِيَ الذُّعرا
وظنَّ بأن الله أحدَثَ بعـده ضياءً منيراً أو قَضَى بعده أمرا
فبتنا بلا ليلٍ ، وقُمنا بلا ضُحًى كأنّا نَصَبناها لذاك وذا سِحرا

ثم نسوق قوله فى الجارية « رحمة » وما يظهره مولاها من غيرة :

حَسبى جَوًى إن ضاق بى أمرى ذِكرى لِرَحْمٍ وهْى لا تَدْرى
وأخافُ أن أُبدى مودَّتها فيغار مَولاها ويَستَشرى[2]

وأما ما كان يختلف بين القيان وعشاقهم من الرُّسل والرسائل ؛ وما كانوا يتهادونه من الخواتم عربوناً على الهوى وميثاقاً على حفظ المودة ، فمنه الشيء الكثير فى شعر أبى نواس :

رَسولى قال : « أوْصلتُ الكتابا ولكن ليس يُعطونَ الجوابا »
فقلتُ « أليسَ قد قرءوا كتابى ؟ » فقال : « بلَى » فقلتُ : « الآن طابا
فأرجُو أن يكونُوا هُم جَوابى بلا شكٍّ إذا قرءوا الكتابا »
أُجِدُّ لكَ المُنى يا قلبُ كيلا تموت على غَماء واكتِئابا

---

(١) السمادير : ما يتراءى للإنسان عن السكر وغشى الدوار وما أشبه ذلك .
(٢) يستشرى : يلج فى الغضب .

« أين الجواب وأين ردُّ رسائلى ؟ » قالت : « ستنظرُ ردَّها من قابِل »
فمددتُ كفّى ثم قلتُ : « تصدَّقوا » قالت : « نعم ، بحجارةٍ وجَنادِلِ »

ومعلوم أن الكتب كانت تختم على طرفيْها بعد طيِّها ، فكان يُداف الطين أو المداد و يطبع على صفح القرطاس أو على جسم ليِّن كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه . ومن ثمة كثرت لشاعرنا أمثال هذه الأبيات :

ياليتَ زَجْرَ العائفيَّةِ حاضرى إذ حِرتُ بين كِتابها والطابَعِ
ختمتْ على الشَّكوى إلىَّ بخاتَمٍ نقشتْ عليه « رُبَّ هَجرٍ نافعى »

زَجَرتُ كتابَكم لمَّا أتانى بزجرِ سوانحِ الطيرِ الجوَارى
نظرتُ إليه مخزوماً بزِير على ظهرٍ ومختوماً بقار
فقلتُ الظهرُ أحورُ قُرْطقىٌّ يشابه شكله شكل الجوارى
وقلتُ الزِّيرُ مَلهاةٌ لمُلْهٍ وطينُ الختم من زِقٍّ العقار
فجئتُ إليكمُ طرباً وشوقاً فما أخطأتُ دارَكم بدار
فكيفَ ترونَ زَجرى واعتيافى ؟ ألستُ من الفلاسفة الكِبار!(١)

وكان من شيوع المراسلة واتصال الرقاع الغرامية بين القيان وعشاقهن ، أنه حين توفى محمد بن حامد عشيق عريب المغنية وصار أبوه إلى منزله ينظر إلى تَرِكته ، أُخرج إليه فيما أُخرج سَفط مختوم ، فلما فضَّ الخاتم وفتحه إذا فيه رقاع من المغنيه إليه ، وقد رُئى الوالد يتصفحها ولا يملك أن يبتسم .

ومما يروونه فى الرسول وتجميشه أن جارية ممن أحبهن أبو نواس بعثت برسول إليه فعادت الرسول و بوجهها أثرُ ريبة . فسألتها الجارية ، فزعمت أن أبا نواس جَمَّشها ، فعاتبته الجارية فأرسل إليها يقول :

---

(١) الزجر والاعتياف : التكهن .

زَعَم الرَّسولُ بأننى جَمَّشْتُه ... كَذب الرسولُ وفالِقِ الأصباحِ

شُغلى بحبِّكِ عن سواكِ، وليس لى ... قلبانِ : مُشتغلٌ وآخر صاح

وأما تهادى الخواتم والنقش عليها والتراسل بها فمن الأمثلة عليه قوله :

وودَّعتُها صُبحاً ولم أنسَ صدَّها ... وقد بادلتـنِى خاتماً بسوارِ

كتبتْ على فَصٍّ لخاتَمها ... « مَن ملَّ محبوباً فلا رَقَدا ! »

فكتبتُ فى فصٍّ ليبلُغها ... « من نام لم يَعقلْ كمن سَهِدا »

ثم هذه المقطوعة التى يرجو فيها صديقه أبا جعفر أن يردّ إليه خاتمه ، لأن الجارية المعشوقة ألِفته فى رسالاته إليها واتهمته حين اتخذ إليها خاتماً غيره :

فدَتك نفسى يا أبا جعفرٍ ... جاريةٌ كالقمَرِ الأزهرِ

تَعلّقتنى وتَعلّقتُهـا ... طِفلين فى المهد إلى المحشَر

كنتُ وكانت نتهادَى الهوى ... بخاتَميْنا غيرَ مُستنكَر

حَبَستَ لى الخاتَم منّى وقد ... سَلبْتَنى إيّاه مُذ أشهر

فأرسلتْ فيـه فغالَطتُها ... بخاتَمٍ من فضّةٍ أخضر

قالت : « لقد كان لنا خاتَمٌ ... أحمرُ يُهـديه إلينا سَرِى

لـكنه عُلِّق غـيرى فقد ... أهدى لها الخاتمَ لا أمترى

كَفرتُ بالله وآياته ... إنْ أنا لم أهْجُرْهُ فَلْيُبْصِر

أو باتَ بالمخرَج من تُهمتى ... إيّاه فى خاتمَه الأحمر »

فارْدُده ، ترددُ وصلَها إنهـا ... قُرَّةُ عينى يا أبا جعفر

فإننى مُتَّهَمٌ عنـدها ... وأنت قد تعلمُ أنّى بَرِى

ويبقى بعد هذا جميعه أن نعرض لما وقع الاتفاق عليه من أن القينة لا تُخلص لأحد ولا تُؤتى إلا من باب طمع . فمما يتصل خبره بأبى نواس فى هذا الصدد ،

والأمثلة عليه صنوف وافرة العدد ، ما يروونه عن قينة من قيان العراق كان قد هويها الشاعر وعلق بقلبه حبها ، فكان يختلف إليها فتُظهر له أنها لا تُحب غيره ، وكان مع ذلك كلما جاءها وجد عندها فتى جديداً يجلس إليها . فقال الشاعر أبياتاً فى ذلك مطلعها :

ومُظهرةٍ لخلقِ اللهِ نُسكاً ... وتلقانى بدَلّ وابتسامِ
أتيتُ لبابِها أشكو إليها ... فلم أخلُصْ إليه من الزِّحام

فن الرقص

ولقد استتبع التقدم فى الغناء والموسيقى تقدماً مثله فى الرقص حتى صار من الفنون التى وضعت لها القواعد وشرعت لها الأصول وحتى اتفق على مستلزماته جميعاً من حيث خلقة الراقص أو الراقصة وتركيب بنيته ، إلى روح الرقص ولطافة معناه وخفة حركته ، ومن أولى مبادئه إلى أدق أسرار صناعته . ومن ذلك قولهم إن الرقّاص يحتاج فى خلقته إلى طول العنق والسوالف ، والتماثل فى الأعطاف ولينها ، ورقة الخصر وحسن أقسام الخلق ، ولدونة المفاصل ، ولطافة الأقدام ولين الأصابع و إمكان تَثَنيها فى نقلها ، وسرعة الانتقال فى الدوران ، مع سهولة مخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية . و يراعى فى الثياب عند الرقص انتفاخها واستدارتها ، وفى المناطق تدليها وتهدلها . وأما ما يُحتاج إليه فى طباع الرقص لخفة الروح، وحسن الانطباع على الإيقاع ، وأن يكون فى طالبه مرح إلى التدبير فى رقصه والتصرف فيه . وأما ما يُحتاج إليه فى عمل الرقص فحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارها ، واستواء ما تعمل يمنى الرجل و يسراها حتى تكون فى ذلك واحداً . ولما كان لوضع الأقدام ورفعها وجهان ؛ أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع ، والآخر أن يتبّط

به و يتباطأ ، فأ كثر ما يكون الراقص فيه أمكن وأحسن أن يكون مترافعاً برجله فيما يوافق الإيقاع ، ومتسافلا بها عند التباطؤ والتثبط .

وقد كانت للخليفة الأمين حفلات للرقص كان يديرها بنفسه فى أبهاء القصر الملكى ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع الكبار حتى كأن الصحن من ذلك فى نهار ، و إذا الدار مملوءة غلماناً ووصائف بحلل الوشى والجوهر ، و إذا الجوارى والمخنثون يزمرون و يضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع فى شيء واحد . وقد اتخذ بعض الجوارى والغلمان أقبيةً تعلقت بأطرافها تماثيلُ خيل مسرجة صغارٍ من خشب وهم يحاكون بها امتطاء الخيل ، وكانوا يكرون و يفرون و يتثاقفون ، ومحمد فى وسطهم يرتكض رقصاً فى الكُرّج[1] ، ولقد شهد مخارق و إبرهيم بن المهدى إحدى هذه الحفلات . وكان الخليفة وجّه من جاء بهما ركضاً . وقد جاء فى وصفهما لِما مرّ بهما فى تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال : « قوما فى هذا الباب مما يلى الصحن ، وارفعا أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، و إيا كما أن أسمع فى أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغَيا للغناء المردّد :

هذى « دنانيرُ » تنسانى وأذكرُها وكيف تنسى مُحبًّا ليس يَنساها
واللهِ، واللهِ، لوكانت ـ إذا بَرَزت ـ نفسُ المتيَّم فى كَفّيه ألقاها[2]

فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقّان حلقهما مع السرناى ، و يتبعانه حذراً من أن يخرجا عن طبقته أو يقصرا عنه . والخليفة الأمين يجول فى الكرّج ما يسأمه ، يدنو إليهما مرة فى جولانه ، و يتباعد مرة . و يحول الجوارى بينهما و بينه حتى الغداة .

ولم يكن الرقص مقصوراً على المحترفين دون غيرهم فإنه كان فيما يبدو شائعاً

---

(١) الكرج : معرب كره – بضم الكاف وفتح الراء المشددة – بالفارسية وهو تمثال مهر من خشب يلعب به .

(٢) الأبيات للشاعر المغنى عقيد مولى صالح بن الرشيد وكان مشغوفاً بدنانير مولاة يحيى ابن خالد البرمكى وقد خطبها فردته مع استشفاعه إليها وأشعاره فيها .

عند الجميع فى حال الطرب مع الفارق فى الكم والكيف بين مجاهرة مسرف وخلوة معتدل . كما يستدل مما قصّه جعفر البرمكى على أبيه الشيخ يحيى فى بعض ما كان يخبره به من خلوته مع هارون الرشيد ، وذلك فى سياق خبره كيف أسمعه الخليفة غناء أخته عُلّية . قال ما خلاصته : [يا أبت ، أخذ بيدى أمير المؤمنين ، وأقبل فى حُجَره يخترقها حتى انتهى إلى حجرة مغلقة ، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخل بيده ، ثم صرنا إلى رواق ففتحه ، وكان فى صدر الرواق مجلس مغلق ، فقعد على باب المجلس ونقر الباب بيده نقرات ، فسمعنا حسًّا ثم أعاد النقر ثانية فسمعت صوت عود ، ثم أعاد النّقر ثالثة فغنت جارية ما ظننت — والله — أن الله عز وجل خلق مثلها فى حسن الغناء وجودة الضرب . فقال أمير المؤمنين بعد أن غنت أصواتاً : « غنى صوتى » فغنته أبياتاً . فطربت والله طرباً هممت معه أن أنطح برأسى الحائط . ثم قال : « غنى . فغنت :

طال تكذيبى وتَصْديقى ... لم أجدْ عَهـــداً لمخلوقِ
إن ناساً فى الهوى غَدرُوا ... حسَّنوا نقض المواثيق
لا ترانى بَعـدَهم أبداً ... أشتكى عشقاً لمعشــوق

فرقص الرشيد ورقصت معه] .

الجوارى الأديبات

والملحوظ فيما تقدم أن الغناء كان فى جيد الشعر ومعظمه لأعيان الشعراء الأقدمين والمحدثين . وقد استوجب هـذا تعليم الجوارى وتخريجهن فى الأدب وما يتصل به من العلوم اللسانية ، حتى كان منهن أديبات مذكورات، وكان يغالى بأثمانهن مغنيات كنّ أو غير مغنيات . وكان طلبهن منظوراً فيه إلى طيب المجالسة ومتعة الحديث مع الجنس اللطيف .

ومن ذلك ما كان من الرشيد فى شأن عنان جارية الناطفى . وكانت عنان صفراء جميلة الوجه شَكِلَةً ذكية ماجنة مليحة الأدب . وقد شاع صيتها فى بغداد بأنها أسرع النساء بديهة فى الشعر . وبلغ الخليفة خبرها ، فلهج بذكرها حتى شق ذلك على زبيدة أم جعفر ، وأرسل الرشيد فى طلبها من الناطفى ، فأبى أن يبيعها بأقل من مائة ألف دينار . فقيل له على سبيل الموافقة إن الخليفة يعطيه مايطلب على أن يأخذ الدينار بسبعة دراهم ، فامتنع الناطفى . وغضب الخليفة أشد الغضب من تعنّته حتى لقد قال « والله لولا أنى لم أجُر فى حكمٍ قط متعمداً ، لجعلت على كل جبل منه قطعة ! ومالى فى جاريته من أرب غير الشعر » . ثم لم يلبث الخليفة من لهجه بها ورغبته فى سمرها أن أمر بأن تحمل إليه . ويروى الرواة أنها دخلت مجلسه فى هيئتها ، فقال لها الرشيد : « ويلك ! إن هذا قد اعتاص[1] علىّ فى أمرك » . فقالت : « ما منعك أن توفيه وترضيه ؟ » فقال : « ليس يقنع بما أعطيه » . وأمرها بالانصراف . وتصدّق الناطفى حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . ولم تزل عنان فى قلب الرشيد حتى مات مولاها الناطفى . فلما مات بعث الرشيد مسروراً الخادم ، فأخرجها إلى باب الكرخ ، وأقامها على سرير ، وعليها رداء سندى قد جللها . فنودى عليها فيمن يزيد . وكان الخليفة قد شاور الفقهاء فى ذلك إذ كان على مولاها دين ، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهى على المصطبة « أهان الله من أهاننى ، وأرذل من أرذلنى ! » فوكزها مسرور بيده . وبلغ بها المزايدون مائتين وخمسين ألف درهم أُخذت فى وفاء الدين .

ومن أجل عنان هذه كانت دار النطاف فى حياته حافلة المجلس ، ما بين وامق لها محب ، وناظر إليها متعجب ، ومستفيد متعلم ، وهى فى المجلس زينته ؛ معتصبة على رأسها بعصابة ظريفة مكتوب عليها :

---

(١) اعتاص : اشتد وامتنع .

الكُفرُ والسحرُ فى عينى إذا نظرتْ فاغرُبْ بعينَيْك ـ يامغرُور ـ عن عينى
فإنَّ لى سيْف لحظٍ لستُ أغمِده من صَنْعة الله ، لامن صنعة القَين.[1]

وكان لا ينشدها أحد شعراً إلا أجازته على الفور ، فيستحسن الحاضرون بديهتها ، وسرعان ما يستفيض من ذلك الخبر بعد الخبر ، فيلهج الناس بها حتى لم يكن فى بغداد أكثر من مريديها . وكان منهم شاعرنا أبو نواس وأبان اللاحقى ، وأبو نضير الشاعر المغنى ، ولهم غزل فيها ومساجلات معها تناقلها الرواة ، ونكتفى منها بهذه الأغنية التى قالها فيها أبو النضير :

أنا والله أهْواكِ وأهواكِ وأهواكِ
وأهوَى قبْلةً منك عَلى برْدِ ثناياكِ
وأهوى لكِ ما أهوى لنفسى ، وكفى ذاكِ
فهل ينفعنى ذلـ ـك يوماً حين ألقاك
أنا والله أهواك وما يشعر موْلاك
فإيّاكِ بأن يَعلمَ ، إيّاك وإيّاك

ولقد روى بكر بن حماد الباهلى الشاعر — وفى رواية أخرى مروان ابن أبى حفصة — أنه لما انتهى إليه خبر عنان ، وأنها ذكرت للخليفة ، وما قيل من أنها أشعر الناس ، جعل يتحين الفرصة إليها ، فلقيه الناطفى وكان يعرفه ، فضرب على عضده وقال: « هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان ؟ » . فقال الباهلى : « ما بعد عنان مطلب » . فلما أتينا الدار، سبق صاحب الدار فدخل فقال لعنان : « هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم » . فقالت . « لا والله ، إنى كسلانة » . فحمل عليها بالسوط ، ثم قال للباهلى : « ادخل » . فدخل ودمعها يتحدّر كالجمان فى خدها ، فطمع الشاعر بها ، فقال أجيزى :

---

(١) القين : الحداد .

هذى عِنانٌ أسبلتْ دمعَها كالدُّر إذ يَنْسَلُّ من خَيطهِ

فقالت مسرعة :

فليتَ من يضربُها ظالمًا تجِفُّ كفّاه على سَوْطه

ثم جعل ينشدها البيت بعد البيت فى شتى الأغراض ومن مختلف الأوزان والقوافى فلا تعجز مرة عن الإجازة مع الإجادة .

ولقد كان لعنان مجالس يروون خبرها مع جماعة الشعراء المجّان أمثال شاعرنا النواسى ، وداود بن رزين الواسطى ، والحسين بن الضحاك الأشقر الخليع ، والفضل الرقاشى ، وعمرو الوراق ، والحسين الخياط ، وإسماعيل القراطيسى ، ورزين الكاتب أخى دعبل بن علىّ الخزاعى ، وكانت تمضى معهم أحياناً إلى سوق الكرخ تنادمهم ، وتشترك فى مطارحاتهم الشعرية فى صفة ما هم فيه ، فلا يعفون ولا تعفّ عما يستدعيه الوصف من لفظة فاحشة وكلمة عوراء ولقد كان شرف البدء لأبى نواس فى بعض هذه المطارحات المجونية . ولا بأس من إيراد مقطوعته فهى أقلها نكراً وأهونها شرًّا :

ألا قُوموا إلى الكَرْخِ إلى منزلِ خمَّارِ
إلى صَهباءَ كالمسك لَدى جُؤنة عَطّار [١]
وبُستانٍ له نهرٌ لدى نخلٍ وأشجار
فأطعمكم به لحماً من الوَحْش وأطيار
فإن أحْبَبتُم لهواً أتيناكُمْ بمِزْمار
وإن أحببتم وَصْلاً فهذى ربّةُ الدّار

وأخبار عنان مع شاعرنا أبى نواس أكثر وأفحش من أن نأتى على ذكرها . فالشاعر الماجن كثيراً ما كان يمضى إليها فتقع بينهما معابثات كلامية يمنع عن

(١) الجؤنة : سلة مغشاة بالأدم تكون عند العطارين .

مثلها الحياء لو كان فى أحدهما بقية حياء . ولكم حاول — وعندها وجوه أهل بغداد — تخجيلها فلم تخجل عن رد المقال المقذع بأقذع منه ، فقد كانت وقاحاً جريئة لا تبالى ما قالت . وكان إذا وقع بينها و بينه شر ، دسّت إليه سفهاء الكرخ والعيارين فصاحوا به وعطعطوا عليه . وجملة القول أن أبا نواس لاقى فيها توأمه أو نصفه الثانى المشا كل له .

ولقد تغزل أبو نواس بها ، ولعله رسم فى هذا الغزل أصدق صورة لعنان ولغيرها من القيان فى ذلك العصر :

قد قلتُ قولاً فاسمعِى ذا كُمُ   منى ورُدّى مثلَه يا عِنانْ
إنّى لأهواكِ و إنّى جَبانْ   أفرَقُ ، من على بغَدْرِ القيان
يَصِلْن مَن واصَلْنه خُدْعَةً   بكَسرَةِ الطَّرْفِ ومَزْحِ اللّسانِ
لست أرى وصلَكِ أو تحلِفِى   ألاَّ تخُونى ، وتَفِى بالضمان
أو فَذَرِينى وصِلِى جاهلاً   يلقى من الغَيْرة فيكِ الهوَان

صنع الأصوات فى شعر الخمريات

وكان الغناء فى حضرة الخلفاء والرؤساء يتناول ما نظمه فيهم الشعراء من مديح ، كما كان يتناول غير ذلك من الأغراض حتى ما يستجاد من شعر الرثاء ، ومن ذلك ما رواه إسحق الموصلى من دخوله يوماً دار الواثق بالله حفيد الرشيد وسماعه صوت عود من بيت وترنماً لم يسمع أحسن منه . فلما دخل على الواثق وعرف منه الأمير مبلغ إعجابه بما سمع ، قال : « ياغلام ، هات العود . وأعط إسحق رطلا » وضرب الأمير وغنّى فى شعر لأبى العتاهية بلحن صنعه فيه :

أضحت قُبورهم من بعد عِزّتهم   تَسْفِى عليها الصَّبا والحَرْجَفُ الشَّمِلُ

لا يدفعون هواماً عن وجوههم   كأنهم خَشَبٌ بالقاع مُنجدِل

على أن أكثر الغناء كان فى شعر الغزل الرقيق للمتقدمين والمتأخرين . وقد كانت مقطعات أبى نواس فى الغزل أنفق عند من لهم ولع بالأهزاج من المغنين . وقد غنى سليم بن سلام يوماً بين يدى الرشيد ثلاثة أصوات من الهزج وِلاء ، منها صوت فى هذه المقطوعة لأبى نواس :

أصبحَ قلبى به نُدوبُ   أنْدَبه الشّادِنُ الرّبيبُ

تمادياً منه فى التّصابى   وقد علا رأسِيَ المَشيب

أظنُّنى ذائقاً حِمامى   وأنّ إلمامَه قريب

إذا فؤادٌ شجاهُ حبٌّ   فقلّما ينفع الطّبيب

والشواهد كلها متواترة متناصرة على أن الرشيد كان شديد الإعجاب بما كان يجوّده أبونواس ويحتفل له من عيون الشعر وقلائده المختارة . وهذا الشعر النواسى يتوافر له من حسن السبك وانسجام النظم وحلاوة النغم ما يجعله — غير مدافَع ولا منازع — فى المرتبة الأولى من الشعر الغنائى . ولكن الواقع أنه لم يغنَّ فى شعره بمجلس الرشيد إلا فى القليل النادر . ولعل ذلك لما كان من كراهة الوزير جعفر البرمكى له وانحرافه عنه أيام دولته ، ثم ما كان وقتئذ و بعدئذ من تعصب إسحق الموصلى إمام المغنين عليه . ولقد كان إسحق ينصر القديم فى الموسيقى وفى الشعر . وقد رأينا فيما تقدم إنكاره لما كان يحدثه إبرهيم بن المهدى فى الغناء القديم من تغيير فى صناعته وتجديد لطريقته . ومثل هذا كان موقفه من شاعرنا المجدد أبى نواس ، فهو لا يرضاه ولا يقول بتقديمه ولا استحسان شعره مهما أنشده القوم من جيّد قوله . ولقد جمع إسحق الموصلى إنكاره للتجديد فى الموسيقى وإنكاره للتجديد فى الشعر فى سياق واحد فى خبره عن غناء إبرهيم بن المهدى فى

أبيات أبي نواس التي يمدح بها الخليفة محمداً الأمين، إذ يقول في سياق خبره ما نصه: « غنى إبرهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً لم أحمده، في شعر لأبي نواس لم أرتضه » . وقد كان إسحق يذهب في تعصبه على أبي نواس ألا يعدّه شيئاً ، لأنه على حدّ احتجاجه « كثير الخطأ ، وليس على طريق الشعراء » . ولقد كان أبو الحسن على بن يحيى يجاذبه في أبي نواس و ينازله فلا يحفل بذلك ، وأنشده أبو الحسن قصيدة من أبلغ الشعر النواسي وهي التي مطلعها :

وخَيْمة ناطورٍ برأس مُنيفةٍ ... تهمّ يَدَا مَن رامها بزَليلِ

فما هش لها ولا قبلها . فقال أبو الحسن : « والله لو كانت لبعض الأعراب المتقدمين لكانت في أعيان الشعر عندك ولجعلتها أفضل شيء سمعته قط » .

ثم إن إسحق الموصلي إلى جانب تعصبه للأوائل كان في نفسه شيء من أبي نواس . ونحن إذا ذكرنا أن إسحق كان يقول الشعر وينسبه للعرب ويتغنى فيه كقوله :

لَفَظ الخدورُ إليك حوراً عِينا ... أُنُسِيْن ما جمع الكِناسُ قَطينا

فإذا بَسَمن فعَنْ كَحَبّ غمامةٍ ... أو أُقْحُوان الرَّمْل بات مَعينا

وأصحُّ ما رأتِ العيونُ مَحاجراً ... ولهنّ أمرضُ ما رأيت عُيونا

فكأنما تلك الوجوهُ أهِلّةٌ ... أقْمَرْنَ بين العَشْر والعِشرينا

وكأنهنّ إذا نَهَضْن لحاجةٍ ... يَنْهَضْن بالعَقَداتِ مِن يَبرينا

نقول إذا ذكرنا هذا ، وذكرنا معه ما يقال من أن أشعاره كثيرة وكلها في هذا النوع ، فلا نحسبنا نعدّ مبالغين متحاملين إذا زعمنا أنه لم يكن يخلو في تعصبه على أبي نواس من الحسد له . ويشهد بذلك مقاله وقد ذكر قومٌ عنده أبا نواس فأفرطوا في مدحه وتقديمه ، فقال محنقاً لا يكاد يمسك على ما في نفسه منه : « ما

ظننت أنى أعيش إلى زمان أرى شعر أبى نواس ينفق فيه هذا النفاق . ولقد رأيته فى طبقة هو أخسهم إذا حضروا » . ثم أردف وقد همدت وقدة غيظه وامتلك زمامه وثاب إليه حلمه : « وإن له على ذلك للشىء بعد الشىء مما يُحسن فيه » .

على أن مجالس المنادمة لم تلبث أن أشاع المغنون فيها الغناء بالخمريات ، ومنها خمريات أبى نواس . حكى أبو عكرمة أنه دخل إلى دار أبى عيسى بن المتوكل فلم يكن أحسن منها بناء ولا أظرف فرشاً ولا صباحة وجوه ، فمكث حيناً ثم أتوا بطعام لم ير أكثر منه ، ثم حانت منه التفاتة وكان معه المشدود المغنى فإذا هو بزنين ودبيس ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء . فلما رفع الطعام وجىء بالشراب جلسوا للغناء . فكان يبتدئ أحدهم باللحن فيغنى الثانى ثم الثالث والجميع بلحن واحد وقافية واحدة . وكان مما غنوه من هذا القبيل مقطوعات ثلاث لأبى نواس ، وهذه مطالعها :

يا ديرَ حَنَّةَ من ذات الأُكَيْراحِ ... من يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصّاحى

دع البساتين من آسٍ وتُفّاحِ ... واعدِلْ هُديتَ إلى ذات الأُكَيْراحِ

يا طيبَـــهُ وعتيقُ الرّاح تُحْفتُهم ... بكلِّ نوعٍ من الطاسات رَحْراح

لا تَحْفِلَنّ بقول اللائمِ اللاحى ... واشرب على الوَرْد من مَشْمولة الرّاح

كأساً إذا انحدَرت فى حَلْقِ شاربها ... أغناكَ لألاؤها عن ضَوْء مِصْباح

ما زلتُ أسقى حبيبى ثم ألثِمه ... واللّيــل مُلتحفٌ فى ثوب سَيّاح

حتى تَغَنّى وقد مالت سوالفُـــه ... « يا ديرَ حنّة من ذات الأُكيراح »

والظاهر أن الغناء فى « يا دير حنة من ذات الأُكيراح » كان كثير الشيوع .

فقد حكى جحظة فى زيارته لدير حنة فى حاشية إبرهيم بن المدبر أنه حين فرغوا من الأكل هناك وجلسوا للشراب غناهم بشعر أبى نواس المتقدم.

وكان أكثر ما يكون التغنى بخمريات شاعرنا فى المجالس الخليعة وفى الحانات على حد قول الشروانى الخليع فى حانة دير مارت مريم:

دع الأيَّام تفعلُ ما أرادتْ ... إذا جادَتْ بندمانٍ وكاسِ
بمارتِ مريمٍ والصَّحن فيه ... حُدَيقتانِ من وَردٍ وآس
وظبيٍ فى لواحظِ مُقلتيـــه ... نُعاس من فُتور لا نُعاس
وخِلٍّ لا يحول عن التصابى ... ذَكورٍ للمودَّة غيرِ ناس
ومُحتَضِنٍ لطُنبورٍ فصيحٍ ... يُغنِّينى بشِعر أبى نُواس

آلات الطرب وأنواع الملاهى

وكانت آلات الطرب وأنواع الملاهى المعروفة للقوم فى ذلك العصر كثيرة، وأكثرها أخذوه عن الفرس والأنباط والروم والهند. فمن المعازف — وهى الملاهى الوترية — العود والمِزْهَر والكِران والبَرْبَط والجُنْك والوَنَج والصَّنْج والكِنَّارة والطنبور والدِّرّيج والربابة والقيثارة. ومن آلات النفخ المزمار والناى والدُّناى وهو الناى المزدوج والسُّرناى والصَّفَّارة والقُصَّابة والشَّبابة والزَّمَّخَر والبوق. ومن الملاهى ذات التصدية الطبل والدُّف والكوبة والكَبَر والكوس والنَّقارة والصفّاقات والسَّنْج [١]

---

(١) السنج: جمع صنجة ويقال صنجة وبالسين أفصح من الصاد وهى بالفارسية كفة الميزان. وظاهر أن المراد بها الصفيحة المدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب، وقد ورد هذا المعنى فى المعاجم العربية للصنج. وفى رأينا أن تكون كتابته بالسين لينصرف معنى الصنج إلى النوع المقصود به فى العيدان بدلا من أن يقال «الصنج من الصفر» و «الصنج ذو الأوتار» للتفرقة، لاسيما واللفظان معربان وفى التزام أصلهما امتناع اللبس.

وكانوا يزاوجون بين أنواع الملاهى على غرار الفرس ، فيتخذون مع العود الناى ، ومع الطنبور الدناى . ومع الطبل السرناى ، ومع الصنج السنج . وفى مصاحبة الناى للعود يقول النواسى :

فاشربْ ـ هُديتَ ـ وغَنِّ القومَ مُبتدِئاً على مُساعدة العِيدانِ وَالنّاء
وغنِّنى ، قد أجابَ العُودُ شائقةً وحرّكَ النَّـاىُ منِّى بعضَ وسْواسى

وكان المغنى يحذق مع الغناء آلة من الملاهى يغنى عليها . فكان سائب خاثر من الأوائل الأقدمين يوقع بالقضيب ، وكان طُويْس ينقر بدف معه مربّع ، ثم غلب أن يضرب المغنون بالعود حين يغنون . وكان منهم من يمارسون هذه الملاهى جميعاً فيضربون بالعود ويوقعون بالقضيب وينقرون بالدف على هواهم وكما يتفق لهم .

ولقد يكون المغنى مع جودة غنائه وحسن صنعته أحد الضرّاب الموصوفين المتقدمين . بيد أنه لم يلبث أن ظهر التخصص فى أيام الرشيد ، فكان يغنيه إبرهيم الموصلى على ضرب نابغة العوادين منصور زلزل وكان يزلزل المجالس بحسن نغمه . وكان من المصاحبين له فى مجالس الرشيد برصوم الزامر وكان أبرع الناس زمراً بناى حتى لكأنه فى فيه ينطق بلسان آدمى ، وكان أمر الايقاع إلى جعفر الطبال أحسن من أوقع على الطبل والكوبة . وقد جعل الرشيد للمغنين والملهين مراتب وطبقات : فكان إبرهيم الموصلى وهو أشدهم تصرفاً فى الغناء ، وإسماعيل ابن جامع وهو أحلاهم نغمة ، ومنصور زلزل الضارب ، فى الطبقة الأولى . والطبقة الثانية سليم ابن سلام وعمرو الغزال ومن أشبههما ، والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير.

ويكثر فى شِعر أبى نواس ذكر الملاهى ولا سيما العود . وشاعرنا يذكره ذكر المحتفل به ، المقدم له ، المغالى بقدره :

فاستنطِقِ العُودَ قد طال السُّكوتُ به ... لن يَنطِقَ اللهوُ حتى يَنطِقَ العودُ

فالعود عند القوم أجلّ الملاهى خطراً وأبلغها فى النفوس أثراً ، وما يزال العود إلى هذه الغاية صاحب الشأن الأول فى تخت الغناء العربى . وقد جاء فى الأساطير أن الأصل فى اختراعه أن « لمك بن متوشلح » لما مات ابنه وكان يحبه حبًّا شديداً لم يدفنه ، وعلقه بشجرة حياله ، فتقطعت أوصاله ، ولم يبق منه غير الفخذ والساق والقدم والأصابع . فأخذ هذا الوالد الثاكل خشباً فرقّقه وألصقه ، فجعل صدر العود كالفخذ ، وعنقه كالساق ، ورأسه كالقدم ، والملاوى كالأصابع ، والأوتار كالعروق . ثم ضرب به وناح عليه ، فنطق العود . وإلى هذه الأسطورة ترجع بعض التشابيه فى قصيدتى أبى نواس الرائيتين :

ومُسْمِعَةٍ جاءتْ بأخرَسَ ناطقٍ ... بغير لسانٍ ظلَّ ينطِقُ بالسِّحرِ
لتُبدىَ سرَّ العاشقين بصوتِهِ ... كما تنطق الأقلامُ تجهرُ بالسرِّ
ترى فَخِذَ الألواحِ فيها كأنَّها ... إلى قَدَمٍ نِيطَتْ ، تَضِجُّ إلى الزَّمرِ
أصابعُها مخضوبةٌ وهى خمسة ... تختَّمْنَ بالأوتار فى العُسرِ واليُسرِ
إذا لَحِقت يوماً لُوِى إصبعٌ لها ... فتحكى أنينَ الصبِّ من حُرقةِ الهَجرِ [1]

وخادِلٍ من جوارى الحىِّ يُسعِدُها ... أصواتُ مختلفٍ من وَقْعِ أوْطارِ [2]
من بين بَمٍّ إلى مَثْنًى ومَثلثِهِ ... وما خَلا ذاك من أصواتِ أوتارِ
نِيطتْ إلى بَدَنٍ كالخلْق ليس له ... رُوحٌ ، ولكنه من نَحْتِ نَجّارِ
أتاهُ فى غَيضَةٍ ، فاختارَ جيِّدَهُ ... وظلَّ يُنحِى له قَطْعاً بمِنشارِ [3]
معقربُ الرَّأس كالمِسراج ، صَنعَتُه ... سحرٌ ، وما مَسَّه تعقيد سَحّارِ

---

(١) لحقت الأوتار : ضمرت . (٢) الخادل : الممتلئة الساق المستديرتها
(٣) الغيضة : الأجمة .

تمَتْ ملاويه حتّى خلتُ خِلقتها أصابعاً حُرِّكَتْ من مِفصَلٍ جار
يَحْكِى صَداهُ مُجيدَ القول إذ نَطقتْ منه اللغاتُ على طَبـلٍ ومِزْمار

وقد عرف القوم العيدان الفارسية والهندية ، على أن أكثر ما اتخذوه كان على صنعة عيدان الفرس . وكان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، ثم أخذوا عن أهل الرى وطبرستان والديلم الطنابير ، وكان غناؤهم بها ، وأخذت الفرس منذ ذلك الحين تقدّم الطنبور على كثير من الملاهى حاشا العود .

ولم يكن شاعرنا من هواة السماع فحسب ، بل كان يمارس الضرب بالعود منذ حداثة سنه . قال أبو القشير : « قلت الشعر وأنا غلام وأبونواس غلام ، وكنا جميعاً نضرب العود » فلما أن غلبت على أبى نواس الخلاعة وكثر غشيانه لمجالسها حُبب إليه كذلك الضرب بالطنابير . ولقد كان من الأشياء القلائل التى خلفها أبو نواس ووجدت فى بيته بعد وفاته عود وطنبور . ومعلوم أن الغناء فى الأرمال والأهزاج وما جرى مجراها من الأصوات المرقصات من غناء الطنبوريين. وقد جاء فى أخبار حَكَمٍ الوادىّ أنه كان أهزج الناس ، وقد مضى على عادته يغنى الأهزاج فى آخر عمره ، فلامه ابنه وقال « أبعد الكبر تغنى غناء المخنثين ! » .
وهذه صفة مجلس سماع من مجالس الطنابير فى شعر أبى نواس :

فلم نزَلْ يومَنا وليلَتنا نَقْراً على السَّطح بالطنابيرِ
حتى رأينا السَّوادَ مُنحسِراً ودارتِ الشَّمسُ فى المقاصِير
وحانَ منّا صَلاتنا لِضُحًى قُمنا نُصَلِّى بغير تَكبير

المسرحية النواسية

والآن وقد نظرنا فى الخمريات واحدة بعد أخرى ، نجدنا فى حقيقة الواقع نذكرها حين نذكرها على أنها خمرية واحدة كبرى ، وذلك أنها مع اختلافها

فى الوزن والقافية مشتركة أتم المشاركة وأخصها فى الروح والمعنى . ثم لا تزال هذه الخمرية تلح علينا بما فيها من المناظر المؤثرة القوية ، حتى لتتمثل آخر الأمر فى خواطرنا على هيئة مسرحية . والمسرحية التى نحن بصددها منظومة على الطريقة الإتباعية المدرسية ، لاتفاقها — من تلقائها دون كد ولا تكلف جهد من واضعها — مع دستور المسرح القديم من حيث وحدة المكان والزمان والحادث . فالمكان لا يعدو « الحانة » . والزمان لا يتجاوز الأربع والعشرين ساعة « من الغبوق إلى الصبوح » وأما الحادث فمداره « الشرب حتى السكر » وما يتصل بذلك من ملابسات وما ينتهى إليه من معقبات .

وهذه المسرحية — ولتكن مسرحية غنائية — تتألف من مقدمة وجيزة ، وثلاثة مشاهد أو لوحات ، وخاتمة وجيزة .

فنرى فى المقدمة أبا نواس على رأس عصبة من المجّان وهم يطرقون باب الحان فى ساعة متأخرة من الليل . فيهبّ الخمار ومسرجته فى يده ، فينظر من كوة الباب ويدور بينه وبين أبى نواس حوار كأبرع ما يكون الحوار المسرحى ، تتكشف لنا من خلاله طبائع الأشخاص وخصائص صفاتهم ودخيلة نياتهم . ويمتحن أبو نواس ما عند الرجل من الخمر ويذوقها ، ويسأل عن مبلغ إحكامها وعتقها ، فإذا اطمأن إلى جودة الشراب شأن الحاذق الشرّيب ، انتقل يستعلم عن الشادن الساقى استعلام عاشق مريب .

طرِبْتُ إلى خمرٍ وقصفِ الدَّساكرِ ومنزل دَهْقانٍ بها غير دائرِ
بفتيان صدقٍ من سَراة ابن مالكٍ وأزْدِ عُمانٍ ذِى العُلا والمفاخر
فلمَّا حَللْناها نزلنـــــا بأشْمَطٍ كريم المُحيّا ، ظاهر الشِّرْك، كافر
له دِينُ قِسِّيسٍ ، وتدبيرُ كاتب وإطراقُ جبَّارٍ ، وألفاظُ شاعر
فحَيَّا وَبيَّا ، ثم قال لنا « ارْبَعوا نزلتم بنا رَحْباً بأيْمنِ طائر »

فقلنا له « إنّ المُـــــدامَ غذاؤنا · وإنا أولو عَقلٍ وأهلُ بصائر »
فجاء بها قد أنْهكَ الغَمْوُ جسمَها · وأوجعَها فى الصَّيْفِ حَرُّ الهَواجر (١)
فقلتُ لها لمّا أضاء سناؤها · على صَحْنِ كأسٍ ـ قدعلاالكفَّ ـ زاهر:
« أبينى لنا ـ ياخمرُ ـ كم لك حِجَّةً » · فقالت « لحاكَ الله ، لستُ بذاكر
شهدتُ ثموداً حين حَلَّ بها البلى · وأدركتُ أياماً لعَمْرو بن عامر »
فقُلنا « أنُسقاها على وَجْهِ أهيَفٍ · له تِيهُ معشوقٍ وشَخْرَةُ شاطِرٍ ؟ »

ثم يبدأ المشهد الأول فى داخل الحانة وقد أوقدت السرج ونصبت منائر الشموع . وثمة الأشخاص أنفسهم . وقد هيأ الخمار لهم مجلساً مونقاً معموراً بالرياحين والزهر ، وقد صففت بين أيديهم آلة الشراب على أجمل هيئة وألطف نسق . وهم منتشرون فى المجلس مشرقة وجوههم متهللة أساريرهم كالأنجم الزهر . وإلى ناحية منهم يقوم تمثال حيٌّ للجمال بديع المثال ، وفى يمناه إبريق من لجين .

وتدب الحركة فى المشهد ، فيدور الساقى أو الساقية على القوم ، مرسلا من إبريقه شؤبوب الراح فى الأقداح ، كالشهاب الهاوى اللماح . ويتبادل الندمان التحايا من الريحان ويأخذون فى أعذب الكلام :

فى مجلسٍ ماله شبيهٌ · حلَّ به الحسنُ والجمالُ
يَمطُرُ فيه السُّرور سَحًّا · بديمةٍ مالها انتقال
شهدتُه فى شباب صدقٍ · ما إن يُوازَى لهم فَعال
نأخذُ صهباء بنتَ كرمٍ · عذراء لم يُؤْوِها الحِجال
نشربُها فى الكِبار صِرفاً · وليس فى شُربنا مِطال
يسعى بها مُخْطَفٌ غَريرٌ · كأنه البدرُ أو مِثال

---

(١) الغمو : التغطية بالخشب والطين .

قامتْ بإبريقها ـ والّليلُ مُعتكرٌ ـ فلاحَ من وجهها فى البيت لألاء
دارت على فتيةٍ دان الزّمانُ لهم فما يُصيبهمُ إلّا بما شاءوا
فأرسلتْ من فم الإبريق صافيةً كأنّما أخْذُها للعين إغفاء

نازعتُها سادةً غطارِفَةً كأنّهم من شَقيقةٍ شُقِقوا
فى مجلسٍ ليس فيه فاحِشَةٌ إلّا حديثٌ ومنطقٌ أنِق

فى مجلس لا ترى فيما تَضَمّنَه إن أنتَ فتّشتَه ـ فى خُلقه بَرِما
يا مجلساً ضمّ فتياناً غطارِفةً حازوا البشاشةَ والإنعامَ والكرَما
وجوههُم فيه ريحانٌ لجليسهم ولفظُهم لؤلؤٌ فى سلكِه نُظِما

وفى المشهد الثانى يشترك أصحاب الملاهى وأهل الغناء ، فيضربون ألوان الضرب ويغنّون فى أنواع الشعر ومنه شعر أبى نواس ، فيصيبون الإيقاعات المطربة ، ويختلسون مواضع النبرات ، ويتحرون ما يشاكلها من النقرات . ويملأون مساحرهم بالأنفاس فيشبعون الألحان ، ويستوفون النغم الطوال ويحسنون مقاطع النغم القصار . ويقترن صوت العيدان المطرب الشجىّ وصوت الإنسان المعبر الحىّ ، فيكون من سحر هذا القران ؛ ما يرتفع بالسامعين إلى شرَف الجنان :

وجدتُ ألذَّ عاريةِ الليالى قِرَانَ اللّحنِ بالوَتَر الفَصيحِ

مُسمعَةٍ إذا غنّتْ بصوتٍ أجابَتْها المَثالثُ والمثانى

وغادةٍ هاروتُ فى طَرفِها والشّمسُ فِى مَفرِقها جانِحَهْ
تَستقدِحُ العودَ بأطرافِها ونَغْمُهُ فى كبدى قادِحه

ما زالَ تاجِرُها يَسقِى وأشرَبها وعندَنا كاعِبٌ بَيْضاء حَسناء
كم قد تغنّتْ ولا لومٌ يُلمُّ بنا «دَعْ عنكَ لَومى فإن اللّومَ إغراء»

وَهاتِ فغنى بَنيَّتَىْ « نُصَيْبٍ » فقد وافانِىَ القَـــدَحُ المُدارُ
(ولولا أن يُقالَ صباً نُصيبٌ لقلتُ بنفسىَ النَّشَأُ الصِّغار)
(بنفسى كلُّ مَهْضومٍ حَشاها إذا ظُلِمَتْ فليس لها انتصار)

يُديرُها قَمَرٌ فى طَرْفِهِ حَـوَرٌ كأنما اشْتُقَّ منه سحرُ هاروت
وعندَنا ضارِبٌ يشـــدو فيُطرِبنا « يا دارَ هِند بذاتِ الجِزْعِ حُيِّيت»
إليه ألحاظُنا تُثْنَى أعِنتَهـــا فلو ترانا إليـــه كالمبَاهِيت
من أهْلِ هِيتَ سَخِىُّ الجِرْمِ ذُو أدَبٍ له أقولُ مِزاحاً « هاتِ يا هيتى »
فيَنبرى بفصيح اللفظِ عن نَغَمٍ مُثَقَّفـاتٍ فصيحاتٍ بتَثْبيت
حتى إذا فَلكُ الأوتارِ دارَ بنـــا مَعَ الطُّبولِ ظَلِلْنا كالمَسابيت[1]

فيشيع فى المجلس السرور ، ويأخذ الندماء الطرب ويستخفهم ويستولى عليهم ، فيشربون على السماع أكثر مما يحتمله حالهم من غير سماع ، ويضجون عند كل نغمة بالاستحسان ، ثم لا يلبثون أن يشاركوا فى الألحان . وتزيد الجلبة فى المجلس وتتعالى الضحكات ، وتلتمع الأعين وتتحرك الشهوات ، وتلتقى عيون الندمان والسقاة بالغمز الخفى ، وتستشرى بين الندمان أنواع الخلاعات ، وتُرتجل فنون الرقاعات :

فى مجلسٍ جعل السرورُ جناحَه سِتراً له من ناظِرِ الحِدْثانِ
لا يطرُق الأسماعَ فى جَنَباته إلّا ترنمُ ألسُنِ العِيـــدان
أو صوت تصفيقِ الجليسِ تطرُّباً وبكاء خابيـــةٍ وضحك قَنانى

لعمرى ما تهيجُ الـكأسُ شَوقى ولـكنْ وَجْهُ ساقِيها شَجانى

(١) المسبوت : المغشى عليه .

أموتُ إذا أزال الكأس عنّى ... وأحيا من يديه إذا سقانى
فلِى سُكرانِ منه سكرُ طرْفٍ ... وسُكرٌ من رَحيق خُسرَوانى

بات يُعاطِينى على خَدِّه ... خمْراً بعَيْنيه ومن كَفِّه

إنِّى لأشربُ من عَيْنَيه صافيةً ... صِرْفاً ، وأشربُ أُخرى مع نَدامانى

تَسقيك من يدها خمراً ، ومن فَمِها ... خمراً ، فمالك من سُكرَين من بُدِّ
لى نَشْوَتانِ ، وللنَّدمانِ واحدةٌ ... شئٌ خُصِصتُ به من بَينهم وَحْدى

وليلةٍ سامرتُ لذَّاتِها ... بشادنٍ أحورَ ميّاسِ
نأخذُ من صهباءَ كَرْخيَّةٍ ... نَكْتالُها وَزْناً بمِقياس
أشربُ من رِيقَتِه مَرَّةً ، ... وَمَرَّةً من فَضْلَة الكاس

يا حبَّذا لَيْلةٌ نعمتُ بها ... أشربُ فَضْلَ الحبيب فى القَدَحِ

تقولُ لى والمدامُ مُرْسَلَةٌ ... تفيضُ حولى نفوسُ جُلَّاسى
« هل لكَ أن تطرُدَ النُّعاس فقد ... طاب انضواء المُدام والآس ؟ »
قلتُ لها « فابتَدِى ، وهاتِ ، فما ... حَسَوْتِ منها فإننى حاس »
وغايتى أن أنالَ فَضْلَتها ... فى الكاس من شُرْبها أو الطاس

إشربْ واسقِ الحبيبَ يا ساقى ... وأسقِنى فَضْلَ كأسِه الباقى
وأسقِهِ فَضْلَ ما أُخلِّفُه ... فى الكأسِ عَمْداً بغير إشفاق
أشربُ من فَضْله ويشربُ من ... فضلى ، كذَا فعلُ كلِّ مشتاق

وماجدٍ فى الفرع من هاشمٍ ... إذا انتمى طارَ بعَبَّاسِه
نازعتُه القهوَةَ فى فِتيةٍ ... كلُّهمُ زينٌ لجُلاَّسه
إذا حَساها بعضهم لم يَدَع ... ما يغمُرُ الذرَّةَ فى كاسه
سُنَّتهم فى شُربها بينهم: ... «مَن ردَّها صُبَّتْ على راسه»

ولا يزال الندمان على تلك الحال من الجامحة فى الشراب والمغالاة فى التطرب وتجاوز الحد فى اللهو ، وقد زاد صخب العيدان وارتفعت عقائر القيان . ولم تكن الموسيقى كلها ضرباً واحداً فيملَّ سماعها ، بل كان إلى جانب المفرح المرقص من الألحان ضروبٌ لها شجاً ورقة وحنان . وهذه الضروب وإن كان يحلو موقعها فى الآذان ، كانت تهتاج من أهل الشجون شجونهم . فإذا بالمجلس — إلى جانب المحبورين الذين يميد الطرب بأعطافهم ويكادون يخرجون من جلودهم فرحاً ويطيرون خفة ونشوة — فريقٌ من الندامى استثارت الموسيقى منهم مكنون الصبوات وابتعثت أطياف الذكريات فإذا هم يُسبلون العبرات ويصعّدون الزفرات .

ومُسمعةٍ جاءت بأخرسَ ناطقٍ ... بغير لسانٍ ظلَّ ينطقُ بالسِّحرِ
لتُبدِيَ سرَّ العاشقين بصوتِه ... كما تنطِقُ الأقلامُ تجهر بالسرِّ
تقولُ — وقد دبَّت عقارٌ كأنَّها ... دمٌ ودموعٌ فوق خدٍّ إذا تجرى —
«سلامٌ على شخصٍ إذا ما ذَكرْتُه ... حذِرْتُ من الواشين أن يهتِكوا سرّى»
فبعضُ النَّدامى فى سرورٍ وغبطةٍ ... وبعضُ النَّدامى للمُدامة فى أسر
وبعضٌ بَكَى شخصاً ففاضت دموعُه ... على الخدِّ كالمرجانِ سال إلى النَّحر
فساعدتُهم عِلماً بما يُورِثُ الهوى ... وأن جُنون الحبِّ يُولَعُ بالحرِّ

وأقبــــل محمودُ الجمالِ مُقَرْطَقٌ ... إلى كأسها ، لا عَيْبَ فيه ، أريبُ

فجاءَ بها تحدو بها ذاتُ مِزْهَرٍ يتوقُ إليها النَّاظِرون ، رَبيبُ
يَشُمُّ النَّدامى الوردَ من وَجَناته وليس بها غيرَ الملاحةِ طِيب
فما زال يَسْقينا بكأسٍ مُجِــدَّةٍ تُوَلّى ، وأخرى بعد ذاك تَؤُوب
وغنَّى لنـا صوتاً بحُسنٍ تَرَجُّعٍ « سرَى البَرقُ غربياً فحَنَّ غريب »
فَمن كان منَّا عاشقاً فاض دمْعُه وعاوَدَه بعـــد السُّرور نَحيب
فمن بين مسرورٍ وباكٍ من الهوى وقد لاحَ من ثوبِ الظَّلام غُيوب
وقد غابَتِ الشِّعرى العبورُ ، وأقبلت نجومُ الثُرَيَّا بالصَّـباح تَنوب

ويأتى المشهد الثالث والأخير ، وقد احترقت الشموع وذابت جسومها الناعمة وأوشك زيت المصابيح على النفاد ، ولم يبق من شعلها إلا حشاشات تخفق خفقاً ضعيفاً مؤذنة بأن احتضارها لا يطول ، وأنها عن قريب ستخمد نارها ويطفأ نورها ولكن القوم فى شغل عن هذه الغاشية ، بل لعلهم يرتجونها ويستعجلون حلولها . ولقد جرت العادة أن ينتهى المشهد الأخـــير فى سائر الروايات بإحدى النهايتين الزواج أو الموت . والحال فى المسرحية النواسية لا تختلف عن ذلك كبير اختلاف . فالندمان هنا سكارى طافحون غلبتهم سورة الخمر ، ولم يبق لهم على نفوسهم شيء من الأمر . فإذا بعضهم قد انطلقت فيهم النفس الشهوية وانفلتت من عقالها ، وإذا بعضهم هاجت فيهم النفس الغضبية وثارت ثائرتها . فأسلمت الأولى من أسلمت إلى حال من الفوضى الجنسية هى أنكر النكر ، وأسلمت الثانية من أسلمت إلى التنابز والعربدة ثم إلى صرعة السكر :

فلو شَهِدْتَ ــ أخى ــ يوماً نعِمْتُ به وعندنا قَمرٌ نَجــلو به الظُلما
ما زال يَثنيه بَذْلُ الـكأس فى لُطُفٍ وذاك يأخُذُها من ذاك مُبْتَسِما
شهدتَ تَفْدِيةً منَّـــا وتَحمِيةً وفى تَطَرُّبنا فما يَمَضُّ فما

يا لَيلةً طلعتْ بالسّعد أنجمُها   فبات يَفتِكُ بالسّكرانِ سكرانُ
بِتْنا نَدينُ لإبليسٍ بطاعتِه   حتى نَعى اللّيل بالنّاقوس رُهْبان

وما زال يَسقينا ويَشربُ ليلَنا   وعينٌ على عينٍ ، وخدٌّ على خدٍّ
فبِتْنا من السُّكرِ الشّديد كأنّنا   قتيلانِ لُفّا فى الرّياحين والوَرْد

يَدورُ بها ظبىٌ أغنُّ مؤنَّثٌ   يُديرُ حُمَيّاها على كلّ شاطرِ
فما زِلتُ أحسوها وأسقى صَحابَتى   إلى أن عَضَضْنا كلُّنا بالحوافرِ

ترى الكأس تَسعَى بيننا ، فكأنّما   تردّدُ فيما بيننا فى الأصائلِ
فما بَرِحتْ حتى الصّباح يُديرها   ويجرى بنا فى كلِّ حقٍّ وباطِل
فبَيْنَ صريعٍ قد تَجدّل طافحاً   إلى ذِى وِسادٍ مائل الرأسِ زائِل

وعند هذا الحد يصح الوقوف . إلا أن هناك خاتمة وجيزة جرى القوم على إضافتها ، هى لحظة جد قصيرة فى بكرة الصباح ، نشهد فيها شاعرنا أبا نواس ينبه مَن حوله من صرعى الخمر ولا يزال يهزُّهم ويهتف بهم ، حتى إذا انتبهوا ناولهم شربة الصبوح لتكون دواءهم من خُمارهم فى سائر يومهم . وهذه اللحظة — على قصرها — لايفتأ شاعرنا يرددها فى مقطوعاته ويبدع ما شاء له الإبداع فى صفتها . وفى ذلك أبلغ الدلالة على شأنها وعلى أن الخمرية ، من المطولات كانت أو من غير المطولات ، لا تكمل إلا بها :

ومائل الرأس نَشْوانٍ شَدَوتُ له   (وَدِّع «لميسَ» وداعَ الصّارم اللّاحى)
فعالَجَ النَّفس كى يَحْيا لِيَفْهمَه   وقال : « أحسنتَ » قولاً غيرَ إفصاح
فكادَ أو لم يَكد أن يَسْتَفيقَ له   والنَّفسُ فى بَحر سُكْرٍ عَبَّ طَفّاح
فقلتُ لِلعلْج : « عَلِّنى فرُبَّ فتًى   علّلْتَهُ فانثنى فى نَشْوة الرّاح »
فافتَضّ بكراً عجوزاً زانها كِبَرٌ   فى زىِّ جاريةٍ فى اللّهوِ مِلْحاح

من بنتِ كرمٍ لها فى الكأس رائحةٌ تحكى لمن نال منها ريحَ تفّاح
حتّى إذا الليلُ شقّ الصُّبحُ مجوَلَه كمُطلِعٍ وجهَه من بين أشباح(١)
نَبّهتُ ندمانِيَ الموفى بذِمّتِهِ من بعد إتعابِ كاساتٍ وأقداح
فقال: «هاتِ اسقِنى، واشرَبْ، وغَنِّ لنا (يا دارَ شَعْثاءَ بالقاعَيْن فالسّاح)»
فما حَسَا ثانياً أو بعضَ ثالثةٍ حتّى استدار وردَّ الرّاح بالرّاح

حتّى إذا ما بدا سُهَيْلُ وحال من لَيلنا ارتحالُ
نَبّهتُ طلقَ اليدَيْن سَمْحاً يَمطُر من كفّه النَّوال
مُحمّداً خيرَ من يُرَجّى يَقصُر عن وَصْفه المقال
فقلتُ «خُذْها فَدَتْك نفسى» فكلُّ شىء له زَوال
فقامَ، والنَّومُ فى المآقى كأنّما مسَّه خَبال
ثمّ احتَبى مُسرِعاً وغنّى بخُسْرَوِىٍّ له دَلال
(عَيْناكَ دَمْعاهما سِجالُ كأنّ شأنَيْهما وِشال)

قلتُ لمّا بَدَتْ تَباشيرُ صُبحٍ هتَكَتْ فى دُجى الظَّلامِ الذُّيولا
«قُمْ بنفسى أفديكَ من كلِّ سوءٍ فاصْطَبِحْها مُدامةً مَشْمولا»
فشكا شِدّةَ الخُمار عليه وتَلَكّا لأَخْذ كأسٍ قَليلا
قلتُ: «خُذْها لكَىْ يزولَ التَّشَكّى فبها يُصبحُ الخُمارُ قتيلا»
فاستوى قاعِداً، وأبرزَ كَفّاً لم تَزَلْ راحُها لراحٍ حَمولا
وتغَنّى على المُدام ثلاثاً (أزْجُرِ العَيْنَ أن تبكّى الطُّلولا)

---

(١) مجول الجارية: ثوبها.

ناديتُه بعـد ما مالَ النُّجومُ ، وقد صاحَ الدّجاجُ ببُشرى الصُّبح مرّاتِ
فقلتُ واللّيلُ يجلوه الصَّباح كما يجلو التبسُّم عن غُرّ الثّنايات
« يا أحمَد المُرتَجَى فى كلّ نائبةٍ قُمْ ، سيِّدى ، نَعصِ جبّارَ السَّمٰوات
وها كَها قهوةً صهباءَ صافيــةً مَنسوبةً لقُرىٰ هِيتٍ وعانات »
أَلُزُّه بحُمَيّاها ، وأَزْجُــــرُه باللِّين طَوْراً ، وبالتَّشديد تارات
حتّى تغنَّى ، وما تَمَّ الثّلاثُ له حُلوَ الشّمائلِ ، محمودَ السَّجيّاتِ
(يالَيْتَ حَظِّىَ من مالى ومن وَلَدى أَنّى أُجالِس لُبْنى بالعَشِيّاتِ)

ثم لا يلبث أن يقتحم المجلس فوج من النسوة والصبية و بعض الرجال ، هم أهل هؤلاء السكارى خرجوا يرتادون الحانات فى طلبهم حين طال غيابهم ، فيحاول السكارى فى حركة ضعيفة سخيفة مواراة آنية الشراب عن أهليهم ، فينشد أهلوهم فى لحن واحد تخاطب به كل جماعة صاحبها وتشير إليه ناقمة زارية متسخطة :

تَفْتيرُ عَيْنَيْكَ دليلٌ على أنَّكَ تشكُو سهَرَ البارِحَه
عليـك وجهٌ سيِّءٌ حالُه من ليلةٍ بِتَّ بها صالِحَه
ونَفْحــةُ الخمرِ وأَنفاسُها والخمرُ لا تخفَى لهـا رائِحَه

و ينسدل الستار على هـذه المسرحية النواسية ، وهى — لا شك — مأساة من المآسى الخلقية .

فى سبيل الخمر

وعلى أمثال هذه المجالس الماجنة وقف أبو نواس معظم أيام عمره ، يضحى بكل

شىء لوجه الشراب العتيق وعلى مذبح آلهة العشق الأثيم ، غير مدّخر لثروة ولا مبالٍ بسمعة ، ولا مشفق على صحة .

ومهما يُقَل فى منزلة أبى نواس بين الشعراء المدّاحين فى زمانه ، وقلة حظوته عند البرامكة الأكرمين وما فاته من سعة نائلهم وفيض جودهم ، فالمحقق الذى لا تعترض فيه شبهة أن شاعرنا لم يعدم قط فى دولة البرامكة وبعدها من الكبراء غيرهم ، من كانوا يظلّونه برعايتهم ويتابعون له إحسانهم ويرادفون عليه صنائعهم ، كما ينطق بذلك قوله فى الأمير الجليل العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، فقد جرى فيه الشاعر على خلاف العادة من استنهاض همة الممدوح للمعروف وهز أريحيته للعطاء ؛ فإن الأمير أغناه عن ذلك بما كان لا يفتأ يدرّه عليه ، فلم يجد الشاعر بدًّا من أن يهتف به يستمهله ويرتجيه ألا يبره بعد ذلك ويواليه ، حتى ينهض بأعباء ما وجب من شكره ويقضى حق ما سلف من أياديه :

قد قلتُ للعبّاس مُعتذراً ... من ضَعفِ شُكْرِيه ومُعْتَرِفا
أنتَ امرؤٌ جلّلتنى نِعَماً ... أوْهَتْ قُوى شُكْرِى فَقَدْ ضَعُفا
فإليكَ قبل اليوم تَقْدِمَةً ... لاقَتْكَ بالتَّصريح مُنْكشفا
لا تُسْدِيَنَّ إلىَّ عارِفةً ... حتَّى أقوم بشُكرِ مَا سَلَفا[1]

ومثل هذا أو يزيد عليه ما أصابه شاعرنا من الخصيب أمير الخراج فى مصر ، وما أفاده على يدى الوزير الخطير خصم البرامكة والخالف لهم على الوزارة الفضل ابن الربيع وولديه العباس ومحمد ، وهو قد عاش ما عاش ملحوظاً برعايتهم مشمولا بحمايتهم ، ثم هِبات الخليفة الأمين لشاعره ونديمه ، وهو من علمنا فرط جوده بالمال ، وخطل يديه بالنوال .

(١) العارفة : العطية .

ومع هذا كله لا يفتأ أبو نواس يطالعنا فى كل آونة بالمقطوعة من الشعر فى إثر المقطوعة يتبرم فيها من سوء حاله وقلة يساره ، ويبالغ حتى ليكشف لنا فى شكواه عن أقبح الفاقة وأشد الإضاقة :

مَن نظرَتْ عينُه إلىَّ فقد أحاطَ عِلماً بما حَوَتْ دَارى

أعاذِلُ إن يَكُنْ بُرْداى رَثَّا فلا يَعْدَمْكَ بينَهما كريمُ
شُقِقتُ من الصِّبا ، واشتُقَّ منِّى كما اشتُقّت من الكَرَم الكُروم

إن دَامَ إفلاسِى على ما أرى هجَرتُ إخوانى وأصحابى
وبعْتُ أثوابى ، وإن بِعْتُها بَقِيتُ بين الدار والباب

وقد جاء فى جملة ما عاتب به الشاعر إخوانه وممدوحيه هذه الكلمة التى رفعها إلى الأمير العباس بن الفضل بن الربيع ، وفيها وصف لما تعرّض له من تدهور حالته وانحطاط مستوى معيشته دركا بعد درك . ومهما يكن من تصرف الشاعر فيها على طريق الفكاهة ، فما نظنها إلا صدقاً فى جوهر معناها وفحوى دلالتها :

عُنيتُ بمَركَب البِرْذَوْنِ ، حتَّى أضرَّ الكِيسَ إغلاءُ الشَّعيرِ (١)
فحُلتُ إلى البغالِ فأعْوَزَتنى فحُلتُ من البغال إلى الحَمير
فأعْيتنى الحميرُ ، فصرتُ أمشى أُزَجِّى الرِّجْلَ كالرَّجُل الكَسير

ويختم الشاعر وصفه بأن يزعم لممدوحه أن ذلك من فقده لعطائه وانقطاع رفده وحُملانه عنه :

وما بِى ــ والحَميدُ اللهُ ــ كَسرٌ ولكنْ فَقْدُ حُملانِ الأميرِ (٢)

---

(١) البرذون : نوع من الخيل .
(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

وهو قول إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الأمير عوَّد صاحبنا أن يُنعم عليه بادئاً ومعقِّباً من غير سؤال . ولكن صاحبنا يزداد كل يوم إسرافاً فتتجدد حاجته إلى المال دراكا ، فهو يقول ما يقول معاودةً للاستجداء وتعجلا للعطاء . وإن مطالعة الخمريات لا تدع شبهة من الشك فى أن صاحبها إذا اشتكى نفاد المال ، فإنما يرجع معظم ذلك إلى تخرُّقه فى النفقة على السكر واللهو وعدم ادخاره شيئاً مما يقع له:

فاشربْ ، وجُدْ بالذى تحوى يداك لها لا تَدَّخر اليومَ شيئاً خوفَ فَقْرِ غدِ

فكل ما كان يفيده الشاعر من مال ، مستهلك فى يومه مُذال ، ما يُليق درهماً ولا يستفضل لغده كثيراً ولا قليلا . وشاعرنا شديد اليقين أنه بهذا الفعل يجرى على مقتضى العقل ، وأنه مهما بذل فى الخمرة فهو الرابح الفائز فى الصفقة . وغير مستغرب ممن يجد فى الشراب ما هو واجده من نعيم ، أن يجعله من فوق كل سوم وتقويم . ومن ثمة كانت كثرة تعجّبه للمشترى يماكس فى ثمن خمرته ، وزرايته بالمثرى لا يتلفف فيها جملة ثروته :

إنَّ بَذْلى لها لبَذْلُ جَوادٍ واقتِنائى لها اقْتِناء شَحيحِ

تعشَّقَها قَلبى فبَغَّضَ عِشقُها إلىَّ من الأموال كلَّ نَفيسِ

وصاحبٍ زان كلَّ مُصطحبٍ يُنْمَى إذا ما انْتَمى إلى اليَمَن
أَرْوَعُ مَحْمودةٌ خَــلائِقه يَبذُل فى الخَمْرِ أفضلَ الثمن

أمّا المِكاسُ فإنِّى لستُ أعرِفُه ــ والحمدُ للهِ ــ فى لَهو ولا رَاحِ[1]

أعاذلُ ، ما فرَّطتُ فى جَنْب لذَّةٍ ولا قُلتُ للخمَّارِ كيفَ تَبيعُ

---

(١) المكاس : انتقاص الثمن وتطفيفه .

أُسامحُه ، إنّ المِكاس ضَراعةٌ ويرحلُ عِرْضى عنه وهْو جميعُ

شَرَيْتُ الفَتكَ بالثَّمَن الرَّبيحِ وبعتُ النُّسك بالقَصْف النَّجيحِ

خُلِقَتْ للهمّ قاهِرةً وعَدوّ المالِ والنَّشَبِ

فما برِحَ القومُ حتى اشْتَروا ومن يَشْترِ الخمرَ لم يَخْسرِ

ولو وقف الأمر عند حدّ إتلاف المال ، لقلنا عَرَضٌ زائل . ولكن أبا نواس فى استهتاره بالشراب وإدمانه له ، لم يبال أن ينحط اعتباره وتسقط حرمته ، حتى كره أهلُ الوقار من الخلفاء والرؤساء منادمته لهم ودوام اتصاله بهم ، فكان من ذلك ما كان من تفويت الفرص عليه للبلوغ إلى ما بلغه من هم دونه من الرتبة العالية والأرزاق الجارية :

والرّاحُ أهْواها وإن رَزَأَتْ بُلَغَ المَعاش ، وقَلَّتْ فَضْلى

ولقد يعجب القارئ حين يرى النواسى صريحاً هذه الصراحة مع نفسه لا يكاتمها جناية الخمر على ماله وإتيانها على جملته ، ولا يغالطها فى انتقاص الخمر من قدره وإسقاطها من حرمته . ولكن القارئ لا شك يزيد عجبه أضعافاً حين يسمع للنواسى يصف فوق ذلك أفجع الوصف سوء تأثير الخمر فى صحته وتقويض بنيته :

هَات باليُسرى، فقدعَجزَتْ راحَتى اليُمْنى عن القَدَحِ
أرْعَشَتْها بعدَ شِدَّتِها سَطْوةُ الإبريقِ للصُّبُح

والنواسى مع هذا جميعه ، وبعد هذا جميعه ، لم يزل — كما تنطق هذه الشواهد نفسها من شعره — ذلك المغرم بالخمر ، المصرّ عليها ، المستهتر بها .

وطبيعى أن يكون هذا الاستهتار بالشراب والإدمان له من رجل فى مكانة أبى نواس وعلمه وملكاته الأدبية موضع لأئمة وعذل .

وكان أبو نواس يتشاغل عن سماع عاذليه فى الخمر بمعاقرة الخمر ، لاهياً عنهم ، جاعلاً فى أذنه وقراً عن كلامهم ، غير مقيم وزناً لملامهم . فاللوم فى الخمر عنده أمر مستحيل من فوق تصديقه ، وليس يعقل أن يعيبها إلا جاهل دعىّ لا يعرفها حق معرفتها . ومثل هؤلاء الجهلاء الأدعياء لا موضع معهم للأخذ والعطاء ، و إنما الأحجى والأرشد فى جوابهم السكوت والازدراء :

دَعْنى من النـاس ومن لوْمهم   واحسُ ابنةَ الـكَرْم مع الحاسى

أعاذِلُ ما عَلَى مثلى سبيلُ   وعذلُكَ فى المُدامةِ يَسْتَحِيلُ
أعاذِلُ لا تَـلُمنى فى هواها   فإنّ عتابَنا فيها يَطول
كِلانا يدّعى فى الخمرِ عِلماً   فدَعْنى ، لا أقولُ ولا تقولُ

لَو انّ أبا مَعشَرٍ ذاقَهـا   لَخَرَّ صريعاً أبو معشرِ
وكبرَّ من طِيبِهاَ ساعةً   وقال بهـا ، ثمّ لم يَصْبِرِ

فاترُكَن من لام فيهـا   وأبَى إلاَّ نِفـارا
يشرَبُ المـاء مكانَ الـ   ـرّاح رَغْماً وصَغـارا

أمكنتُ عاذِلتى فى الخمر من أُذنٍ   يُغنى صَداها جواباً مَن يُنادِيها

ولقد يعمد إلى خطابهم باللين والحسنى ، فيرغب إليهم كالضارع أن يكفوه

وخز التقريع ، فإنه من الأحبّاء أليم وجيع ، وأن يعفوا أنفسهم من تبصيره مواقف رشده وعواقب أمره ، فإنه فى عصيانه وطاعته لا يرجع إلى عقل غير عقله .
ثم يناشدهم فى لهجة رفيقة رقيقة أن يَدَعوه لشأنه حتى يأذن الله بهديه :

أعاذل إنَّ اللومَ منك وَجيعُ ولى إمْرَةٌ أعصى بها وَأُطيعُ
أعاذلُ خَلِّينى أُرَوِّ شَبيبَتى فإن بان لى رُشدٌ فَسوْفَ أُريعُ(١)

وكان من عذَّاله فى الخمر من كانوا يمضون فى عيبه بها ويقومون ويقعدون باغتيابه فيها ، لا يعتريهم الكلل ولا ينالهم الملل ، فكان لا يجد لهذه الرغبة الملحة من ناحيتهم فى أن يترك الخمر تعليلا يتفق مع حسن رأيه فيها ، إلا سوء قصدهم به وحسدهم له :

عاذلى فى المُدام غيرَ نَصيحِ لا تَلُمنى على شقيقةِ رُوحى

يا عاذلى قد أتتنى منك بادرَةٌ فإن تَعَمَّدها عفوى فلا تَعُدِ
لو كان لومُكَ نُصْحاً كنتُ أقبلُه لكنَّ لومَكَ موضوعٌ على الحسَد

فلأشرَبَنَّ بطارفٍ وبتالِدِ بنتَ الكروم برَغمِ أنفِ الحُسَّدِ

ولقد يدفع أبو نواس العذل فى الخمر ، معتذراً بأنواع من العذر ، أخصها دفعها الهم . وقد مرت بنا طائفة من معاذيره التى يكررها على الأسماع ، وعليها طابع من قوة الاقتناع . وهو يخرج منها إلى أن الخمر فى مثل هذه الأحوال لا يكون شربها إثماً بل تركها هو الإثم :

أديرا علىَّ الكأس يَنقشِع الغمُّ ولا تَحبِسا كأسى ففى حَبْسِها إثمُ

ثم يزيد على ذلك أنها تذكر المؤمنين بخمر جنات النعيم ، ومن ثمة كان العذل

---

(١) يريع : يرعوى .

فيها مؤدياً بالعاذل إلى عذاب الجحيم ، وشرابه فيها من غساق وحميم :

أعاذلُ في المُدامة والنَّديمِ سُقِيتَ - على المدامة - من حَميمِ
أتعذلُ في مُشَعْشَعةٍ كُمَيْتٍ تُذَكِّرُ حين تُشرَبُ بالنَّعيمِ

ولم يكن موقف شاعرنا موقفاً دفاعيا على الدوام ، بل كان أحياناً يأنف من طول وقفته وقفة الاتهام ، ويكبر عليه دوام هذا الامتهان ، فتملكه العزة وتعصف في رأسه النخوة وتستولى عليه حمية منكرة ، فإذا هو يدعو أصحاب الخمر أن يتخذوا مع أعدائها خطة التحدى والمهاجمة والمسارعة إلى الشر والمبادرة بالعدوان:

وإذا شَهدتَ عدُوَّها في محفِلٍ فاقصِدْ إليـه بأقبحِ الذَّمِّ

عاطيتُها صاحباً صبًّا بها كَلِفاً حَرْباً لعائفِها ، سلماً لحاسيها

على أنه كان في أكثر الأحوال يُظهرهم من نفسه على السكير الماجن المستهتر الميؤوس من صلاحه ، ويكرر تنبيههم إلى أنه لو استطاع ترك الخمر لانتهى عنها طاعةً لنهى الله تعالى لا نزولا على كلامهم ، وإن كلامهم في ذلك بعد كلام الله يعدّ فضولا وسفاهة منهم :

تُعيِّرني الذُّنوبَ ، وأيُّ حرٍّ من الفتيان ليس له ذُنوب
أعاذل أقصرى عن بعضِ لَوْمى فراجِي تَوْبتى عندى يَخيبُ
غَرِيتِ بتَوْبتى ولَجَجْتِ فيها فَشُقِّي الآنَ جَيْبَكِ لا أتوب

أيُّها العاتبُ في الخمـ رِ متى كُنت سَفيها
كنتَ عندى بسوى هـ ذا من النُّصح شَبيها
لو أطعْنا ذا عِتابٍ لأطعنا الله فيها

وإذا نزعتَ عن الغواية فليكُنْ　　لله ذاكَ النّزعُ لا للنّاسِ

وقد يضيق أبو نواس ويشتد ضيقه بهذه السفاهة من الناس، ويبرم ويشتد برَمه بهذا الفضول منهم والدخول فيما هو من شأنه وحده، فيسلمه الضيق والبرم إلى الحدّة، وتذهب به الحدة إلى الشتم القبيح والسباب المقذع:

إن كنتُ للنّار فما حيلتى　　عذّبنى اللهُ وأشْقانيَهْ
أو كنتُ للجَنّة أحيا بها　　فما عليكم يا بَنى الزّانيه

وموجز القول أن عذل العاذلين لأبى نواس فى الخمر كان شيئاً ليس من ورائه طائل ولا فيه غَناء. وما كان عذلٌ فى الخمر ليحيك فى مثل أبى نواس ويفعل فى نفسه. ولقد طال اعتياده له حتى مرن عليه، بل كان لا يزيده إلاّ شهوة لها وعناداً فيها:

فاعذِرْ أخاكَ فإنه رجلٌ　　مَرَنَتْ مسامعهُ على العَذْلِ

دع عنك لوْمى فإن اللوم إغراء　　وداوِنى بالتى كانت هى الدّاء

فاصْطبِحْ كأسَ عُقارٍ　　يا نَديمى واسْقِنِيها
إنّنى عنــد مَلامِ الـ　　ـنّاس فيها أشتَهيها

ولاحٍ لَحانى كى يجىء ببِدْعةٍ　　وتلكَ لعَمرى خُطّةٌ لا أُطيقُها
لحانىَ كى لا أشربَ الرّاحَ إنها　　تُوَرّثُ وِزْراً فادحاً من يَذُوقها
فما زادنى اللاحونَ إلاّ لجاجةً　　عليها لأنّى ــ ما حَييتُ ــ رَفيقها
أأرفُضُها واللهُ لم يَرْفُضِ اسْمَها　　وهذا أميرُ المؤمنينَ صَديقُها
هى الشّمسُ إلا أن للشّمس وَقْدةً　　وَقهوتُنا فى كلّ حسنٍ تَفُوقها

فنحنُ وإن لم نَسْكنِ الْخُلْدَ عاجلاً فما خُلْدُنا فى الدَّهْرِ إلا رحيقها
فيا أيُّها اللاّحى اسْقِنى ثم غنّنى — فإنّى إلى وقت الممات شقيقها —
« إذا مِتُّ فادْفِنّى إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظامِى بعد مَوْتى عُروقها »

الأكفاء وغير الأكفاء

ولقد بلغ من عصبية شاعرنا للخمر أن كانت عنده الفَيْصل بين الناس. فالناس أجمعون عنده لا يَعدُون أن يكونوا فريقيْن، أو — على أصح القولين — مُعسكرين : أولياء الخمر ، وأعداء الخمر . وكل رأى لأبى نواس فى أىّ كائناً مَن كان من الناس ، وكل مَيْل له إليه أو عنه ، فإنما هو رهين بموضعه من هذا المعسكر أو ذاك .

وعلى هذا النَّحْو كانت نظرة شاعر الخمريات إلى الحياة ، وعلى هذا الوجه كان فهمه للناس .

ولقد رأينا أبا نواس يحمل حملاته الصادقة الشعواء على الحزب المعادى للخمر . ولكن الواقع أنه لفرط هيامه بها ، كان كثيراً ما ينقلب على حزبها فلا يعفيه من بعض الحملات المعروفة عند أصحاب الأحزاب بحركة التطهير . فنراه فى تكريمه للخمر وتعظيمه لقدرها يدعو إلى حبسها والضنّ بها على من ليسوا بأكفائها من حزبها .

والخمرُ قد يَشربُها مَعشَرٌ ليسوا إذا عُدُّوا بأكفائها

وغير الأكفاء هؤلاء ، قد أتى الشاعر مرات على ذكرهم فى الخمريات فرادى وجماعات . وهم فى تَعداده لهم ، لا يخرجون عن فئتين : البخلاء اللؤماء ، والمعربدين السفهاء :

واصرفنْها عن بَخيلٍ دان بالإمساكِ دِينا

طُوِّلَ الدَّهرُ عليــه فَيرى السَّاعةَ حِيناَ

لا تُمْكِنَنِّى من العِرْبيدِ يشْرَبُنى ولا اللئيمِ الذى إنْ شَمَّنى قَطَبا
ولا السَّفالِ الذى لا يَسْتَفِيقُ ولا غِرِّ الشَّبابِ ولا من يَجهلُ الأدبا

وإن القارىء ليحسّ مقدار إعزازه للخمر، وضنّه بها على من لا يستحقها، وعمق غيرته عليها، من هذا البيت الذى لا يعدله قول فى هذا المعنى من حيث قوة الشعور وصدق التخيل على غرابته :

أُجِلُّ عن اللِّئام الرَّاحَ حتَّى كأَنَّ الرَّاح تُعصَرُ من عِظامى

إبليس والشاعر

والعجيب أن شاعرنا فى نقمته على خصومه فى الخمر يستعدى إبليس . وأعجب ما فى الأمر، أنه لا يستعدى عليهم الوسواس الخنَّاس ليزيّن لهم هذه التى يعذلونه فيها ويعيبونه بها، حتى لا يكون منهم بعدها شناعة عليه ولا معابة، وهم فى البلاء عندئذ سواء . كلاّ ثم كلا ! فأبو نواس أعمق حبًّا للخمر وأصدق إكراماً لها وأرسخ إيماناً بفضلها من أن يتمناها للأعداء المنكرين ويزعم ذلك انتقاماً، مهما يكن فى ذلك من قطع ألسنتهم عن النكير والتعيير . وإنما على الضد من ذلك يكون التدبير الذى فيه الوفاء بنقمته، والشفاء لشهوة انتقامه وحزازته . ذلك ألا يزيّنها إبليسُ لهم ولا يعرضها عليهم ولا يحبّبها إليهم، فيطول حرمانهم من هذه المتعة التى لا تعد لها عنده متعة، وتذهب حياتهم بدونها ضياعاً . والقارئ لا شك يحسّ معنا أن أبا نواس الناقم يودِع كل ما فى نفسه من بغضاء حين يدعو على خصومه هذا الدعاء :

دَعوْتُ إبليسَ ثمَّ قلتُ له لا تَسْقِ هذا الشرابَ عُذَّالى

وشاعرنا لا ينى يذكر إبليس ، وهو لا يذكره كما يذكره سائر الناس باللعنة له والاستعاذة منه ، بل يذكره ذكرك من تعرف له حسنَ صنيعه إليك وحقَّ نعمته عليك . وأُولى هذه الصنائع المشكورة والنعم المذكورة لإبليس عند الشاعر ، أنه الموسوِس بشرب الخمر الداعى إليها :

يا حَبَّذا حانةٌ بالكَرْخِ تجمعُنا نُطيعُ فيها بشربِ الخمرِ إبليسا

ومن كان مثل شاعرنا يلهج بالخمر هذا اللَّهَج ، ويزعم أنه لم يوفِّها حدَّ وصفها مهما وَصف ، يحسب لا محالة أنه مهما شكر للشيطان الموسوس بها الداعى إليها ، لم يؤدِّه حق شكره عليها . ثم إننا لا نتزيَّد على شاعرنا إذا حسبناه ينسب هذه الوسوسة الشيطانية إلى أنها هداية ، فإنه ليدعو بها لمن يحب بصريح العبارة :

فاشربْ ـ هُديتَ ـ وغَنِّ القومَ مُبتَدِئاً على مُصاحبـة العِيدانِ والنَّاء

فالخمر أولى صنائع إبليس عند أبى نواس .

وأما الصنيع الثانى فهو التيسير والمعاونة على العشق الذى يهدف إلى الفسق ، بما اجتمع لإبليس من لطف الحيلة وبراعة المدخل ، وقلما يكون ذلك إلا عن طريق الخمر ؛ فهى هنا الأصل ، وما يأتى بعدها تبعٌ لها :

وغزالٍ زانَ بالقا مة رِدْفاً بَرْبَرِيّاً
قد سَقَيناه على الور د شراباً ذَهَبيا
قاده إبليسُ طَوْعاً بعد ما كانَ عصِيا

يُديرُها أحـورٌ به هَيَفٌ مُعتدِلُ الخلقِ راجحُ الكَفَلِ
تحكى انـا الجُلَّنارَ وَجْنَتُه إذا عَلاها تَوَرُّدُ الخجَـلِ

فإن تَرُمْ عنـدهُ مُداعَبَةً ... قال « حَذارِ من ذلك العمل »
فحينَ منـه خَشيتُ صَوْلَته ... وصرتُ من حبّه على وَجَل
دعوتُ إبليسَ ثمّ قلتُ له ... « قد أعجزَتْنى مذاهِبُ الحِيل
حَبْلى وحَبْلُ الذى كَلِفتُ به ... — على تَدانيه — غيرُ مُتَّصِل »
فرَدَّه الشَّيخُ عن صُعوبته ... وصار قوّادَنا ، ولم يَزَل

والذى يلاحظ فى حديث أبى نواس عن إبليس ، أنه يتحدث عن ذلك الشيطان المريد المفسد كمن يتحدث عن إلفٍ صديق توثقت بينهما المودة وطالت بها المدة . وهو يسميه « إبليس الظريف » ، فإذا أراد الإشارة إلى خبرته وحنكته سمّاه « الشيخ » :

فأدارَها عدداً ثلاثاً فانثنَتْ ... منّا النُّفوس ولَيْس منها صادِ
حتى إذا أخَذَتْ بوَجْنةِ صاحِبى ... وفؤادِه ، وبِوجْنَتى وفؤادى
لم يَرْضَ إبليسُ الظَّريفُ فِعالَنا ... حتى أعانَ فسادَنا بفسـاد

مَرَتْ حُمَيَّا الكأسِ فى رَأْسِه ... ودَبَّتِ الخمـرةُ فى وَجْنَتِه
فصار لا يَدْفَعُ عَن نفسِـه ... وكان لا يأذَنُ فى قُبْلتـه
دبَّ له إبليسُ فاقْتادَه ... والشَّيْخُ نَفّاعٌ على لَعْنَتِـه
عجبتُ من إبليسَ فى تِيهـه ... وخُبْثِ ما أظهر مِن نِيَّتـه
تاه على آدَمَ فى سَجْدَةٍ ... وصـار قوّاداً لذُرِّيَّتـه

وللشاعر فى هذا المعنى أبيات لا يملك القارئ نفسه عند قراءتها من الضحك يغلبه ، لما فى الصورة السريعة التى يعرضها من التفاتٍ بارع تتجلى فيه خباثة شاعرنا وفكاهته . فالشاعر فى هذه المرة يستحضر إبليس على خلوة ، ويبتدره

بالمقال فى تأثر وانفعال ، ثم يعمد وهو المستضعفُ المسكينُ إلى التهديد والوعيد . أتدرى بماذا ؟ إنه يهدّد ويتوعد الشيطان المفسد المريد ، إذا لم يُعِنْه على وصال الحبيب ، أن يكف عما ينظم من ماجن الشعر ، ويترك سماع الغناء ومعاقرة الخمر ، وأن يعكف على الصلاة ، ويلتزم الصوم وطاعة الله :

لمّـا جَفانى الحبيبُ وامْتَنَعَتْ ... عنّى الرسالاتُ منــه والخبرُ
اشتدَّ شَوْقى فكاد يَقتلُنى ... ذِكْرُ حَبيبى والهمُّ والفِكرُ
دعوتُ إبليسَ ، ثمَّ قلتُ له ... فى خَلْوَةٍ ، والدُّموعُ تَنْهَمِر
« أما تَرى كيفَ قد بليتُ ، وقد ... أقرَحَ جفنى البُكاء والسَّهر ؟
إن أنتَ لم تُلْقِ لِى المودَّةَ فى ... صَدر حبيبى ، وأنت مُقْتَدِر
لا قلتُ شِعراً ، ولا سمعتُ غِناً ... ولا جرى فى مفاصِلى السَّكَر
ولا أزالُ القُرآن أدرُسُــه ... أرُوحُ فى دَرْسِه وأبْتَكِر
وألزَمُ الصَّومَ ، والصَّــلاة ، ولا ... أزَالُ ـ دَهْرى ـ بالخير آتمِر »
فما مَضَتْ بعــد ذاك ثالثةٌ ... حتى أتانى الحبيبُ يَعتَذِر

ولهذه القصيدة حكاية رواها رزين الكاتب ، قال : اجتمعنا يوماً أنا وأبو نواس وعلى بن الخليل فى سوق الكرخ ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها . فقال أبو نواس : « أدْبر مَن كان فى نفسى ، وكان أسرعَ الخلق إلى طاعتى ، فما أدرى ما أحتال له ؟» . فقال له علىّ بن الخليل يمازحه : «يا أبا على ! سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك» . فقال له أبو نواس : « من تعنى ؟ » قال : « من أنت فى طاعته ليلك ونهارك (يعنى إبليس) فإن لم يقضِ لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ، ولا أن تقرّ عينه بمعصية». فقال : « هو أسدّ لرأيه من أن يُخلّ بى ، أو يخذلنى » وانقضى مجلسنا ذلك .فلما كان بعد أيام اجتمعنا فى ذلك الموضع ، وأخذنا فى أحاديثنا ، فضحك أبو نواس

فقلنا له : « ما أضحكك ؟ » فقال : « ذكرت قول عليّ بن الخليل يومئذ (سل شيخك يعطفه عليك) ، حينئذ قد سألته يا أبا الحسن ، فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثالثة حتى أتانى من غير أن أبعث إليه ، ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى ، وكان الغضب منه والتجنى ، وأحسب الشيخ (يعنى إبليس) كان يتسمع علينا فى وقت كلامنا . وقد قلت أبياتاً فى ذلك » . فقلنا : « هاتها » فأنشد الأبيات التى أوردناها .

ولما كانت هذه العلاقة بين أبى نواس و إبليس مع ما فيها من الفكاهة تحتمل المزيد من التقصى ، فلا بأس من أن ننبه القارىء الذى يهمه تاريخ بدئها إلى أنها ترجع إلى حداثة سن الشاعر . فقد زعم أستاذه والبة بن الحباب أنه كان ليلة نائماً وأبو نواس غلامه إلى جانبه نائم ، إذ أتاه آت فى منامه فقال له: « أتدرى من هذا النائم إلى جانبك ؟ » فقال والبة : « ما شأنه ؟ » قال : « هذا أشعر منك ، وأشعر من الجن والإنس . أما والله ، لأفتنن بشعره الثقلين ولأغرين به أهل المشرق والمغرب » . فعلم والبة أنه إبليس ، فقال له : « فما عندك ؟ » قال : « عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » .

ومما يجدر بالذكر أن الشيخ الظريف إبليس فيما يروى الرواة لم يقصر اهتمامه على الشعر ؛ بل نصب نفسه راعياً للفنون فى ذلك العصر ، كما يستدل من انصراف عنايته كذلك إلى فن الموسيقى والغناء .

فلقد ابتدع إبرهيم الموصلى نوعاً من الغناء وهو المعروف بالماخورى ، فافتتن به الناس أشد الفتنة ، وكان إبرهيم يلقيه على الجوارى فتضاعف قيمتهن بسبب ذلك ، ثم جاء إسحق الموصلى يروى عن أبيه إبراهيم أسطورة فى شأن هذا الغناء زعم فيها إبرهيم أنه أخذه عن إبليس ، قال: [استأذنت الرشيد أن يهب لى يوماً

من أيام الجمعة لأنفرد فيه بجوارىّ و إخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال : « هو يوم أستثقله فالْه فيه بما شئت ». فأقمت يوم السبت بمنزلى ، وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى بما احتجت إليه . وأمرت البواب أن يغلق الأبواب ، وأمرته ألاّ يأذن لأحد فى الدخول علىّ . فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففْن بى ، إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خُفَّان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة و بيده عكازة مقمعة بفضة، وروايح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق . فدخلنى غيظ عظيم لدخوله علىّ وهممت بطرد بوابى . فسلّم علىّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس . فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن مابى من الغضب ، فظننت أن غلمانى تحرّوا مسرتى بإدخال مثله علىّ لأدبه وظرفه. فقلت « هل لك فى الطعام ؟ ». فقال: « لا حاجة لى فيه ». قلت : « فالشراب ؟ » ، قال « ذلك إليك » . فشربت رطلاً وسقيته مثله . فقال : « يا أبا إسحق ، هل لك أن تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فُقْتَ به عند الخاص والعام ؟ » . فغاظنى قوله ، ثم سهّلت الأمر على نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : « أحسنت يا إبرهيم » ، فازددت غيظاً وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير إذن واقتراحه علىّ حتى سمانى باسمى ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : « هل لك أن تزيد ونكافئك ؟ » . فتعجبت من قوله وقلت فى نفسى بم يكافئنى ! ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياماً تامًّا لقوله لى أكافئك . فطرب وقال : « أحسنت يا سيدى » . ثم قال : « أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ » فقلت : « شأنك » ، لكن استضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى . فأخذ العود وجسه ، فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده ، واندفع يغنى :

ولى كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ من يَبيعُنى بها كَبِداً لَيْسَت بذاتِ قُرُوحِ

أباها علىّ النّاسُ لا يشترونَها ومن يشترى ذا علّةٍ بصحيح
أئنُّ من الشّوقِ الّذى فى جَوانِحى أنين غَصيصٍ بالشراب قَريح

فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنّى معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الـكلام ولا الحركة لما خالط قلبى من اللذة التى غيبتنى عن الوجود . فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغنى بقوله :

ألاَ يا حَمامات اللِّوَى عُدْنَ عَوْدةً فإنّى إلى أصواتكنَّ حزينُ
فَعُدْنَ . فلما عُدْنَ كِدْنَ يمِتْننى وكِدتُ بأسرارى لهنَّ أُبينُ
وعُدن بِتَرْداد الهَدير . كأنما شَرِبْنَ الحُمَيَّا ، أو بِهِنَّ جُنون
فلم ترَ عينى مِثلهنَّ حَمائماً بَكَيْنَ ولم تدمعْ لهنَّ عُيون

فكاد عقلى أن يذهب طرباً . ثم غنى ليزيد بن الطثرية هذا .

ألا يا صَبا نَجدٍ ، متى هِجتِ من نجدِ؟ لقد زادنى مَسراكِ وجداً على وَجدِ
أأن هتفتْ وَرْقاء فى رَونق الضّحى على غُصُن غضٍّ النَّبات من الرَّند
بكيتَ كما يَبْكى الحزينُ صَبابةً وذُبتَ مِن الوَجْد المُبرِّحِ والجَهْد
وقد زَعموا أنَّ المُحِبَّ إذا نَأى يَمَلُّ وأنَّ النأىَ يشفِى من الوَجْد
بكلٍّ تداوَينا ، فلم يُشْفَ مابِنا على أنَّ قُرْب الدَّار خيرٌ من البُعد

ثم قال : « يا إبرهيم ، هذا الغناء الماخورى خذه وانحُ نحوَه فى غنائك وعلِّمه جواريك » . فقلت : « أعِده علىّ » . فقال : « لستَ بمحتاج . قد أخذتَه وفرغت منه » . ثم غاب من بين عينى . فارتعدت لذلك وقمت إلى السيف فجردته ثم غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : « أى شىء سمعتنَّ عندى ؟ » . فقلن : « سمعنا أحسن غناء لم نسمع قط أحسن منه » . فخرجت

متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً ، فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج ، فقال : « أى شيخ ! والله ما دخل عليك أحد » . فرجعت لأتأمل أمرى ، فإذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت فقال: «لا بأس عليك يا أبا إسحق، أنا أبو مُرَّة إبليس ، وقد كنت نديمك اليوم فلا ترَعْ ! » . فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : « ويحك ، اعتبر الأصوات التى أخذتها » . فأخذت العود فإذا هى راسخة فى صدرى .

وليس لنا من تعقيب على هذه الأسطورة إلا إظهار التعجب من ذيوعها وتصديق وقوعها فى عالم الحسّ والواقع . وإذا كان لا بد من وقوعها فالأقرب إلى التصديق ما زعموا وقوعه من هذا القبيل فى عالم الرؤيا ، وكان إبرهيم الموصلى صاحب التأويل فى هذه المرة . قال مخارق [رأيت وأنا حدث كأن شيخاً جالساً على سرير فى روضة حسنة ، فدعانى فقال لى : « غننى يا مخارق » . فقلت : « أصوتاً تقترحه أو ما حضر ؟ » فقال : « ما حضر » . فغنيتُه :

دَعِى القلبَ لا يَزْددْ خَبالاً مع الَّذى به منكِ أو داوى جَواهُ المكَتَّمَا
وليس بتزويق اللِّسان وصَوْغِهِ ولكنّه قد خالَطَ اللَّحْمَ والدَّما

فقال لى : « أحسنت يا مخارق » . ثم أخذ وتراً من أوتار العود فلفَّه على المضراب ودفعه إلىّ ، فجعل المضراب يطول و يغلظ ، والوتر ينتشر و يعرض ، حتى صار المضراب كالرمح والوتر كالعذبة عليه وصار فى يدى علماً ، ثم انتبهت فحدَّثت برؤياى إبرهيم الموصلى فقال لى : « الشيخ بلا شك إبليس ، وقد عقد لواء صنعتك فأنت ما حييت رئيس أهلها »] .

ونعود ، بعد شهادة إبليس هذه لمخارق فى الغناء ، إلى ما كنا فيه من شهادته لأبى نواس فى الشعر ، فنقول إننا لا نشك فى أن هذه الشهادة قد اتصل بالشاعر

خبرها وأنه كان مزهوًّا بها . وقد روى ابن أبى خلصة أنه حضر باب أسماء بنت المهدى وكان يجتمع عنده الشعراء ومنهم أبو نواس . فجاء ابن أبى خلصة فقعد إلى جانبه فأسمعه الشاعر قصيدة له فى المجون . فتعجب الرجل مما يتأتى له من حلاوة الشعر وفتنته فى هذا الباب ، وقال له : « إن كان لإبليس خليفة فى الإنس فأنت هو » . فقال أبو نواس : « لا تشك ، أنا ذلك » .

وحسب القارئ أن يقرأ له وصاياه فى باب المجون ليوقن أنه هو « ذلك » من غير شك ، وهذا نموذج من وصاياه أسقطنا منه ما أسقطناه ، و بديهى أن الشاعر ليس يقصد إلى غير المجون ، ولـكنه مع ذلك مجون خبيث لا يلقّنه غير إبليس :

إنّى قَصَدتُ إلى فقيهٍ عالمٍ ... مُتنسِّكٍ حَبْرٍ من الأَحْبـــارِ

متعمِّقٍ فى دينـــه متفقِّهٍ ... متبصِّرٍ فى العِلمِ والأخبار

قلتُ: « النّبيذ تُحِلُّه ؟ » فأجاب : « لا ... إلّا عُقــاراً تَرْتمى بشرار »

قلت : « السَّماع ، فما علمتَ ؟ » أجابنى: ... « إلاّ بخَفْقِ العودِ والمزمار »

قلت : « المُنادم مَن يكون ؟ » أجابنى: ... « لا تَعْدِلَنْ عن ماجنٍ عيَّار ».

قلت: « الصَّلاة؟ » فقال: « فَرضٌ واجبٌ، ... صلِّ الصلاة و بتْ حَليفَ عُقـار

اجْمعْ عليك صلاة حَوْلٍ كاملٍ ... من فرض ليــــلٍ فاقْضِه بنَهار »

قلت : « الصِّيام ؟ » فقال لى : « لا تَنْوِهِ ... واشْدُد عُرَى الإفطار بالإفْطار »

قلت: « التَّصدّق والزَّكاة! » فقال لى : ... « شىءٌ يُعَدُّ لآلةِ الشطار »

قلت « المَناسك إن حَجَجتُ؟ » فقال لى ... « هذا الفُضولُ وغايةُ الإدبار »

لا تأْتِيَنَّ بلادَ مَـكَّةَ مُحْرِماً ... ولَوَ اَنَّ مكّةَ عند بابِ الدّار »

قلت: «الطغاة؟» فقال لى : «لا تَغزُهُم ولو أنَّهُم قرُبوا من الأنْبار
سالِمْهمُ ، واقْتَصَّ من أولادِهم إن كنتَ ذا حَنَقٍ على الكُفّار»
قلت : « الأمانة هل ترُدُّ ؟ » فقال لى: « لا ترْدُد القِطْميرَ من قِنْطار
لأَهْمَّ إلاَّ أن تكونَ مُضَمَّناً دَيْناً لصاحبِ حانةٍ خَمّار
فارْدُد أمانتَه عليـه ودَيْنَه واحْتَل لذاك ولو بِبَيْعِ إزار »
قلت : « اعْتَزَمْتُ . فما ترى فى عازِبٍ مُتغرِّبٍ مُتقارِبِ الأسْفار ؟ »
فأجابنى : « لكَ أنْ تلَذَّ بزَنْيةٍ من جارةٍ مَفْدودةٍ أو جار »
ودنا إلىَّ وقال : « نُصْحُكَ واجبٌ زَيِّنْ خِصالك هـذه بقمار »

ولقد ظل إبليس جميل الرأى فى صاحبه أبى نواس ، راسخ العقيدة فى ولائه ووفائه ، وحسن حفاظه على الود ، وإقامته على ما بينهما من العهد ، مهما ينتابه فى الحين بعد الحين من ندم ويعرض له من توبة . وما ذلك إلا لما يتيقنه إبليس فى أبى نواس ، ويتيقنه أبو نواس فى نفسه ، من أنه مغلوب على عقله بشهوته ، وأن الجنون باللهو فى دمه وفى الصميم من طبيعته :

نِمْتُ إلى الصُّبح وإبليسُ لى فى كلِّ ما يُؤْتَمُنى خَصْمُ
رأيتُه فى الجـوِّ مُسْتَعْلياً ثم هوَى يَتْبعُـه نَجم
أرادَ للسَّمع استراقاً فما عَتَّمَ أن أهْبَطَه الرَّجم
فقالَ لى لمّا هوى : « مَرْحَباً بتائبٍ توْبَتُـه وَهْم
هل لكَ فى عَذْراء ممكورةٍ يَزينها صَـدرٌ لها فَخْم
ووَاردٌ جَثْلٌ على مَتْنِها أسودُ يحكى لونَه الكَرْم ؟ »
فقلتُ : « لا » . قال : « فتًى أمْرَدٌ يَرْتَجُّ منه كَفَلٌ فَعْم

كأنه عــذراء فى خدرها وليس فى لَبَّتــه نَظم ؟ »
قلتُ : « لا » . قال : « فتى مُسْمِــعٌ يَحْسُنُ منه النَّقْرُ والنغْم ؟ »
قلتُ : « لا » . قال : « ففى كلٍّ ما شــابَهَ ما قلتُ لك الحزْم
ما أنا بالآيس مــن عَوْدةٍ منكَ على رَغْمِكَ ، يا فَدْم
لستُ أبا مُرَّةَ إن لم تَعُدْ فغيرُ ذا من فِعلِك الغَشْم [1] »

نوبات الندم

على أن القارئ يأخذه العجب حين ينتقل فى ديوان أبى نواس من الخمريات إلى الزهديات ، ويزيد فى عجبه — على قلتها — أنها لا تخلو من إجادات . ولقد شهد بذلك أبو العتاهية وهو أكثر الشعراء قولا فى الزهد ، فكان يقول: « سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددتُ أنى سبقته إليها بكل ما قلته ، فإنه أشعر الناس فيها » . ثم يعود فيقول : « قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت ، وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات الثلاثة » .

والأبيات هى قول أبى نواس :

إذا امتَحَنَ الدُّنيا لَبيبٌ تكشَّفتْ له عن عَدُوٍّ فى ثياب صَديقِ

مَن لم يكُنْ لله مُتهِماً لم يُمْسِ مُحتاجاً إلى أحَدِ

يا كبيرَ الذّنبِ عَفوُ الـ لهِ من ذَنبِكَ أكبَرْ

وإن شهادة يشهدها أبو العتاهية لأبى نواس لا تعدلها شهادة ، لا لوفرة ما قاله فى الزهد وشهرته به فحسب ، بل لما كان بين الشاعرين من تنافس ؛ فقد كان

---

(١) الغشم : ما يأتيه المرء بلا نظر ولا فكر .

الشاعران — وأولهما كوفى والآخر بصرى — هما الغالبين فى عصرهما على سائر الشعراء فى بغداد . وقد ورد حديث لأبى مخلد الطائى زعم فيه أن أبا العتاهية جاء عنده فقال له : « إن أبا نواس لا يخالفك . وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئاً ، فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر ، والرقيق وما فيه للشعراء ، وللزهد شوقى » . فبعث الطائى إلى أبى نواس ، فجاء إليه وأخذا فى شأنهما يشربان النبيذ ، وأبو العتاهية لا يشرب معهما . فقال الطائى لأبى نواس : « إن أبا إسحاق من قد عرفت فى جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئاً » . فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : « يا أبا مخلد ، قطعت علىّ ما كنت أُحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع . وقد فعلت ولا أخالف أبا إسحاق فيما رغب إليه » .

وفى هذا الخبر — إذا صح — ما يصح أن يُعلل به قلة ما نجد من الزهديات فى ديوان أبى نواس . وعلى كل حال فالأمر غير ذى خطر ؛ فما نحسب شاعرنا كان آتياً فى هذا الباب مهما أكثر من القول فيه بما يعجز عنه غيره . فإن أكثر ما تدور عليه الزهديات ذكر الموت ، وهو قولٌ معاد ، وحسب الناس منه هذا الخطاب الذى يجبه أبو العتاهية بَه جميع الأحياء فى قسوة وغلظة كالشامت :

• لِدُوا للمَوْتِ ، وابْنُوا للخَرابِ •

والذى يعنينا من الأمر كله هو أن نعرف أكان أبو نواس ينظم فى الزهديات على أنها غرض من أغراض الشعر ينافس فيه أبا العتاهية ويحب أن يبلغ فيه فوق ما بلغه معاصره كما قد يستدل من حديث أبى مخلد ، أم كان فى زهدياته معبراً صادق العبارة عن شعوره بالحسرة والندامة على ما فرط من سوء صنيعه ؟

ونحن لا نأخذ بأحد الفرضين دون الآخر ، ونعتقد — من غير أن نسقط

الفرض الأول من حسابنا — أن أبا نواس كانت تنتابه مثل الكثيرين غيره من مرتكبي المعاصي نوباتٌ من الجزع والرهبة من القصاص عند ذكر الموت، لا سيما بعد أن ضعف وتقدمت به السن وأشعرته الشيخوخة بدنو الأجل:

أيا مَنْ بين باطيةٍ وزِقٍ … وعودٍ في يَدَيْ غانٍ مُغَنِّي

إذا لم تَنْهَ نفسَك عن هواها … وتُحْسِنْ صَوْنَها فإليكَ عني

فإنِّي قد شَبِعتُ من المعاصي … ومن إدمانِها وشَبِعْنَ مني

ومَن أسْوا وأقْبَحُ من لَبيبٍ … يُرى مُتَطرِّباً في مثلِ سِنِّي

ألم تَرَني أبحتُ اللهوَ نَفْسي … ودِيني، واعتكَفْتُ على المعاصي

كأني لا أعــودُ إلى معادٍ … ولا أخشَى هنالكَ من قِصاص!

لو صحَّ عَمَلي قــلَّ أشْباهي … أجَلْ، ولم أَلْهُ مع اللاهي

أعوذُ بالله وأسمــائِه … من عاجزِ التَّركيب تَيَّاه

لا تتناهَى النَّفْسُ عن غَيِّها … ما لم يكُنْ منهـا لهـا ناه

يا مَن أقامَ على خَطِيئَتِه … سُدَّت عليكَ مذاهبُ الرَّشَدِ

منَّتكَ نفسُك أن تتوبَ غداً … أوَ ما تخافُ الموتَ دُونَ غَد

الموتُ ضَيْفٌ فاسْتَعدّ له … قبل النُّزول بأفضلِ العُـدَد

يا نفسُ مورِدُكِ الصِّراطُ غداً … فتأهَّبي من قبلِ أن تَرِدي

ما حُجَّتي يومَ الحساب إذا … شَهِدتْ عليَّ بما جَنيتُ يَدي

كم ليلةٍ قــد بتُّ أَلهُو بها … لو دام ذاكَ اللَّهوُ للاهي

حرَّمها اللهُ وحَلَّتهـــا فـكيف بالعَفْو من الله ؟

وليس ينبغى أن تكون هذه الـكلمات المتهدّجة التى يرقتها الأسى وتقطّعها الحسرات مما يستغرب صدوره من شاعرنا الخليع . فهو قد نشأ فى حداثته الأولى فى البصرة نشأة دينية ، فقرأ القرآن على العالم الزاهد الناسك الورع يعقوب الحضرمي إمام القراءات ، وقد بلغ الغلام من حذقه القرآن أن رمى إليه الشيخ بخاتمه وقال له : « اذهب ، فأنت أقرأ أهل البصرة » . وكذلك اختلف فى طلب الحديث على أئمة المحدثين ، وقد بلغ فى ذلك أن جاء ذكره فى جملة رواة الحديث . وكلنا نعرف فى ذات أنفسنا مما نتعرض له فى تجاربينا أن ما نتلقنه فى الحداثة يخالط دمنا ويكمن من وراء وعينا ، وأننا نفيد فى مُسْتأْنَف أيامنا ما نفيد من المعارف ونستحدث ما نستحدث من الآراء ، ونسلك بحياتنا فى الطريق التى تزينها لنا معارفنا المـكتسبة وآراؤنا المستحدثة ، ومع ذلك لا نخلص مما نشأنا عليه من تقاليد ومعتقدات .

فالنواسى كانت تنتابه نوبات من الندم حين يفرط به المجون ، وكان فى الحين بعد الحين يعزم على التوبة ويظهرها ، ثم لا يلبث أن يعاود سيرته ويستغرق فى لذته ، فينسى الخلد كله فى ساعته :

أفنيْتَ عُمرَكَ والذُّنوبُ تَزيدُ والكاتبُ المُحصِى عليكَ شهيدُ

كم قلتَ «لستُ بعائدٍ فى سَوْءَةٍ» ونذرتَ فيها ، ثمَّ صرتَ تعود

بيد أننا نسمع للشاعر فى شيخوخته نغمة أخرى حزينة ، ولعلها أحرّ من تلك وأصدق . وإنها لتدور أيضاً على الحسرة ، ولـكنها من سابقتها فى القطب المقابل والطرف النقيض . فهى الحسرة المتلهفة على الشباب الغابر وعنفوانه الناضر ، وما كان له من قوة السحر على استفتاح معاقل الجمال ، وما أوتى من الشرّة والقدرة

على المساعفة على الشهوات واستيفاء اللذات . والشاعر الشيخ لا يذكر هذا العهد الفاسق الآثم ذكر التائب النادم ، بل ذِكر المتحسر المتلهف على أنه لم يكن بالدائم:

كان الشَّبابُ مَطِيَّةَ الجهلِ ومُحَسِّنَ الضَّحِكاتِ والهزلِ
كان الجميل إذا ارتديتُ به ومَشيْتُ أخْطِرُ صَيِّتَ النَّعلِ
كان المُشفَّعَ فى مآرِبه عند الفتاة ومُدرِكَ النَّيْل
والباعِثِى والنَّاسُ قد رَقَدوا حتى أبِيت خَلِيفةَ البَعْل
والآمِرِى حتى إذا عَزَمت نفسى أعان يَدَىَّ بالفِعل
فالآنَ صِرْتُ إلى مُقارَبةٍ وحَطَطتُ عن ظهر الصِّبا رَحْلى
والرَّاحُ أهْواها وإن رَزَأت بُلَغَ المعــاشِ وقلّت فَضلى

وقد كان فى ميسور أبى نواس أن يبرز للناس فى ظاهر أهل التوبة والإنابة ، ويتراءى فى سمت المتقين ، ويندرج فى عداد الصالحين ، مع بقائه منغمساً فى عيبه عاكفاً على شينه ، شأن المرائين فى الدين اتقاء لأذى الناس ، وتحرّزاً من سوء القالة بينهم ، وطلباً للجاه عندهم . وإن شاعرنا ليعلم أنه مهما يكن خبث الفاسق الخليع ، ولطافة مداخله ، وفطانته فى بث الحبائل ونصب الأشراك ، فإن هؤلاء أدنى إلى النّفاق بالنّفاق ، وأنفذ حيلة وأسهل فريسة ، لاطمئنان البسطاء إليهم وغفلة الرقباء عنهم . وفى الأبيات التاليات يشهدنا الشاعر كيف كانت تكون حالته من النجح فى حاجته وإشباع شهوته ، لو أنه اتخذ من المتنسِّك ظاهرَ صورته وتخلّق فى وجه الخلق بخليقته ، وتحلى بحليته مشتملا بخرقته مستمسكاً بسبحته ، أشبه ما يكون بشخصية الشيخ الدجال « ترتيف » فى مسرحية موليير :

ألم تَرَ أنِّى حــين أغْدُو مُسبِّحًا بسَمْتِ «أبى ذَرٍّ» وقلب «أبى جَهلٍ»
وأخشَع فى نفسى وأخفضُ ناظرى وسجَّادَتى فى الوَجه كالدِّرهم المَطلى

وآمُرُ بالمَعروفِ لا من تَقِيّةٍ ... وكيف وقَوْلى لا يُصَدِّقه فِعلى
وِمحبرَتى ـ رأسُ الرِّياء ـ ودَفترى ... ونَعلىَّ فى كَفَّىَّ من آلةِ الخَتْل
أؤمُّ فقيهاً ليس رأيى لِفقهِه ... ولكن لرَبِّ المُردِ مُجتمع الشَّمل
فكمْ أمْردٍ قد قال والدُه له ... عليكَ بهذا ، إنَّهُ من أُولى الفضَل
يَفِرُّ به من أن يُصاحِبَ شاطراً ... كَمَنْ فَرَّ من حَرِّ الْجِراح إلى القتل

وهذه الصورة — وإن يكن الشاعر قد تمثلها لنفسه — أبعدُ شىء عن مشابهته . فأبو نواس على كل مابه من رذيلة ، لا يُنكَر عليه حظه الأوفى من هذه الفضيلة ، فضيلة الصراحة والمجاهرة . فقد عاش ما عاش ، علانيتهُ كسريرته ، وظهارته كبطانته ، ولسانه صورة قلبه :

اشربْ ، فُديتَ ، عَلانِيهْ ... أمُّ التسَتُّر زانيه
ودَعِ التسترَ والرِّيا ... ءَ فما هُما من شانِيَه

ألاَ فاسْقِنِى خَمراً وقلْ لى هىَ الخمرُ ... ولا تسقنى سِرًّا إذا أمْكن الجهر
وبُح باسم من أهوىَ ودَعْنى من الكُنَى ... فلا خَيْر فى اللذاتِ من دونِها سِتر

فأبو نواس كان لا يكره شيئاً كراهته للرياء والتستر ، ويندر فى الناس من كان له إصراره على أن يُعرف على جليته وحقيقته ، فمن فاتهم معرفة أمر من أموره عياناً لم يفتهم ذلك سماعاً فيما يَروِى من أخباره ويُذيع من أشعاره . ومن كانت هذه جبلته فليس يستغرب منه أن ينفر طبعهُ ويأبى عليه نسبة ماليس فيه إليه ، ولو كان هذا المنحول خصلة يتمناها ويرجو أن يُعطاها . ولعل ذلك سر غضبته حين كانت تشيع الشائعة عن توبته .

ولقد عرف إخوان أبى نواس ذلك منه . فكانوا إذا أرادوا العبث به ، لم يجدوا

أذهب وأمعن فى ذلك من أن يشيعوا عنه التوبة ، وأنه نزع عما كان عليه من الفسوق والخمر . ويروى أنهم حين أشاعوا ذلك عنه ، أقبل النـاس يهنئونه ، لجعل يكذِّب ما قيل ، ويقول: « أنا والله شرٌ مما كنت ». فلما كثر ذلك عليه ، دعا بخمار يهودى ، وأجلسه إلى جانبه ومعه خمر ، فكان كلما جاء أحد يهنئه يقول للغلام قبل أن يتكلم القادم : « صُبَّ لى من خمرك » ، فيشرب قدحاً ثم يقبِّل الساقى ، ويقول للذى جاء يهنئه : « قد رأيت صحة التوبة » .

ولقد نظم النواسى فى ذلك شعراً قال :

قالوا « نزَعت » ، ولمَّا يعلَموا وَطَرى ... من كلِّ أغْيَدَ ساجِى الطَّرْفِ ميَّاسِ

كيفَ النُّزوعُ وقلبى قد تَقسَّمَهُ ... لَحْظُ العيون ، ولونُ الرَّاحِ فى الكاس

إذا عَزَمتُ على رُشدٍ ، تَكنَّفَنى ... رأيانِ قد شَغَلا يُسرى وإفلاسى

فاليُسر فى القَصْفِ واللذاتِ أخلِسُها ... والعُسر فى وَصْل من أهوى من النَّاس

لاخيرَ فى العيشِ إلا فى المُجون مع الأ ... كْفاء ، والحُورِ ، والنَّسرِين والآس

ومُسمِعٍ يتَغَنَّى ، والكؤوسُ لها ... خَبٌّ علينا بأخماسٍ وأسْداس

(يا مُورِىَ الزَّنْدِ قد أعْيَت قَوادحُهُ ... إقبِسْ ـ إذا شئتَ ـ من قلبى بمقباس)

روح الثورة

وكان أبو نواس فى معالجته صَرْفَ نفسه عن داعى الندم ، وشدَّ قلبه فى مخالفة نواهى الدين ، حرصاً منه على مواصلة ما هو فيه من الفسوق والخمر ، يعمد أحياناً إلى ترديد أقوال الفلاسفة الماديين ، فيبدر منه فى الحين بعد الحين أمثال هذه البوادر التى كانت تحكُّ فى صدره ، شأن الكثيرين من أهل عصره ، وإن عدلت بهم التَّقيَّةُ ومخافة العاقبة وإيثار السلامة والعافية إلى اصطناع الرَّمْز والتلميح

دون الإبانة والتصريح . ومن ذلك هذا القول الهمسُ الذى نفّس به الشاعر عن بعض سره فى ساعة من ساعات بثّه :

وأيسرُ ما أبثُّكَ أنَّ قلبى   بتصديقِ القيامةِ غيرُ صافِ

وأصرح منه هذا القول الذى نسبه ابن نوبخت إليه وهو مضطغن عليه . ولا يُستبعد مع هذا أن يكون مما ندّ عن نفسه فى ساعة من ساعات يأسه :

باحَ لِسانى بمُضْمَرِ السِّرِّ   وذاكَ أَنى أقولُ بالدّهْرِ
وليس بعد المماتِ مُنْقَلَبٌ   وإنّما الموتُ بَيْضَةُ العُقْرْ (١)

وهذه الأقوال لم تتكرر على كل حال من الشاعر ، وإنما تكررت منه أقوال مستهجنة غيرها من الطراز الذى اختص به والذى يتفق مع طبيعة مزاجه ؛ وقد لا يخلو بعضها من التحدى ، ولكنها جميعاً مما ذهب فيه مذاهب الهزل والمجون وإن يكن المقام لا يجيز شيئاً من ذلك :

إن تكُونا تَرَكْتُما لذّةَ العَيْ   شِ حِذارَ العِقابِ يومَ العقابِ
فذرانى وما ألذُّ وأَهْوى   واقْذِفا بى فى بحرِ يَوْمِ الحِساب

مَن أنا فى مَوْقِفِ الحسابِ إذا   نُودِىَ بالأَنْبياء والرُّسُلِ
ذاكَ يومٌ يَجِلُّ عن خَطَرى   فما لِمِثْلى هُناكَ من عَمَل
هُنْتُ على الخالِقِ الجليلِ فما   يَنظُرُ فى قِصّتى ولا عَمَلى

الرّاحُ شىءٌ عجيبٌ أنتَ شارِبُها   فاشرَبْ وإن حَمّلتك الرّاحُ أوْزارا
يا من يَلومُ على حَمْراءَ صافيةٍ   صِرْ فى الجنانِ ،ودعْنى أسكُنِ النّارا

---

(١) بيضة العقر : هى آخر بيضة للدجاج .

فخذها إنْ أردْتَ لذيذَ عيشٍ ولا تَعدِلْ خليلىَ بالمُدامِ
وإن قالوا « حَرامٌ » قُلْ « حَرامٌ ولكنّ اللذاذَة فى الحرام »

على أن أكثر ما يعتمد عليه الشاعر الخليع فى جرأته على استباحة المحارم لا يتصل بدعاوى الملاحدة المنكرين ، بل يقوم على قول المرجئة المجتهدين من أصحاب الكلام إنه « لا تضرّ مع الإيمان معصية » ، وإنه لا خوف على المسلم المقترف للكبيرة من الخلود في النار ، وكل شيء دون الشرك يسعه حلم الله تعالى فى الآخرة ويتغمده بالمغفرة . ومتى علمنا ذلك ، لم نستغرب ذلك الذى كنا نستغربه ، حين نرى الشاعر وهو فى طريقه إلى الخمّار ، يعلن فى قوة وثقة واستبشار :

وَثِقْتُ بعفو الله عن كلّ مُسْلِمٍ فلستُ عن الصَّهباء ماعشْتُ مُقْصِرا

والرجل على الحالين ثائرٌ على التزمت والتشدد لا يطيق حَزّة القيد ولا يصبر على حبسة العنان وإن كان الموجِب الدين . فليست تطاوعه نفسه ، وليس يوافقه عقله ، أن يجد اللذة أمامه حاضرة ، فى فرصة الحياة النادرة ، فلا يرِد شرعتها ولا ينقع من أشواقه غلتها عشقاً وسكرا :

مالى وللنّاس ، كم يَلْحَوْنَنى سفَهاً دِينى لنفسى، ودينُ النّاس للنّاسِ

والمسئول عن نزوع أبى نواس فى عقائده الدينية ناحيةَ التحرر الفلسفىّ حينا ، وناحيةَ المذهب الكلامى فى « الإرجاء » معظمَ الأحيان ، هو رغبته الشديدة الملحّة فى تزكية شربه الخمر . ويخطئُ من يطيل الوقوف والتأمل لهذه الأقوال من أبى نواس على أنها موقف من مواقف الفكر .

ولقد اشتهر أبو نواس بما أحدثه من ثورة فى الشعر العربى . وما من شك فى أن الخمرة كانت روح هذه الثورة . فقد جرت عادة الشعراء أن يستهلوا قصائدهم بالنسيب على حدّ قول القائل « إذا كان شعرٌ فالنَّسيبُ المقدَّمُ » ، وكان يتعين

فى النسيب ذكر الآثار من منازل الحبيب الظاعن ونعتها وتحيتها وما إلى ذلك . ولما كانت الخمر أحبّ شىء إلى شاعرنا فقد أبطل ما جرى عليه الشعراء أجيالاً وجعل مطالع قصائده للخمر . وعلى هذا كانت مدائحه للخلفاء والرؤساء . ولقد وَهِم من يظن أن الشاعر يخص بذلك من ينادمهم على الشراب من هؤلاء أو هؤلاء ، فإنه قد اصطنع ذلك معهم على السواء ، حتى فى مديحه للخليفة هارون الرشيد مع شىء من التصرّف والتخلص الجميل :

لقد طال فى رَسم الدِّيارِ بُكائى ... وقد طال تَرْدادى بها وعَنائى
كأنى مُريغٌ فى الدِّيار طَريدةً ... أراها أمامى مَرّةً وورائى[1]
فلمَّا بدا لِى اليَأسُ عدَّيْتُ ناقتى ... عن الدَّار ، واسْتَوْلى علىَّ عَزائى
إلى بَيْتِ حانٍ لا تَهِرُّ كِلابُه ... علىَّ ولا يُنكِرْنَ طول ثَوائى
فإن تكن الصَّهباء أوْدَتْ بتالِدى ... فلم تُوقِنى أُكْرُومتى وحَيائى[2]
فما رِمْتُه حتى أتى دونَ ما حَوَتْ ... يَمينىَ حتَّى رَيْطَتى وحِذائى
وكأسٍ كمصباح السَّماء شَرِبْتُها ... على قُبْلةٍ أو مَوْعدٍ بلِقاء
أتتْ دونَها الأيّامُ حتَّى كأنّها ... تَساقُطُ نُورٍ من فُتوقِ سَماء
ترى ضَوْءَها من ظاهرِ الكأسِ ساطِعاً ... عليك ولو غَطَّيتَها بغِطاء
تباركَ من ساس الأمورَ بعلمه ... وفضَّل « هاروناً » على الخُلَفاء
نعيشُ بخيرٍ ما انْطَوَيْنا على التقى ... وما ساس دُنيانا أبُو الأُمَناء
إمامٌ يخافُ اللهَ حتَّى كأنّه ... يؤمِّلُ رؤياهُ صَباحَ مَساء
أشمُّ طُوالُ السّاعِدَيْن كأنّما ... يُناطُ نِجادَا سَيْفِه بِلواء[3]

---

(١) أراغه : أراده وطلبه على وجه المكر .
(٢) أوقن : اصطاد اليمام من محاضنها فى رؤوس الجبال . (٣) النجاد : حمائل السيف.

وبما عقّب به المبرّد على هـــذه القصيدة قوله : « ما علمتُ قائلاً مدح خليفةً فنسب بمثل هذا النسيب . على أن الشاعر قد جدّ فى المـدح و بلغ المراد » . ولقد اتفق أصحاب التاريخ ومؤرخو الأدب على أن الرشيد كان ممن يُتحامى بحضرته ـ أو بحيث يبلغه ـ الإقرارُ بذكر قبلةٍ أو شرب كأسٍ وما أشبه ذلك، لجلالته ونبل ملـكه ، وبُعده من احتمال السخف وما دنا منه . وكان لا يسمع من الشعر ما فيه رفث ولا هزل ، وكان لا يُذكر فى تشبيب مدحه قبلة ولا غمزة، إلاّ أن أبا نواس كان ينسب فى المدح الجليل بالخمر التى هى شأنه وفيها تصرّفه وجُلُّ مذهبه . فلما أن أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن واحداً بعد الآخر ، ومَثَل شاعرنا فيمن مثل بين يديه من الشعراء ، فأنشـــده القصيدة التى تقدم بنا ذكرها ، أقبل الخليفة على الشاعر لبلاغة مطلعها فى صـفة الرسوم والبكاء على الديار ، فلما بلغ وصفه للخمر تغير الخليفة ، فلما قال « وكأس كمصباح السماء شربتها » أراد الخليفة أن يأمر به ، حتى إذا أنشد قوله « تبارك من ساس الأمور بعلمه » أخذت الرشيد هزّة ، فأمر له بعشرين ألف درهم .

وعلى هذا المنوال يمـــدح شاعرنا الأمير العبّاس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، فيقول فى مطلع مديحه :

غرّدَ الدِّيكُ الصَّـدوحُ فاسْقِنى ، طاب الصَّبوحُ

واسـقِنى حتى ترانِى حسَناً عنـــدى القبيح

قَهوةً تُذْكِرُ نُوحاً حين شادَ الفُلْكَ نوح

نحنُ نُخفيهـا ويَأْبى طيبُ ريحٍ فتفُوح

أنا فى دُنيا مِن العَـ بّاس أغْـدُو وأروح

هاشِمِىٌّ عَبْـــدَلىٌّ عنده يَغْـلو المديح

ومثله مطلع قصيدته فى مدح الفضل بن الربيع :

مضَى أيلُولُ وارتفعَ الحرورُ … وأخْبَتْ نارَها الشِّعْرى العَبورُ
فقُوما فالْقِحا خَمْراً بماء … فإنَّ نتاجَ بَيْنِهما السُّرور
نتاجٌ لا تَدِرُّ عليه أمٌّ … وحَمْلٌ لا تُعَدُّ له الشُّهور
إذا الطَّاساتُ كرَّتْها علينا … تكوَّن بيننا فَلَكٌ يدور
تسير نجومُه عَجَلاً ورَيْثاً … مُشرِّقةً وتاراتٍ تغور
إذا لم يُجْرِهنَّ القُطبُ مُتْنا … وفى دَوْراتهن لنا نشور
رأيتُ الفضلَ يأتى كلَّ فَضْلٍ … فقَلَّ له المُشاكِلُ والنَّظير
وما استَغْلى أبو العبَّاس مَدْحاً … ولم يَكْثرُ عليه له كثير

وأخيراً مطلع هذه القصيدة يمدح الخصيب بن عبد الحميد أيَّام ولايته الخراج على مصر:

يا مِنَّةً امْتَنَّها السُّكْرُ … ما يَنْقَضى منِّى لك الشُّكْرُ
أعطَتْكَ فوق مُناك من قُبَلٍ … مَن قِيلَ إنَّ مَرامَها وَعْر
يَثْنى إليك بها سَوالفَه … رَشَأٌ صناعةُ عينهِ السِّحر
ظلَّت حُميَّا الكأس تبسُطُنا … حتى تهتَّك بيننا السِّتر
فى مجلسٍ ضحِكَ السُّرورُ به … عن ناجذَيْه وحلَّتِ الخمر
ولقد تجوبُ بنا الفَلاةَ إذا … صامَ النَّهارُ وقالَتِ العُفْرُ (١)
شَدَنيَّةٌ رَعَت الحمى فأتَتْ … مِلءَ الجبالِ كأنَّها قَصْرُ (٢)
يَرْمى إليك بها بَنُو أمَلٍ … عتبوا، فأعتَبَهُم بك الدَّهر
أنتَ الخصيبُ وهذه مِصرُ … فتدَفَّقَا فكلاكما بَحْر

---

(١) صام النهار : أى صار الوقت ظهراً . العفر جمع أعفر نوع من الظباء .
(٢) الشدنية من الإبل : المنسوبة إلى موضع باليمن .

والذى يلاحظ فى هذه المدائح أن مطالعها فى نعت الخمر تذهب بمعظمها ، ثم هى على كل حال صفوة ما فيها ، مما يدل على أن شاعرنا كان لا يواتيه طبعه وتهضب قريحته ويسلس له القريض وترتاض القوافى وتُستفتح أغلاق المعانى فيقول على البديهة ويطول نفسَه فى الشعر ، إلا إذا كانت الخمر مجاله وعليها يدور مقاله . فإذا تعدَّاها إلى سواها فإنه إنما يحمل على نفسه ويقسرها على القول قسراً ، فيظهر ذلك فى شعره إما تكلّفاً للفظ وإحالة فى المعنى ، وإما تكراراً لما لاكته الأفواه وطال عرضه فى الأسواق من العبارات المبتذلة والمعانى المطروقة . ويستثنى من ذلك شعره فى « الأمين » . ولا غرابة ، فكلاهما من أصحاب الغلمان والخمور فبينهما مشاكلة فى المزاج ومساجلة فى الشعور ، يَظهران فى طابع الطلاقة والصدق الذى يطبع قصائده فيه طبعاً كلّيًا وجزئيًّا . فأما الجزئى فمثل قوله فى بعض المدائح الرسمية التى أنشدها فى حضرته .

البَهْوُ مُشْتَمِلٌ ببَدْرِ خلافةٍ ... لبِس الشَّبابَ بنُورِه الإسلامُ
مِلكٌ أغَرُّ إذاشرِبت بوجهه ... لمْ يَعْدُكَ التَّبجيل والإعظام

وأما طابع الطلاقة والصدق الكلى ، فيظهر الظهور كله فى مديحه غير الرسمى:

ونَدْمانٍ يرى غَبْناً عليه ... بأن يُمْسى وليس به انْتِشاء
إذا نَبَّهْتَه من نوم سُكرٍ ... كَفاه مرَّةً منك النِّداء
فليس بقائلٍ لكَ « إيهِ ، دَعْنى » ... ولا مُستخبِرٍ لكَ « ما تَشاء ؟ »
ولكن « يا اسْقنى » ويقول أيضاً ... « عليكَ الصِّرْف إن أعْياكَ ماء »
إذا ما أدركَتْهُ الظهرُ صلّى ... فلا عَصْرٌ عليه ولا عِشاء
يُصلِّى هذه فى وقت هَذِى ... فكلُّ صلاته أبداً قضاء
فذاكَ « مُحمدٌ » تَفديه نفسى ... وحقٌّ له وقَلَّ له الفِداء

وغنيٌّ عن البيان أن هذا الطراز الأخير كان المثل الأعلى في الناس عند أبي نواس. ولو كان لشاعرنا اختيار ممدوحيه من سراة ورؤساء، والاقتصار على التنويه بما يرتضيه فيهم من الخلائق والعادات، لألفيناهم أجمعين على تلك الصفة، سواء أكانوا شباباً كالأمين، أم كانوا شيوخاً كهذا الشيخ اللعين:

شَيْخُ لَذَّاتٍ، نقيٌّ عِرْضُه   تَحسُن الأشعارُ فيه والمِدَحْ
لا تَراهُ الدَّهْرَ إلاَّ ثملاً   بين إبريقٍ وزِقٍّ وقَدَح

ويحسن قبل المضي فيما نحن بسبيله من بيان أثر الخمر في تجديد الشعر أن نشير إلى عاملٍ كان يعتلج معها في نفس أبي نواس.

فقد كان أبو نواس الحكميّ بطبيعة كونه من المولدين أبناء الموالي متشبعاً بالروح الشُّعوبية الثائرة على العصبية العربية. ولما كانت أمه فارسية فقد كان ميله من سائر الشعوب للعجم. وما فتىء شاعرنا يحب أن يظهر للناس أنه من «بني الأحرار» ويعنون بهم الفرس، فيكثر من ذكرهم والتمدح بمناقبهم والإشادة بمفاخرهم. وكان يبلغ الميل به أحياناً إلى التزيي بزيهم والتمثل بأمثالهم في مثل قوله:

أمْشي إلى جَنبها أُزاحِمُها   عَمْداً، وما بالطريق من ضيق
كقول كِسرى فيما تمثله   (من فُرْصَة اللِّصِّ ضَجَّةُ السُّوق)

سألتُها قُبلةً ففزتُ بهـــا   بعد امتناعٍ وشدَّةِ التَّعَبِ
فقلتُ: «بالله يا مُعذِّبتي   جُودي بأُخرى أقضي بها أرَبي»
فابتسمتْ ثمَّ أرسلتْ مَثَلاً   يَعرِفُه العُجْمُ ليس بالكذِبِ
(لا تُعطِيَنَّ الصَّبيَّ واحدةً   يطلُب أُخرى بأعْنَف الطَّلب)

ولم يكن هذا الميل من الشاعر لأن العجم قوم لأمه فحسب، بل لأنه كان بطبعه محباً للترف ورقيق العيش. فهو من أجل ذلك جميعه شديد التعصب

لحضارة الفارسية ، متطرب لتغلغل روحها وتفشيها فى الدولة العباسية الجديدة ، مقبل بكليته على طرائقها وعاداتها فى التأنق فى المعيشة ، متذوق لأفانينها فى نزهة النفس وتنعيم الحس . وفى مقدمة هذه الملذات جميعاً ما تعوّده الفرس من الخروج فى الأعياد للتنزه والشرب فى الرياض لا سيما أيام الربيع وقد لبست الطبيعة فى عيد النيروز أزهى الحلل ، وتبرجت فى أبهى زينة ، حتى لتبدو الخمائل حين تتمايل أغصانها مع أنفاس الربيع كالسكارى تحيّى بالطاقات من زهرها جماعات السكارى الشاربين فى ظلها :

يُباكِرُنا « النيْروزُ » فى غَلَس الدُّجى بنَوْر على الأغصان كالأنجم الزُّهْرِ
يلوحُ كأعلامِ المطارِف وَشْيُهُ من الصُّفْر فوق البيضِ والخضر والحمر
إذا قابلَتْه الرِّيحُ أومَا برأسِه إلى الشَّربِ «أنْ سُرُّوا» ومال من السُّكر

ومثل ذلك قوله فى « يوم رام » وهو الحادى والعشرون من كل شهر من شهور الفرس ، ويعدّ من أيام البطالة والنزهة عندهم يلذون فيه ويفرحون :

إسقنا إنّ يَوْمَنا « يومُ رامِ » ولِرَامٍ فَضْلٌ على الأيّامِ
فى رياضٍ ربْعيَّة بَكَرَ النَّوْ ءُ عليها بمُسْتَهِلّ الغَمام
فتوَشَّتْ بكلِّ نَوْرٍ أنيقٍ من فُرادى نباته وتُؤام
فترى الشَّرْبَ كالأهِلَّة فيها يتحسَّوْنَ خُسْرَوِيَّ المدام

والشاعر ما يزال فى شعره يتحدث عن هذه الحياة المترفة الفارسية ، فلا يذكر الترف فى ملبس إلا ذكر الفرس :

فلوْ رآها أنو شِروانَ صوَّرها فيما يَحوكُ من الدِّيباج والسَّرَقِ[1]

ولا يشتهى الغناء مثل اشتهائه لغناء الفرس :

فاسقنيها وغَنِّ صَوْ تاً — لكَ الخيرُ — أعجما

(١) السرق : جمع سرقة وهى الشقة من الحرير .

ولا يرى شيئاً من طيبات أرض العراق إلا نسبه إلى الفرس ، منكراً على العرب منذ فتوحهم الأولى أن يكون لهم فى عمران العراق أدنى أثر . فليس يكفيه هنا نسبة منابت الكروم المتسعة إلى الفرس حتى يجعل إليهم كذلك مردّ الفضل كله فى سائر ما يرى من منابت النخل .

فمن قوله فى الكرم :

مَسارحها الغَرْبىُّ من نهر صَرْصَرٍ   فقُطْرُبُّلٌ ، فالصَّالحيــة ، فالعقرُ
تُراثُ أنو شِروان كِسرى ، ولم تكُنْ   مواريثَ ما أبقتْ تميمٌ ولا بَكر

ومن قوله فى النخيل :

مسارِحها المَذارُ ، فبطنُ جُوخا   إلى شاطِى الأُبلَّة ، فالفُراتِ
تُراثاً عن أوائلِ أوّلينـــا   « بَنى الأحرارِ » أهلِ المَكرُمات

وشواهد هذه الثورة الشعوبية فى شعر أبى نواس أكثر من أن تتسع لها هذه الصفحات . فثمة عشرات العشرات من مطولاته يزرى فيها على العرب حياتهم فى البادية ، حتى لينعى عليهم ما لا حيلة لهم فيه من طبيعة أرضهم الضنينة ، فيذكر بعض الزروع التافهة هنا ليقرنها بغنى المملكة النباتية وازدهارها فى أرض بابل القديمة بين النهرين ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى المقابلة وإظهار بعد المسافة بين بداوتهم والحضارة الفارسية ، واصفاً خشونة عيشهم فى الخيام ، معرّضاً بأكلهم لليربوع والضب ، ساخراً منهم أنكى السخر لشربهم اللبن الرائب كلما أرادوا النشوة والسكر :

ألم ترَ ما بَنى كِسرى   وسابُورٌ لمن غَبرا
مَنازِهُ بين دِجْلة والـ   ـفرات تفيأتْ شجرا
بأرضٍ باعَدَ الرَّحمـ   ـنُ عنها الطَّلْحَ والعُشَرا

ولم يَجعلْ مَصايدها يَرابيعاً ولا وَحَرا[1]
ولكنْ حُورَ غِزْلانٍ تُراعِى بالمَلَا بَقرا[2]
وإن شئنا حَشَنْنا الطَّيْـــرَ من حافاتها زُمَرا
وإن قُلنا اقتُلوا عَنْكم يبا كِرْ شَرْبُهـا الخمرا
فذاك العَيشُ لا سِيداً بقَفْرَتِها ولا وَبَرا[3]

غادِ المُدامَ وإنْ كانت مُحَرَّمةً فلِلكَبائرِ عنـد الله غُفران
صَهباءَ تبنى حَباباً كلما مُزِجَت كأنّه لؤلؤٌ يتلوه عِقيـــان
ببَلْدَةٍ لم تَصِلْ كَلْبٌ بها طُنُباً إلى خِبـاء ولا عَبْسٌ وذُبْيان
ليست لذُهلٍ ولا شِيبانِها وَطَناً لـكنّها لبنى الأحرار أوْطان
أرضٌ تَبَنَّى بها كسرى دَساكِرَه فما بها من بَنى الرَّعْناء إنسان
وما بها من هَشيم العُربِ عَرْفَجَةٌ ولا بها من غِذاء العُرب خُطْبان
لـكن بها جُلَّنـارٌ قد تفرَّعَه آسٌ وكلّه وَرْدٌ وَسَوْسان
فإن تَنَسَّمْتَ من أَرْواحِها نَسَماً ـ يوماً ـ تنسَّمَ فى الخَيشوم رَيْحان
يا ليلةً طلعتْ بالسَّعْدِ أنجُمُها فبات يَفْتك بالسَّكرانِ سَكران
بِتْنـا نَدينُ لإبليسٍ بطاعَتِه حتى نَعَى الليلَ بالنّاقوسِ رُهْبان

دعِ الأطلالَ تَسفيها الجَنوبُ وتبْكى عَهْدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وخَلِّ لراكِبِ الوجْنـاء أرْضاً تَخُبُّ بهـا النَّجيبَةُ والنَّجيب

---

(١) اليربوع : حيوان قارض كالفأر . الوحر : دويبة سامة .
(٢) الملا : الصحراء ، والمتسع من الأرض .
(٣) السيد : الذئب . الوبر : دويبة كالسنور .

ولا تأخُذْ عن الأعْراب لَهْوًا ولا عَيْشًا ، فعيشُهمُ جَديب
ذَرِ الألبانَ يشربُها أناسٌ رقيقُ العَيْش عندهُم غَريب
بأرضٍ نَبْتُهـا عُشَرٌ وطَلْحٌ وأكثرُ صَيْدِها ضَبُعٌ وذِيب
إذا رابَ الحَليبُ فبُلْ عليه ولا تَحْرَجْ ، فما فى ذاك حوب
فأطيَبُ منه صافيةٌ شَمولٌ يطوفُ بكأسِها ساقٍ أريب
فأين البَدْوُ من إيوانِ كِسرى وأين من الميادين الدُّروب

والقارئ يرى فيما استشهدنا به على شعوبية أبى نواس من شعر فى أثر شعر ، أن هذه الشعوبية النواسية تستمد روحها من الخمر ، فهو لا يُدل على العرب بشىء كإدلاله بها . فهؤلاء أهل الوبر من العرب شرابهم اللبن الرائب كلما أرادوا السكر، وهؤلاء أهل الحضر من العرب يشربون الفضيخ من الرطب والبسر . وأما الخمر التى لا يطلق على غيرها اسم الخمر إلا مجازاً وهى خمر العنب ، فهى شراب الفرس أتباع زرادشت من قديم . من أجل ذلك نرى شاعرنا حين يقصد فى خمرياته إلى مدحها من غير إطالة ، يعمد إلى هذه الصفة الواحدة الدالة ، فيكنى عنها بالشراب الخسروى ، نسبة إلى الأكاسرة ملوك الفرس الساسانيين قارناً ذكرها بذكر كسرى و بنى الأحرار من أبناء كسرى :

يا أيها العاذلُ ! دَعْ مَلْحاتى والوصْفَ للموماة والفَـلاة
دارِسَةً وغـيرَ دارسات وانفِ هُمومَ النَّفسِ باللّذات
ولاقِها بأصـدَقِ النِّيات حتى تُلاقى رَبَّ شاصيات
جُلِبْنَ من هِيتٍ ومن عانات بنات كِسْرى خير ما بنـات

لئن هجرَتْكَ بعدالوَصْل «أرْوَى» فلم تهجُرْكَ صافيةٌ عُقـارُ

على أمثالِها كانت — لكِسرى　　أنو شِرْوانَ — تَتَّجِرُ التِّجار

صَفراء مَجَّـدها مرازِبُهـا　　جَلَّتْ عن النظراء والمِثْلِ (١)

فَتَّـكَتْنى طيزَنا با　　ذُ ، وقد كُنتُ تقيًا

إذ تركتُ المـاءَ فيهـا　　وشربتُ الخُسْرَوِيّا

وخَمَّارٍ طرَقتُ بلا دَليـلٍ　　سوى ريح العَتيقِ الخُسْرَوانى

ولكيلا يبقى عند القارئ ظل للشك فيما مهدنا له ودللنا عليه من أن الخمر كانت عند شاعرنا المجدد روح هـذه الثورة العارمة على التقاليد العربية فى الحياة وفى الشعر ، نورد — فوق الذى قدمناه — هـذه المقطوعة ، وأكبر اليقين عندنا أنها — لاندماج أجزائها ووحدة المقصد ووضوح الغرض فيها — قاطعة باليقين كل شك :

عاجَ الشَّقِىُّ على رَسْمٍ يُسائِلُه　　وعُجتُ أسألُ عن خَمَّارة البَـلَدِ

يَبكى على طَلَل الماضين من أَسَدٍ　　لا دَرَّ دَرُّكَ ، قل لى : مَن بَنُو أَسَد ؟

ومَن تميمٌ ، ومن قَيسٌ ، ولَفُّهُما ؟　　ليس الأعاريبُ عند الله من أحَد

لا جَفَّ دمعُ الذى يبكى على حَجَرٍ　　ولا صفا قلبُ من يَصْفُو إلى وَتِد

كم بين ناعِتِ خمرٍ فى دَساكِرِها　　و بين باكٍ على نُؤْيٍ ومُنتَضَد ! (٢)

وليس خطر هذه الثورة فى أنها استبدلت موضوعاً بموضوع ، فإن الموضوعات كلها سواء فى صلاحها للشعر ، سواء أكانت فى صفة الأطلال أم كانت فى نعت الخمر . و إنما يكون الفضل لشعر على شعر بالصدق . وأى موضع للصدق عند شاعر

---

(١) المرازب : جمع مرزبان ، وهو الرئيس عند الفرس .　(٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل . والمنتضد المخيم من انتضد بالمكان أى أقام .

نتمثله من شعره فى هذه الناحية أو تلك من البادية ، واقفاً عند رسم من الأطلال العافية ، يسائله عن الحبيبة الظاعنة ، باكياً أحر البكاء عهود غرامه الخالية . وهذا الشاعر الواقف المُسائل الباكى ، لا حبيبة له فى البادية ، وليس هو بدوياً من أهل الوبر ، ولكنه حضرىٌ لم يبرح الحضر ، ولا يعرف عن البادية شيئاً إلا ما قرأه للشعراء الجاهليين ، وبينه وبينهم مئات السنين .

فالمسألة هنا لا تقف عند إيثار شاعرنا لمدح الخمر ، وإنما هى تتناول غرضاً من أهم الأغراض فى مباحث النقد ، ونعنى به مطلب الصدق فى الشعر . ولقد أعرب أبو نواس عن هذا المطلب صراحة فى قوله :

فعَلامَ تَذْهَلُ عن مُشَعْشعةٍ وتَهِيمُ فى طَلَلٍ وفى رَسْمِ
تَصِفُ الطلولَ على السَّماعِ بها أَفَذُو العِيان كأَنْتَ فى العِـلم ؟ !
وإذا نعتَّ الشَّئَ مُتَّبِعاً لم تَخْلُ عن غَلَطٍ وعن وَهْم

وهذه الثورة قد أجدت — ولا ريب — أعظم الجدوى على الشعر ، بأن جعلته أقرب إلى تحقيق غايته من التعريف بالنفس وتمثيل العصر .

الحياة الخمر والخمر الحياة

ولقد كان الشعراء فى الجاهلية يتغنون بالخمر ، ولكنهم كانوا يتغنون بروح أهل الفروسية المولعين على السواء بالحرب والخمر والنساء ، وقد يدخل مع الخمر الميسر فى بعض الأحوال . والأصح من أجل ذلك فى نسبة الجاهلية إلى ذلك العصر ألّا تكون الجاهلية من الجهل بمعناه المتداول أى ضد العلم ، بل من الجهل بمعنى السفه والاندفاع والسرف . وما برح مساعير الحرب المغاوير وأهل المغامرات على

الإجمال فيما نشهد منهم ونقرأ عنهم فى مختلف الأمم وفى سائر الأزمان يحيون حياة لا تكاد تختلف عن هـذا المثال . والشعر الجاهلى حافل بهذه الصورة من حياة الفروسية . وحسبنا منها قول امرئ القيس :

كأنِّىَ لم أركبْ جَواداً لِلذَّة   ولم أَتبطَّنْ كاعباً ذات خَلْخالِ
ولم أسْبأِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ   لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجْفال

وقول طرفة بن العبد فى معلقته :

ولولا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الفتَى   — وجَدِّكَ — لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدى
فمنهنَّ سَبْقى العاذلاتِ بشَرْبَةٍ   كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكَرِّى إذا نادى المُضافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا ذى السَّورَةِ المُتَوَرِّد
وتَقْصِير يَوْمِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنَةٍ تحت الخِبَاء المُعَمَّد

وأما شاعرنا ومن على شاكلته من الشعراء المحدثين من أصحاب الخمر واللهو ، فقد عاشوا فى عصر ماتت فيه الفروسية أو أوشكت أن تموت ؛ فهم لا يعرفون المغامرة فى حرب ، كما أعفاهم ما كان من كثرة الجوارى وتفشى الإباحية الخلقية أن يعرفوا المغامرة فى الحب . ولقد رأينا شاعرنا أيام لقحت الحرب بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون كيف زوى وجهه عنها وتجاهل أمرها . وما كان ذلك عن قلة وفاء للأمين وهو نديمه ، ولا عن حزازة لما لقيه منه أثناء المحنة ، بل كراهة من شاعرنا الخليع للحروب وانقباضاً عنها واستبشاعاً لها ، فهو لا يحس من ناحيتها مايحسه أهل الفروسية من جيشان صدورهم وتفزز أعصابهم واهتزاز كل نسيج من كيانهم حين تُقرع طبول الجهاد وينفخ فى نفيره ، وهو لا يجد ما يجدونه فى المغامرة ومواجهة المخاوف والتعرض للمتالف وتجشم الأخطار وركوب الأهوال من لذة مفاجئة متجددة . . . وهذه — فى واقع الأمر — لذة لا يعرفها كل الناس . وإنما يعرفها

الذين جُبلت طباعهم على المناخة والمكافحة ، وأُشربوا حب الصراع والتناحر ، ولا سبيل إليها ولا محل لطلبها فيمن جُبل من طينة غير طينتهم ، وطبع على قالب غير قالبهم :

يا «بِشْرُ» مالى والسّيفِ والحرْبِ — وإنَّ نجمى لِلَّهـو والطّرب
فلا تَثِقْ بى فإنّنى رَجُـلٌ — أَكُعُّ عند اللِّقاء والطَّلبِ (١)
وإن رأيتُ الشُّراةَ قد طلَعوا — ألجمْتُ مُهْرى من جانب الذّنَب (٢)
ولستُ أدرى ما السَّاعدانِ ، ولا التّر — سُ ، وما بَيْضَـةٌ من الّلبَب
همِّى إذا ما حُرُوبُهم غَلبَتْ — أىُّ الطَّريقَيْن لى إلى الهرَب
لو كان قَصْفٌ وشربُ صافيةٍ — وجدتَنى ثَمَّ فارِسَ العَرَب

فصاحبنا إذا ما نودى البدار البدار ، كانت مبادرته فى ناحية أخرى ، إلى ما خور لهوٍ أو حانة خمار . وقد تشتد حوله رحى القتال ، وتكاد تتزلزل من هول الصدام رواسى الجبال ، فلا تزال الدنيا عنده بخير ، ما دام لا يعدم فى ناحية من خرائبها حانوت خمر :

ما فى قُعودِكِ عُذرٌ عن مُعتَّقةٍ — كالليلِ والدُّها ، والأُمُّ خضْراه
بادِرْ ، فإنّ جِنانَ الكَرْخ مونِقَةٌ — لم تَلْتَقِفْها يدٌ للحرب عَسْراه

وهو لا يجد أبلغ فى الرد على من يعيبون موقفه ، من أن ينصب لهم هاتين الصورتين ، ليقابل بينهما كل ذى عينين : صورة حياته الرغدة فى أحضان اللذة ، وصورة حياة أهل الحرب بين براثن الموت :

---

(١) كع : ضعف وجبن .
(٢) الشراة : الخوارج .

غُدُوّى إلى اللّذاتِ مُنهتِكَ السّترِ   لِتُقضى بناتُ السِّرِّ منّى إلى الجهرِ
لَأَحسنُ من رَكضٍ إلى حَومةِ الوغى   وأحزمُ عُقبىَ من بُروزٍ إلى الشَّجْرِ (١)
فلا خَيرَ فى قومٍ تدورُ عليهمُ   كئوسُ المنايا بالمُثقَّفةِ السُّمرِ
تحيّاتُهم فى كلِّ يومٍ وليلةٍ   ظُبَا للمَشرَفيّاتِ المُزيرَةِ لِلقبرِ

وأيسرُ من مُباكَرةِ الأعادى   مباكَرةُ الحبيبِ لَدى الشروقِ
وأشهَى من مُعانقةٍ لقِرنٍ   معانقةُ الصَّديقةِ للصَّديقِ
وَأَروَحُ من طِرادِ الخيلِ رَكضاً   طِرادُكَ كلَّ ميّاسٍ لَبيقِ
وأشجى نَغمةً من صوتِ طَبلٍ   حَنينُ الزِّيرِ مَعْ وَتَرٍ نَطوقِ
وأهونُ خُطَّةً من رَتقِ فتقٍ   صَبوحُ الكأسِ من بَعدِ الغَبوقِ
وأطيبُ من مُنازلةٍ لحَربٍ   منازلةُ الدِّنانِ من الرَّحيقِ
ومَشْىُ وَصيفةٍ تسعَى بكأسٍ   مُضَمَّخةِ السَّوالفِ بالخَلوقِ
ألذُّ من التَّجالدِ بالعَوالى   ومن مَشىِ الفريقِ إلى الفريقِ
ورَمْىُ الحُورِ بالتُّفّاحِ نَحوى   سِوى رَمْىِ العِدا بالمَنْجَنيقِ
فهذا الرَّأىُ لا رَأىٌ سِواه   فَشُدَّ يَدَيكَ بالرَّأىِ الوَثيقِ

ولعل القارئ يذكر هنا، لا على سبيل المشابهة، بل من جهة التضاد والمناقضة، موقف المتنبي — وهو من عرفنا نخولةً وكمال رجولة — فى قوله :

ألذُّ من المدامِ الخندريسِ   وأحلى من معاطاةِ الكئوسِ
معاطاةُ الصفائحِ والعوالى   وإقحامى خميساً فى خميسِ (٢)

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى شاعرنا وهو لا يزال فى مجلس لهوه هائماً بالبطالة

---

(١) الشجر : الأمر المختلف فيه .

(٢) الخميس : الجيش

ناعم البال، لا يعييه خيال يزيفه ومثال يزخرفه . وإنه ليوغل فى خلط الجد بالمزاح، فيذهب فى مجونه إلى تقريب المسافة بين هاتين الصورتين، وينتهى إلى عقد المشابهة وتقرير المطابقة بين الحالين. فهناك قتال وهنا قتال، ولا خلاف بينهما إلا فى صفة العدة والمجال:

سَقْياً لحربٍ يَسُرُّ جانيها ... فى جَنَّةٍ قد جرَتْ سَواقيها
سهامُنا وردُها، ونَرجِسها ... سيوفنا، والقَنا قَنانيها
أحجارُنا نُخْبَةٌ بباطيةٍ ... يُديرُها – مايُخلُّ – ساقيها
ومَنْجَنيقاتُنا المعازِفُ والـ ... ـعِيدانُ إذْ سُوِّيَتْ مَلاوِيها
قائدُنا قَيْنَةٌ مُخنَّثَة ... بياسمينٍ غَضٍّ نُحَيِّيها
والطَّعنُ والضَّربُ عندنا قُبَلٌ ... ثُم خِصالٌ هناك نُخفيها
فهذه حربُنا ووَقْعَتُنا ... بُورِكَ فى حَرْبنا ومُنْشِيها

وهذا النفور من الحروب ليس كله إشفاقاً مما يراق فى طريقها من الدماء الزكية، وماينتثر من الأشلاء الفتية، وما يكون فى ركابها من الضوائق والكروب وما تخلفه وراءها من اليتم والثكل والخراب. وإنما نفوره أشمل من ذلك وأعم؛ فإنه النفور من العنف، والإشفاق من فكرة الألم، والمجانبة لكل ما فيه مشقة ولو كانت أيسر المشقة. وقد بلغ من ذلك أنك تراه وهو صاحب اللهو، لا يستحب كل لهو. فتراه على الرغم من طردياته كارهاً للطرد والصيد، يستوى فى ذلك عنده طرد الوحش والظباء وصيد البط والدرّاج، لا يُظهر احتفالاً بما يتخذ الهواة من الكلاب المضرّاة وجوارح البزاة للملاحقة والاقتناص، كما تراه فاتر الهمة متثاقلاً عن ركوب الخيل، متعجباً لمن يجد إيناساً وإمتاعاً فى الركض وحلبة السبق ولعب الصوالجة والبرجاس وجميع ما يجرى هذا المجرى ويلحق به:

أَشهى من الحَلْبة والرَّكْضِ إلىَّ شمُّ النَّرجسِ الغَضّ
ومَدُّ كفيَّ نحو تُفَّاحةٍ مجروحةِ الخدَّين بالعَضّ

إذا أَجْرَى أمينُ اللَّـ ـه فى الحَلْبة أفْراسا
أَقَمنا حَلْبـةَ اللهوِ فأَجْرَيْنا بها الكاسا
وأنشأْنا بها من طُـ ـرَفِ الرَّيْحانِ أجناسا
بَميدانٍ جَعَلْنـا خَيْـ ـلَه طاساً وأكواسا
وصَيَّرْنا على السَّبْق مكانَ القَصَبِ الآسا
ومُجْريهِنَّ ساقٍ يَبْـ ـعَثُ الإبريقَ والكاسا
فقُلْ لى يا أبا عِيسى بحقٍّ هل ترى باسا ؟
شبابٌ خَلَعُوا عن فَتْـ ـكِهم عُذْراً وأَمْراسا(١)
جَرَوْا فى اللَّهو واللَّذا تِ حتّى سَبَقوا النَّاسا

إعزِمْ على سَلْوَةٍ إلَّا عن الكاسِ ودَعْ سواها من اللَّذات للنّاسِ
فالعيشُ فى مجلسٍ حُفَّتْ جَوانبُه بالنّرجسِ الغَضِّ والنّسرينِ والآس
أشهى إلى النَّفس من عَدْوِ الكلابِ على أرانبِ الصَّيدِ أو من رَمْى بِرْجاس
لا سِيَّما إن أدارتْهُ مُقرْطقةٌ أو مُرْهَفٌ كقَضيبِ البانِ ميّاس
إطراقُهُ مُطمِعٌ ، والوصلُ ممتَنِع فأنتَ منه على الإطماعِ والياس

وليس يخرج عن هذا النمط مسلك أبى نواس فى أمور معاشه . فهو زاهد فى السعى والطلب ، مع تجدد حاجته للمال ينفقه على القصف والطرب . وإذا هو اشتد عليه الإغراء بالعطاء فارتحل ، فذلك فعل المضطر المغلوب على أمره ،

(١) العذر : جمع عذار : وهو اللجام . الأمراس : جمع مرسة وهى الحبل .

فلا يلبث أن يعود متبرماً متسخطاً يذمّ السعى والضرب فى مناكب الأرض بَرًّا كان ذلك أو بحراً . وعلى هذه الصفة أيضاً نرى أبا نواس فى مجالات لهوه مترفاً مستضعف البأس ، رقيق الحس ، لا يقوى على الجهد والعنف وشق النفس . وجملة القول فى صاحبنا أنه كان فى حياة العمل مؤثراً للبطالة والكسل ، كما كان فى حياة اللهو مؤثراً للراحة والدعة :

فيارُبّ خمّارٍ طَرَقتُ بسُحْرةٍ فنبّهتُه والطيرُ فى كَنَفِ الوَكْرِ
أقمنا به نُعطِى البطالَةَ حقّها إذا لم يَنَلْ آمالها الرّجلُ المثرى

فاشرَبِ الخمرَ إذا باكرتَها معْ نداماكَ بلهوٍ بغلَسْ
واترُكِ البَحْرَ لمن يرْكبُه قُبِّح السّابحُ فيه وتَعِس

وعِشْرةٌ للقِيانِ فى دَعَةٍ معْ رشأٍ عاقدٍ لزُنّارِ
ألذُّ من مَهْمَهٍ أكُدُّ به ومن سرابٍ أجُوبُ غرّار

فسَلِّ هَمّكَ بالنَّدْمان فى دَعَةٍ وبالعُقار ، فهذا أهْنَأُ الأدبِ

ويصور لنا أبو نواس هذه الدة التى أكثر من ذكرها واللهج بها فى صورة مصغرة سريعة لأسلوب لهوه أتى فيها على تفصيل ما يحب وما يكره جميعاً :

لا الصَّوْلجانُ ولا المَيْدانُ يُعجِبُنى ولا أحِنّ إلى صَوْتِ البَوَاشِيقِ (١)
لكنّما العَيْشُ فى اللذّاتِ مُتّكِئاً وفى السّماعِ وفى مَجِّ الأباريقِ

ولقد أتى الشاعر فى هذا البيت الأخيرة على صورةٍ للهو الذى يرتضيه ، تذكرنا بصورة مجالس اللهو عند الرومان فى أواخر أيامهم وعصور انحطاطهم ، متكئين على الأرائك بين القيان والجوارى الحسان ، وأكاليل الزهر على هامهم أجمعين ، والبهو غائم بالبخور مغمور بأنواع الرياحين ، والجدران متجاوبة بنغم الملاهى وضحك المتنادمين ، وأمامهم على الخوان صنوف وألوان من كل مالذّ وطاب ،

---

(١) الباشق : من أصغر الطيور الجوارح .

من الطعام والشراب ، وهم يأكلون ويشربون إلى حد التضلع والكظة ، ثم لا يلبثون أن يعربدوا وقد أخذ منهم السكر . ونمسك القلم عما كان يجرى عندها من أفانين الدعارة والنكر .

ولا نشك فى أن الشاعر كان ذاكراً لهذه المجالس حين قال :

ولو أنَّ مالى يَسْتَقِلُّ بلذَّتى لأنْسَيْتُ أهل اللَّهْو كِسرَى وقَيْصرا

وأبو نواس لا يفكر من أمور الحياة فى غير اللذة ، فهى كل ما يعلم من خير ، وكل ما يتيقن من حقيقة . واللذة التى يتغنى بها هى — كما رأينا — لذة الحس ، وهى أكثر ما تكون غليظة فى ذاتها غير مهذبة ، إلا أن استحضاره لها بعد ذلك وتفننه فى إبرازها وعرضها فى الشعر يُدخلان عليها مسحة من لطافة النفس . وأبو نواس لا يتوسع فى حاجاته من اللذات ولا يعددها، بل يقتصد غاية الاقتصاد فيها حتى ليردَّها إلى الواحد . وهذا الواحد هو الخمر ، الخمر وحدها . ولقد يذكر إلى جانبها غزلا بالجارية أو الغلام ، ولكن الخمر هى دائماً الأصل والجوهر ، وأما هذه الشهوة الأخرى فعرض من أعراضها التابعة لها اللاحقة بها .

رَضِيتُ من الدُّنيا بكأسٍ وشادِنٍ تَحَيَّرَ فى تَفْصِيلِهِ فَطِنُ الفِكْرِ

فاسقِنيها مُدامةً فَلَعمْرِى ما حياتى إلَّا بشُرْبِ المُدامِ

نزِّه صَبُوحَكَ عن مقالِ العُذلِ ما العيشُ إلا فى الرَّحيقِ السَّلسَلِ

لا عَيشَ إلا المُدام أشربُها مُغتبِقاً تارةً ومُصطَبِحا

ما لذَّةُ العيش إلا شُرب صافيةٍ فى بيت خَمَّارةٍ أو ظِلِّ بُستانِ

وما الطَّيشُ إلا أن تَرانِىَ صاحِياً وما العيشُ إلا أن أَلَذَّ فأَسكَرا

ولا بأس أن نذكر فى معرض تصوير الشاعر مبلغ تعلقه بالخمر ومنزلتها عنده أبياتاً له فى المجون مع بعض الجوارى الماجنات واسمها مكنون. وكانت مكنون تطمعه فى وصالها وتطيل عليه من غيبتها ودلالها. فزعم لها ذات يوم أنها إن تكن لم تصله فقد جاد طيفها بالمزار، وأنه قضى منه ما بنفسه من لبانات وأوطار. فلما أن سخرت الجارية منه وكذّبته، لم تخطر لهذا السكير يمينٌ على صدقه أغلظ وأشد هولا مما أورده هنا فى قوله:

ألاَ تزُورى فإنَّ الطَّيفَ قد زارا وقد قَضَيْتُ لُبانات ٍ وأوْطارا
قالتْ: «لقدبَعُدَالمَسْرَى» فقلتُ لها «من عالَجَ الشَّوْقَ لا يَسْتَبعِد الدَّارا»
قالتْ: «كَذَبْتَعلى طَيْفِى» فقلتُلها: «إذًا، فعاديتُ يا «مَكنونُ» خَمّارا
ولا نَقلتُ إلى حانُوتِهِ قدَماً ولا نَبَذتُ إليه النّقدَ فاختارا»

وقد يكون شاعرنا متزيداً يمجن فى قصته مع الجارية على جارى عادته، غير أن اختراعه لهذه القصة بعينها لا يقدح فى صحة الاستدلال بها على ما كان للخمر عنده من منزلة ليس فوقها منزلة. ومهما يكن من الأمر، فإن شاعرنا الخميّر قد تكرر منه القسم بالخمر. وهذه أبيات له غير السابقة آلى فيها باليمين نفسها أن يبقى حليفاً لكأسه حتى يوارى فى رمسه. ولا نحسب أحداً يمارى فى أن صاحبنا قد عرف ليمينه قدرها، وأنه برّ بها وأوفاها حقها:

وحُرْمَةِ الخمر، والخُمارِ من الخَمْـ ـرِ إذا ما تبَلَّجَ الفَلَقُ
لأَشرَبَنَّ المُدامَ ما حَمَلتْ كَفَّاىَ كأساً وكان بِى رَمَق

وصايا السكارى

كذلك كان شأن أبى نواس وشأن كل صاحب شراب فى الجاهلية والإسلام لا تكاد تتصور أوهامُهم ويقوم فى أذهانهم أن تكون حياة بغير خمر.

ونحن نعلم من المأثور عن جاهلية العرب أن الموتور كان يحلف لا يشرب الخمر حتى يدرك ثأره ، وكانت هذه اليمين أبلغ شاهد على تصميمه وأفعل حافزٍ له على شدة الكَلَب وتعجيل الطلب .

ومما يدلنا كذلك على مبلغ إيثارهم الشراب على سائر اللذات و إصرارهم على أن يطووا فى معاقرتها مراحل العمر حتى يتردَّوا فى هوة القبر ، قصةُ الأعشى حين رغب فى الإسلام . فإن صنّاجة العرب الشيخ قصد إلى النبيّ ، فبلغ خبره قريشاً فرصده المشركون على طريقه ، فلما ورد عليهم قالوا : « أين أردت يا أبا بصير ؟ » . قال: « أردت صاحبكم هذا لأسلم » . قالوا : « إنه ينهاك عن خلالٍ ويحرّمها عليك ، وكلها بك رفيقٌ ولك موافق » . قال : « وما هن؟ » . فقال أبو سفيان بن حرب : « الزنا » . فقال الشاعر الشيخ : « لقد تركنى الزنا وما تركته . ثم ماذا ؟ » قال : « القمار » . فقال : « لعلى إن لقيت صاحبكم أن أصيب منه عوضاً من القمار. ثم ماذا ؟ » . فقالوا : « الخمر » . قال : « أوه ! أرجع إلى صُبابة قد بقيت لى فى المِهْراس فأشربها » . وقفل راجعاً وكان هلاكه فى رجعته .

وتظهر لنا أخيراً قوة هذه الغلبة فى أصحاب الشراب من المسلمين ، فهم مع مخافتهم هول العذاب فى الجحيم وطمعهم فيما وعد الله به المتقين ، قد طغى على نفوسهم الهيام بخمر العاجلة حتى أذهلوا عن رحيق الآجلة .

فهؤلاء أجمعون لا يعرفون الحياة بغير خمر ؛ فالحياة عندهم الخمر والخمر الحياة كما رأينا . وهم — كما رأينا — يتلفون فى استبائها المال بغير حساب ، ويُبلون فى معاقرتها جِدّة الشباب ، ويبتذلون فيها وقار المشيب ، ولا يزالون عاكفين عليها ينتهبون الفرص إليها . و إن الناظر فى حالهم منها ليتبين قصدهم إلى الحرص على مبادرتها مبادرة الدهر ، قبل أن تبدر منه بادرة الغدر ، وأنهم لا يشفقون من

شىء إشفاقهم من انقضاء العمر ولم يأخذوا بعد بالنصيب الأوفى من الخمر . وهذا الشعور بإعجال الموت للحىّ وتصريده دون الرىّ هو علة ما كان يجرى عليه الخلصاء من الندمان فى كثير من الأحيان إذا مات بعضهم ، فقد كانوا يجتمعون عند قبره يشربون كعادتهم ، فإذا جاءت نوبته هراقوا الكأس على تربته ، وكأنهم حين ينضحون بالخمر ثراه ، يبلّون بذلك غُلّته ويشفون صداه .

وقد روى عن سليمان النوفلى فى حديث له عن الأعشى أنه قال : [أتيت اليمامة والياً عليها ، فمررت بمنفوحة وهى منزل الأعشى ، فقلت : « أهذه قرية الأعشى ؟ » . قالوا : « نعم » . فقلت : « أين منزله ؟ » قالوا : « ذاك» وأشاروا إليه . قلت : « فأين قبره ؟ » قالوا : « بفناء بيته » . فعدلت إليه ، فانتهيت إلى قبره ، فإذا هو رَطْب . فقلت : « مالى أراه رطباً ؟ » فقالوا : « إن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح ، صبوه عليه ، لقوله : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الخمر] .

ومثل ذلك ما أورده البلاذرى فى فتوح البلدان عن ثلاثة نفرٍ من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجّهه إلى الدَّيْلم ، فكانوا يتنادمون ثلاثتهم ولا يخالطون غيرهم . فإنهم على ذلك إذ مات أحدهم ، فدفنه صاحباه ، وكانا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس هرقاها على قبره ، وبكيا . ثم إن الثانى مات فدفنه الباقى إلى جانب صاحبه ، وكان يجلس عند قبريهما فيشرب ثم يصب على القبر الذى يليه ثم على القبر الآخر ، ويبكى . فأنشأ ذات يوم يقول :

خليلىَّ هُبّا طالَ ما قدْ رَقَدْتما   أجِدَّكُما ما تقضِيانِ كَراكا
ألم تَعلَما أنِّى بقزْوِينَ مُفرَدٌ   وما لىَ فيها من خَليلٍ سِواكا
مُقيماً على قَبرَيكما لستُ بارِحاً   طَوالَ اللّيالى أو يُجيبَ صَداكا

أصُبُّ على قَبْرَيكما مِنْ مُدامةٍ فإلَّا تَذُوقا أرْوِ منها ثَراكما
أُنادِيكما كَيْما تجيبا وتَنْطِقا وليس مُجاباً صَوْتُه مَن دعاكما
أمِنْ طولِ نومٍ لا تُجيبانِ داعياً خليلَيَّ ما هذا الذى قد دهاكما
قضيتُ بأنِّى لا محالةَ هالكٌ وأنِّى سَيَعْرُونى الذى قد عَراكما

و إننا لنجد لبعض السكارى من الشعراء الجاهليين والإسلاميين وصايا فى هذا المعنى العجيب ، نورد منها على سبيل المثال هذه الوصية الجاهلية لحاتم الطائى يوصى امرأته :

أماوِيَّ ، إمَّا مِتُّ فاسْعَىْ بنُطفةٍ من الخمر رَيًّا فانضَحِنَّ بها قبرى

ثم وصية أبى محجن عمرو بن حبيب الثقفى — وقد تقدَّم تضمين أبى نواس للبيت الأول منها – وتختلف وصية الشاعر المخضرم عن سابقتها فى أنه لا يكتفى بنضح ثراه بالخمر ، كما أنه لا ينتظر الوفاء بذلك والمثابرة عليه من صاحب أو صاحبة ، فنراه لفرط حيطته وشدة غُلّته يعلن الرغبة فى أن يكون دفنه إلى جنب كرمة ، فما يستديم مذاقه لها ، مثلُ مجاورة عظامه لعروقها :

إذامتُّ فادفنِّى إلى جَنْب كَرْمةٍ تُروِّى عِظامى بعد مَوْتى عُرُوقُها
ولا تَدْفِننِّى بالفَلاةِ ، فإننى أخافُ ـ إذامامِتُّ ـ أن لا أذوقها

ثم قول الشاعر الإسلامى أبى الهندى غالب بن عبد القدوس ، وقد أدرك العصرين الأموى والعباسى ، وفى وصيته زيادة ظاهرة على زميليه السابقين :

يا خليلَيَّ اجْعَلا لى كَفناً وَرَقَ الكَرْم ، وقبرى المَعْصره

وأخيراً وصية أبى نواس . ولقد ذهب شاعرنا فى ذلك مذهب زملائه من

أصحاب الخمر ، المصرّين عليها الحالمين بها حتى فيما وراء القبر . ولا تخلو وصية شاعرنا كذلك من تجديد . وليس التجديد فيها إضافةً نسبية ، بل هو نقلة كلية تتعدى المذاق إلى السماع، ومن ثمة جاءت على خلاف ما سبقها من وصايا شعرية ، متميزةً بما لوزنها المتقارب من تلك النبرة الموسيقية ، التى تجعل من حركة العاصرين وضجة أرجلهم ما يشبه حركات الرقص الإيقاعية :

خليــلىَّ باللهِ لا تَحْفِرا لِىَ القبرَ إلّا بقُطرَبُّـلِ
خِلالَ المعاصِرِ بينَ الكُروم ولا تُدنِيانى من السُّنْبُل
لعــلىَ أسمعُ فى حُفْرَتى إذا عُصِرتْ ضَجَّةَ الأرْجُل

الخاتمـــة

والآن وقد بلغنا آخر الشوط نقف لنقول كلمة الختام ، وهى فى عظامة موقف الإسلام حيال موضوع الخمر الذى نحن بسبيله . والأمر لا يقتضينا تكلف التخريج والاستدلال ، فليس هو مما يحتاج إلى ذلك . بل يكفى فيه التذكير ببعض الحقائق التاريخية المشهورة من غير إطالة ومن غير تعقيب ، والحق مبين عن نفسه ، مستغنٍ عن أن يُستدل عليه بغيره .

فلنذكر بادئ بدء ما كانت عليه جاهلية العرب — كما يصورها الشعر الجاهلى — من الفتنة بالخمر إلى حد المفاخرة بإدمانها واستهلاك التالد والطريف فى معاقرتها والمنادمة عليها .

ولنذكر بعدها حال الإسلام ، حين ظهرت بين العرب المشركين دعوته بالتوحيد ، فلم تلق عندهم قبولا ، وناهضها سادتهم ، وعملوا على إبطالها جهدهم خشية انفضاض الناس من حولهم .

ثم لنجمع بين هاتين الحقيقتين لنقول إن فى تحريم الخمر التى ألفها القوم هذه الألفة وآثروها هذا الإيثار ، مدعاةً — ولا ريب — للزيادة فى نفور الكثرة الساحقة من المشركين من الدين الجديد ، كما يُخشى من التحريم فضّ القِلة المناصرة من المسلمين عنه وتفتير حماستهم له .

فما الذى كان من الإسلام ؟

كان أن أُنزلت — مع هذا جميعه — الآية الكريمة بتحريم الخمر . وكان نزولها فى ساعة عصيبة فى تاريخ الجهاد ، والحرب بين المسلمين والمشركين سجال ، ولمّا ينحسم بين الفريقين قتال .

ونحن إذا ذكرنا ذلك ، ثم تأملنا ما كان بعده من اختلاف المسلمين فى مداول الخمر منذ أيام الصحابة اختلافاً لم يقع مثله فى أمر من الأمور التى وقع فيها الحظر ، ثم رجعنا إلى ما استحدثه المتصوفة من ادعائهم الوصول إلى الله ، وأن الواصلين ترتفع عنهم التكاليف وتحل المحظورات وفى طليعتها بنت الحان من يد ساق رائع الحسن فتان ، ثم استحضرنا إلى ذلك كثرة ما فى كتب الأدب العربى من صفة مجالس الشراب ومواقع الحانات ، وما ورد فى ذلك من الأخبار والأشعار قبل أبى نواس وبعد أبى نواس ، وإن تكن إمارة الخمريات قد انعقدت له وانتهت رياستها إليه غير مدافَع ولا منازَع . . . أقول ، إذا نظرنا فى هذا جميعه ، شعرنا بعظمة هذا الدين الذى انفرد دون سائر الأديان ، بأن ضرب التحريم على بنت الحان ، وهذا شأنها عند الناس فى عامة الآفاق والأزمان .

ولا أحسبنا — فى آخر الأمر — واجدين ما هو أبلغ بياناً عن فتنة الخمر من قول الإمام مالك : « حُرّمت الخمر ، ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها ، وما حُرّم عليهم شىء أشدّ من الخمر » .

وليكن هذا القول الفصل كلمة الختام ، فى تصوير عظمة هذا الموقف من مواقف الإسلام .

ثبت المراجع

ديوان أبى نواس	لجامعه حمزة الأصبهانى
أخبار أبى نواس	لابن منظور
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
مروج الذهب	للمسعودى
نهاية الأرب	للنويرى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
وفيات الأعيان	لابن خلكان
معجم الأدباء	لياقوت الحموى
رسائل الجاحظ	
التاج فى أخلاق الملوك	للجاحظ
الحيوان	للجاحظ
محاضرات الأدباء	للراغب الأصبهانى
زهر الآداب	للحصرى
المستطرف	للأبشيهى
فصول التماثيل	لابن المعتز
حلبة الكميت	للنواجى
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكى
تذكرة أولى الألباب	« «
المخصص	لابن سيده

صحيح البخارى بشرح الكرمانى

الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم

الملل والنحل	للشهرستانى
مسالك الأبصار	للعمرى
معجم البلدان	لياقوت الحموى
فتوح البلدان	للبلاذرى
تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
الكامل	لابن الأثير
الفخرى	لابن الطقطقى
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادى
تاريخ التمدن الإسلامى	لجورجى زيدان
المطالعات	لعباس محمود العقاد
حديث الأربعاء	لطه حسين
فجر الإسلام وضحاه	لأحمد أمين
حضارة الإسلام	لجميل نخلة المدور
الحضارة الإسلامية	لمتز ترجمة أبى ريده
الديارات النصرانية	لحبيب زيات
مجلة الهلال	العدد الخاص بأبى نواس

وغير ذلك من البحوث العربية والإفرنجية محدثة وقديمة .

ولا يشمل ثبت المراجع طائفة من المباحث القيمة التى صدرت بعد نشر هذه الدراسة فى طبعتها الأولى .

الفهارس

فهرس الأعلام

ويشمل أسماء الرجال والنساء والأمم والقبائل والعشائر والفرق الدينية

ب

ت

ث

ج

ح

ز

س

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

فهرس الأمكنة

من بلاد وأنهار وجبال وقصور وأديرة وبيوت قيان وحانات ومعاصر

ا

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

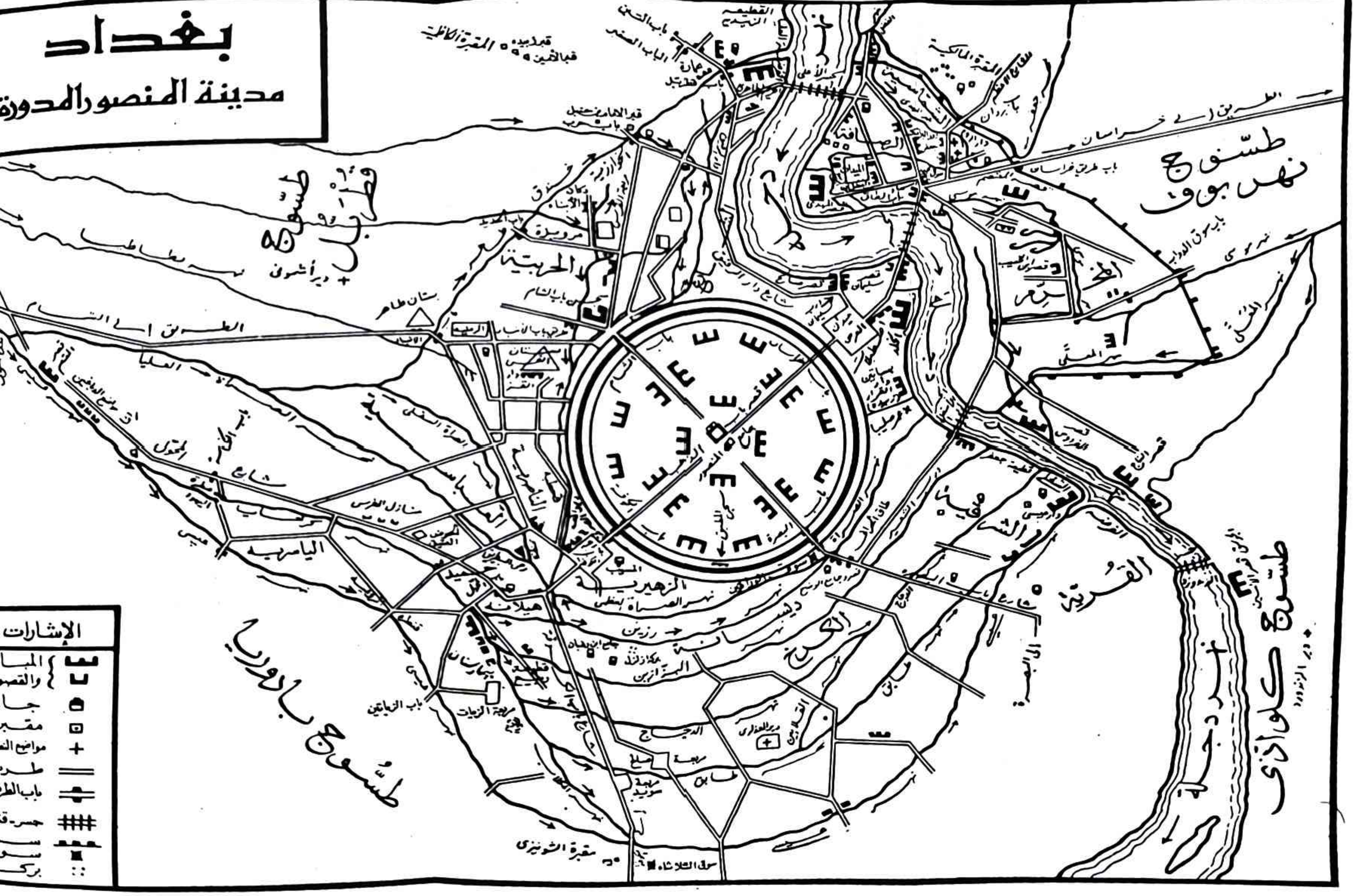
ن

فهرس الأعياد

فهرس اللوحات الملونة

للفنان : حسين بيكار

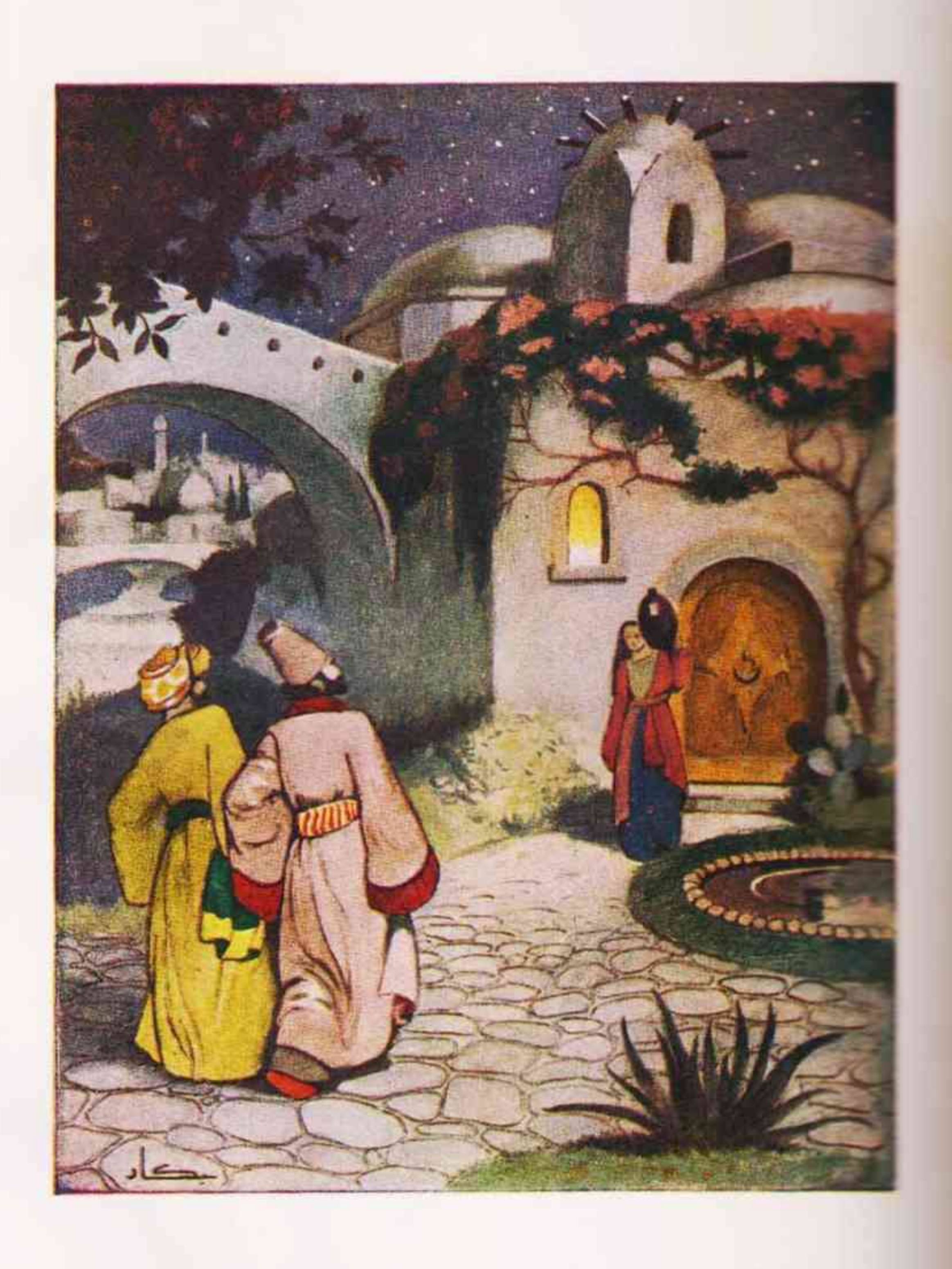
فهرس الخرائط



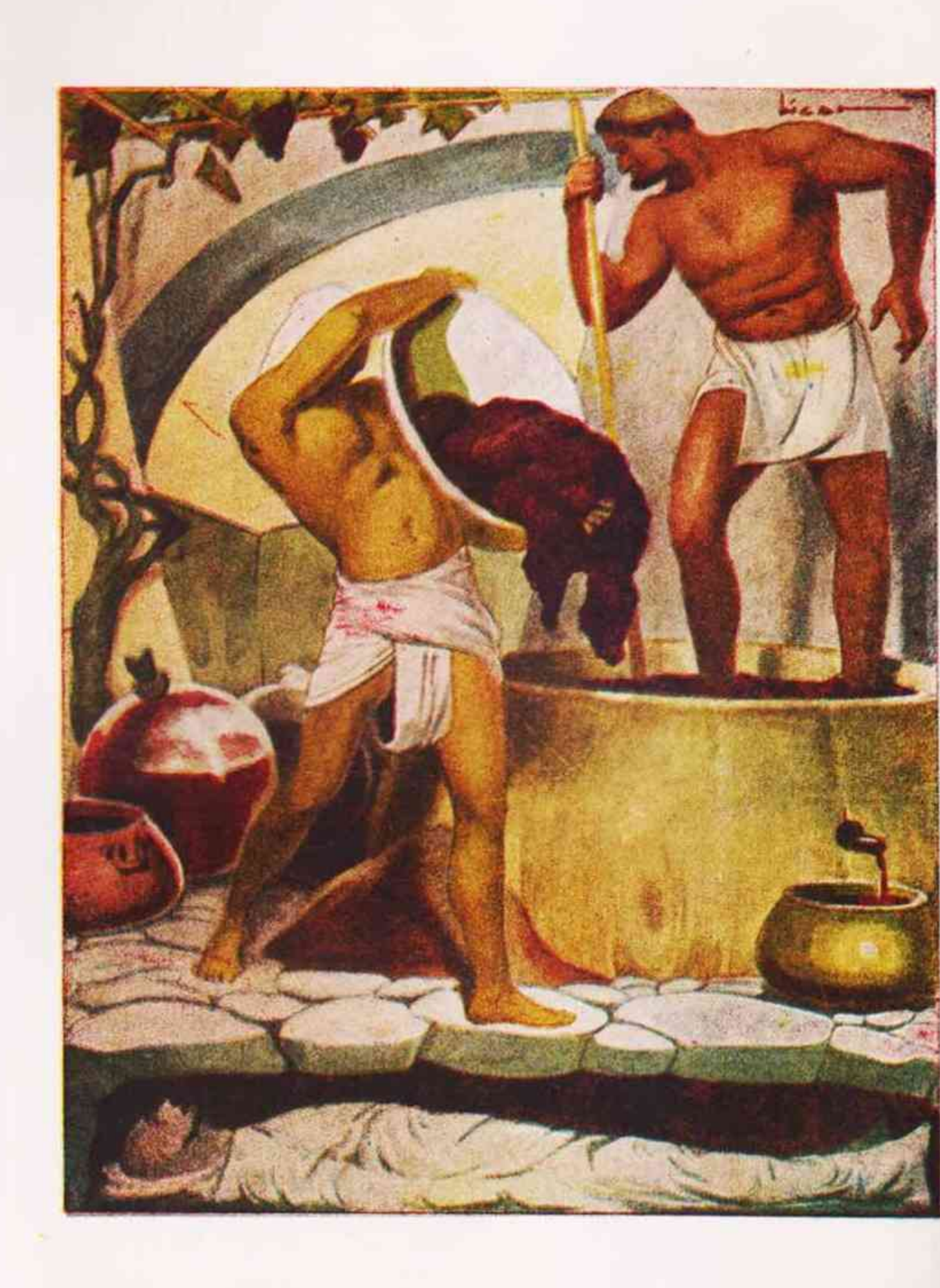
بغداد
مدينة المنصور المدورة
الإشارات
طسوج قطربل
دير أشموني
نهر بطاطيا
بستان طاهر
الطريق إلى الشام
الحربية
طسوج نهر بوق
الطريق إلى خراسان
الرصافة
نهر المعلى
نهر دجلة
طسوج كلواذى
دير الزندورد
القرية
الكرخ
الزهيرية
نهر الصراة
الياسرية
الدجاج
طسوج بادوريا
مقبرة الشونيزي
سوق الثلاثاء
المقبرة الكاظمية
باب الزياتين

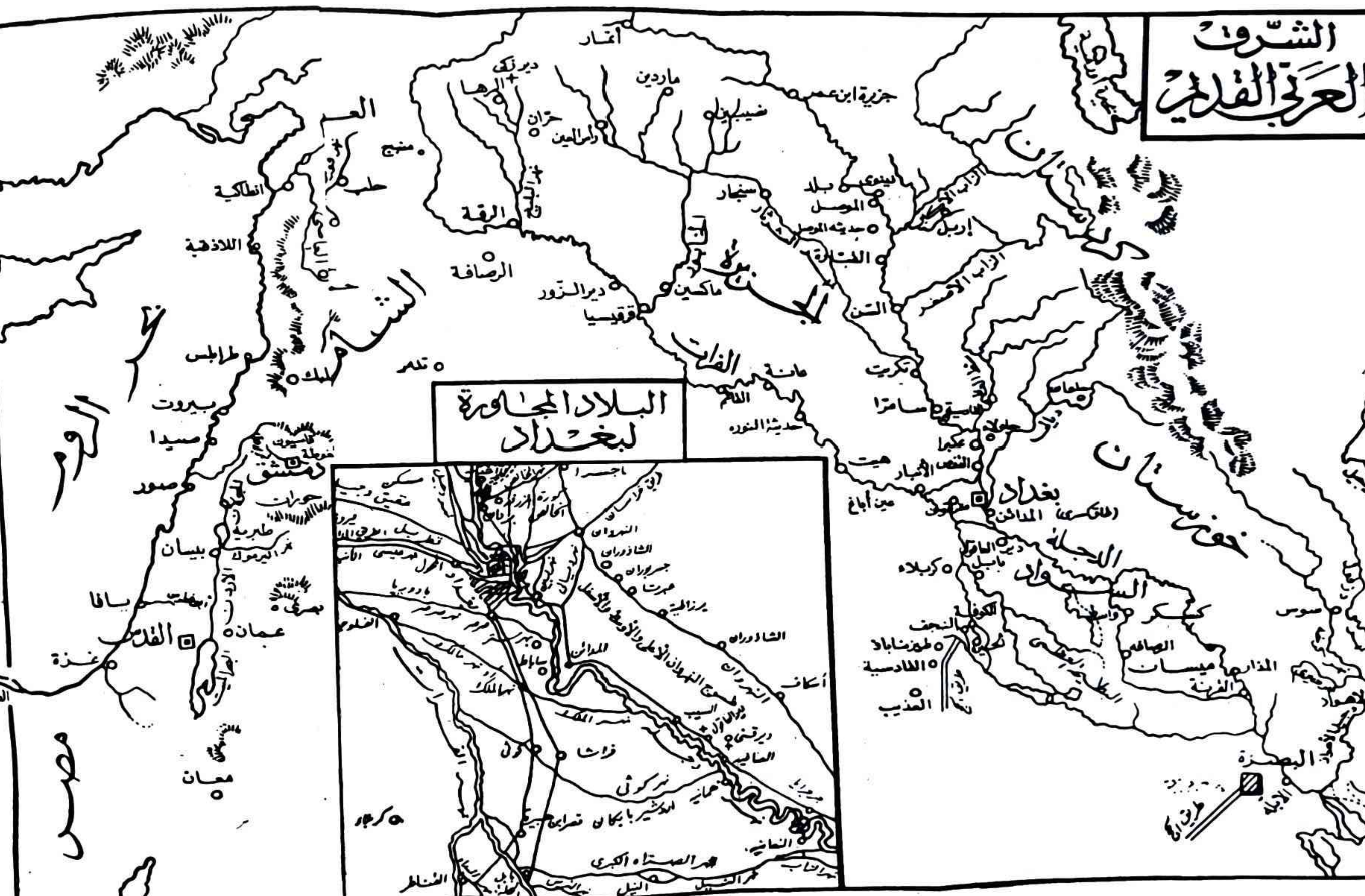
فهرس الموضوعات

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

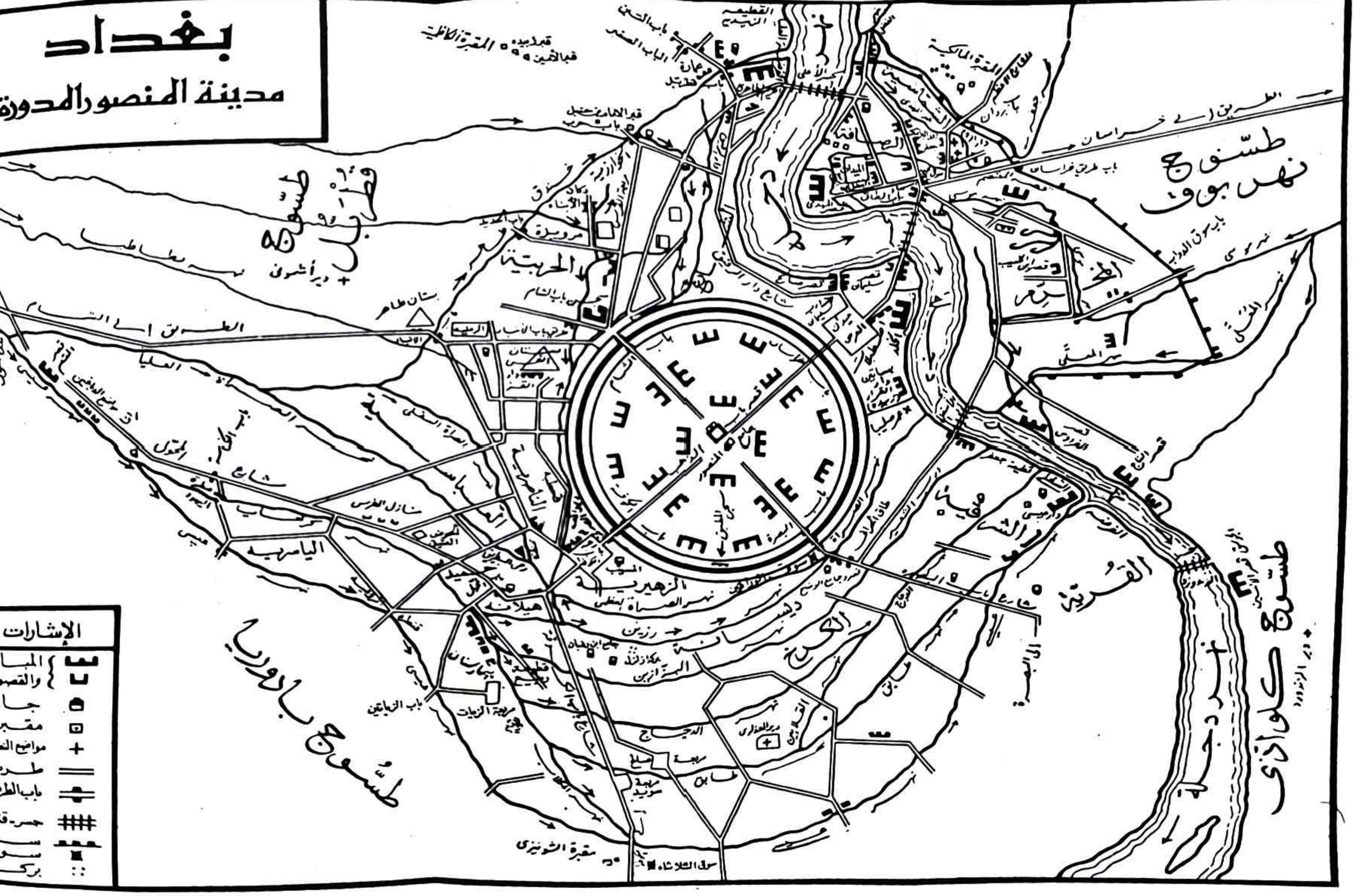








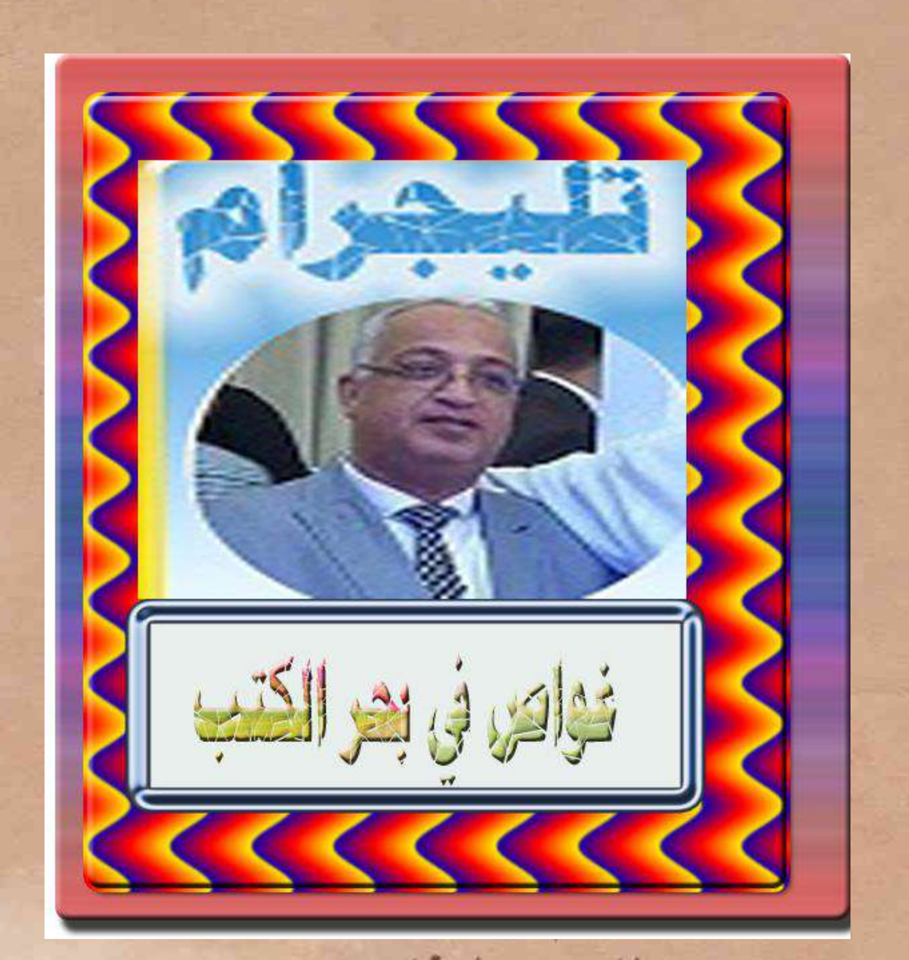
الشرق العربي القديم
البلاد المجاورة لبغداد
بحر الروم
مصر
الشام
الجزيرة
الفرات
الدجلة
السواد
خوزستان
انطاكية
اللاذقية
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
دمشق
حوران
طبرية
بيسان
نهر اليرموك
يافا
القدس
عمان
غزة
معان
منبج
حلب
تدمر
الرقة
الرصافة
حران
الرها
ديركي
رأس العين
آمد
ماردين
جزيرة ابن عمر
نصيبين
سنجار
بلد
الموصل
حديثة الموصل
إربل
تكريت
سامرا
ماكسين
قرقيسيا
دير الزور
عانة
حديثة النورة
هيت
الأنبار
عين أباغ
بغداد
المدائن
كربلاء
الكوفة
النجف
القادسية
العذيب
واسط
كسكر
الصالحة
ميسان
المذار
القرنة
البصرة
الأبلة
سوس
طريق مكة



بغداد
مدينة المنصور المدورة
الإشارات
طسوج قطربل
طسوج نهر بوق
طسوج كلواذى
طسوج بادوريا
الطريق الى خراسان
الطريق الى الشام
نهر دجلة
الحربية
الكرخ
القرية
الياسرية
الزهيرية
البزازين
مقبرة الشونيزي
سوق الثلاثاء
بستان طاهر
الرصافة
نهر عيسى
نهر الصراة
الى البصرة
دير الزندورد

عبد الرحمن صدقي

ألحان الحان




تليجرام
هنا
سور الأزبكية